- مستوحاة من أحداث حقيقية -

أَعْوَامُ الضَّبَاب

بَسَمات.. وعَبَرات.. وبسمات ذات عَبَرات..

رواية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: أعوام الضباب، رواية

المؤلف: خالد بيومي فهمي

تنسيق وتصحيح لغوي: مجموعة التدقيق اللغوي

الطبعة الأولى: ديسمبر ٢٠٢٠

تصميم الغلاف: عمَّار جمال العبد

موديل الغلاف: ماسة

مشروع النشر الحُر

رقم الإيداع: ديسمبر / ٢٠٢٠

جميع الحقوق محفوظة

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزءٍ من هذا الكتاب؛ بأيَّةِ وسيلة تصويرية، أو الكترونية، أو ميكانيكية؛ بما فيه التسجيل الفوتوغرافي، أو التسجيل على أشرطة، أو أقراص مقروءة، أو أيَّةِ وسيلة نشر أخرى؛ بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذنٍ خطيٍّ من الناشر.

أَعْوَامُ الضَّبَاب

بَسَمات.. وعَبَرات.. وبسمات ذات عَبَرات..

رواية

خالد بيومي فهمي

مشروع النشر الحُر

كَبُرتُ أنَا.. وهَذَا الطِفْلُ لَمْ يَكْبُـرْ

هشام الجخ

شاعر مصري

كلمة..

اِلتقيت زين - بطل هذه الرواية - منذ بضع سنوات، تحديدًا في عام ٢٠١٤، حين حكى لي قصته المُذهلة، والتي ظلَّت طيَّ صَمْتِهِ لأكثر من عشرين عامًا خَلَتْ أو تزيد، شقاءً وتعبًا من حكيها، أو حتى الكلام عنها، قبل أن أشقَّ صدره، بجدِّ وصفه، لأخرج بما خرجت به؛ أحداثٌ كنت أظنها يومًا حبيسة شاشات السينما والتلفزيون، ومشاعرُ لم أكن أظن أني سأختبرها إلَّا في القصص والحكايات. هي قصةٌ أشكر الصدفة التي جمعتني بصاحبها، وأشكر القدر الذي اصطفاني لكتاباتها، وفوق ذلك امتنانٌ لسنواتٍ ثلاث لم أشقَ فيها بالكتابة بقدر ما شقيت بالتجويد والتنقيح والتعديل، سعيًا للوصول للصورة الأمثل والمعنى الأصدق.. إلَّا أن تلك كانت الخُطوة الأكبر..

الكاتب

تنويه

جميع الأماكن والأسماء الواردة بهذه الرواية مُسْتَعَارة وليست حقيقية، وأيُّ تشابهٍ بينها وبين أماكن أو أسماء أو أحداث بعينها فإنما هو من قبيل الصُدفة.

إهداء

إلى دُموعِ أمِي وشَغَفِها ولَهْفَتِها وهي تَبحثُ عنّي كلَّ صباحٍ في أرجاءِ المنزل..

إلى إخْوَتِي، ليَعْرِفُوا أن غيابي لم يكن كَذبة، فبعضُ السفرِ سفرٌ وإن كان بين أربعةِ حوائط، وأقسى السجون تلك التي لا جدران لها..

إلى حبيبتي في الماضي، ورَهَقي في الحاضرِ، وزوجتي في مستقبلٍ لم يأتِ..

إلى كُل مَنْ صَفَعوُني بكلامهم قبل أَكفِّهم، وطَرَدُونِي من قُلُوبِهم قبل بيُوتِهِم..

وإلى أنا الذي كُنْته، ولم أعُده..

أَهْدِيكُم كلماتي..

بسماتي وعَبَراتي..

وعُمـْرًا.. كان داخل العُمْر.

القِسْمُ الأَوَّل

بَسَمات

- ١ -

لَمْ أَزَلْ أذكرُ تلك المشاعر التي اِسْتَعَرَت بداخلي حين رأيت عائِشة أول مرة..

كان ذلك منذ عامين في حفلٍ أقامته عائلتها بمنزلهم..

والمنزل كبيرٌ، فخمٌ، يمتدُّ على مساحة أكثر من ألفيّ قَدَم بأرقى ضواحي العاصمة. ثلاثة أدوار تحيطها حديقةٌ واسعةٌ رُصِّعت جوانبها باللمبات الملونة كما حُفَّ رواقها، المسقوفِ بأقواس الشجر حتى باب المنزل، بالزينات والأضواء. الحاضرون كانوا أصدقاء وأقارب، من بينهم أهلي؛ أمي وأختي داليا، والتي تربطها بعائِشة زمالةٌ جامعية، وأختاي المتزوجتان واللَّتَان تربطهما بأختي عائِشة الكُبريين صداقةٌ تمتد لسنوات. صالتان عظيمتان، إحْدَاهما تَعجُ بالرجال، والأخرى تَغنجُ بالنساء، والناس كثيرة، والصخب زائد، والجلبة عظيمة، والخدمُ رجالٌ وغلمانٌ لا تكاد تشعر بهم وهم يَلْتَمِسُون طرقهم بأدبٍ جم بين الواقفين والجالسين والعابرين، حاملين صواني الفاكهة والطعام وأكواب الشاي والقهوة والعصائر بين الصالتين ذهابًا وإِيابًا.

أذكر أني حين لمحتها من فُرجة الباب الضيقة تلك، ومن تلك الزاوية التي قُدِّر لي في تلك اللحظة بالذات أن أقِفَ بها، أخفضت رأسي بآليةٍ -كما هو المُتَّبَعُ إذا عبر النساء عفوًا من أمام صالة الرجال أو العكس - مُشِيحًا بوجهي، أو هكذا ظننت، لأني ومع ذلك لم أزل أرى، فقد تبين لي أنَّ كلتيهما، العين والرأس، ظلَّتَا على وضعيهما، وكأن إشارات المخ حُبِسَتْ في منتصف الطريق، لتظل الرأس على ارتفاعها، والعين على اتساعها، وليتوقف كوب العصير وهو في منتصف الرحلة لفمي، فتطول اللمحه، وتمتد، وتَتدَّله العين بما رأت.

حسناءٌ كانت، لها طلةٌ كالأميرات، هشةٌ كنسمةِ ربيع، بريئةٌ كطفلةٍ لم تَخبر الحياة، آنفةٌ كالملكات، متدللة كقُطيطة، عذبةٌ وناعمةٌ كحريرٍ غُزِلَ بأيدي الحوريات، ورغم أَنَّ عينينا لم تتلاقيا كما يحدث في مثل تلك الأمور غالِبًا، إلَّا أني شعرت بأن روحي، ومن بين أرواحِ الجالسين والواقفين والعابرين، صَافَحَتْ

روحها، بل وربما تعانقا عناقًا حميمًا رفيقًا وتبادلا كلامًا وحديثًا هامسًا. لم تنظر لي في حينها، ولم تلمحني، ولو لمحتني؛ لما تجرَّأْتُ وأطلتُ النظر، ولما أخذني خِدرُ اللحظة لأتملى في غمازتيها اللتين كانتا تنبضان كقلبي عصفورين إذ تتكلم، تغوصان في وجنتين يفترشهما الاحمرار القاني إذ تبتسم، وينحسر عنهما شيئًا إذ تصمت، قبل أن يختلطُ الاحمرار بخمرية وجهها في بحيراتٍ شفقية بالوجه. حين التَفَتتْ تعاشقت عينانا، فشقَّت نظرتها صدري كالرعد، فأيقنت أن ما انصدع بقلبي في تلك اللحظة على قسوته وعذوبته، وعلى حلاوته وعذابه، لم يكن شيئًا عابرًا عاديًا. حين غابت أفقت تدريجيًا، وكأني أخرج من حلم، فعادت الموجودات من حولي تسترد ألوانها، ويعلو الصخب من جديد. ورغم أن ما حصل لم تزد مدته عن ثوانٍ معدودات إلَّا أنه بدا لي وكأنه كان زمنًا كافيًا لأن أشعر وكأني آلف الجميلةَ منذ زمنٍ بعيد.

***

كان عمري وقتها أربعًا وعشرون عامًا، ولم تكن حياتي أهنأ بالًا وأكثر إقبالًا مما كانت عليه بتلك الأيام، أعمل عسكريًا بوزارة الدفاع، في وظيفةٍ ترقيت فيها بالدراسات والأبحاث حتى صِرْتُ محاضرًا، أعدُّ المحاضرات التي يحضرها مناصبٌ من مختلف أركان الجيش، وأُختير لمهامٍ تسلَّمت في أكثرها خطابات شكرٍ وتقدير من القادة. كان العملُ هو همي، والترقي فيه هو شاغلي، لكني، ووسط صخب الحياة ومشاغلها، وكأن بي جزءٌ مفقود، يلحُّ استكمالًا، ويطرقُ طلبًا، ليروي ظمأً لم يروِ يومًا، ويُشْبع ذلك الشغف الذي أسمع عنه وأراه في الأفلام.. شغف الحب.

وكانت ربطت بيتنا ببيت عائِشة قبل ذلك بأعوامٍ أواصرُ الصداقة والوُّد، فأختاي الكُبريان صديقتان حميمتان لأختيها الكبريان، فقد شببتُّ على تزاور الجمعان في مناسباتٍ مختلفة فضلًا عن التنزه في أيام العطلة، قبل أن تجمع الأواصرُ بين شقيقتي الصغرى داليا وبين أيقونتهم عائِشة، فكلتاهما في نفس الجامعة، في نفس الكلية والقِسم، وحتى صارت داليا مع الوقت، هي أفضل الصديقات لعائِشة وأكثرهن قربًا، وذلك قبل أن تُكَلِّلُ الأواصر بأن جمعتني برائد.. شقيق عائِشة.

ورائد مليحٌ، رزينٌ، هاديءُ الطباع، تخرَّج من كلية الشرطة قبل بضعة أعوام ليكون امتدادًا لعائلته الضالعة في السلكين الدبلوماسي والقضائي، والتي بدأها الأبُ - رحمه الله -كوزير نافذٍ في الحكومة وأكملها

الإخوة والأعمام كضباطٍ وسفراء وقُضَاة. كانت فقط المناسباتُ كالأعياد وحفلات التخرج والنجاح والترقي في العائلتين هي ما تجمعني برائد، وكان التكلف من ناحيته - مع الكل وليس معي فقط - هو سيد الموقف. وإن جمعنا كلامٌ فليس أكْثر من حديثٍ قصيرٍ في أيٍ من الشئون العامة التي يتحاكى بها الناس، وذلك قبل أن تزداد اللقاءات صُدفةً حين صِرْنا نجتمع في مَجْلِسٍ[١] صديقٍ مُشتَرَك يُدعى محمد الجيَّان.

والجيَّان يصغرني بثلاثةِ أعوام، سمينٌ قصيرٌ، فَكِهٌ دائم الضحك والسخسخة، بوجهه أُلفةٌ تجذبك إليه كأنه أحد أقاربك، اِعْتَدْنَا الذهاب أيام الخميس لمجلسه الذي يجتمع فيه ما يقرب من عشرين من أصحابنا، وهو الابن الأوحد لوالدين رُزِقا بثلاث بنات، ولأجل طبيعة عمله بإحدى الشركات الأجنبية كان يُضطرُّ للتغيبِ عن البيت لأيامٍ وأسابيع، فكنت أنوب عنه من بين الجميع في زيارة والدته ووالده المُقعد وتلبية طلباتهما ومشاويرهما، وما كنت أسمع أن لديه مناسبةً عائلية حتى أرافقه عنوةً، قافزًا هنا وهناك لأنسق المواعيد وآتي بالطلبات وكل نواقص الحفل، فلا يتوقف مسعاي حتى أتأكد أن كل شيء في أبهى صورة، حتى أن والدته كانت تسرُّ إلي دائمًا بأني من بين رفاق الجيَّان صديقها الصغير، وحبيبها، وابنها الذي لم تنجبه، داعيةً لأمي بالصحة وطول العمر وأن شكرًا زين، وبرغم أن الجيَّان كانت له الحظوة الأكبر في قلبي إلَّا أن هذا كان ديدني مع أغلب الأصحاب، فكلِ واحدٍ منهم أخي، كتفي بكتفه، سندٌ له، كما أنهم أيضًا كانوا سندًا وعضدًا لي.

ثم كان هذا اليوم.. ففي أثناء قيادتي على إحدى طرق السفر السريعة انقلبت بي السيارة، لأُنقل بعدها للمستشفى الذي أمسى بين يومٍ وليلة مؤتمرًا صغيرًا من أمي وإخوتي ورفاقي ورفاق رفاقي، لكن الأغرب كان رائد، والذي كنت أظن أن زيارته لي إنما هي من قبيل الواجب وانتهى، إلَّا أني فوجئت بمكوثه معي هذا اليوم حتى بعد رحيل الكل، بل وبزيارته لي لثلاثةِ أيامٍ متتالية كنت فيها بالمستشفى. خلال كلامنا، والذي لم يكن متكلفًا هذه المرة، ألفيت فيه وجهًا لم أكن أظنه موجودًا، ذلك الحالم العاطفي المتواري خلف صورة عزم على تصديرها للجميع، طوعًا أو جبرًا، لضابط راسخٍ ثقيل لا يتقبل الآخرين بسهولة ولا يتكلم

---

[١] ساحةٌ واسعةٌ ملحقةٌ بالمنزل، لها مدخل خاص بها، مخصصة لاستقبال الضيوف والأصدقاء، لتبادل الحديث أو مناقشة الأمور.

إلَّا بحساب. ثلاثة أيامٍ كنا فيها نفضفض ونتكلم عن أي شيء وكل شيء، وكلمني هو فيها عن الحب والحياة، حتى أني أخبرته مرة بأنه كان يجب أن يكون شاعرًا أو عازِفًا، لا ضابط شرطة.

أَقبلت على رائد كثيرًا كاسرًا تحفظه، بعد أن عزيت عدم اقترابه من الناس ربما لانتقائِه من يدخل محيطه وحياته، اتخذت صداقتي له منحنىً قياسيًا بعد أن صعدت سُلَّم قلبه متغلباً على آخرين عشَّشُوا فيه لزمن، آخرون كان يلمزون ويهمزون أن كيف لابن الوزير الثري ذا العائلة النافذة أن يكون أقرب أصدقائه واحدٌ من المجتمع السائد، لم أكُن أغضب بهذا الشأن كثيرًا بقدر ما أغضب إن وصمَ أحدٌ رائد بسوء، ولو مُزَاحًا، فلن أنسى تلك المرة التي تشاجرت فيها مع أحدهم لأنه نعت رائد وسط الكلام بالمغرور المتكبر، لم أخبر رائد بأمر المشاجرة، لكنه عرف وفاجأني بضحكةٍ طويلة طلب مني في نهايتها ما يبدو أنها رسالةٌ مسجلة بهذا الشأن: أن أمسك عليك ثباتك يا زين ولا تضايق نفسك لمثل تلك الأمور، فأنا أسمع ما هو أكثر منها، ومن قبل حتى أن يكون أبي وزيرًا.

أمي هي أم كل واحدٍ من أصحابي، وأم كل واحدٍ منهم هي أمي، ورغم أننا كنا جميعًا شبابٌ فتيٌّ طولًا وعرضًا، خَطَّتْ فينا الشوارب واللحى ما خطته إلَّا أننا كُنَّا جميعًا في نظر أمهاتنا مجرد عيال، مهما علت مراكزنا وترقينا بوظائفنا في الشرطة والجيش والوزارات والسفارات مجرد عيال صغار، يغرُّها الشباب ويدفعها الهَوَج وتحتاج للنصح الرفيق كل الوقت. ووسط هذا كله كُنَّا ثلاثة، رائد والجيَّان وأنا، أضلاع مثلث لا يفترق إلَّا ليجتمع، تداعبنا الطموحات وتحدونا الآمال وتحملنا الأوقات متسامرين ومتزاورين ومتشاركين حكاياتنا سِرَّها وعلَنها، حُلْوها ومُرَّها، وفي ذلك كله تستقبلنا الحياة فاتحةً ذراعيها، بما تنطوي عليه من فَرَحٍ وبهجةٍ وأيضًا.. من مُفَاجئات.

***

في ذلك اليوم الذي رأيتُ فيه شقيقة رائد - عائِشة - لأوّلِ مرة وَخَزَني شُعورانِ مُتَنَاقِضَان، أولهما تأنيب الضمير أني قد تَلَصَّصت عليها مأخوذًا بخِدر اللحظة وضعفيِّ الإنساني، والثاني هو أن لذَّةَ ما حَدَثَ لم تُفَارِقْني قط، بل والأدهى أنها ظلَّت تُلِحُّ عليّ لأتصيد لحظاتٍ أخرى من اللقاء، ولا أعلم أهي سخرية

القدر أم رفقه! قسوته أم لُطفه! حين ابتعت سيارةً ليكون من بين المشاوير التي أقوم بها هو توصيل داليا إلى منزل عائِشة حيث تجتمع الصديقات على وليمةٍ تُقام كل خميس.

هكذا وجدتني، ورغمًا عني، في كلِّ مرةٍ، وبينما تتهادى عائِشة في رواق الحديقة لتستقبل داليا، أرنو إليها كالمنوَّمِ مغناطيسيًا؛ مُتأمِّلًا طلعتها، ومُتبحرًا في قسماتها، ومُلْتَمِسًا من بين معمعة القبلات والأحضان طريقًا إلى عينيها، ومُنصتًا لنغمة صوتها إذ تتبادل مع داليا حديثهما القصير المعتاد قبيل دخولهما المنزل عن مَنْ الذي لم يسأل عن مَنْ، وهذا الذي جفا ذاك، وذاك الذي تغيَّب عن هذا، ومن أتي اليوم من الصاحبات، ومن لم يأتِ، ومن اِعْتذر، ومن لم يزل في الطريق، وهي الأحاديث التي صِرت بتوالي الأسابيع أحفظها للحدِّ الذي عرفت فيه أسماء جميع الصديقات، بل وشئونهن وأحوالهن وترتيبات لقاءاتهن، وإذْ كنتُ أدعو الله في أسابيع تالية بأن يطيل طقس الترحيب هذا قدر الإمكان وبأن تُكثرا - داليا وعائِشة – الكلام، وتَسْخُوَا في الحديث، وبأن تُفاتح داليا عائِشةَ في أيٍّ من مواضيعها الكثيرة والتي وللغرابة تُسْهِبُ في حكيها بكل زمانٍ ومكانٍ إلَّا في هذا الموقف بالذات، فيُقال لها - عائِشة - بتلك الدقائق القليلة ما يجعلها تشهق دهشةً وتضحك كركرةً، وما يجعلها تسأل وتستنكر وتعترِضُ وتُعاتِبْ، وبأن تتسع عيناها وتضيقان، وتغوص غمَّازتاها وتطفوان، وبأن يُبعثر الهواء شعرها فيهوش للأجناب مرة، ويتدلى على جبهتها مرة، تزيحه مرة وتتركه مرة، لأطبع كل هذا في رأسي كأختام الهيئات الحكومية فأستدعِهِ طوال الأيام القادمة على مهلٍ وحتى يحين اللقاء القادم، وإذا ما انتهى طقس الترحيبات هذا كان يبدأُ لقائي، فتلتفت لي عائِشة مُرَحِّبَةً، واللفتةُ وإن كنت أنتظرها بفارغِ الصبر وأتوقعها بين لحظةٍ وأخرى، إلَّا أن هذا لم يكن يمنع رعدةً كانت تتلبسني كألطف تيارٍ كهربي مرَّ بجسدي منذ كنت طفلًا، تلوِّحُ لي ترحيبًا فألوح لها ترحيبًا، تبتسم لي فابتسم لها، تلوح لي وداعًا فأتمهل لأسْتبقيها ثوانٍ أخرى قبل أن أُلَوِّح لها بدوري وداعًا، لينتهي يومي وينتهي لقائي، فأنصرف بعد أن أستعيد روحي التي سيقت سَوْقًا ورائها حتى باب المنزل.

كانت تلك الدقيقة هي أثمن أوقات الأسبوع، والتي جاءت لا لتُسعفني بقدر ما تُزكي حِميةَ ما بدا أنها مشاعر ظننتني دفنتها تحت أرتالِ العمل وشواغل الحياة، كنت أفعل ما أفعله مَدْفوعًا بظمأ العين والقلب، ومُسَيَّرًا لقدري الذي لا حيلة لي فيه. يومٌ بعد آخر وأسبوعٌ تلو آخر، كانت عائِشة تتوغل في مسام

جسدي وعقلي، تندسُّ، رغمًا عني، في كل ذرةٍ، حدَّ أن جرعتي الأسبوعية للقائها لم تعد كافية لاستمرار الحياة. لم أعد أشعر بوخزِ الضمير فيما بدا أنه صارَ يُشارك باقي أعضائي بهجتها مُنْسحقًا تحت لذَّة الشوق ووطأة الإلحاح، صار الخميسُ لي عيدًا، وصارت كل أيامي في البُعدِ مأتمًا، وكانت داليا تستغرب لهفتي على توصيلها لصاحبتها أنا الذي لم يكن يعنيني اصطحابها إلى أي مكانٍ من قبل، فكيف صِرت هكذا فجأةً ذلك الأخ الودود الكريم الذي يقوم بتوصيلها هذا المشوار بالذات دُونًا عن كل المشاوير التي تطلب فيها العوْن والمساعدة؟! ويتجاوز عن كل حكاياتها لكنه لا يصغي إلَّا لتلك التي من عائِشة أو مع عائِشة أو عن عائِشة. كان كابوسي أن تعتذر داليا في أحد أيام الخميس عن هذا اللقاء، فإن ألمحت بذلك - مجرد تلميح - أتحول في لحظةٍ لواعِظٍ يعمل على ترغيبها في الذهاب، مُـتَعللًا بأن ما للصديقاتِ إلَّا بعضهن البعض، وأن للزيارات حسنات وثواب ومراتب بالجنة، وأن الترويح عن القلوب ضروريٌّ لمواجهة ثقل الدراسة والإمتحانات، كما أنه يُطيل العمر ويُقويّ المناعة ويمد الجسم بكل تلك المواد المهمة التي لا أدري عن أيّها شيئًا.

ورغم قلة دقائقها فإن تفاصيل كل اللقاءات كانت بالنسبةِ لي عظيمة الدَلَالَات، مراجع تُعييني بالفحص والتدقيق، فأمضي الليل بطوله أفرز رسائل البسمات وومضاتِ الأعين، عساي أجدُ في لفتةٍ عفوية، أو ضحكةٍ زاد اتساعها، أو بسمةٍ تأنَّت قليلًا ما يشي بأنها - عائِشة - تُبادلني مشاعر ما، حينها كنت أقفز من مكاني: زين! ألم تنتبه؟! ابتسامتها يا زين! ابتسامتها هذه المرة كانت غير كل مَرَّة، إنها ليست ابتسامة المجامِلة العابرة التي تضوي وتنطفيء في لحظةٍ كفلاش الكاميرات، بل كانت أقرب للضحكة، فهل هي فرحةٌ أنك هنا؟ هل وصلها شيءٌ منك؟ فتبعث لك بالمثل إشاراتٍ خفية تُعييك بتفسيرها كما يحدث الآن؟ ولم لا؟ فقد بدا ذلك من عينيها الضاحكتين ومن كفِّها الذي علا في ترحيبه لمستوىً أعلى من كل مرة، ولمدةٍ أطول من كل مرة، أولا يدل هذا على الاهتمام بعض الشيء؟! ثم العطر يا زين! هل جاء تعطرها بهذا العطر صدفة؟ إنه ذلك العطر الذي اِمتَدحتُه أنت أمام داليا مرة عفوًا من بين عشرات المرات التي اِدَّعيت أنها عفوية قائلًا أنه أروع من كل عطورها والتي كنت تصفها أيضًا بالجميلة والرائعة والتي ليس لها مثيل، فهل علمت عائشة بإعجابك بهذا العطر بالذات لهذا تَعَمَّدَت الخروج به للمرة الثانية؟

ألهذا تقدَّمَتْ منّك عدة خطواتٍ أكثر لتنفحك بما فاح منها؟ والسؤال الأهم؛ هل جُننت يا زين؟! أم أنك في طريقك للجنون؟!

لعامين كالدهر أحببت عائِشة.. حُبًّا كتومًا صموتًا، لم أُسرُّ به إلَّا لنفسي وجنبات غرفتي، ولم تحمل سجلاتُ العشقِ فيه أيَّ عباراتٍ للغزل أو الشوق، ولم تُصْخَب هدأة لياليه بعبارات الحب والغرام، ولم تستَعِر نارهُ إلَّا بخيالاتٍ راحت تسرح بيني وبين نفسي، قِوامها بضع تلويحاتٍ وبسماتٍ وضحكاتٍ وانتهى. تركت نفسي، أو ربما هي التي تركتني، ليسقط كليّ بمرور الأيام والأسابيع والشهور في هذا الشغف سقوطًا حُرًّا، عشوائيًّا، ممتعًا، طويلًا، مؤلمًا، وليبتلعني في ذلك السقوط فراغٌ لا أعلم آخره.

- ٢ -

وبرغم قوة وعمق علاقتي برائد، إلَّا أني لم أصل قَطْ لمستوى الشجاعة الذي يؤهلني لمصارحته برغبتي في أخته، ليس فقط لأني لا أعرف كيف أكون "أنا" بالنسبة لها، وليس لأني لا أدري ماهية مشاعرها ناحيتي، بل لأني حتى كلما رتَّبتُ كلامًا ثَقُلَ لساني، وكلما قرَّرت موعدًا خانتني شجاعتي، وكلما استجمعت عزيمتي نسفتها ضحكات داليا شبه اليومية وهي تجلسُ إلى أمي لتحكي عشرات الطرف والنِكات من مصنع النميمة الذي تديره صديقاتها عن الذين تقدَّموا للزواجِ من عائِشة وسُلِخوا برفضٍ مبين. المُدهش - بل والمُخيف - أنهم جميعًا كانوا من عائلاتٍ نافذة، وذوي مراكز مرموقة، فماذا يعيبهم كي ترفضهم؟! وما الذي قد يُميّزُ زين عنهم؟! فحتى ولو حظيت أنا بجزءٍ خاصٍ في قلبِ رائد وحياته، فبالتأكيد من يتقدم للارتباط بأخته له اعتبارٌ آخر، أو اعتبارات يراها الكثيرون أسبابًا للرفض.. أو القبول.

وبالبيت كانت داليا هي أول من لمس تغيُّري حين بدأت تفتقد إنصاتي إليها إذ تتحدث وأجوبتي عندما تسأل، وأيضًا حين تَيَقَّنت بأن شرودي الذي بدأ منذ أشهر طويلة - ويزداد طُولًا وعُمقًا وغرابةً يومًا بعد يوم - ليس طبيعيًا، وأني ولا ريب أخفي شيئًا، وأن هذا الشيء في الأغلب ناعمٌ وجميلٌ ويحمل اسم أنثى، وداليا جامعيةٌ مجتهدةٌ بكلية الآداب، تصغرني بأربعة أعوامٍ كانت شفيعًا للتناطح بيننا حتى في أهونِ الأمورِ وأبسطها، تُسِرُّ لي بأسرارها وأُسرُّ لها ببعضٍ من أسراري مُقْنِعًا إياها بأنها كل ما أملك من خبايا، لذا فأن أخفي عليها شيئًا هذه المرة بالذات فإنما هو نقضٌ للعهد المستتر بيننا، بقلبها براءةٌ لا يَعِيبُها إلَّا إسرافها كثيرًا في الولاءِ لمن تحب، كما تُسْرِف في الإعراض عمَّن تكره، يُعيبها في حياتها الفضول، لكنه ليس الفضول في معناه المُطلق، فقط يوخزها أن يحدث قُربها وأمامها وخلفها ما تعجزُ عن ربطه ببعضه البعض، لهذا لم تتوقف أسئلتها وتلميحاتها في كل ما بان لها محل شك، أثناء تعطري أو سرحاني أو دندنتي بأغنية حميمة، أو حين أتأنَّقُ استعدادًا لتوصيلها لعائِشة، فأنظر للمرآة وأنا أصفف شعري مرَّة يمينًا، مرَّة يسارًا، لا بل للوراء، أم للوراء مع ميلٍ بسيط للجانب الأيمن، هل يبدو شكلي طيبًا؟!..

- طيبًا؟!

تمسحني من فوقي لتحتي: إلى أين أنت ذاهب إذن؟

- أوصلك لصاحبتك.

- ثم؟

- إلى المجلس كالعادة.

- ثم؟

- لا شيء.

تُـقرِّبُ رأسها وهي تبالغ في استنشاق الهواء المُعطَّر بمحيطي: ألَّا تفكر قبل أن تجيب؟!

قلَّدتها في فعلتها: فكرت.. قبل.. أن.. أجيب..

- هذا العطر وتلك الابتسامة و"هل يبدو شكلي طيبا يا داليا"، "هل يبدو شكلي جميلًا يا داليا" لأجل رفاق المجلس؟!.. زين..

أُغْمِدُ اِصْبَعِي في جبهتها: لمصلحتك فقط، اريحي هذا الرأس قليلًا.

أما عمرو، أخي، فلم يكن بنفس فضول داليا، يَصغرني بثلاثة أعوام ويدرسُ بأحد معاهدِ الاتصالات والملاحة، شديد الاهتمام بلياقته البدنية، حيث يحرص على المداومة بصالة كمال الأجسام لثلاث مرات أسبوعيًا، لا يعنيه أي شيءٍ مما يحدث حوله إلَّا إذا كان يمسَّه بشكلٍ شخصي، مُجَادلاتي معه لا تنتهي في مواضيعَ تكرِّرُ نفسها في كل مرة، ولعل أكثرها كان حول اعتزازه بالغرب بشكلٍ مُفْرِط، غير أنه ليس الاعتزاز بشكله السطحيّ أو الشكليّ وإنما تقديره لقيمٍ لمسها راسخةً هناك من خلال أسفاره للسياحةِ أو التدريب، كإتقان العمل، تكافؤ الفرص، تقدير الوقت، واحترام الإنسان والإنسانية في العموم، وهو ما كان يستدعي دومًا مقارناتٍ حادة بين ما يجده في الخارج وبين ما يمر به هنا، وبين ما يراه في بلاد غير المسلمين وبين ما يعيشه في دار الإسلام، ما جعله ناقمًا على كثيرٍ مما يراه حوله. كان كابوسه المُقيم أن يُضْطَّر يومًا للذهاب إلى هيئةٍ حكوميةٍ لاستخلاص بعض الأوراق أو للتعامل مع موظفي الإدارات

والهيئات والوزارات، عند عودته نرى في تأَفُّفِه وسِبَابه ما مرَّ به دون أن يتكلم، كان يصرُّ على اصطحابِ أمي بنفسهِ إذا ذهبت إلى واحدةٍ من تلك الأماكن، ليكون حارسها الخاص وحائط دفاعها عن أي لغطٍ أو سلوكٍ لا تقبله قناعاته، وبرغم كل هذا يظل أفضل ما اكتسبه عمرو من طباعِ الجانب الآخر - بالنسبة لي على الأقل - هو ذلك الاحترام المريب الذي أعطانيه لمساحتي الشخصية! كُنت مُوقنًا بأنه يدري بما بي، وبمعاناتي، بل لن أستغرب إن أَدْرَكَ أني أعيش قصةَ حبٍ طاحنة، لكنه كان يترك لي حرية القول أو الكتمان، ولا يسأل طالما لم يبدُ عليّ أني سأمنح أجوبة، كنت فقط أرى في صفارِ ابتساماته - عندما أفيق من لحظات شرودي - رسالةً واضحة: حلِّق يا زين.. وعِش واحلم.. لن نلاحقك ولن نمنعك.. طالما لم تقتل نفسك.

***

وكانت داليا بالذات هي مَنْفَذي الأقرب لعائِشة، جاسوسي الذي لم يعلم بتجنيده قط، بثيِّ المباشر ٢٤ ساعة على قناة "يوميات عائِشة"، فقط كان عليّ أن اصطفى ذلك التردد الحرج الذي يرْوِي شغفي ولا يكشفني أمامها، فما كنت يومًا أظن أنه سيأتي اليوم الذي أجد فيه حكايات داليا عن يومها الجامعي - والذي يتشابه مع كل أيامها تقريبًا - مُمْتِعًا إلى تلك الدرجة، حتى أنها كانت تستغرب اهتمامي هذا كثيرًا، تحكي ولسان حالها يتعجب من انتباهي وإنصاتي لمواضيعها التي هي نفسها لا تجدها بكلِ هذا التشويق الذي يستلزمُ اتساعَ عيني وتدلي فاهي بتلك الصورة، ولو عَلِمَت ما بداخلي من شوقٍ لانتظار السيرة المأثورة لعجَّلَتْ في الكلام، ولما أطالت وثرثرت في غير ما يفيد. غير أن الأقسى هو عندما لا تحكي مُطْلَقًا، أو تحكي فقط عن امتحاناتها الموجعة، ومشاويرها الملحمية، ومحاضراتها الطويلة طول الزمان، أحقًّا؟! محاضرات وامتحانات ومشاوير! أهذا هو يومك حقًّا يا داليا؟! أين تبخر باقي اليوم؟! وأين عائِشة في كل هذا؟! ماذا فَعَلَتْ؟ وكيف كانت؟ فيم كلمتها؟ وفيم كلمتك؟ أين التشويق؟ أين الأحداث الجِسام؟ وكان هذا ما يدفعني دومًا لإثارةِ زوبعة الحديث من جديد عسى الجمل تدؤلج بعضها لبعضٍ فتأتي السيرة المُحَبَّبة:

- وكيف كانت محاضراتك اليوم بالجامعة يا داليا، جَيّدة الحمد لله؟ أسألها بينما نجلس جميعًا على مائدة الغداء.

- نعم، نعم، كباقي الأيام، أنت تعرف.

- وهل استفدتِ منها ومما قيل فيها؟

- آه طبعًا طبعًا، استفدت حمدًا لله.. بالمناسبة يا أمي؛ لن أستطع القيام بهذا المشوار في هذين اليومين بالذات لضغط الدراسة والمذاكرة، فالإمتحانات بعد أسبوعٍ واحد، والمكان بعيد جدًا، كما أن....

ثم أعذارٌ أخرى يتم رصها لأمي وراء بعضها بلا توقف، فتصرُّ أمي أكثر، فتلح رانيا أكثر وأكثر، فتعرض أمي الأمر على عمرو، فيفكر عمرو، يتململ عمرو، يقبل عمرو، ثم الكلُّ يُكمل طعامه في رضا.. وسط هذا أُغرّدُ وحدي مُنفردًا:

- وهل قمت إذن بتدوين تلك المحاضرات التي تقولين أنَّك استفدتِ منها الحمد لله؟

ثلاث ملاعق تتوقف عن الأَكل..

- ما بك اليوم؟! تستغرب داليا.

- فقط اطمئن عليكِ، أولا يحق لي؟! امتحاناتك اقتربت وتدوين المحاضرات هذه الفترة هو أهم ما في الأمر.

أُكْمِل وأنا أُوَزِّع نظريتي على الأعين بثقة:

- فالتدوين هو أول خطوةٍ للتحصيل والنجاح، لأنك لن تفهمي شيئًا إن لم تكتبي ما يُقال، فالمعلومات حين تكون مكتوبة يسهل استرجاعها، لكن إن لم تكن هناك معلومات مكتوبة فماذا تسترجعين؟ لا شيء طبعًا.

- آه طبعًا طبعًا، اطمئن يا زين، قد قمت بتدوين المحاضرات كلها حمدًا لله.

- كلها؟ كلها يا داليا.

- كلها يا زين كلها.

- أنت وكل زميلاتك قمتن بالتدوين الحمد لله؟

- كلنا دَوَّننا الحمد لله، أنا وآلاء وشمس وخلود وبدور وحفصة وأسماء وفاطمة. كلنا الحمد لله.

- وعائِشة؟

تَوقَّفَتْ فجأةً عن الأَكل وأَرَاحَتْ الملعقة جانبًا: عائِشة؟!

كححت محرجًا: أعني أنكِ لم تذكريها من بين دَوَّنَّ، وأنتِ في نفس الوقت قلتِ أن كلكن قد قمتن بالتدوين، أردت أن أتأكد فقط أن الجميع استفاد والحمد لله.

- نعم يا زين، عائِشة كانت من بين من دوَّنَّ! بل وأكثر واحدة استفادت من المحاضرات كانت هي، حتى أنها ستحاضر لنا بنفسها المرة القادمة، أَلَّا يزال هناك ما يؤرقك؟

- لا لا أبدًا، هكذا اطمئنَّ قلبي، الحمد لله.

انكفأت على طبقي وكأني لم آكل منذ عام، تلافيًا لنظرات داليا التي لم تتركني وشأني، كانت أمي تكتم ضحكتها، وأمَّا عمرو فكان يُكمل طعامه كرئيس دولة.

رائد أيضًا كان يحب، غارقٌ في حبه حتى النخاع، لكن حَالَهُ لم يتبدل كحالي بتلك السرعة، بدَا أنه كانَ حريصًا ألَّا يظهر عليه أي شيء، إذْ غَلَبَتْ مهنته لبعضِ الوقتِ على طبيعته الإنسانية، فبدا كطاووسٍ آنِفٍ يتعامل مع حُبِّهِ المكتوم وعذابهِ الداخلي كقضيةٍ حسَّاسة، يُخطِطُ ويدبر انتظارًا للحظة هجومٍ كلَّما سطرتها الرغبة مَحَاهَا الكبرياء، حتى فَاحَ شواءُ قلبهِ من الشوقِ المدَّخرِ والغرامِ المحتبس، فقامَ بالتنفيسِ عن نفسه في ذلك اليوم الذي انتهزَ فرصة مروري عليهِ، ليسحبني ويُجلسني عنوةً في حديقة بيته. سألني أسئلةً لم يكن صعبٌ من لهفتها أن أُشخصَّ حالته، ومستوى خطرها، وأن أعرف أن حبيبته هي رَهَفْ، شقيقة محمد الجيَّان، صح؟!..

اِتَّسَعَتْ عيناه: يا إلهي كيف عرفت؟! هل أنا مكشوفٌ لهذا الحد؟!

- على الأقل بالنسبة لي.
- هل أخبرت أحدًا؟! ويلك إن فعلت!
- ولِمَ قد أفعل؟
- هل يعرف غيرك إذن بهذا الأمر؟
- لا أعرف.
- يا إلهي! وكيف أتأكد؟
- دعنا نَسْأَل.
- نسأل؟!
- إن كان أحدٌ يعرف بحبِ رائد لرهف الجيَّان.

لم يَرُقْ له تعليقي الذي نفحته تلطيفًا، وشَرَدَ فيما يبدو أنه كان يتخيل تبعات انكشاف ما يحاول كتمانه، ألححت عليه ليتكلم، فطفق يحكي القصة المعتادة؛ أن كيف جذبته رهف منذ أشهر، وكيف أنها كذا وكذا،

وفعلت به كذا وكذا، حتى بَاتَ لا حول له ولا قوة، فصار ينتظر العزائم والولائم والمناسبات لتكون فرصته الوحيدة ليراها، ما جعلني أُتَمْتِمُ سرًّا أن ويلٌ لمقيمي المأدبات والحفلات من عذابِ الله لو فقط يعرفون ما يحدث لنا معشر الرجال من وقوعِنا في شِرَاكِها. كنت أجد رائد في حكيه صورةً مني، لكن أكثر بؤسًا وعجزًا، إذْ لم يحظَ مثلِي بقسطهِ الأسبوعي من الحب كما حظيت، أو على الأقل قسط منتظم، فعائِشة لم تكن تربطها صلةٌ قوية برهف، وإنما فقط بواحدةٍ من شقيقتيها الأُخريين، هكذا ظل شوقه - رائد - تحت رحمة مناسباتٍ تأتي أسبوعًا وتغيب لأسابيع، وهو ما جعله -كما قال - يُعاني أيَّما معاناة!

- معاناة يا رائد، تقول معاناة!

سألته إذ لم أكن لأسمح لأي شخصٍ في العالم أن يستهلك هذه الكلمة هكذا دون الرجوعِ إليَّ..

استلَّ نفسًا عميقًا: أيّ والله يا زين، وأية معاناة، وما أدراك أنت؟! ما أدراك؟!

جاء الخادم بالشاي، فوضعه ومضى، فظلَّ رائد يراقبه حتى غاب تمامًا قبل يمد جسده للأمام يبثني سره الخطير:

- لك أن تتصور مثلًا يا زين، مثلًا، وهذا مثال بسيط بالمناسبة، أن الليل لم أعد أنامه، والله لا أنامه يا أخي، تُلِحُّ عليّ صورتها لساعاتٍ وساعاتٍ إلحاحًا عجيبًا، فلا أفيق إلَّا على النهار يشقشق والمنبه يرن والناس تذهب لأشغالها، فكيف مكثت كل تلك الساعات في التفكير؟! لا أعلم، وحين مثلًا أكون في المخفر منتبهًا ومنشغلًا وحينًا متحفزًا وثائرًا وغاضبًا، يأتي اتصالٌ بأننا سنكون ضيوفهم على العَشَاء الأسبوع القادم، فأجدني وكأني أكاد أرقص طربًا وسط الناس، بل وأهدأ في ثوان، أقول لك في ثوانٍ والله، هكذا في لمح البصر، هكذا انظر - يطرقع بأصبعه - لا أعلم كيف يحدث هذا؟ ولا أدري أين كان مُخَبَّئًا لي كل هذا؟ أهو السحرُ كما يقولون أم ماذا؟! ما لي أراك مستغربٌ هكذا؟!

- من فظاعة معاناتك يا أخي، فعلًا خطيرة حالتك يا رائد.

- آهٍ يا زين، آه، لو أحكي لك ما بي، سأمكث أسابيع طويلة أقسم لك.

- اسمع إذن، حان وقت الجَدْ، تلك المشاعر نبيلةٌ جدًا وعظيمةٌ جدًا ورائعةٌ جدًا، الجيَّان سيرحب بك فوق ما تتخيل، أكررها لك سيرحب بك فوق ما تتخيل، بل ومن قَبْلِهِ والده ووالدته بكل تأكيد،

كما أن رهف لن تجد أفضل منك لتحظى به معها، وهذا يعني شيئًا واحدًا، وهو أن عليك أن تأخذ خطواتٍ فعلية.

- وماذا قد أفعل إذن؟ دُلَّني.

- وهل يحتاج الأمر لسؤال؟! كُن مباشرًا، حادث محمد على الفور.

خَبَتْ عيناه حين تخيَّل، وكان هذا حين جاءت مُدبرة المنزل لتُعْلِمنا بأن الغَدَاء جاهز، فقمت مع رائد إلى الصالة وجلسنا إلى المائدة، كان يأكل شاردًا، حتى أن دقائق طويلة قد مرت، وحتى ليبدو أنه نسي أن أحدًا برفقته، قطعت صمته:

- التفكير بتلك الكيفية متعب، والتردد سيهلكك، اِفعلها.

أفاق: آه، حسنًا، حسنًا، ربما.

- لا "حسنًا"، ولا "ربما"، بل ستفعل.

- إن شاء الله، إن شاء الله.

- المرة القادمة عندما نقابل محمد ستفاتحه في الموضوع.

- لا لا.. لا تشغل بالك، فيما بعد، فيما بعد. قالها وهو يلوّح بملعقته لامباليًا، وكأن الموضوع، فجأة، لم يعد يشغله.

- إذن متى؟

- قريبًا، حين أكون مستعدًا، فهذا الأمر يحتاج لبالٍ رائق وتفكير وترتيب، وفوق ذلك أن تلك مشاعر لم تزل في بدايتها، وأنا أريد التأكد منها لأني..

قاطعته: لا بال رائق ولا ترتيب ولا غيرهما، ومشاعرك ليست في بدايتها، أنت اِنشويت واِنقليت حتى استويت، أنا أحفظك أكثر من نفسك ولست تحتاج للتأكد من أيِّ شيء.

- حسنًا حسنًا، دعك من هذا الموضوع، كيف حال والدتك وإخوتك؟

- أنت أتيت بي إلى هنا لسبب، أنت كنت تحتاج لمن يستحثك، لمن يدفعك، لمن ينفخ فيك. تحتاج لمن يقول لك ما أقوله الآن.

تعلَّقت ملعقته في الهواء ولانت نظرته بعد أن صارت نيته مفضوحة. استمررت في كيِّ كبرياءه:

- كان من الممكن ألَّا تحكي مُطلقًا، وتنتظر الوقت المناسب الذي لن يأتي أبدًا. نحن من نهيئُ الأوقات لتكون مناسبة يا رائد، نحن من نطوِّع الظروف، ولو انتظرنا لحظةً بعينها فسنخسر كل الوقت الذي يمضي، هذا إن أتت تلك اللحظة، وصدقني، التردد هو أخطر أعداءنا، التردد قد يجعلك عالقًا في حلمك للأبد.

مِلت عليه هامسًا: أَشِرْ لي على أي شخصٍ، أي شخص، قد تجده أسرة محمد أفضل منك، كل لحظةٍ لك مع رهف أنت الأولى بها، كلاكما الأولى بها.

كان يرمقني بابتسامةٍ مشوَّبةٍ بالإعجاب، وكأنه لا يُصَدِّق أن هذا الكلام قد يأتي مني..

- إذن.. هل تعتقد..؟
- لا تُفَوِّتْ الفرصة.
- سأهاتفه إذن.
- الهاتف لم يُخلق لتلك الأمور.
- لا أصعب ولا أثقل من مثل هذا الموقف.
- ولو كنت وزيرًا لخالجك نفس الشعور.
- أتعلم ما هو أكثر ما يؤرقني، ليس الرفض ولا الإعتذار إن كنت تظن ذلك، بل فقط أني لا أجد البداية، أو فحوى الكلام الذي يجب أن يُقال في مثل تلك الأمور.
- لأنك لا تعرف كيف تطلب، لم تعتد وضع نفسك تحت نصل الـ "نعم"، والـ"لا".
- يا أخي ما أَحْلاك اليوم.
- وللأسف هذا هو عيبُ ساكني الأبراج العاجية، وكل من يتم تلبية رغباتهم، منذ ولادتهم، بإشارةٍ واحدة.

ضحك عاليًا قبل أن يتابع وقد زاد انتشاؤه: إذن أعتقد أني في البداية سأحتاج لاختيار اللحظة المناسبة، وقبلها طبعًا ترتيب الكلام، لن أقول كلامًا مُرسلًا مُرتجلًا، أتفهمني؟

- رائع، ها نحن ذا.
- إذن فكيف أبدأ؟

عَدَلْتُ من جلستي منتشيًا، وهَممتُ لأجيب، لولا أن فاح الجو بذلك العِطر، عطرُ أيام الأربعاء، برائحة زهرٍ لم يُخلق إلَّا لها.. عائِشة، نزلت على السلالم من الدور العلوي، ألقت سلامًا سريعًا ويدًا مُرَحِّبةٌ ونظرةً سأضمها إلى أرشيفي المتلوي عَطَشًا، قبل أن تكمل طريقها لباب المنزل، حين ولَّتْ عُدْتُ لرائد.. رأسًا فقط، أما الباقي فقد ذهب إلى حيث ذهب، راح هو يكمل كلامه لكني لم أنتبه، كنت فقط أرى فمه يتحرك لكني لا أسمعه، ربما لأني كنت في تلك اللحظة بالذات، وفي تلك الحالة بالذات، لم أكن مستعدًّا أن أسمع أي شيء منه غير أن فقط يسألني عمّا بي، أن يدفعني للكلام، تمامًا كما أفعل معه، أن يعطيني فقط إشارة البدء، ربما حينها، وعندما يضيق عليّ الخناق، كنت لن أجد سوى ذلك المفر الرحيم في رغبتي بالاعتراف، بعد أن أعياني الكتمان والإسرار.

لكنه لم يسأل، حتى في كل تلك المرات التي كنت فيها برفقته أبدًا لم يسأل، عن تبدل حالي وشكلي وهيئتي بمرأى عائِشة، وكأني بمرورها أوتيتُ مجالًا مغناطيسيًّا وضعني في حالةٍ من التوهان لم أستطع منها فِكاكًا. ليته سألني، ولو مرة، عن سرِّ بهجتي وسعادتي أثناء مشينا - أنا وهو - في رواقِ الحديقةِ قبيلَ دخولنا المنزل، وكيف لا؟!، فعائِشة تمرُّ من هنا، في ذهابها وإيابها، وأيضًا عندما تستقبل داليا كل خميس، وهو ما يجعلني أمشي مُحَاذِرًا على أحد جانبي الرواق، لا في منتصفه، أفعل ذلك لا إراديًا، وكأني أعطي خطواتها قدسية، ومجالًا ومساحةً كما لو كانت تعبر بالفعل. ليته، أيضًا، كان سألني عن سر فرحتي في تلك المرة التي آثر فيها أن نخرج بسيارة عائِشة بدلًا من سيارته، إذ لم أكن أصدق أني قد سأقترب لتلك المسافةِ من شيءٍ يخصها، تلمسه ويلمسها، أذكر أنه كانت هناك أوراق تخص جامعتها همَّ رائد ليلقيها بعفويةٍ على المقعد الخلفي متيحًا لي مكانا للجلوس، فوجدتني أقبض على رسغهِ بقوةٍ وأتناولها منه بحرص وكأنها عيّنات كيميائية خطيرة حين سأل واستغرب، فأخبرته أني فقط سأبقيها معي، لئلّا تقع أو يُبعثرها الهواء بالخلف، وطوال الطريق كنت أضمها إليَّ مواسيًا، ومُتَحَسِّسًا ذلك الجزء الذي كرمشه رائد، أفرده بحنوٍ ورفق، مارًّا بأصابعي عليه وعلى باقي الصفحات لعلي أصادف أناملها، أو لربما يعلق بي شيءٌ منها، من خلاياها وجلدها، عيناي طوال الطريق كانتا تتأملان مقعد القيادة الذي يجلس إليه رائد، وقبضتيه اللتين

حظيتا بالمقود، أبالغ كل بضعة دقائق في الاستنشاق عساي أصادف رذاذًا عالقًا من عِطْرِها، حتى أنه - رائد - كان يلتفت متعجبًا.. كان يتعجب فقط.. لكنه لا يسأل.. أبدًا لم يسأل.

- ها يا زين! يا زين..
- ها.. ماذا يا رائد؟..
- أين ذهبت؟!
- معك، معك والله.
- لم تخبرني إذن.
- أخبرك بماذا؟!
- إن افترضت أني سأتحدث للجيَّان، فكيف أصارحه؟ كيف سأبدأ؟ وماذا أقول؟

التفتُّ إلى الباب الذي أُغلق منذ لحظات، ثم عُدت إلى رائد ساهمًا.. ولم أرد.

***

بات السؤال: هل يدري رائد بما بي؟!.. هل يعرف بأمري؟!

أعني هل أنا مكشوفٌ له كما أنه كان مكشوفًا لي؟، وإن كان؛ فهل يتجاهلني مثلًا؟! لأنه موقن أني لن أصارحه يومًا بما أريد، بل لن أجرؤ حتى على التفكير في ذلك، وأن للأمر حساباتٌ أخرى لديه ولدي أسرته نافذة السلطة والنسب! لم لا تأتِيني إذن تلك الشجاعة التي أحاول زرعها فيه؟! لم لا تأتني تلك الجرأة التي أتغنى بها أمامه؟!، وهل إن فعل وتكلم مع الجيَّان ولقيَّ ما يسرُّه فهل أستطيع حينها استغلال نشوة فرحته، وبما سيكون لي عنده من حظوةٍ مُضَافَة، فأصارحه بأمري، فلربما تكون تلك هي فرصتي المثلى، فإن لم أبح حينها فمتى أفعل؟! هل عندما تحدث الطآمة الكبرى وترحل عني عائِشة؟.. عندما تتزوج!.. يا إلهي.. ما أرعبها من كلمة! هل من الممكن أن يحدث هذا؟! أن ترحل عنى هكذا؟! إلى شخصٍ آخر، والله لو حصل فلن أسامح نفسي أبدًا، وسأكون وقتها قد انتهيت، فعلًا انتهيت.

- اِنتهيت؟!

تهتف بها داليا وهي تجمع أطباق المائدة: ما بِك يا زين؟!، أناديك منذ دقائق فلا تُجيب.

- لم أنتبه، ماذا هناك؟

- هل انتهيت أم ماذا؟

ألقيت نظرةً على طبقي وعلى المائدة:

- لا لا ليس بعد، لا تحملي همًّا، سأتولى الأمر حين انتهي.

لَمْلَمَتْ باقي الأطباق وانصرفت فراقبتها حتى توارت، لأعود بعدها وأغرق في هواجسي من جديد، لولا أن تناهى إلَيَّ حديثٌ خافتٌ - أو بالأحرى رُوُعِيَّ أن يكون خافتًا - بين أمي وداليا في المطبخ..

داليا : هههههههه، اسمعي إذن، فما حصل كان....

أمي : وكيف هذا؟!.. معقول!.. لا.. لا.. لا.. هههههههه..

داليا: والله كما أقول لك.. هههههههه.. ذلك أن عائِشة لم تكن..

قفزة.. فالثانية.. والثالثة كنت في المطبخ..

حين دَلَفْتُ - وكمن يعرف وجهته جيدًا - فتحت باب الثلاجة دون تفكير، غطست برأسي داخلها، أعدت ترتيب المعلبات والأطباق، أغلقت الباب، فتحته، أغلقته، حَرِصْتُ ألَّا أقع في فخ الالتفات إليهما - أمي وداليا - وأنا أفعل ذلك، لا يا داليا، لن تنالي ما تريدين، لن أقع في أفخاخك، فلقد جئت تحديدًا للبحث عن شيءٍ ما، ما هو؟ لا أعلم، لكنه موجود في مكان ما، ربما في دولاب الأطباق، توجهت إليه، مررت بسبابتي على الأطباق كلها قبل أن أجذب واحدًا، تأملته، ثم أعدته مكانه، لم لا أبحث في الحوض؟ هو فارغ لكني سأبحث أيضًا، غريب، لم لا يتكلمان؟! تكلما بالله عليكما، أكملا، ها! ماذا حصل مع عائِشة؟ أو حصل بشأنها؟ سمعت اسمها، لن أُكَذِّبَ أذنيَّ، ما أغرب صمتكما! ما أقساه وما أثقله! لم يعد هناك شيء إلَّا وفتحته وأغلقته أو حملته وغيرت مكانه.

ثم حين طال صمتهما، وكحلٍ نهائي، اعتبرت أن مكان وقوفهما هو المكان الوحيد الذي لم أبحث فيه، فرفعت ظهري بعفويةٍ من انحناءاتِ البحث وهممت بالتوجه إلى حيث تقفان وكان ذلك حين لطمني

المنظر، إذ كانتا كلتاهما تنظران إليَّ بكامل الانتباه وكأنهما كانا في انتظاري، لا بل كانا في انتظاري فعلًا.. وربما كانا يتابعاني منذ دخولي، لا بل كانا يتابعاني فعلًا.. بدا ذلك من تحفزهما وابتسامتيهما التي لم تكن ذات مغزى.. بل هي المغزى نفسه.

- خيرًا يا زين، هل تبحث عن شيء؟

تقولها داليا وهي تتقدم مني بابتسامةٍ لا تحتملُ تفسيرين..

أنقذني الطبق الساكن بينَ يديَّ: جئت فقط لأغرف مزيدًا من الأرز.

نظرت داليا في الحوض: للأسف لا أرز في الحوض، ولا في دولاب الأطباق.

"نعم، طبعًا طبعًا" تمتمتُ بها وأنا أرفع غطاء أحد القدور:" امممم فهذا لحم". أعدت الغطاء قبل أن أزيح الذي يلية: "وهذا مرق". عندما هممت بإزاحة الغطاء الثالث صلصل في يدي من ارتباكي فسحبت داليا مني الطبق بلطفٍ قاتل ومن ورائها كانت عينا أمي تضحكان بدمعةٍ جعلتني أستغرب أن هل حاجتي للأرز مبكية لهذه الدرجة؟!..

أزاحت داليا غطاء القدر الثالث: "وتلك شوربة". أعادته ونزعت غطاء القدر الرابع: "وهذا هريس".

نظرت لي مواسية: زين.. يا حبيبي.. لا يوجد أرز.

أعادت لي الطبق: لقد كنت تأكل مكرونة.

- معقول يا داليا؟!

- تـخيَّل يا زين!!

- ٤ -

كنت أعلم أن قَوْقَعَتِي التي حميتها لعامين من الأسئلةِ والتلميحاتِ ستنشرخُ في أَحَدِ الأيام، إِمَّا بتوالِي الأسئلة التي ترصدُ حالي المتغير، وإِمَّا بفضولِ مَنْ حولي، هذا إِنْ لم يَضِقْ صَدْرِي وأَطْفَحُ بما أكتم. لكني لم أظن أنَّها ستنفجرُ يومًا بتلك الصورة المُكْسِفَةِ.

اِتَّضَحَ لي أن داليا كانت تُخبِرُ أمي عن حالِي المتَبَدِلِ لحظةً بلحظة، وأنَّ كِلتيهما كانتا تضعان الاحتمالات والفروض مُسْتَعْرِضَتَيْن سِرًّا أسماءَ البنات من الجيرانِ والقريباتِ والصديقاتِ عَسَاهُما تَصِلاَن لتلك التي تفعل بي تلك الأفاعيل، ومع كل اسمٍ كانتا تَنْصِبَانِ لي فخًّا، فإن وَقَعْتُ فهو ذاك الاسم وإِنْ لم أَقَعْ تتسع دائرة الشُبهات لِتَضُمَّ بريئاتٍ أُخْرَيَات.

هكذا في غُرْفَةٍ من غرفِ البيت كان مؤتمرنا الصغير، اِسْتِجْوَابٌ رحيمٌ من أمي لم تتركه داليا يمرُ بسلام، فقد كانت تلك هي فرصةُ الأَرِيبةِ الصغيرة لتجعلني أدفع باللحظات القليلة ثمن ما خَبَّأته عنها بالأشهرِ الطويلة، مُتَلَذِّذَةً بضَعفي وإِحراجي، وبانتصارها الكبير، فراحت تُحاكي أمام أمي، قولًا وفعلًا وقفزًا، عَشَرَاتٍ من المشاهِد التي كان يحدثُ لي فيها برؤية عائِشة كذا وكذا، وكيف أن شُرُودِي قد أوقعني في كذا وكذا، وما فعل الشوقُ ما فعله بذاك المغلوب على أمره. وكانت أمي تضحك مُمْتَصَّةً إِحراجي، ومُدَافِعَةً عني، ومُدَاعِبةً داليا بأن تترفق بي لئلا يُرَدُّ لها لاحِقًا ما يُفْعَلُ بي الآن، قبل أن تطلب منها أخيرًا أَنْ تَكُفَّ عن مُشَاكساتها فوقت الجدِّ قد حان، أَثْنَتْ أمي على عائِشة، وكيف أنها رائعةُ الجمال، حَسنةُ الخُلُقِ، ومن نسبٍ طيِّبٍ حسن السمعة والسيرة، وبناءً على ما سبق، فإنها - أي أمي - ستُحادث أمها التي بالتأكيد لن تجد مثلي ولا تربيتي ولا أصلي ولا أخلاقي.

قفزتُّ كالملدوغ: تربيتي! وأصلي! وأخلاقي! لاا لاا يا أمي، استحلفك بالله، لو أن هذا سيكون كلامنا وتلك طريقتنا فعلى الأمرِ كله السلام، فكل من سبقونا قالت لهم أمهاتهم قبلها ما أجملكم وما أحلاكم حتى عادوا بالخِذلان والخيبة، فكِّرا، كيف شِئْتما، في شيءٍ آخر.

اِنْفَعَلَتْ أمي شيئًا: ما بك؟! ولم أنت مُنْعَدِمُ الثقة هكذا؟! وهل تظن نفسك هيّنًا؟

- ليس الأمر كذلك، إنَّما أعني أن معالجتنا لهذا الموضوع يجب أن تكون بشيءٍ مِنَ الحكمةِ والتدبير، فأنا لوقتٍ طويلٍ كنت أُرَتِبُ للأمرِ محاولا تحين الفرصة المناسبة، ولا أريد فقط أن أقع في نفس الأخطاء التي وقعوا فيها مَنْ قَبْلَنَا.

- أي أخطاء تلك التي وقع فيها مَنْ قبلنا ومَنْ بعدنا؟! أوتلك أول مرةٍ أقوم فيها بتزويج واحدٍ منكم؟ دَعْ الأمرَ لي واطمئن، ثم رَكِّزْ على نفسك فقط ولاتعبأ بمن يأتى قبلك أو بعدك.

- يأتي بعدك!. تضحك داليا: ما أَحْلَاهُ من فَأْلٍ، هَا قَدْ أَتَاكَ الرفضُ مُقَدَّمًا.

سَهَمْتُ، وطَالَ السَهَمُ شيئًا، عاجلتني أمي: ليتني أعلم ما الذي يُقلقك لهذه الدرجة؟ أوليس هذا ما كنت تسعى إليه وتريده؟

- بَلَى، ولكني فقط.. كما قلت.. أُحِبُ أن أُرَتِب للأمرِ كما ينبغي، أن أعمل حساب كل خطوة، والخطوة الأولى هي الأهم، وهي أكثر ما يُقلقني، أعني، أعني أنه....

ألحَّت أمي لاستنطاقي، أَرْدَفْت:

- في الحقيقة كلَّما سمعت عَمَّن رَفَضَتهم عائِشة تزداد حيرتي، وقلقي أيضًا، حتى تشكلت لدي قناعةٌ أنها ربما تكون مُعْرِضَةٌ عن فكرة الزواج بالأساس، أو ربما تبحث عن شيءٍ بعينه، فاعتذارها الدائم، والذي لم أفهم يومًا سببه، لكلِّ من تقدموا لها، هو ما يجعلني أفكر في الأمر ألف مرة، فكل من تم رفضهم إنَّما رُفِضُوا لسبب غير مُقنع، لسببٍ واهٍ.

مالت علي داليا وغمزت: ولم لا تقول لسببٍ واحد؟

التفتُّ بحدة: ماذا تعنين؟!

- ليتك كنت حكيت لي عمَّا بك، وليتك كنت سألتني يا أخي الكتوم المسكين بدلًا من أن تُعَذِّبَ نفسك كل هذا العذاب.

اِحْتَددتُّ: ماذا لديكِ إذن؟! تكلمي فورًا.. فورًا أقول.

حدجتني: أتأمرني؟!

عاجلتها أمي: داليا! كفاكِ موارية، آتِنا بما لديكِ إن كان هناك فعلًا ما تقولينه.

نظرت داليا لأمي للحظات، ثم لي: يقولون، والله أعلم، أن قلب الصبية مشغول.

- مشغووول؟! بمن؟! سألتها وأنا على مشارف أزمةٍ قلبية.

لم تتكلم، بل ظلت تنظر لي مبتسمةً، فيما كانت عيناها تبثانني ضحكةً راحت تزداد لمعانًا وكأنها تخبرانني باللمعةِ شيئًا واحدًا!

أو بالأحرى اِسمًا واحدًا..

ألحَّت أمي: داليا، أتمزحين كعادتك؟!، أم أن لديك شيئًا حقًّا؟!

- شيءٌ واحدٌ؟ بل قولا أشيااااء!

مع مَطَّتِها تلك في الكلمة اِنْمَطَّ عنقي أيضًا وشبَّ جزعي تحفزًا، قامت متدللة: لكني لن أقول أكثر من ذلك فأنا منهكةٌ من مشوار الجامعة، ذهاب وإياب ومحاضرات، أنتما تعلمان طبعًا.

- سأوصلك غدًا، سأوصلك كل يوم، ها!! تكلمي، ماذا تعرفين؟

تَمَهَّلت قبل أن تهمس: الأمر بسيط، فكما أوقعت بك، أوقعت بها.

- أوقعتِ بها؟!

- مثلًا مثلًا، عندما كنت أجلس إليها، وأحكي في أي موضوع، ويُذكر فيه اسمك صدفةً، أجدها تنتبه يا زين، وتلمع عيناها يا زين، وتصير في عالمٍ آخر يا زين، ويا ويلي إن عرفت أنك ستمر برائد، تسألني متى سيجيء زين؟ وإلى متى سيظل؟ ومتى سيعود؟ ثم يسبح عقلها في مكان آخر، حتى أن أمها كانت تنادي عليها مراتٍ ولا تسمع، بل وحتى أن صاحباتنا لاحظن ذلك عدة مرات وكُنَّ يتبادلن الكلام والنظرات ضحكًا وهمسًا.

تقافزت: يا الله! أحقًّا يا داليا؟! أحقًّا يا أختي طيبة؟! أحدث هذا فعلًا؟! أتسمعين ما أسمع يا أمي؟! ها! أكملي، زيديني..

- منذ أسبوعين شكوت لها أن زين حاله متغير وأنْ ربما تكون هناك من تشغل باله، فوَجَمَتْ هي شيئًا قبل أن تسألني عمن تكون تلك، فأُجبتها بما يُشعلُ حيرتها أكثر وأكثر، لدرجة أني شعرت أنه لم يعد

يهمها افتضاح أمرها إلَّا وتعرف السر، فألمحت لها بمواصفات تلك الفتاة، مُضيِّقَةً دائرة الوصف شيئًا فشيئًا، حتى حوُصِرَت المسكينة وزَادَ اِضطرابها بعد أن فطنت للأمر، ولم أتوقف إلَّا رأفةً بها وبعد أن صار خَدَّاها حمراوين كوجهك الآن.

اِضَّطَرَبت وتقافزت ولم أكن أصدق ما أسمع: الله أكبر، الله أكبر، أحقًّا ما تقولين؟! أنتِ لا تهذين أليس كذلك؟! كيف طاوعك قلبك لحبس كل هذا عني؟ كيف؟ هل سمعتِ يا أمي؟ ماذا يعني هذا؟ أخبراني، أخبراني.

خَبَطَتْ أمي كتفي لائمةً: يعني أنها تُبادلك بنفس ما تبادلها به يا ولد، أصدقتني؟

هبَّت واقفةً: حسنًا حسنًا، دعونا نكلم أمها، هات التليفون.

أجلستها بسرعة: يا حبيبة القلب مهلًا، ما بك متعجلةٌ هكذا؟! هل عليكِ نذرٌ تقضينه بتزويجي؟

- أولم يُرِحْكَ ما قالته أختك؟ أوَلم يؤكد لك كلامها أن مخاوفك تلك مجرد أوهام لا محلَّ لها؟
- أعني فقط أن الحديث مع أهلها إنما هو خطوة مبكرة بعض الشيء، أعني أن هناك أمورٌ ما يجب تدبيرها قبلًا، أعني أنَّ...

قاطعتني داليا: يعني أنه يريد أن يريد موافقة حبيبة القلب أولًا، يعني أنه يريد ضمان القبول قبل مفاتحة عائلتها في أية مواضيع، أنا أفهم زين جيدًا يا أمي.

قَبَضْتُ على رأسها وقَبَّلته: كم اشتقت لهذا العقل، بالضبط بالضبط ونِعْمَ الرأي.

تنهدت أمي قبل تتوجه لداليا: حسنًا حسنًا، إذن اعرضي عليها الأمر في المرة القادمة يا داليا حين تلتقيان، كلميها مباشرةً، فإن آتيتِنا بما يَسُرُّ سأُحَادِثُ أمها على الفور.. هل يُرْضيكَ ذلك يا مُتَلَكِيء؟!

***

في هذا الخميس غادرت داليا حَامِلةً قلبي على نصلِ سكينٍ لعائِشة، وليس فقط قلبي بل كياني وحياتي وأحلامي وأمنياتي وخططي المستقبلية، تاركةً لي رُعْبًا يتلذَّذُ بنهشِ ما تبقى مني.

كنت أتحرك في أنحاء البيت بعصبية، جيئةً وذهابًا، صعودًا وهبوطًا، أفتح التلفاز وأغلقه، استلقي نومًا ثم أفز كالمسلوع، تتحرك أفواه من حولي بكلامٍ لا أعيه، ولا أعي أصلًا إن كان موجَّهًا لي أم لغيري! اتصالات تلقيتها من رائد ومحمد الجيَّان وآخرين فيما يبدو يسألونني عن سبب تأخري عن المجلس، واتصالات أخرى من زملاء العمل بشأن أمورٍ ما يجب ترتيبها قبل بداية الأسبوع القادم، لكني لم أُجِبْ، فلا وسعٌ ولا بالٌ لأيّ حوار الآن، كنت أتفحص الهاتف كل بضع دقائق عساي أجد من داليا اتصالًا لم أنتبه إليه لكني لا ألفى إلَّا شاشةً تُزكي بخوائها مخاوفي، فماذا لو كان كل هذا سرابًا؟! ماذا لو كانت داليا مخطئةً في تأويل ما حكته؟! وماذا لو كنت واهمًا في تأويل ما لَاحَظْتُه وتبينته طوال العامين الماضيين؟! ماذا لو لم تَقبل عائِشة ورفضت ذلك الرفض الذي يسبقه كلامٌ رائع عن أخلاقي الحميدة وصفاتي الرائعة وإنجازاتي ومآثري وبطولاتي ولكن في النهاية: "زين كرائد"، ولا أحمل له أكثر من مشاعر الأخوة تلك! بالتأكيد لن تكون تلك فقط رصاصةٌ في القلب، بل في كياني كله، وفي حياتي كلها، بل وحتى في الدقيقة الأسبوعية التي لن أحظى بها مرةً أخرى، فلا أعتقد أن عائِشة ستكون بتلك العفوية التي تخرج بها لتستقبل داليا ككل مرة، بل ستؤثر التواري منعًا لإحراجي، أو إحراج نفسها، هذا إن لم تقل لقاءاتها بداليا أساسًا، أو تنعدم، ولم لا؟! النساء تُجَنُّ فجأةً.. أحيانًا.

بعد ثلاث ساعاتٍ كانت أعصابي قد تلفت تمامًا من التفكير، وخصوصًا أني كلما اتصلت بداليا لا أتلقى ردًّا، سألت أمي فأخبرتني أنها بالمثل لم تتلق أيَّ اتصالٍ.

تأخر الوقت، تأخر كثيرًا..

ثم تحررًا من ثقلٍ لا أراه خرجت من المنزل لاستروح في الهواء قليلًا، لكني تَخَشَّبْت مكاني إذ رأيتها مُقْبِلَة.. داليا!

تجاوزتني وعبرت من الباب وكأنني شبح!.. هواء!.. كنت موقنًا أنها لن تترك هذا الموقف يمرُّ بنعومةٍ حتى تتلذذ بغلياني، ستعتصرني عصرًا حتى أُجَنَّ وأتقافز أمامها طلبًا لكلمةٍ واحدة، ستساومني على أي شيء وكل شيء، المشكلة أن وجهها لم يكن يحمل أية إشارات أو علامات، بل ولا حتى حركاتها أصلًا تنم عن أنها كانت مُوَّكلة بأكثر المهام سريةً وخطورة.

- ها، ماذا حصل يا داليا، بَشِّرِينا، قالتها أمي حين أتت على عجل.

لم ترد وجعلت تفرغ حقيبتها بآلية، فَتبادَلْتُ وأمي النظرات، قبل أن أتوجه إليها - داليا:

- استحلفك بالله، واستحلفك بحقِ كل غالٍ وثمينٍ وعزيزٍ على قلبك، افعلي أمورك هذه إلَّا في تلك المرة بالذات.

مددت يدي: انظري، أصابعي ترتعش والله العظيم.

نظرت داليا لكفي، تأملته متأثرة، أطبقت عليه أصابعها وأعادته إليّ: نُبْلًا مني سأراعي مرضك هذه المرة.

- ها، أخبرينا، ماذا حصل؟! سألت أمي.

- وهل عُدْتُّ يومًا إليكم بالخيبة؟!

"ماذا تعنين؟!"

تفحصتها أتبين صِدْقًا.. فاقتربت مني ببطء.. صافحتني ابتسامةٌ بعينيها.. ثم ضحكةٌ بوجهها.. شبَّت.. قبَّلتني بجوار أذني هامسةً:

- إنهم ينتظرون المكالمة.

***

"زين؟! زين هذا حبيبي، زين هذا ابني أنا، أنا من أَخْطُب لزين وليس أنتم، وما أدراكم أنتم بمكانة زين في قلبي؟! لِمَ لَمْ يصارحني هذا اللئيم قبلًا بما يريد؟!"..

كانت تلك الكلمات التي تحمل بهجة الدنيا كلها هي ما قالتها والدة عائِشة لأمي في المكالمة الموعودة، وحيث راحت أمي تُثْنِي على عائِشة، وعلى أخلاقها وجمالها ونَسَبِها وأَنْ كيف أن زين لن يجد مثلها أبدًا، وأن الشرف، كل الشرف، في تلك المُصاهرة، قبل أن تتضاحكا كلتاهما على الزمن الذي يمر، والأولاد الذين يكبرون ويحبون ويتزوجون.

فور ما انتهت المكالمة لم أقفز سعادةً ولم أصرخ فرحةً كما تصوَّرت في أحلام يقظتي، بل، ولدهشتي، ظللت مُتَسَمِّرًا ذَاهِلًا، إِذْ غلبتني الدهشة وعدم التصديق فتخربط كل شيءٍ بداخلي، قبل أن أنطلق، في لحظةٍ ما، إلى أمي كالسهم، مُطَوِّقًا رقبتها بذراعين حَاوَلَتْ إزاحتهما ضاحِكةً، لكني أَبَيْتُ إِلَّا أَنْ أَعْتقلَ العنق أكثر وأكثر، فاستَسْلَمَتْ للأَسْرِ وراحت تمسح على ظهري في حنو:

- مباركٌ لك وعليك يا حبيبي، مباركٌ لك وعليك.

قَاوَمْتُ دموعي: أخبريني بالله عليك أني لا أحلم! وحتى لو أخبرتني بأنه حلمٌ ما كذَّبت، فما تمنيته يومًا وسعيت إليه لم يكن فقط ضربًا من الخيال، بل ما هو أبعدُ من ذلك، شيءٌ لن تفي الكلمات وصفه..

- هذا إنَّما لأنك فقط صادق النية والعزم، وهكذا يُيَسِّرُ الله الأمر، أرأيت إذن كيف تُنهي أمك المواضيع؟

- أنتِ لي الصاحبةُ والحبيبة والرفيقة، أمي حقًّا أنتِ لي الصاحبةُ والحبيبة والرفيقة.

حَرَّرْتُ عنقها: ولكِ مني ما تطلبين.

- أحقًّا؟! وماذا لديك يا عظيم الشأنِ رفيع الجاهِ لتمنحني إياه! أنا لا أريد أيَّ شيءٍ من الدنيا إلَّا سعادتك وإخوتك، فذلك هو رضائِي الحقيقي بل ومسعاي طوال الوقت والآن.

تَابَعَتْ: علينا أن نتجهز جيدًا لأن هناك ترتيبات واتصالات وإعدادات كثيرة، فقد اتفقنا أن يكون حفل الخطبةِ بعد أسبوعين من الآن.

- ماذا؟! أسبوعان فقط؟! أويكفي هذا للإعداد والتهيؤ وترتيب الأمور كي..

قاطعتني: إن أَمْضَيْتَ عمركَ في هذا التردد والخجل فلن تُنجِزْ في حياتك أي شيء.

أَرْدَفَت: ولتعلم جيدًا أنَّ ما يحصل ليس هو نهاية أحلامك بل هو بدايتها لحياةٍ أكثر هناءً وسعادة، زين! أنت أكثر إخوتك حُبًّا ورحمةً وفَيْضًا في المشاعر، وبقدرِ هذا فأنت أيضًا الأكثر طموحًا وكَدًّا في عملك ومستقبلك، فلا تسرقنك دعةُ الحب وترفُ العاشقين كما يحدث لمن هم في مثل عُمرك، بل عليك من الآن أن تكد أكثر وتسعى أكثر كي تكون جديرًا بما أنت مُقْدِمٌ عليه، وكي يفخر أنسباؤك بك وأَنْ كيف

أنك كنت الأجدر بابنتهم، أما أنا وإخوتك فسنكون بجوارك حتى يُتم الله لك على خير، وحتى هذا الحين...

اقتربت هامسة: سيكون لك من الدلال ما ليس لأحدٍ غيرك.
لطمت خدِّي مُدَاعِبةً: لكن لا تخبر أحدًا.

***

ليت الذي وَصَفَ البهجةَ يومًا يرى حالي ليرى كيف كان مُقَصِّرًا في وصفها، وليت الذي عرَّف الرضا يُدرك أن رضا العالم ليس إلَّا نقطةٌ في بحر رضاي، وليت الذين تغنوا يومًا بالسعادة تمهلوا لقياس نبضات قلبي فيعرفوا أنها قد وصلت رقمًا قياسيًا يعيد تعريف أسس السعادة والحب من جديد.

وكانت داليا قد مَلَّتْ من إلحاحي بأَنْ تحكي لي كُلَّ ما حصل في ذلك اليوم الذي عَرَضَتْ فيه الأمر على عائِشة، فأسمع للحكاية وكأنها تُروى لأول مرة، مُنْصِتًا بكل جوارحي وحواسي عساي أَنْتَبهُ لتفصيلةٍ فاتتني في المرات الخمسين السابقة، مُلْتَذًّا بتخيل ملامحها - عائِشة - وهي تتفاعل مع كل ما يُقال، يُعِينُني في ذلك أرشيفي السري من إيماءاتها ولفتاتها وبسماتها، البسمات التي باتساعها وتماديها وتمهلها لم تكن تعني إلَّا: "نعم، نعم يا زين وأنا أيضًا..."

وبالشارع كنت أتقافز فرحًا، داعيًا لكل من أقابله بظهر الغيب أن يجبر الله بخاطره كما جُبِرَ خاطري، وَددت لو أبحث عن كل بائسٍ فأسري عنه، وعن كل مكلومٍ فأواسيه، وعن كل منكسرٍ فأكون سببًا لفرحته، عندما كنت أرافق الجيَّان إلى المستشفى لزيارة والده، الذي اِعْتاد القيام بفحوصاتٍ دورية، أنسلت من بين الكُلِّ لأسأل عن غرف المغتربين والوافدين الذين ليس لهم أهلٌ بالبلاد ولا تأتيهم زيارات، فأدلف لأطمئن على كل واحدٍ فيهم وأسأله إن كانت له حاجة أو طلب، قبل أن أترك لديه رقمي مشفوعًا بإصراري على أن يتصل بي في أي وقت، واستعدادي لأن آتيه بما شاء، من أين شاء، ومتى شاء.

في اليوم الموعود وبالساعة المحددة رافقت أهلي إلى بيت عائِشة، والذي لاح لنا من بعيد كقصرٍ بالفردوس، لا سيَّما بالزينات والأضواء والتي بتراقصها وبهرجتها أسرفت في مَعْجِ بطني أكثر وأكثر. على الباب استقبلتنا الأم بوجهٍ ينضحُ بالبهجة والحب، تعانقت وأمي ناثرتان كلتاهما عبارات المباركة والدعاء،

ثم بعينين تفيضان محبةً تمهلت شيئًا لتمسحني من فوقي لتحتي مُثنيةً على ما اعتبرته شياكتي وأناقتي، قبل أن تسحبني إليها محتضنةً ومُقَبِّلَة ومُهَنئةً بكلامٍ لم أُوَفِّه حقه من شدة الارتباك، من خلفها التقفني ذراعان مفتوحان، رائد بضحكةٍ واسعة أن أهلًا بالنَسَبْ، تضاممنا بقوةٍ مهنئيْن ومباركيْن، وفيما اقتادت والدة عائِشة أمي وإخوتي إلى صالة النساء، توجهت وأخي عمرو وباقي أقاربي مع رائد إلى صالة الرجال، وحيث لم يفته - رائد - أن يهمس لي بأن ويلًا ينتظرني ووعيدًا بلا حساب، إذ كيف ونحن نلتقي يوميًا لم أصارحه ولا مرَّة بما أريد وأن يعرف هكذا بالأمر كما يعرف الغرباء، اعتذرت وتعللت وتَشَفَّعتُ فلم أُشَفَّعْ، لأَكون في النهاية -كما قال - المجرم الوحيد الذي لم يستطع أن يقوم بكَشْفِه، وهي إهانةٌ لسُمْعَتِهِ سأدفع -كما توعدني - ثمنها لاحقًا.

انفتحت صالة الرجال على مصراعيها لتستقبلنا بالموسيقى والأغاني والزينات والأضواء وكراسٍ فاخرة ارتاح فوقها شيوخٌ ورجالٌ وصغارٌ في أبهى هيئاتهم وحُلَلِهم، قاموا فور دخولي وطافوا عليَّ مُباركين ومُهنئين، يقدمهم لي رائد واحدًا تلو آخر، عمداء قبائل، وزراء سابقون، سفراء ودبلوماسيون، وضباط.. ثم ضباط.. ثم ضباط.. رُتبٌ صغيرة وأخرى كبيرة، وأخرى أكبر وأكبر، وجوه راسخة وأخرى فاحصة وثالثةٌ لا تنسبر أغوارها، لشدة الارتباك كنت أكتفى برد التهنئات بالمثل ولا أكثر.. "مبارك لك يا زين".. "مبارك لك".. "هنيئًا لك يا زين".. "وأنت أيضًا هنيئًا لك".. تقدَّم مني إخوة رائد، أعرفهم وتجالسنا مرارًا، عانقوني مهنئين ومباركين أن ستصير واحدٌ منا يا زين، وأن مكانتك في قلوبنا كمكانة رائد، ولا حاجة بنا إلى أن نوصيك بعائِشة يا زين.

من خلفي طوقني ذراعان احتضانًا حتى كدت أتعثر، الجيَّان، ضحكة واسعةٌ وعينان تنضحان بالحب والفرحة.

- مبارك لك يا زين، مبارك لك، ثم مبارك لك، ثم مبارك لك.

احتضنته: مباركٌ لك يا جيَّان، والعقبى لك يا حبيب.

اِحْتضن رائد وبارك كلاهما للآخر، قبل أن يتأملني - الجيَّان - وهو يعود خطوتين للوراء:

- انظر إلى نفسك، انظر إليه يا رائد، يا أخي ما أروع هذا الرجل وأبهاه اليوم.

- اليوم فقط! سألته قبل أن انظر لرائد: أضف تلك لسجل الإهانات التي سيندفع ثمنها قريبًا.

ضحكنا. تابع الجيَّان: لن تصدقا كيف فرحت أمي لأجلكما، ترسل لكما السلام والتهاني والمحبة.

- أين هي إذن؟ لا تقل أنها لم تأتِ. سألته.

- في الصالة الأخرى، ستراها طبعًا بلا شك.

تابع: والله إني فرحٌ وسعيدٌ أيَّما سعادة، أتمنى أن يكون ذلك الحدث المهم لمَّا لشملنا نحن الثلاثة أكثر وأكثر.

ضحك رائد: شملنا ملمومٌ لدرجة أنه لا أحد منَّا حين يلتفت يرى غير صاحبيه، لقد خبرنا في أنفسنا ما لم، ولن، يعرفه أهلنا قَطْ.

تابع الجيَّان بحماس: أأصارحك بشيءٍ يا زين؟ لزمنٍ كنت أريد أن أراك أنت بالذات فرح وسعيدٌ، صدقًا لا أعرف لماذا يا أخي؟! حتى أنه بعد معرفتي بالخبر وأنا بالعمل لم أصدق، فقد جاء هكذا فجأة بلا تمهيد، حتى أن زملائي كانوا يقولون لي أنت متغير اليوم يا محمد، أنت متغير يا محمد، منتشٍ هكذا وسعيد، على غير عادتك هههههههه بل ويصرون ويقسمون على ذلك، فأقول لهم أخي سيتزوج، يقولون ماذا؟ أخوك! ألك أخ؟! أضحك قائلًا وما أدراكم أنتم؟ فأشرح لهم الموضوع ولا يفهمونني! أعذرهم، فهو لا يعرفون كم أحبك وأدعو لك دائمًا بالسعادة والفَرحة، أتصدقني يا زين؟ أعني أيصلك ما أريد قوله؟

تبادلت ورائد النظرات مستغربيِّن حماس الجيَّان: طبعًا طبعًا، يصلني، بل وأنا أكثر حبًّا لك يا جيَّان، وهل يحتاج هذا إلى كلام يا قصير؟

- آهٍ يا شباب، ليُدِم الله علينا الفرح والسعادة والهناء، والضحك بلا حساب.. وأيضًا بلا عقاب هههههههه لنا ولمن نحبهم، يا رب آمين آمين آمين، حسنًا حسنًا، يبدو أن الغناء قد بدأ، هيا بنا، هيا بنا.. حبيتك يا اسمراااني نار بقلبي شعلااني.. نامت كل عيوون الناس وأنا عيوني سهراااني.. يا بو الشويرة الحمرا ناشرها عالرماني.. دق المااني دق المااني.. دق دق دق دق دق.. تيرش رش رش رش رش..

انطلق الجيَّان ليرقص مع الجموع التي انتظمت في صفوفٍ ودوائر، همست لرائد:

- ما به؟

- طوال معرفتي به لم أره متحمسًا لشيءٍ في حياتي كما أراه هو اليوم.

- أهو بخير؟

- أتمنى أن يكون كذلك، أو على الأقل حتى أرى إلى أين سينتهي موضوعي معه.

ضَحِكت: هل من جديد إذن؟

همَّ بأن يجيب لولا أن اقتربت الخطوات: "ثم أخيرًا رأينا زين".

التفتُّ، عُدَيّ! الوحيد من إخوة رائد الذي لم أره ولا مرة، الأخ الأكبر وحارس العائلة الغامض الذي أسمع عنه فقط ولا أراه، حتى أني شككت بأنه موجودٌ أصلًا، يعمل بوظيفة نافذة بإحدى الجهات الأمنية، وجهٌ واثق، عينان فاحصتان، ابتسامة تبدو كأنها ابتسامة، لكنها ليست كذلك أبدًا.

لم تتنح عيناه عن عيني: سمعت الكثير والكثير عنك، رائد وأمي لا سيرة لهما إلَّا عنك.

- عساك تكون قد سمعت خيرًا.

- وإلَّا ما كنت موجودًا بيننا اليوم.

استثقلت الكلمة شيئًا، كما استثقلت الثواني التي ظل فيها يبحث عن شيءٍ ما بعيني..

- ستكون لنا جلسات أكثر سويًا يا زين، أليس كذلك؟

أومأت إيجابًا..

هنَّأني وصافحني ثم احتضنني فقط ليهمس: أنت الآن واحدًا منا فانتبه لذلك، شقيقتنا الصغرى ستكون في وصايتك، فانتبه لذلك أيضًا.

- تعال معي يا متلعثم. قالها رائد وهو يجذبني وأذني من فم عُدَيّ لنخرج من صالة الرجال متوجهيْن إلى صالة النساء.

- لم أكن أظن أنه مخيفٌ لهذه الدرجة! قلتها بينما نخترق الأروقة.

ضحك: من؟ عُدَيّ! لست أول من يقول ذلك.

- أشعرني وكأني ارتكبت ذنبًا بخطبتي لأختكم، حتى أنه عندما همس لي ظننته سيقول: خذ بعضك وانصرف من هنا فورًا.

ضَحِكَ أكثر: ماذا قال لك بالمناسبة؟

- ستصير واحدًا منا يا زين، انتبه لهذا يا زين، وطبعًا قولتكم الشهيرة: نوصيك بعائِشة يا زين.
- وفيم اندهاشك؟! وكأنه ليس من حقنا أن نفعل!
- يا أخي والله أنا الذي أوصيكم بها حتى استلمها من تلك الثكنة العسكرية.

لم ننتبه أننا اقتربنا من قاعة النساء إلَّا حين انفرج الباب شيئًا عن صرخةٍ جعلتني ورائد نتراجع مندهشيْن للوراء، وذلك قبل أن ينفتح الباب على مصراعيه عن صرخةٍ ثانية، ثم ثالثة، ثم صراخ.. صراخ.. صراخ.. زغاريد.. صيحات.. صفافير، وحتى التقفتني أيادٍ ضاحكة لأغطس في بحيراتٍ من فساتين كثيرة وعطور نفَّاذة وحيث لا مكان لموطأ قدم، التفت إلى رائد فلم أجده، اختفى، أين ذهب؟! دفعتني الأيادي المجهولة دفعًا إلى الداخل لتنقشع الفساتين من أمامي إفساحًا، إلى أين نذهب؟ لا أعرف! الطريق وعرٌ ومفروشٌ بالمباركات والتهنئات والمصافحات، اسمي يُرَدَّدُ بعشرات الطرق مُلَحَنًا ومُطَوَّلًا ومُنَغّمًا، أمهات وجدَّات، فتياتٌ وصبايا، وأطفال بعمر الزهور، الدفع مستمر بإصرارٍ كما لو كنت أركب قطارًا يمر سريعًا على محطات يقف فيها الكل على الجانبين مباركين دون أن يجرؤ أحد على الخوض في هذا البحر العاتي.. عماتي وعمات عائِشة وخالاتها، وصديقاتها، صديقاتٌ كثيرات، كثيرات جدًّا، ثم مصافحات أخرى ومباركات وصفافير، بنات صغيرات يحتضن وسطي ثم يجرين لعبًا مع أخريات، قُبلاتٌ ترسل في الهواء، أصوات تناديني باسمي لا أعرف أصحابها، أو أعرفهم ولا أستطيع أن أحدد مكانهم، البعض يحاول الوصول إلي للتهئنة والمباركة لكن القطار منقذفٌ لا يرحم، حتى تبين لي أن الدفع ليس عشوائيًا، بل إلى نقطةٍ بعينها بوسط القاعة، حيث دوامةٌ كتلك التي تكون في البحار والمحيطات، عبارة عن دائرة عظيمة من فساتين كثيرة تلف بإخلاصٍ ودون كلل، ويبدو إذن أن عائِشة في المنتصف، ويبدو أن تلك هي المحطة المنشودة، هناك من يهتف باسمي بعد أن نجح في الوصول إلي بعد معافرة.. والدة الجيَّان..

هتفت وهي تمد ذراعيها مُصَافِحَةً: مبارك لك يا حبيبي، يا حبيبي يا زين، لكم فرحت لك، فرحت لك يا زين.

حاولت التشبث بأطراف أصابعها هاتفًا: مبارك لك وعليك يا حبيبتنا جميعًا، والعقبى لمحمد والبنات، العقبى لمحمد والبنات.

هَتَفَتْ مزايدةً على الصخب والغناء: حذار أن تشغلك الشواغل فتنقطع عن زيارتنا إذن، حذار أقول.

- وما أدراكِ؟! بل سأزيد منها، فاستعدوا وسآتيكم قريبًا، قريبًا جدًا.

- إن شاء لله، وعسى أن تأتيانا كلاكما قريبًا، كلاكما يا زين، أنت وعائِشة، أنت وعائِشة يا زين.

يبتعد صوتها، يختفي صوتها، تختفي نفسها، وليستمر التيار في حملي حتى وصلت إلى الدوامة التي انزاحت دائرتها فور أن اقتربت، تهيأت لأجد عائِشة لكني لم أجد إلَّا حلقة أخرى أكثر ضيقًا، اِنْقَشَعَت فاخترقت، ثم حلقةٌ أضيق، اِنْقَشَعَت فاخترقت، حتى في لحظةٍ ألفيتني أقف على مسافةٍ لم أكن أعتقد يومًا أن أحظى بها، لؤلؤة مكنونة لم تنكشف على أحد، فستانٌ ورديٌ مطرزٌ طويل الذيل، شعرٌ تضافرت خصلاته إلى أعلى في قمةٍ آنفة، إلَّا من خصلتين طويلتين طوَّقتا الوجنتين في سلام، عن يمينها كانت والدتها تبتسم مكرًا أن أي تيهٍ صرت فيه بمرأى ابنتها، وعلى الشمال كانت أمي ضاحكةً بدمعتين كنت واثقًا بأنهما سيتحرران في أقرب خُلوة، حمم العرق والارتباك تغرق صدغي وجبهتي، رفعت الجميلة رأسها فأُخِذتُ بدوحِ عينيها، كوكبان دريان زادهما طول الرمشِ سحرًا، رمياني بنظرةٍ فانتهى ثباتي، واختفى كل ما حولي، ومَنْ حولي، حتى ليبدو وكأنه ليس في الكون إلَّانا، فجأة توقفت الموسيقى، وسكت الصخب تمامًا، تحلَّقت حولنا الصاحبات والقريبات ينتظرن، ماذا ينتظرن؟! يبدو أنه يجب أن آتي بشيء أو أن أقول شيئًا أو أفعل شيئًا، لكن وكأني نسيت الكلام، ماذا يجب أن أقول؟!..

- عائِشة.. أنا..

- ....

- أنا سعيد حقًا.

- وأنا، وأنا أيضًا يا زين.

ضحكاتٌ شامتة في ارتباكنا..

- أقصد أنا، أنا فرح.

- وأنا فرحةٌ يا زين، مباركٌ لكلينا.

ضحكاتٌ أكثر وأكثر..

فجأة وجدت وجهًا ينتصف الشبرين اللذين يفصلانني عنها، والدتها التي انتزعتني من تحديقي المفضوح:

- مبارك لك، مبارك لك وعليك يا زين يا حبيبي إن شاء الله.

أتلصص من فوق كتفها على عائِشة: طبعًا طبعًا، مبارك لك يا حبيبتي، مبارك لك والعقبى للجميع، للجميع إن شاء الله.

- مهما قلت فلن أستطيع أن أصف لك مدى سعادتي، فلم أكن لأجد أفضل منك لابنتي، أنت ابني كما أنها ابنتي، لا أفرق بينك وبينها.

أتنحنح يمينًا، ثم يسارًا، ثم يمينًا مرةً أخرى: وأنا أيضا لا أفرق بينها وبينك.. بينها وبيني.. بينها وبينها.

تَنَحَّت أمها ضاحكةً، فأسرعت إلى عائشة لولا أن وجدتني في حضنٍ آخر؛ أمي! عانقتني فعانقتها، قبَّلتني فقبلتها، باركت لي فباركت لها، قبل أن تتنحى مُسرعةً في تضحيةٍ سأشكرها عليها لاحقًا، هممت بالعودة إلى عائِشة لكن هيهات! فقد انغلقت الحلقات عليها واحدة تلو أخرى بنفس النسق والنظام، أما الأيادي المجهولة التي أدخلتني، فقد بدأت بإخراجي هذه المرة بلا مُناقشةٍ ولا رحمة.

قبيل الباب تحررت لتعود الأيادي إلى صخبها، لمحت رائد ينتظر فهممت بالخروج إليه لولا أن تَفَاجأتُ بها، داليا! منزويةً وحدها في الركن، مولية الدنيا كلها ظهرها.

اِقْتَرَبْتُ فالِتَفَتَتْ واحتضنتني وهي تُخفض رأسها موارية عينيها.

- لا لا لا يا داليا إلَّا أنتِ، لا أحب أن أراك هكذا.

- لا بأس بتلك المرة، لا تَعْتَدْ على ذلك.

أَرْدَفَتْ: مبارك لك يا حبيبي، مبارك عليك عائِشة، أنت تستحقها، كلاكما يستحق الآخر.

- والعقبى لك يا حبيبتي، لن أنسى كل ما فعلتيه من أجلي، ولن أنسى لك هذا العِرفان.

اِنتبهت لـ (بروشٍ) ذهبي يضوي أعلى فستانها.

- أعطتنيه عائِشة، قالت لي تلك هديتك لأجل زين.

- أحقًّا؟

خفق قلبي والتفت إلى عمق القاعة بحثًا عن عائِشة لكن هيهات أن حتى ألمحها وسط المدينة الصاخبة، أتت صديقات داليا وشددنها للداخل بعد أن عاتبنها إذ لم يجدنها إلَّا بعد بحثٍ طويل، فانطلقت معهن ماسحةً دموعها ومُلوحةً لي ألَّا أحمل همًّا وأنها ستكون بخير.

عُدْتُّ مع رائد إلى قاعة الرجال، وكان وقت الطعام قد حان لتخلو الساحةُ كلها إلَّا من واحد فقط، الجيَّان! والذي جعل يُراقص الأطفال بعد أن انفضَّ الكل عنه إلى الموائد، كان منهكًا، عرقانًا، يعتصر ما تبقى من قوته ليتحول رقصه إلى ما يشبه كفاحًا مريرًا.

- أعليه نذر؟! سألت رائد.

- والله حقًّا لا أعلم ما به!

- أنأتيه بطبيب؟

ضَحِك.

- إذن ما جديدك معه؟

- والله ولا أي شيء.

- ألم تفاتحه في شيء؟

- لا تشغل بالك الآن.

- اسمع، اسمع، كلهم موجودون اليوم، ستتضاعف الفرحة، لا تجعل أحدًا ينصرف من هذا المنزل إلَّا وقد أخذت موعدًا.

- كلا.

- كلم أمك لتكلم أمه.

- كلا واسكت أقول.

- إذن كلمه هو.

- كلا أيضًا.

- إذن سأكلمه أنا.

- ويلك إن فعلت.

- أهكذا ترفض وساطتي؟! تلك حظوة لن تتكرر، قرر قبل أن يُغْشى عليه.

- فقط ليس هذا الوقت المناسب لأحادثه.

- بل لن تجد وقتًا أنسب من ذلك.

- عم تتكلم؟ انظر إليه أصلًا.

كان الجيَّان قد بدأ يتمايل وحده بعد أن انصرف عنه الأطفال، تابع رائد:

- تائهٌ لن يعي أي شيء، ولن يفهم أي شيء.

- وهذا ما قصدته، سيوافق على أي شيء.

انفلتت مني ضحكة.. وكذلك رائد.. لكن ضحكته كانت مهمومة.

***

انتهى اليوم..

انتهى على وعدٍ بيومٍ آخر، أكبر، وأجمل، وأبهى.. بعد شهر من الآن.. يوم الزفاف.. على هذا اتفقت أمي وأم عائِشة.. أما باقي التفاصيل الأخرى الخاصة بالزواج، فلزين وعائِشة - كما قالتا - اختيار ما يناسب راحتهما وحياتهما.

- ٥ -

اِستيقظتُ في صباحِ اليومِ التالي وكأنَّ الله قَدْ خَلَقَني للتوِّ، قلبٌ لم يَخبُر من قبل حُزْنًا، وعقلٌ لم يحمل من قبل هَمًّا، بل حتى عيناي وكأنهما أُوتيتا من النَضارةِ ما جعلاها تريان كلَّ شيءٍ لامِعًا زاهيًا.

توجهت إلى غرفة داليا وأيقظتها طالبًا منها رقم عائِشة، فاستمهلتني حتى تفيق من تعب الأمس فلم أقبل، فاستمهلتني لتتصل بعائِشة وتستأذنها ذوقًا في إعطائي الرقم فَقَبِلْت مُضَّطرًا..

دقائق وكان الرقم بحوزتي..

أَسْرَعْتُ إلى غرفتي وأغلقت الباب وضغطت زر الاتصال، بداخلي قصصٌ ومجلدات وحكايات! براكين فائرة وآبار مائية متفجرة، إلَّا أنَّ الهاجس باغتني، فبقدر الرغبة واللهفة بقدر القلق والتخوف، فماذا ينبغي أن أقول في أول كلامٍ بيننا؟ أو بالأحرى ما الذي ينبغي ألَّا أقوله؟ إنه الخوف من أن أكون ذلك الذي لم تتوقعه عائِشة أن يكون! كيف عليَّ أَنْ أكون إذن؟ هل من الممكن أن أتفوَّه بشيءٍ دون قصدٍ فتنفرُ مني؟!..

أغلقت الاتصال وخرجت من الغرفة ورُحتُ أتجول في أنحاء البيت قَلِقًا، وخلال ذلك ضغطت وأغلقت زر الاتصال ما يفوق العشرين مرة، حتى خرجت من المنزل تمامًا وكبست الزر مُغْمِضًا عيني وكأني على وشك سماع قنبلة.. رنين.. ثم رنين.. ثم..

- مرحبًا..

لو قيل لي أن ما ضرب صدري الآن كان مِثقابًا كهربيًا ما كذَّبت.

- السلام عليكم، مرحبًا يا عائِشة.

- وعليكم السلام أهلا وسهلًا.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام، صباح الخير.

- صباح النور.

- ....

- اعتذر لأني قد هاتفتك في ذلك الوقت الباكر جدًا من الصباح، لقد أيقظت داليا عنوةً حتى آتي برقم هاتفك (أضحك مرتبكًا) قالت لي أنها استأذنتك في ذلك، لهذا أعتذر كثيرًا ذلك وأرجو أن تقبلي اعتذاري، وأيضًا اعتذاري أن أكون قد أيقظتك إن كنتِ نائمةً أو ما إلى ذلك.

- أتيت برقمي ممن؟ لا أسمعك بوضوح!

قفزت إلى بَرَاحٍ أكبر: أهكذا أفضل؟ أتسمعينني الآن؟

- نعم نعم.. أسمعك جيدًا.

- أقول فقط أني قد حصلت على الرقم من داليا، كانت نائمة لكني أيقظتها إذ لم أَطِقْ صبرًا حتى أهاتفك (أضحك من جديد) وكنت مُتَرَدِّدًا في الاتصال في هذا الوقت من الصباح إذ خشيت أن تكوني نائمةً، أنا لم أعرف بعد مواعيدك في الاستيقاظ والنوم وما إلى ذلك، فترددت كثيرًا في الاتصال، أعني أن رقمك كان أمامي وكلما ضغطت الاتصال أغلقته، بالتأكيد تدرين هذا النوع من الارتباك (أضحك)، ولم أستطع الاتصال إلَّا بعد أن خرجت من المنزل.

- تقول خرجت من أين؟!

- خرجت من المنزل.

- لو سمحت لو سمحت.

- وكما قلت فأنا أعتذر لو كنت..

- لو سمحت..

- نعم.. نعم تفضلي..

- مَنْ أنت أصلًا؟!

صُعِقت، نظرت للاسم الذي سجلته على الهاتف، هل من ارتباكي قد أكون أخطأت في تسجيله!

- أولستِ عائِشة؟!

- بَلَى!

- أنا زين يا عائِشة..

- يا إلهي! ززززين! هتفت ضاحكة: أنا حقًا آسفةٌ، والله آسفة، لم أستطع أن أسمع أي شيء، للدقة لم أسمع غير: خرجت ودخلت وطلعت ونزلت ههههههههه. كيف لم أخمن أنه أنت؟! فمن غيرك سيكون بهذا الارتباك والتلعثم؟!

تَهَلَّلْتُ رغم حرجي: طالما رأيتِني بهذا الارتباك ساعديني إذن، ساعديني يا عائِشة.

- أخبرتني داليا فعلًا أنكَ ستهاتِفْني فانتظرت، ولكن ساعةً مرَّت دون اتصالك.

- يا إلهي! ساعةٌ كاملة، كيف لم أشعر بالوقت؟!

- حتى أني قلت أن ربما يكون قد غَيَّر رأيه.

- لا لا لا أغير رأيي عن ماذا؟ عن الاتصال بك؟

- أو عن الأمر ككل، وما أدراني؟!

ضحكنا معًا..

- هل أيقظتكِ إذن؟

- لا بأس، كنت مستيقظة (صمتٌ مربك) كيف حالك إذن منذ أمس، ها أخبرني (تضحك)؟

- وهل هناك كيومِ أمس، كان مُتْعبًا ومُرهقًا لكلينا، بل ومُرْبِكًا أيضًا.

- أنا لم أشعر في حياتي بهذا القدر من الارتباك والاضطراب بقدر ما شعرت به يوم أمس، لكنه قبل كل هذا كان حفلًا رائعاً.

- نعم كان رائعًا يا عائشة، رائعًا جدًا جدًا، بل كان هو الأروع في حياتي.

- وهل كانت في حياتك حفلاتٌ أخرى؟!

- لا لا لا، لا أقصد، حسنًا حسنًا، هكذا ستبدأين إذن بِتَصَيُّدِ الزَّلَّات.

غَلَبَ الضحكُ كلينا مرَّةً أخرى، فحمدُتُّ الله بسريّ على حميمية تلك البداية التي ذَابَ فيها الحرجُ مع كل كلمةٍ وكل ضحكة. إقبالٌ من صوتها لم تخطئه أذني، وبشَّ له قلبي، وكلما انزلقنا إلى ذلك الصمتِ المُرِبك أَسْعَفَنَا الكلام عن يوم الحفل مرةً أخرى، حتى حَفَرَ الارتباكُ أَخَاديده في قلبي وقلبها، ونَفِدَ نصيبُ كلينا من الثبات، هكذا استأذنتها أني سأتركها لتستريح قليلًا، على وعدٍ بالكلام في أقرب فرصة، أو بالأحرى.. في أقرب جُرْأَة.

أغلقت الإتصال وتنهدت مُطْلِقًا سراح الشهيق الذي كان مُحتبسًا بطولِ المكالمة، تأملت اسمها على الهاتف غيرَ مصدقٍ قبل أن التفت تائهًا لأفتح باب المنزل، لكني لم أجد الباب، ولم أجد المنزل، بل مارة.. شوارع.. سيارات.. ضجيج.. كيف أتيت إلى هنا؟! وكيف قطعت كل تلك المسافة دون أن أدري؟! هل غُيِّبْتُ إلى تلك الدرجة؟!

أسرعت الخُطى عودًا للمنزل متواريًا عن الناس قدر استطاعتي، ورغم تحرجي إلَّا أَنَّ سعادتي قد ابتلعت كل حرج، حدَّ أني كنت أقابل نظرات الريبة والاستغراب بضحكاتٍ تكفَّلت مع البيجامة والنعل بجعلِ كل من يراني يحمد الله أن عافاه مما اِبْتُلِيتُ به. كنت أودُّ لو احتضن كل الناس، وأصافح كل الناس، وأُقَبِّل كل الناس، وأن أَمُدَّ يدي بالهاتف لكل من حولي أن تأكدوا بالله عليكم، تأكدوا أنها هي، عائِشة! أخبروني فقط أني لا أحلم.

فور أن دلفت إلى المنزل أسرعت إلى غرفتي وأغلقت الباب: ماذا لو هاتفتها الآن؟ لكن فيم أُحَدثها هذه المرة؟ أَلَا مواضيع؟ أين المواضيع يا زين؟ أريد عذرًا للاتصال! أي عذرٍ أو موضوع، عائِشة لكَ الآن يا زين، أتُصدق؟! ويكفي ما مرَّ دونها..

تُرى هل تريد هي أيضًا الاتصال ولكنها مُحرجة مثلًا؟ أم أن هذا هو إحساسي فقط؟ أتوق لسماع صوتها ولو ظللنا نردد نفس المواضيع والكلام! ما الحل؟ رسالة نصية! قد يكون هذا هو الأمثل الآن.

فتحت الرسائل وكتبت: عائِشة، أنا سعيد جدًا.

تَأَمَلْتُ الرسالة.. مسحتها.. كتبت: عائِشة، أنتِ لا تعرفين حقًّا مدى سعادتي.

مسحتها.. كتبت: عائِشة، أنتِ لا تعرفين حقًّا مدى سعادتي وأنا واثق أنه لا يوجد في الكون كله من هو أكثر سعادةً وفرحةً مني.

ضغطت على زر الإرسال، تم الإرسال، ها قد وصلت! لا بد أنها تقرأها الآن! هل تَسَرَّعْت يا زين؟! هل تعجلت؟! لِمَ لَمْ ترد؟ هل سترد؟! هل تضايقت؟ أكان يجب يا زين أن تكون بهذا الإلحاح؟

وكان هذا حين رنَّ هاتفي برسالة:

"زين، هل من الممكن أن تُكلمني الآن؟".

- ٦ -

كان أكثر ما يُدهشني دائمًا في الأفلام والمسلسلات التي أشاهدها والحكايات التي أسمعها هو من أين للمُحِبّين بالمواضيع التي يملأون بها ساعات كلامهم، فيم يتكلم هؤلاء القوم وبِمَ يتحاكون؟ وهل يستحق أي موضوع في العالم مهما بلغ من الأهمية أن يأخذ أكثر من نصف ساعة؟ أعتى مُباحثاتي وأَعْقَدها لم يكن ليأخذ أكثر من خمس دقائق.

ثم أني لم أجد الإجابة إلَّا في كوني اختلقُ المعاذيرَ، وأخترعُ الأحداثَ، وأَتَشَعَبُ منها وأَمُطّهَا وأَزِيدَها فقط لأهاتف عائِشة، كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لأكون معها وبرفقتها، حيث لا فرصةَ حقيقة لِلّقاءِ قبل عَقْدِ القِرَان. وأحاديثنا كانت كلها عامة، تحكي لي فيها عن جامعتها ودراستها وأحكي عن عملي ومحاضراتي، حتى اِنْبَسَطَت بيننا الدقائق إلى ساعات، واِنْفَرَطَت الساعات لساعاتٍ وساعات، فَصَارَ حكيها عن إفطَارها وغَدائها وعَشَائها هو قمة المتعة، وصار يومها الجامعي هو سيمفونيتي المفضلة، وصار كل ما تشتريه بعد تسوقها بالمحال والمتاجر هو حديثُ الساعة، ولتُفْصِح الأوقات التي كنا نقتنصها على مدار اليوم عن اشتياقِ كلينا للآخر، وعن رغبةِ كلينا في أن يكون برفقة الآخر، وبرغم ذلك لم يجرؤ أيُّنا على البوحِ بأيةِ مشاعِر، بل حتى كلمة "أحبك" تلك التي لَفِظْتُها سِرًّا مئات المرات، بعشرات الطرق، ظلَّت عالقةً بحلقي ولم تَبْرَح صدري، أوقفني حذري ومنعها حَيَاؤُها، ورغم ذلك تماديت شيئًا في إحدى المرات، فسألتها بحذرٍ أَعْيَتْهُ اللهفة أنْ كيف علمت بما "بي"؟! ومتى صِرْتُّ مكشوفًا لها؟!..

تَضْحَكُ: في البداية كان شَكًّا.. مجرد شك.. إذ كنت ألمحك بطرف عيني تنزل من السيارة، بينما أصافح داليا، وعلى وجهك تلك الابتسامة، ابتسامةٌ مُبالغٌ فيها جدًّا، حتى أني والله في مراتٍ كثيرة كنت أشك في أنَّ شيئًا ربما في هيئتي أو شكلي يثير ضحكك لتلك الدرجة، فأتفحص نفسي في المرآة عِدَّة مرات، بل وأسأل صديقاتي وأمي وإخوتي فيُجِبْنني بالنفي، ثم أني تَيقنت مما بكَ عندما كنت اَلْتَفَتُ إليك مُرَحِّبَةً، فعندها..

صِحْتُّ: كلا! كلا! لا تُكْمِلِي، لم نتفق على ذلك، لم نتفق على ذلك.

غالبتني ضاحكةً: أجدك في دنيا غير الدنيا، هائمٌ، شاردٌ، تائه، أنت معنا ولست معنا، أنت في كوكبٍ آخر. فاهٌ فاغرٌ، عينان ولهانتان، بل وحتى بعد دخولي المنزل ألمحك لا تزال واقفًا مكانك وكأنك لا تريد الرحيل.. أو تستثقله.

- حسنًا حسنًا، كيف حالك إذن؟ اِحْكي لي عما فعلت اليوم.
- ومن يومها بدأت أنتبه وأُلَاحِظ.
- ليتني ما سألت.
- فهناك مثلًا تلك النظرة التي لا تُخطيءُ في تفسيرها أية فتاة، والتي تحاول اِقتناصها أثناء جلوسك مع رائد، أو ترحيب أمي وإخوتي بك، تلك النظرة بلمعتها وضَيِّها، وأيضًا - وهو الأهم - انتظارها.
- ألاحظتِ ذلك أيضًا؟! وأنا الذي كنت أظنني أتلصصُ مُطْمَئِنًّا!
- بل ولمست مشقتك ومجاهدتك لفعل ذلك من بين الجميع.
- لا أعلم كيف أقولها ولكن.. كانت تلك اللمحات حقًّا هي كل ما أملك، وكانت مُعضلتي أن كيف أحظى بها وأنا محاطٌ بعشرات الأعين، وكان هاجسي دومًا أن كيف سيكون شكلي وموقفي إن انكشفت أو سألني أحدٌ عما أفعل.
- ولهذا صِرْتُ أتهيأُ دوما لحدوث الكارثة، ففي كل مرةٍ أخرج إلى الصالة أقول ها هو شيءٌ سيحدث.. سيحدث.. سيحــ.. سيــ.. ثم فجأأأةً.. طاااااخ.. هههههههههههه.. هاتفك يقع.. أو عصيرك ينكب.. أو أنت نفسك ترتبك وتضطرب وتتعثر.

ضَحِكْتُ: يا للفضائح والخيبات! يا للفضائح والخيبات! لكن انتظري هنا.. مهلًا مهلًا مهلًا.. قد عرفتِ بكل هذا ومع ذلك تركتِيني وحيدًا مع تخيلاتي وتأويلاتي ولم تساعديني ولا مَرَّة.

- بل يا ليتني أساعد نفسي، فأنت لا تدري أيضًا ما يحدث لي.
- كيف هذا؟!
- كيف حالك إذن؟ اِحْكِ لي عمَّا فعلت اليوم.

- لا لا لا والله أبدًا، مُحَال، أتظنينني أتركك هذه المرة؟

- كُنْ رفيقًا بي أرجوك.

- بل سأجعلك تدفعين ثمنَ إعْراضك هَذَا غاليًا، حان وقت الحساب، هيا، هيا، كلِيّ آذانٌ مُصْغِية.

قَاوَمَتْ، حاصرتها، أذعنت: أعلم أن ما سأقوله عجيب وغريبٌ جدًّا، ولا أعلم إن كنت ستصدقني أم لا.

- أُصَدِقُك مُقَدَّمًا، هيَّا، هيَّا..

- أتعرف مثلًا أني في أوقاتٍ كثيرة كنتُ أعرف بوجودك في المنزل حتى لو لم أكن أعرف قبلها بقدومك.

- أتتهربين بالألغاز؟! أتظنينني أُطْلِقُ سراحك؟

- لا أتهرب والله، لكن.. كيف سأشرح هذا!.. حسنًا.. أرجو أن تفهمني إذن.. فمثلًا عندما أكون بغرفتي أذاكر أو أقرأ أو أتحدث في الهاتف.. فجأة.. والله يا زين فجأة.. انتبه.. كأنَّ شيئًا لكزني، صوتٌ يهمس لي: "زين هنا"، رغم أني لم أسمعك تتكلم مع رائد مثلًا أو تتضاحكان كعادتكما، ولم أسمع مثلًا صوت سيارتك قادمة، أو أمي و إخوتي يرحبون بك كالعادة.

- تقولين "صوتٌ يهمس لك!".

- ليس صوتًا بالمعنى الحرفي للكلمة بل همسٌ داخلي، إشارةٌ بداخل عقلي تنبهني بوجودك قربي أو حولي، وفعلًا عندما أخرج من الغرفة وأراك يتملكني الذهول تمامًا، فكيف يحدث هذا؟! وما تفسيره؟! هناك شيءٌ حقيقي أشعر به، شيءٌ لم أجد له تفسيرًا إلَّا أنَّ ما بك ليس عاديًّا، وأنَّ هناك ما يخرج منك ليفعل بي ما يفعل، وهذا الشيء تزيد سطوته عليَّ عندما أقترب منك، بل ويبلغ أقصاه عندما تُصافحني عيناك بتلك النظرة، حينها يتلبسني خدرٌ تام، وأشعر بوهنٍ وضعفٍ شديدين، بل وحتى عندما أفتح باب المنزل وأتجاوزك يظل هذا الوهن متملكًا مني، ثم أني لا أفيق إلَّا عندما أسمع صوت محرك السيارة، هذه سيارتي!!، فمتى ركبتها؟! ومتى أدرت محركها؟! بل متى ذهبت للجراج أصلًا؟! ماذا حدث في تلك الثواني القليلة! لا أذكر.

في غفلة الحكي والنشوة لم أشعر بأنَّ دمعتين كبيرتين تتجمعان بعيني، فكلاهما كان مُسْتَغْرَبًا لكني لم أستغربه، بدوت لها مُنْدَهِشًا لكني فِعْليًا لم أكن، فما تقوله كان مُتَّسِقًا مع يقيني بأن ما حبي لها لم يكن يومًا عاديًّا، فقط كنت أتشوق إلى أن أعرف صداه منها، وأن أرتوي شيئًا بسماع تفاصيله.

غلبتني دمعتاي، فواريتهما وراء ضحكة: أمعقولٌ يا عائِشة؟! أيُصَدَّقُ ما تقولين أصلًا؟!

- والله كما أقول لك، بل حتى أني والله في مراتٍ كنت أوقف محرك السيارة واتصل: "أمي، ألَا تذكرين إلى أين كُنْت ذَاهِبة؟! فتقول عُودي، عُودي يا مجنونة".. ماذا؟!.. أتضحك يا زين؟!.. أتضحك؟!.. ويلك مني إذن.

***

مع الأيام، وشيئًا فشيئًا، ودون أن أفهم - أو حتَّى أسعى للفهم - صِرْتُ أُحِبُ ما تحبه عائِشة، وأكره ما تكرهه، وأتعلق بكل ما حتى تلمسه أو يلمسها، فسيارتها التي تحظى برفقتها هي أجمل سيارة، وبيتها الذي ينعمُ بأنفاسها هو أجمل بيت، وزهر حديقتها الذي يُشْرِقُ على وجهها إنما هو أَنْضَرُ الزهر وأَحْلَاه، أمَّا العطر الذي تتعطر به - إنْ لم يكن هو الذي يتعطر بها - فمن المستحيل أَنْ أجد له مثيلًا، بل في اعتقادي أنه مصنوعٌ لها خِصِّيصًا، والأغلب أن صانعه قد مات بعد أن أدرك أنه لن يصنع أفضل منه، صار ذوقي في الطعام كذوقها، كيف يا زين لا تحب هذا الصنف؟! بل أين كان هذا الطبق قبل اليوم؟ أَوَ تدري؟! والله إنَّ طعمه لفيه فلسفة لم يُدْرِكْهَا بعدُ الذوَّاقة والعارفون. صِرْتُ، أيضًا، أعشق رؤية نفس الألوان التي ترتديها، بتركيباتها وتوافيقها مع بعض البعض، وهي التوافيق التي أيقنت أنَّها إنْ دَلَّتْ على شيءٍ فإنما تدل على الذوق الراقي والمزاج العالي، وربما هذا ما جعلني أقع دائمًا في مواقف مُحْرِجَةً مع داليا حين أقترح عليها أن ترتدي ثيابًا لها نفس تلك التركيبة من الألوان.

- وما أعلمك أنت بالألوان وبدرجاتها وبتوافقاتها يا زين؟! كيف يليق هذا بذاك؟!
- أنا المخطيء إذْ أردتك أنيقة.
- أنا لا أقصد.
- لم يعد يهم إنْ كنتِ تقصدين أو لا.
- زين أنت لا تفهم السؤال! أنا أقول من أخبرك بأَنَّ هَذَين اللَّوْنين متوافقان؟!

أتصنَّعُ الاِنْفِعَال: وهل مثل تلك المُسَلَّمَات تحتاج لأقاويل؟! وهل تلك النظريات تعوز إثباتات؟! تلك قواعد الموضة والأناقة والفيزياء والكيمياء يا سيدة العارفين.

ثم أني أعود لأحكي لعائِشة فلا تستطيع إيقاف ضحكتها كالعادة..

- لا لا لا مستحيل، لطالما حَكَتْ لي داليا عن مُناكفاتِكما ومُنَاقرتكما لبعضكما البعض وكنت أظنها تُبالغ لولا أن صرت أسمع منك ما يحصل.

- لم أنجُ منها يومًا تلك الأريبة، تزداد فِطْنةً وشراسةً مع الوقت.

- لو سألتني لأجبتك، فما أرتديه ليس هذا اللون الذي ذكرته مُطْلَقًا.

- أحقًّا؟! يا للحَرَجْ! وأنا الذي تماديت مُتَصَنِّعًا الحذَاقَةَ والفَهْم.

- هذان اللونان بالذات يخْلِطُ بينهما الناس كثيرًا، خُصُوصًا في الإضاءات المختلفة، أعتقد أنك مدينٌ لصغيرتنا هذهِ المرةِ باعتِذَار.

- لا لا أيُّ اعتذارٍ هذا الذي تتحدثين عنه؟! والله لو فعلت لاِنْعَجَنْتُ في ثقبٍ أسود من السخرية والشماتة لن أخرج منه قبل أيام، أعتقد أني سأختفي عن ناظريها فقط لبضعة أيام.. أو سنوات.. وكفى.

ضحكنا. ابتدرتها: بالمناسبة، يقولون أن الطقس غدًا شديد شديد الحرارة، فالزمِي المنزل أرجوكِ، وحاولي تأجيل مشاويرك كلها.

- من هؤلاء الذين يقولون؟

- في نشرة الأخبار والله.

- إذن ألم يقولوا في النشرة أيضًا أن اختبار عائِشة غَدًا؟!

- كيف فاتني ذلك؟! إذن رجاءً لا تتساهلي ككل مرة وخذي حذرك من سخونة السيارة وحرِّ الطريق، لا تُفارقك زجاجات المياه.

- وماذا ستفعل غدًا إذن؟

- لدي بضعةُ محاضراتٍ أُلقيها، ثم أعود لأتجهز لباقي محاضرات الأسبوع القادم.

- أَلهذا لم تتصل بي اليوم ولا مرَّة وكنت أنا المـُتَّصِلة؟

- يعلم الله كم كنت أتوق إلى الاتصال بكِ ولكني تركتك تُذَاكَرين لأجل اختبار الغد.

- وإنْ يَكُنْ! اتصل بي ثم دعني أقولها بنفسي: "أنا أذاكر يا زين مع السلامة الآن".

- أَأَنا المُلام إذن لأني أحاول الحفاظ على مستقبلك لِئَلَّا يتحطم؟!

- لو كان حُطَامه على يدك فلا بأس، أنا راضية.

- بمناسبة المذاكرة إذن.. أين غرفتك؟

- ما هذا السؤال؟!

- فقط أجيبيني، أين غرفتك؟

- وأين قد تكون؟! بمنزلي..

- أحقًّا؟!

- إلام ترمي؟

- تَعَجَّبْتُ فقط أني أعرف مكان غرفة رائد وكل إخوتك، بل وغرف المكتب والجلوس والطعام، ولا أعرف أين قد تكون غُرفتك!

- غرفتي هي تلك التي تطل على ذلك الشارع الجانبي، شارعٌ واسعٌ مُشَجَّر لكنه مغلقٌ من الناحية الأخرى، حيث نقطة شرطة لم تزل منذ أن تولى أبي الوزارة.

- عَجَبًا، كيف لم أَلْحَظْ هذا من قبل؟!

- لأن الشجرَ كثيفٌ فعلًا في تلك الناحية ويحجبُ شباكَ الغرفةِ شيئًا، لكني أستطيع رؤية الشارع جيدًا من مكاني، يمكنك حتى أن تلاحظ ذلك في المرة القادمة حين تُدَقِّقُ النظر.

- ولم أنتظر المرة القادمة؟

- ماذا تعني؟!

- أنا في الطريق فِعلًا.

صَاحَتْ: أي طريق؟!

- لن يغمض لي جفنٌ حتى أتأكد من موضوع الشباك هذا.

- زين! تَعَقَّل! لا!.. لا!.. زين!

- أقول لن يغمض لي جفن! ألَا تُشفقِين؟!

- زين أرجوك، لا مزاح في هذا الأمر، أنت لا تعرف الوضع هنا، ستُسَبِب لي ولك حَرَجًا ومشاكل.

- لا مشاكِل بإذن الله.

- لدي اختبارٌ غدًا، أنسيت؟!

- مُوَفَّقَةٌ بإذن الله.

- إنه الاختبار النهائي، إنه اختبارٌ هامٌ جدًّا، وبِنَاءً عليه سيتحدد جزءٌ كبيرٌ من حياتي ومستقبلي.

- مستقبلك! أو ليس هذا الذي كنتِ تُرَحِّبِين بتحطيمه منذ قليل؟! ها قَدْ أَتَتْكِ الفرصةُ على طبقٍ من فِضَّة، عائِشة قُضِيَ الأمر، تلك الآن مسألةُ حياةٍ أو موت، فكيف أحفظ كل شبابيك منزلكم ولا أعرف أهم شباك فيه! نعم نعم، ها هو، أتصدقين؟ إني أرى فعلًا شباكًا صغيرًا لطيفًا جميلًا من بين الشجر؟! ولكني أشك في أنكِ ترين الشارع جيدًا كما تقولين، ها أنذا، هل ترينني؟!

ثوانٍ وانفرج الشباك بترددٍ وخرج كفها مُلَوِّحًا: هل تأكدت الآن؟

- إلى حدٍّ ما.

- أهناك من أخبرك بأنك عابث؟

- إذن ألَّا يستحق هذا العابث لمحةً من وجهِك الكريم مَثَابةً على وقته ومجهوده وعلى مغامرته تلك المحفوفة بالمخاطر؟

انفتح الشباك بعد تردد: لُطْفًا بك هذه المرة فقط.

- هذه الإطلالة قد لا تفيها مرةٌ واحدة.

- يبدو أننا سنعاني كثيرًا ها هنا.

حاصرني ألقُ وجهها: يا الله! أين كان هذا الشباك قبل اليوم؟! وكيفَ لم أدرِ به؟! فيالحظه! ويا لحظ هذا الشجر وتلك السماء وذلك الشارع الجانبي الواسع المغلق من الناحية الأخرى، أتعلمين؟ أنا الآن لا أريد من الدنيا شيئًا، لا أريد مَالًا ولا مَنصبًا ولا جَاهًا ولا ثَراءً، يكفيني فقط أن أقف هكذا أتأملك أَبَدَ الدهر.

ضَحِكَتْ: وكأنه نذرٌ أن يحطم كلانا مستقبل الآخر، صِرْتُ أخشى عليك والله.

- ممَّن؟

- مني مثلًا!

- هكذا اتفقنا أن حياتي بيدك، فترفَّقي.

- الذي يقطع تلك المسافة مُعَرِّضًا نفسه للمشاكل لأجل معرفة مكان شباك لا يحتاج لمن يترفق به، لأنه مجنونٌ انقضى أمره.

- والله ولو كنتِ في آخر الدنيا لارتحلت إليك لأفوز ولو بلمحةٍ واحدة، عائِشة أنت لم تفهمي بعد، أنا أريدك أنت فقط، أريد أن أمكث أبد الدهر لا أنظر إلَّا لكِ، ولا أسمع إلَّاكِ، وما مجيئي تلك الساعة إلَّا لشدة الشوقِ إليكِ..

- توقف إذن..

- فما دونك لا أسمعه ولا أراه، بل لا أشعر به أصلًا، أنتِ لم تعرفي بعد كيف أنتِ بالنسبة لي، أنتِ لا تعرفين أني على استعدادٍ لأفعل أي شيء، وكل شيء، فقط لأكون بالقرب منكِ.

تَهَدَّج صوتها: توقف إذن.. هذا الكلام.. هذا الكلام يا زين.

الحرارة تستشري بعروقي، تضطرب أنفاسي وقلبي يتلاحق نبضًا: فأنتِ لم تعرفي بعد كم أحبك..

- زين.. انتظر.

- حقًّا أحبك، تأخرت في قولها ربما لأنها قليلةٌ، شحيحةٌ، مسكينةٌ، إذا ما قُورنت بما أشعر به نحوك ونحو ما اندسَّ في كياني رغما عني ناحيتك، لم أكن أتصور يومًا أن يُفعل بي كل هذا يا عائِشة، أنا الذي سألت القدر في كل لحظةٍ أنْ رِفقًا ورحمةً، لكنه صلاني تَعبًا وشَقَاءً وعُسْرًا وعِشقًا واِشْتِياقًا وسَهَرًا ولهفةً، ليتفاقم فِيّ حبك حتى لم يعد يكفيني فيه قلبٌ واحدٌ، فصار لي مائة قلب، لي مائةُ قلبٍ يا عائِشة كلها تحيا لكِ وتنبض بكِ، كلها تشتاق لحضورك وفي غيابك تهيمُ بحثًا عنكِ، في ألوانِ الثيابِ وروائحِ الزهرِ وأنفاسِ الهواء، في ثنايا الطريقِ ووجوهِ الناس، في كل تفصيلةٍ وكل خطوةٍ وكل لحظة، أشعرُ بأنكِ كثيرٌ يا عائِشة، كثيرٌ عليَّ أنا المسكين المغلوب على أمري، ولهذا كانت سؤالي دومًا ليس أن كيف أصل إليكِ، بل ماذا أفعل كي استحقك؟! ماذا الذي ينبغي أن أكونه كي تصيري لي، بِكِ أشعر أني أملك الدنيا بما فيها، ودونك أشعر بالفقد والوحدة، كأقسى ما يكون الفقد وأعظم

ما تكون الوحدة، أحبك وأشتاق إليك، فلا تستكثري عليَّ رؤيتك أنا الذي كانت دقيقتي الأسبوعية هي قِسْطي الذي قنعت به من حبك، وكانت تفاصيلها هي فتاتي التي يعتاش عليها قلبي بأيام غيابك، عائِشة، لي الآن مائة قلب بل وأكثر، فإن ابتعدتِ عني لأي سبب لن أموت مرةً واحدة، بل سأموت مائة مرة.

مع آخر حرفٍ انفلتت من قعرِ القلب تنهيدةٌ، طويلةٌ، حارقةٌ، وكان ذلك حين راعني الصمت..

- عائِشة!

لا رد!..

- عائِشة.. ألَا زِلتِ هنا؟!

اِنْحَسَرَ الشباكُ شيئًا قبل أن يُراعِني النشيج: عائِشة! ما هذا؟! أهذا بكاءك؟! عائِشة.. أتبكين؟!..

جريت ناحية شباكها جَزعًا، لولا أن راعني اقترابي غير المحسوب فعُدْتُّ إلى مكاني مُسرعًا، دُرتُ في محيطٍ ضيقٍ محاولًا اقتناص زاويةٍ واضحةٍ لوجهها: عائِشة.. لا.. لا بالله عليكِ.. لا لا.. ماذا يحدث؟!.. ما بكِ؟!

تَمالَكْت: لا أعرف، حقًّا، لا أعرف!..

- هل قلت ما أغضبك؟! هل تَجَاوَزْت؟! هل تَلَفَّظْتُ بما يُسِيء؟!

- بالعكس تمامًا، أنا فعلًا لا أعرف ماذا يحدث لي.. ربما.. ربما فقط هو كلامك.. ومشاعرك.. أعني.. لقد لَمَسَتْنِي كل كلمة قلتها.. كل حرف.

أزاحت الشباك وهي تمسح دموعها: تلك أول مرة يحدث لي فيها ذلك، أنا آسفة..

- بل أنا الآسف، حقًّا أنا الآسف، أأنتِ بخير؟

راحت تفضُّ خصلات شعرٍ ألصقتها الدموع بوجهها: أنا بخير.. بخير.. لا بأس.. لا بأس.

تأملتها: وَيْلي! بقدرِ ما تخيلت ما قد يكون بيننا يومًا من سعادةٍ وهناءٍ، وبقدر ما تخيلتك ضاحكةً ومندهشةً ومستنكرةً.. بل وثائرةً أيضًا.. إلَّا أني لم أتخيلك يومًا باكيةً، بل وأن أكون سببًا في ذلك.

- المهم أنك قد عرفت مكان الشباك الحمد لله.. أكنت تدخر كل هذا لي؟!

- وهل قُلْتُ شيئًا بعد؟! تلك قطرة من فيضِ عامين، أنتِ لم تريّ إلَّا القليل، ولا تعرفين إلَّا أقلَّ القليل.

- ألم أخبرك أننا سنعاني كثيرًا ها هنا؟

- إذن لتعتبري أني لم أقلْ شيئًا، ولن يتكرر ذلك.

- أريدُ أن أسألك سؤالًا.

- ما شئتِ.

- هل قد تبتعد عني يومًا؟

بوغِتتُّ: لِمَ قد تظنين ذلك؟

- فقط أسأل.

- أبعد كل هذا تسألين؟!

- لا أريدك أن تبتعد.. بل لا تفكر في ذلك حتى..

- لم؟!

- لن أقوى على ذلك.

- لم؟!

- لأني.. لأني.. أعني..

اِرتعش ثغرها تردُّدًا قبل أن تنطبق الشفتان سكوتًا: لا شيء.

- أأنتِ بخيرٍ إذن؟

- أحاول..

- حسنًا، ماذا إذن؟ أأتركك لترتاحي؟

- أوتتركني بعد أن فعلت فعلتك؟

- أقصد لترتاحي قليلًا.

- أنا هكذا مرتاحة.

- أو حتى لأجل مذاكرتك، لأجل مستقبلك، أتذكرينه؟

- طبعًا أذكره.. وكيف أنساه؟!.. الله يرحمه.

انفلتت ضحكاتنا بنفس اللحظة، ضحكات حاولنا كتمها فلم نستطع، فانزلقنا إلى هزلٍ لم نقدر على كبحه وكأنما نكيدُ كيدًا للحظاتِ الصعبة الماضية، حتى أُنْهِكْنَا وتَعَرَّقْنا وتلاحقت أنفاسنا فبدونا كمجذوبين فقدا العقل، وحتى زحف الظلام وشحَّ الناس فبدوت بوقفتي تلك مُثيرًا للريبة، خصوصًا مع تقدم أفراد الحراسة بطول الشارع، هكذا لم أجد بُدًّا هذه المرة من توديعها مُنهكًا مُتعبًا، مُغادرًا المكان جسدًا.. لا قلبًا وعقلًا!..

وبالسيارة حملتني الشوارع سارحًا عودًا لمنزلي، منزلي الذي كان يبتعد كلما اقتربت، وكأنَّ اللاوعي يأبى لليوم أن ينتهي متوَدِّدًا لساعاتِ الليل أن تطول بقدر ما تطول، طَرِبٌ قلبي باشٌّ صدري بعد أن خَفَّت روحي لكلامٍ فاض أخيرًا عن الصدر، بعد ساعةٍ من اللفِ بغير هدى وجدتني أمام المنزل.. منزلها!.. وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، الشباك موصد، والشارع مُظلم، ماذا لو انتظرت تلك الساعات حتى الشروق وحتى تفتح عائِشة الشباك بنفسها فأحظى منها بما قد أحظى قبل أن أذهب لعملي؟ حين بدأت أتهيأ نفسيًا وجسديًا لساعات الانتظار والوقوف تبدَّد الظلام من حولي فجأةً بمصباحٍ كان فوق الشباك، قبل أن ينفلق الشباك نفسه ببطءٍ واثقٍ حكيمٍ عن وجهها - عائِشة - تزامنًا مع هاتفي يرن.

- الشباك لم يزل مكانه فاطمئن.

حين استوعبت: كيف؟!

- لا تسألني لأني أخبرتك أني نفسي لا أعرف كيف.

- لقد أوقفت السيارة بعيدًا هذه المرة، ولم أُخبرك بقدومي أو..

- أصدقتني إذن؟

- تلك أعجوبة! والله لا أستوعب، أنا فعلًا..

- عمومًا تلك فرصة سعيدة كي أخبرك..

- تخبريني بماذا؟

- بأني أحبك يا زين..

انخطف قلبي: عائِشة!

أَرْدَفَتْ: أحبك كثيرًا، كثيرًا جدًا يا زين، وبأكثر مما تتخيل أو تتصور، بل وحتى من قبل أن تعرف أو تشك بذلك.. وسامحني.

- أسامحك!

- لأني لا أستطيع أن أعبر أكثر من ذلك أو أن أصف بنفس الطريقة التي تصف بها أنت.

اِبْتَسَمْت دامِعًا: سأحاول التعايش مع ذلك.

- وسامحني أيضًا لأني قد تأخرت في قولها.

ضَحِكْتُ: لا بأس أيضًا، نحن متعادلين في ذلك.

***

تكبر فِيّ عائِشة يومًا بعد يوم، بلا حدٍ ولا حَصْر، سبعة أيامٍ تَبَقَّتْ حتى موعد الزفاف يجري فيها العمل على قدمٍ وساق في تجهيزات الشقة والزفاف، استعدادًا ليومٍ، مهما اقترب، يبدو لي كأبعد ما يكون.

- حسنًا، ماذا تريدين إذن ألوانًا للحوائط؟

- لا يهم يا زين والله، أي لون..

- اقترحي فقط لونًا..

- إذن ماذا تحب أنت؟

- المشكلة أن لم أعد أعرف ما أحبه لأني صرتُ أحب ما تحبين.

- وأنا أيضا صِرت أحب ما تحب.

- هذا لغزٌ والله.

- دعني أساعدك، ما لون الحوائط الآن؟
- أبيض.
- إذن دعها بيضاء.

***

- تذكري دومًا يا عائِشة، بأنه لم يعد لي قلبًا واحدًا، بل كل جزء في جسدي وكأنه له قلب.
- ها قد صرت شاعرًا.
- بل صرت تحت رحمتك، فلا تبتعدي عني لأي سبب.
- ومن قال لكَ أني سأبتعد عنك، أو حتى أفكر في ذلك، أنا لا أريد إلَّا أنت يا زين، أتفهمني؟ أنت فقط.

***

- زين، هل فعلًا تحبني بكل هذا القدر؟
- لم تُخلقي للحب، بل خُلق الحب لأجلك.
- لا تبتعد عني لأي سبب، فأنا بكَ حقًّا لا ينقصني شيء.
- وأنا من غيرك ينقصني تابوت.

***

- اعترف يا زين.
- بم؟
- من أين تأتيني بكلامك هذا؟
- والله هو يخرج مني كيفما يخرج.
- أواثقٌ إذن أنك عاشق المرةِ الأولى.
- صفحةٌ بيضاء يا حبيبتي، صفحةٌ بيضاء لتنقشي عليها ما تشائين.

- أليس هناك أُخْرَيات إذن ؟

- والله لا أخريات.

- لا أخريات يا زين!

- والله لا أخريات يا عائِشة.

- زين!...

- اسأليهن إنْ أردتِ.

***

- زين، لقد اشتريته.

- اشتريتِ ماذا ؟

- فُستان الزفاف..

- أحقًّا ؟! صِفيه لي إذن.

- ستراه بعد أيام.

- ولو شيئًا واحدًا فقط.

- أبيض.

- حقًّا أسأل!

- والله أبيض.

***

لم يكن صعبًا، خلال كل هذا، أن أخمن أنه غاضُبٌ ولائم، رائد! والذي صار يسأل ويبحث عني كما لو كنت مجرمًا هاربًا، إذ شحَّت لقاءاتي به منذ يوم الخطبة قبل أن تنعدم اللقاءات تمامًا - به وبالجيَّان وبرفاق المجلس كلهم - منذ صار شباك عائِشة هو حلِّي وتِرْحالي، وحظوتي التي لم أفوتها، إذ كنت ارتحل إليه سرًّا مرتين وثلاث بل وأحيانًا أربع مرات يوميًا، في منتصف الليل وفجرًا وفي الصباح الباكر قبل

ذهابي للعمل، مُكتفيًا في مراتٍ كثيرة بتأمله - شباكها - لا لشيءٍ إلَّا لأنها هناك، خلفه، مُتَعَلِّلًا لرائد كلما هاتفني بإعدادت الزفاف وتجهيزات الشقة وسباكتها وكهربتها ودهاناتها..

- وخشبها وأثاثها وغرفها ونجفها وسقفها بل وحتى الكهرباء، أتدري؟! مشكلة كبيرةٌ الكهرباء هذه يا رائد والله..

يُرددها رائد مُتقمصًّا أسلوبي وطريقتي بعد أن قفز إلى جواري بالسيارة حين مررت عليه بمخفر الشرطة قبل أن يردف:

- وماذا أيضًا؟! ها، ماذا أيضًا؟ أهناك ما فاتني؟!.

- يا أخي اعذرني، يا أخي فأنا منذ الخطبة وأنا ألف حول نفسي، يا أخي أنا..

- لا لا لا إياك والقسم والتبريرات، انطلق.. انطلق قبل أن أقبض عليك بتهمة البلاغ الكاذب.

ضحكنا. ابتدرني: ماذا لدينا اليوم إذن يا راعي التعليلات؟!

- سنذهب أولًا لقاعة الزفاف لدفع باقي المبلغ، ولاختيار أصناف الطعام وكمياتها، هل أَحْصَيت عدد القادمين من عندك؟

- ليس بالضبط. لكن أمي منذ يومين لا هم لها سوى أن ترسل دعواتها للجميع.. وأنت؟

- الكلُّ قادم لا محالة، فأمي لا ترسل دعوات، بل تهديدات وتوعدات.

ضحكنا، "ها، كيف تشعر إذن؟!". سألني.

- مضطربٌ، خائفٌ، متوترٌ، قلقٌ، وصِف ما شئت.

- نفس الأمر بالنسبة لي، فمنذ الأمس وأنا أدعو الله أن يمر اليوم على خير.

- ألتلك الدرجة؟!

- بل وأكثر.. رؤسائي في العمل، رجالُ النيابات والسفارات، وزراء وشيوخٌ كبار وأعضاء بمجلس النوَّاب، وناس لهم وزن وثقل، أضعاف أضعاف من أتوا يوم الخطبة.. لا مجال لأدنى خطأ..

- ونعم الطمئنات التي يبثها كلينا للآخر في هذا الوقت، أخبرني إذن، هل من جديد؟

- بشأن؟

- موضوعك.

وَجَمَ فجأة: كلا.

- ولا أي شيء؟

- على الأقل بشأني.

- ماذا تعنى؟

- سمعت أن هناك من تقدم لخطبتها منذ أيام..

- ثم؟

- لا أعلم، لكني أظن أن شيئًا لم يحدث.

- ألم تبادر الجبَّان؟

- وماذا أقول له! لقد تركتني في عرض البحر.

- وهل تظن أني سأرافقك حتى عش الزوجية، أنت من عليه أن يُبادر ويتحرك..

- المزاح هو ما تجيده.

- اسمع اسمع سنجلس بنهاية اليوم سويًا..

- لا لا، ركز فيما أنت مقبلٌ عليه، ولا تشغل بالك بي هذه الأيام.

- انتهز الفرصة، هذا عرضٌ قد لا يتكرر.

- لا لا.. بعد زواجك نجلس كما شئنا.

- وهل تجدني قبل الزواج حتى تجدني بعده؟

ضَحِكَ مهمومًا: اعترافك نقطةٌ بيضاء وسط كل هذا، وفَرَّت علي اللوم والعتاب.

توقفنا في إشارة مرور، تقدم شرطيٌ مني طالبًا رخصتي القيادة والسيارة، فناولتها له. توجهت بعدها لرائد فوجدته مُشيحًا بوجهه ناحيه النافذة:

- رائد، أنا لا أحب أن أراك بتلك الصورة.

- دعك مني، ولا تحمل همّي..

- بل سأحمله، سننتهي من مشاويرنا ثم نجلس سويًا بعيدًا عن المنازل والبيوت، لنرتب ما يجب فعله، ونشحذ تلك الهمة المترددة من جديد..

"أأنت زين؟!"

قالها الشرطيُّ حين عاد وهو ينقل بصره بيني وبين الرخصة.

- نعم أنا، ماذا هناك؟!

- انزل من فضلك.

- خيرًا يا أخي.

- انزل.

مد رائد رأسه للشرطي: ماذا هناك يا حضرة الضابط؟! كلمني أنا من فضلك.

- هناك أمرٌ بشأن رخصته حين فحصناها على الكمبيوتر، يجب أن يراه بنفسه.

تبادلت ورائد نظرات عدم الفهم.. تهيأت ثم فتحت الباب ونزلت.. لكن ما أن وَطأتْ قَدَمايّ الأرض حتى فوجئت بدفعةٍ قويةٌ من الخلف.. شرطيٌ يثبت معصميَّ.. آخر يضع القيد حولهما.. قبل أن يحاصراني كلاهما من اليمين والشِمال..

كل ذلك تم في طرفة عين..

- ماذا يحدث؟! انتظروا!! لحظة !! ماذا هناك؟!

صرخت بها وهم يجرونني جرًّا إلى سيارةِ شُرطة رابضة على بُعدِ أمتار، قبل أن يفتحوا بابها الخلفيّ ويحاولون دفعي للداخل دَفعًا، قاومت فلم أَلْقَ إلَّا تعنيفًا وبابًا يُغلق بقوة، التفتُّ خلفيِ مصعوقًا بحثًا بعينين زائغتين عن رائد فوجدته قد نزل من السيارة وأخذ يتشاجر مع عساكر التفتيش، مُبرِزًا لهم بطاقة هويته كضابط شرطة فيما تُلَوِّحُ يداه في الهواء متعصبًا أن "ماذا بكم؟!، هذا الرجل أعرفه جيدًا، مستحيل أن يكون قد فعل شيئًا مُخالفًا للقانون، كيف تعاملونه هكذا؟!". كنت أنظر له بقلبٍ انخلع من الخوف راجيًا

ألَّا يتوقف حتى يفهم ما يحدث، غير أني ارتعبت حين رأيته - رائد - يتراجع شيئًا، وتفتر ثورته إثرَ كلامٍ قِيلَ له ولم أتبينه، وكان ذلك في نفس اللحظة التي انسلَّ فيها شرطيٌ ليحتل مقعد القيادة بسيارتي، فيما قفز آخران ليجلسا أمامي، قبل أن تُدار المُحركات كلها في وقتٍ واحد، المحركات التي ما أن عَلا صوتها حتى سَرَتْ في جوفي رَجفة، رجفةٌ رأيت صداها في رائد الذي تبعثرت حيرته بين أفراد الشرطة الذين انفَّضُوا من حوله، وبين السيارات الراحلة، وبين عيني اللَّتين كانتا تتوسلانه ألَّا يتركني، لكن توسلاتي قوُبِلَت بنظرةِ ضابطٍ ألجمته قلة الحيلة، وصديقٍ كسرته خيبة الأمل، وتساؤلاتٍ أطلَّتْ من عينين لم أنس حيرتهما حتى تلك اللحظة؛ أَنْ ماذا بالله عليك فعلت يا زين؟!

- ٧ -

لم أكن أدري قبل هذه اللحظة كم هو مُخجلٌ أن يتفرَّس المارة في ملامحك بسيارة شرطة، وكم هو مزعجٌ أن تُخفي وجهك طوال الوقت عمَّن يَشبُّون برؤسهم ليروْا كيف تكون أشكال المجرمين والمقبوضِ عليهم، كنتُ أُشِيحُ بوجهي مرَّةً ذات اليمين ومرَّةً ذات الشمال، مُتفاديًا نظرةَ عابرٍ أو فُضولَ مار، لكن سيارة الشرطة، في مرورها بالشوارع، كانت كمغناطيسٍ يجذب أعين الجميع، ما جعلني في النهاية أُنَكِّسُ رأسي تمامًا وأغوص في مقعدي أكثر وأكثر، وطوال الطريق لم تَزِدْ إجابات الشرطيين على أيٍّ من أسئلتي عن: "اسكت الآن" و"ستفهم بعد حين".

- هلَّا إذن أطفأت الأنوار والصافرة من فضلك؟
- ألم أقل لك أسكت، لا أريد أن أسمع لك صوتًا.

انفعلت: يا أخي تحدَّث معي بأسلوب أفضل من ذلك، يا أخي من حقي أن أفهم ما يحدث!

- ليس إلَّا أمثالك يقولون ما نفعل وما لا نفعل.
- أمثالي؟ ما بهم أمثالي؟ لم لا تخبر أمثالي إذن ماذا فعلت لكل هذا؟! و إلى أين نذهب؟!، أوليس هذا من أبسط حقوقي؟!
- "حقوقك؟!" قالها والتفت لزميله ضاحكًا.
- نعم حقوقي، وعندما يكتشفون ذلك الالتباس الحاصل سَأُقَدِّمُ ضِدَّك شكوي ولن أتنازل عن اعتذارٍ رسميٍّ، منك ومن رؤسائك.

اقتنصني في مرآة السيارة الداخلية: أنت تشكوني!

- ليس من حقك إهانتي، أو إهانة أي إنسانٍ بتلك الطريقة.
- لك هذا إذن، ولكن حتى نصل و"تشكوني" لا أريد أن أسمع لك صوتًا، وإلَّا أَسمعتك ما لا تُحب.

التقمت الكلام دَرْءًا لمزيدٍ من التطاول، ورُحْت أتساءل بيني وبين نفسي: ماذا أكون قد فعلت لكل هذا؟! هل أكون قد تجاوزت إحدى إشارات المرور؟ أو تعَدَّيت السرعة المقررة! أو انتظرت بمكانٍ يُحظَرُ فيه الانتظار! هل هناك غرامات مرورية لم أدفعها أو مخالفات عالقة بشأني؟! وحتى لو كان هذا صحيحًا فهل يتم التعامل مع القضايا المرورية بهذا الشكل المُبالَغ فيه!..

دقائقُ أخرى مَضَتْ كأنها ساعات، تقطع فيها السيارة الشوارع واحدًا تلو آخر، تصرخ سارينتها فتصفع بدويِّها رأسي، وتتراقص أنوارها فتُزايد على فضحي. إشعارات اللاسلكي وأزيزه، خشونة القيد بمعصميّ، ورائحة السيارة التي تفوح بالـ "رسمية" كلها أشياءٌ جعلت بطني تتكركب دون توقف، وكان هذا حين داهمتني تلك اللافتة: "مخفر الشرطة"..

***

بالمخفرِ تَسَلَّمني شرطيٌّ ثالث بعد أن تَفَحَّص أوْراقًا قدَّمها له شُرطيَّا المرور، قبل أن يسُوقني مُكَبَّلًا عبر ممراتٍ اِكْتَظَّت بالضباطِ والعساكر.

- أريد أن أفهم ماذا يحدث بالضبط؟! ماذا فعلت لكل هذا؟!
- طبعًا طبعًا ستفهم حالًا.
- لدي أمور كثيرة والتزامات يجب أن أفي بها، لو أن هناك شيئًا بشأني فأخبرني به، لكني واثقٌ أن هناك خطأً ما، ثمَّة التباسٍ حَاصِل بكل تأكيد.
- أدخل الآن وسنرى موضوع الالتباس هذا..

قالها وفتح لي بابًا، كان باب الحَجْز، هبط قلبي في ساقي..

- لا لا لا.. ما هذا؟! مستحيل أن أدخل إلى هكذا مكان، يا أخي ماذا يحصل؟! حقًّا ماذا يحصل؟! يا جماعة تحروا جيدًا من فضلكم، هناك خطأٌ بكل تأكيد.. أنا لم أفعل شيئًا..

أَزَاحَني للداخل: أدخل الآن وسنرى بعدها إن كنت فعلت أو لم تفعل.

تَشَبَّثَت قدماي بالأرض: إذن سأنتظر في غرفة أو في مكتب حتى تنظروا في أمري، لكني لن أدخل هنا.

- أهي لوكاندة؟! أيُّ غرفةٍ وأيُّ مكتبٍ هذا الذي تريده؟! هيا كفاك تلكؤًا لا وقت لدي.

قالها وهو يدفعني هذه المرة بقوةٍ أكبر، فأُلْقيتُ للداخل عِدَّةَ خطواتٍ سمحت له بالكاد بإغلاق الباب. قفزت إلى القضبان:

- أريد أن أعرف إذن ما الأمر! ما تُهْمتي؟ ولا أظن هذا بالشيء الكثير، لَبِّ لي هذا الطلب فقط، لأنك حتمًا ستجد مكمن الخطأ.

أكمل إغلاق القفل مُغَمْغِمًا دون أن ينظر لي: حسنًا حسنًا، سأبحث لك عمَّا تريد، عساك تكف عن الثرثرة.

غادرني فوقفت على أطراف أصابعي مُلْتَصِقًا بالقضبان كي أتتبعه، فلا أفقد أثَرَه بين الضباط والعساكر، لكني في الواقع لم أَحْتَجْ إلى أن أقف أو أتعلق بأيّ شيء، فهو لم يغادر، بل وقف على بُعد بضع خطواتٍ مع شُرْطيّ المرور ورحرحوا ثلاثتهم بأحاديثَ جانبية وكأني غير موجود تمامًا، ناديته فلم يسمع، أو ربما لم يهتم، علوت بصوتي أكثر فالتفت وزميلاه إليّ، مُسْتَغربين وكأنهم يرونني للمرة الأولى، قبل أن تتلاقى رؤوسهم في همسٍ قصير اِرْتَجَّ بعده المكان بضحكاتهم، ما بدا أني كنت موضوع النُكتة.

فوجئت بهم يتصافحون ويتفرقون.

تشبثت بالقضبان جَزِعًا: أنتم! إلى أين تذهبون؟! عودوا! كيف تتركوني هكذا؟! أريد أن أفهم لم أنا هنا؟! ليُجِبْني أحد! ما تلك المعاملة؟! ما هذا الإذلال؟! أخرجوني من هنا!

هرول ناحيتي شُرطيٌ بوجهٍ غاضب: أنت! أَجُنِنْت؟! ماذا تفعل؟! لا تصرخ بتلك الطريقة هنا!

- لِمَ أنا مقبوضٌ علي؟! أريد أن أعرف ماذا فعلت لكل هذا؟!
- أتمزح؟! كيف لا تعرف سبب وجودك هنا؟!
- أقسم بالله أني لا أعرف، أخذوني من السيارة إلى هنا ومضوا.

تململ وتلَفَّت حوله: حسنًا حسنًا، صباحًا صباحًا سوف نرى أمرك.

صُعِقْت: صباحًا؟!. لا لا لا صباحًا ماذا؟! مستحيل أن أمكث في هذا المكان حتى الصباح، أخرجني من هنا، لا تتركني حتى الصباح، لدي أمورٌ هامة يجب أن أقوم بإنجازها اليوم، اليوم أقول، أخرجني من هنا حالًا.

- أُخرجك؟! أنكتةٌ هذه؟! لا أستطيع أن أُخْرِجك، وليس من حقِ أيّ شخصٍ أن يُخرجك، أنت رهن الاعتقال لتهمةٍ أو لجرمٍ ارتكبته بكل تأكيد.
- أي تهمةٍ وأي جرمٍ هذا الذي تتحدث عنه؟! أنا لم أفعل شيئًا، ما هي تُهمتي إذن؟ ما هو جُرْمي هذا؟ أخبرني إذن إن كنت تعرف.
- وكيف لي أن أعرف؟! أنت الأدرى بما فعلت.
- يا أخي لقد أُهِنْتُ بما فيه الكفاية.. في الشارع.. أمام صهري وأمام الناس.. تَصَرَّف.. لا أستطيع أن أمكث هنا أكثر من ذلك، هناك من ينتظرونني، وربما يبحثون عني الآن، فأنا.....

بنفاذ صبر: اِسمع.. اِسمع.. اِسمع..

امتلأت القضبان بوجهه: لن تخرج من هنا ولو صرخت ليوم الدين، فاهْذِ بما شئت، وقُلْ ما شئت، لكن لا تنادي ولا تعلو بصوتك مرةً أخرى في هذا المكان وإلاَّ قسمًا بربي لأُسمعنّك كلامًا لن تنساه في حياتك، ولأُهيننك أمام الموقوفين معك في الحجز.

أُخِذْتُ من حدته شيئًا فتراجعت عن القضبان خطوتين للوراء حين اِنتبهتُ في تلك اللحظة أني لم أكن وحدي، فخلفيّ تجاور ستة أشخاصٍ في الظلام غير عابئين بما يجري حولهم، فقط تعلقت عيونهم بالسقف وكأنهم يتابعون شيئًا لا يبدو إلَّا لهم، حين التفتُّ للشرطيّ وجدته قد غادر، ذاب في لحظةٍ بين الناس في الممر، فأسندت جبهتي إلى الباب كمدًا فيما غاص عقلي بحثًا عن سببٍ يُقنعني، ولو مؤقتًا، بما أنا فيه، حاولت أن أتذكر كل ما مررت به الأيام والأسابيع والأشهر الماضية، مُسْتعرضًا عشرات الأحداث والمواقف والتواريخ، هل ثمّة من قَدَّم فيّ شكوى بخصوص أمرٍ ما؟! هل تَعَدَّيْتَ بفعلٍ أو قولٍ ما دون أن أقصد؟! هل هناك غرامة أو مُخالفة بشأني لم أسددها؟!

مَضَتْ ساعةٌ أخرى كنت أقطع فيها الحجز جِيئةً وذهابًا، أفكر ولا أهتدي إلى إجابات، وما أن ألمحُ شرطيًا حتى أَثِبُ ناحية القضبان، مُناشِدًا ومتوددًا، لكن التجاهل كان دومًا سيد الموقف، أَما من خالف القاعدة وأتاني منهم مُتَعَطِّفًا، فلم تزد ردوده عن كلماتٍ ليست أكثر من ترضيةٍ لطفلٍ صغير.."حاضر!!".. "سننظر في أمرك!!".. "سنرى بعد حين".. حتى مَضَتْ الساعات وبدأت الممرات تفرغ إلَّا من بعض السُعاة وعُمال النظافة، وبدأت الأصوات تسكن إلَّا من همس الحراسة الليلية، وحتى حلَّ الظلام تمامًا ولينتهي بهذا أي أملٍ لي في الخروج من المكان اليوم.

جلست لأول مرة، منذ دخولي، على الأرض مستندًا بتعبٍ إلى أحد الحوائط، مُنزويًا على نفسي برأسٍ دكَّته الأسئلة واعتصره القلق، وكان ذلك حين داهمني هذه المرة هاجسٌ مُلِّحٌ طفق يطرق رأسي كالمطرقة، ولم أستطع هذه المرة تفاديه.

"أين رائد؟!"

ولماذا لم يلحق بي حتى هذه اللحظة؟!

أم أنه يسعى ويحاول معرفة ما حصل بوسائله وطُرُقِهِ الخاصة؟!

الأهم: هل سيُخبر عائشة بما حدث!! وماذا سيكون رد فعلها؟! ورد فعل أهلها!..

وماذا عن أمي؟! كيف ستمضي عليها تلك الليلة؟ وإنْ اقتنعت بغيابي تلك الساعات بسبب التزامات الزفاف فمن يُقْنعها إن طال الغياب؟ بل ماذا قد يصيبها إن علمت بأني أبيت ليلتي في الحجز هي التي لا تقوى ولا تتصور، كأيِّ أمٍ، أن يمس أحدٌ من أبنائها أذىً، خصوصًا لو كان من هذا النوع.

تضاعفت الهواجس برأسي، واِجْترَّت الأسئلة أسئلةً أخرى، حتى تَسَلَّلَ ضوءُ النهار من نافذةٍ علويةٍ مصحوبًا بأقدامٍ ومفاتيح، ما يشي بأن أفراد شرطة الفترة الصباحية قد حضروا، سمعت خطواتٍ تقترب، وأطلَّ علينا من بين القضبانِ وجه شرطيٍّ لم أره بالأمس.

- كم عددكم؟

هجمت على القضبان: سبعة.. سبعة.. لكني لست معهم، أتوا بي إلى هنا بالخطأ، والله بالخطأ، أخرجني أرجوك.

كان يبدو من وجههِ الذي استيقظ للتوِّ أنه لا يريد إلَّا أبسط إجابة ممكنة..

- خطأ؟!.. أي خطأ؟!.. عم تتحدث؟!
- أنا لم أفعل شيئًا، والله لم أفعل شيئًا، بالأمس أخذوني من الشارع وألقوني هنا دون أعرف السبب! سألتهم فلم يُجبني أحد! ولم يَعبأُ بي أحد، ولكن أتعلم! أنا مسامحهم كلهم، ولن أشتكِي أحدًا، فقط أخرجني من هنا، أخرجني بالله عليك، لا أحد من أهلي يعلم أني هنا الآن، ولا بد أنهم يبحثون عني منذ الأمس.
- ألم يُحقق معك أحد؟
- كلا والله أبدًا.
- ما اسمك؟
- زين.
- اسمك كاملًا.
- زين الدين أحمد الشُهيبي، وأقسم بالله العظيم لم أفعل أي جرمٍ كي أُلقى هنا.
- أتُـقسم بالله؟!
- أقسم بالله مرةً أخرى أني لم أفعل شيئًا ولا أعلم سبب حبسي هنا.
- حسنا.. انتظر.
- هل سأخرج؟

لم يرد وغادر..

منذ انصرافه لم أبرح الباب، بل شببت وتعلقت بالقضبان أكثر وأكثر، مُتلهفًا ومُترقبًا لحظة قدومه في الممر الذي بدأ يزدحم بالضباط والعساكر، لكن الوقت مرَّ منذ انصرافه بطيئًا ثقيلًا، فتحاملتُ وواسيتُ

نفسي بأنه ربما يتحرى عن أمري، وتلك التحريات ربما تحتاج لوقتٍ أطول، ولكني فوجئت، بعد نصف الساعة، بالشرطي نفسه يتمشى مع بعض العساكر، على مهلٍ وكأنَّ لا يوجد من ينتظره على أحرِ من الجمر، ناديته مُعْليًا صوتي، فانفصم عن جماعته وتقدم ناحيتي، ومع اقتراب خطواته تشبثت بالقضبان أكْثر وأكْثر، متلهفًا أكْثر وأكْثر..

- كاذب!..

بُهِتُّ!

- كاذب ولا تنادي ولا تعلو بصوتك هنا مرةً أخرى.. مفهوم؟

علقت الكلمات بحلقي لثوانٍ، قبل أن تخرج ذاهلة:

- ما.. ماذا؟!.. كيف؟!.. لم تقول ذلك؟!.. ماذا هناك؟!.. ماذا فعلت؟!.. ماذا حصل؟!

اِحتدَّ أكْثر: اخرس، إن سمعت صوتك أو تحدثت إليَّ مرة أخرى فسوف أربط يديك وقدميك معًا، وسأجعل كل من في الحجز يضحك عليك.. يا كاذب.

انفعلت: أقسم لك بالله أني لم أكْذب، أقسم بالله أني لا أعرف لم أنا هنا.. لم تقول ذلك؟!.. وعمَّ تتحدث؟!

صرخ في وجهي: أخرس، أتقسم بالله كذبًا يا جبان؟!

- لست بجبانٍ ولا كاذب.. أخبرني السبب؟.. ماذا فعلت لكل هذا؟!

لم يرد بل حدجني بنظرةٍ نارية قبل أن يزفرُ وينصرف بسبابٍ غاضب..

تلبَّست أطرافي رجفةٌ شديدة، ما الذي يجري؟! هناك شيءٌ لا أفهمه! لِمَ وَصَمني بالكَذِبْ؟! وفيم كذبت؟! وهل تحرَّى فعلًا؟! وإن فعل فماذا وجد حدَّ إغضابه لهذه الدرجة؟!

ثم بينما أنا في وهلةِ الذهول تلك انفتح باب الحجز لأجده - نفسُ الشرطيّ - برفقة آخر، كان مُتَأففًا لا يريد النظر إلى وجهي.

- يا أخي ماذا وجدت؟ من فضلك أخبرني.

- اخرس، لا أريد أن أسمع صوتك.

قيّد يدي بغيظٍ خلف ظهري، ثم دَفَعَني لنخرج من الحجز، ثم من المخفر تمامًا، في الشارع لمحت سيارتي:

- هل بإمكاني إذن أن آخذ هاتفي من السيارة، أريد أن أكلم أحدًا من أهلي، لا بد وأنهم يبحثون عني منذ الأمس.

لكزني بقوةٍ وهو يسوقني وزميله إلى سيارة الشرطة: ألم آمرك ألّا تتحدث؟

فتح لي الباب الخلفي فركبت، وكان لم يزل على نفس ضِيقه، بعد دقائق مِنْ تَحرُّكِنا اِلْتَفَتَ لزميله:

- أيُّ تربيةٍ تلك؟! كيف تصل الجرأة بشخصٍ ليُقْسِم بالله كذبًا؟

- وماذا تنتظر من السفلة وتربية الشوارع غير ذلك..

***

بعد نصف ساعة توقفت السيارة عند ما عرفت أنه "تنفيذ الأحكام"، ساحةٌ واسعة يتوسطها مَبنىً ضَخم تدفَّقَ عِندَ بابهِ عددٌ من المدنيين والمحامين ورجال الشرطة. لم أفهم ما هذا المكان ولا ما وظيفته، كما لم أعرف الغرض من الانتقال إليه، أو التنقل بين تلك الأماكن عمومًا. ضخامته توحي أنه ذو شأن، ولهفةُ الناس في الدخول والخروج تشي بأن ربما تكون له الكلمة الفصل.

تَرَجَّلَ الشرطيان وأمرني أحدهما بالنزول، تَلَفَتُّ حولي: هلاَّ فقط فككت عني القيود..

- قُلت انزل..

- فقط حتى ندخل، صِدْقًا لا نيّة لي للتملّص أو الهرب، فقط لا أستطيع أن أمشي وسط الناس بتلك الـ...

قاطعني مُنْذِرًا : اِنزل وإلاَّ قسمًا بالله لأجرنَّك على الأرض جرًّا، وأجعل الكل يضحكون عليك.

اِنْصعتُ وجررت جسدي ناحية الباب، ليشدني الشرطي جلبًا قبل أن يحيطني وزميله عن يمينٍ وشمال، اقتاداني كلاهما دفعًا عبر الساحة الكبيرة، أرى المبنى على بُعدِ أمتارٍ بدت لي كأميال، يدايّ

مقيدتان إلى الخلف، عيناي مُكبلتان إلى الأرض، إذ كُنت أخشى أن تتلاقى بأعينٍ من قد أعرفهم، أو تتصادمُ بنظراتٍ لن أُخطىء تفسيرها في أعين من لا أعرفهم، لم أكُنْ أرى وجوه الناس، كنت فقط أرى أقدامهم تتراقصُ كالنمل من حوليّ في سرعةٍ ولهفة، متهيئًا في أي لحظةٍ أن يتعرفني أحدهم أو يُنادي باسمي، ما جعلني أُسْرع الخُطى مستحثًا الشرطيين للوصول إلى المبنى فألوذُ بجدرانه عن شَطَطِ ما خُيّل إليّ.

فَوْرَ دخولنا استقبلنا صخبُ المكان، هتافاتٌ ونقاشاتٌ وجدل، وأناسٌ تعجُّ بهم الممرات على اختلاف هيئاتهم وتباين مصالحهم، الكلُّ ملهوفٌ ومتعجّل، من إحدى الغرف خرج إلينا شرطيان آخران ينتميان للمكان، قبل أن يَتَضَامَّا مع شرطيا المخفر لينغمس الأربعة في أحاديث جانبية وهم يقتادونني أمامهم مكبلًا في الممرات والطرقات، أحاديث عن قضايا وأوراق وأسماءُ وأشخاص، لم يكن موضوعي من بينها على أي حال، وكان هذا حين فوجئت للمرة الثانية بباب.. باب الحجز.

قلت وعيناي لا تُفَارِقَان المفتاح الذي أولجه أحدهم بالباب:

- لو سمحت، هل لي بمقابلة المسئول هنا؟

بدا أن طلبي طرفةٌ عظيمة الشأن، ضحكوا جميعًا بلا اتفاق، قال أسرعهم تمالكًا لنفسه:

- المسئول! هكذا بكل سهولة، يا لبجاحتك!

أكمل شرطيّ المخفر: وليت الأمر يقف حدَّ ذلك، فهو كاذبٌ أيضا، ويقسم بالله كذبًا.

- يا أخي اتَّقِ الله، أنا في حياتي ما أقسمت بالله كذبًا.

هجم عليَّ بوجهه: (اتَّقِ الله)؟! أأنت من يقول لي (اتَّقِ الله)؟! يا لك من متبجحٍ جبان.

نظرت إليه تحديًّا: لست بمتبجحٍ ولا جبان ولا كاذب، أنا حقًا لا أعرف لم أنا هنا! فإن كنت تعرف أنت شيئًا فلم لا تُخبرني إذن بدلًا من الشتم والسب؟

انفعل آخر: تأدَّب! أنسيت أنك تتكلم مع شرطي؟!

- وأنا إنسان من حقه ألّا يُهان وألاَّ يُفعل به ما يُفعل.

ضحكوا مرةً أخرى قبل أن يفكَّ أحدهم قيديّ ويدفعني للداخل بقرف: ادخل إذن وانضم لأمثالك يا حضرة الإنسان.

عُدْتُ لأتعلق بالقضبان مرةً أخرى:

- ماذا سيحصل معي إذن؟ وإلى متى سأظل هنا؟ ولم تفعلون بي ذلك؟ ولم لا يُجبني أحدٌ عن ذلك الذي اِرْتكبته؟

لم يعبأوا بي وابتعدوا لخطواتٍ تضمن لهم أني لا أسمعهم، اجتمعت رؤوسهم وهم يشيرون إليَّ عدة مرات ويتبادلون أوراقًا بدا أنها تخصني بشكلٍ ما، قبل أن يغيبوا جميعهم في إحدى الغرف الجانبية.

ظللت على تعلقي بالقضبان مُرَاقِبًا تلك الغرفة عن كثب، مُسْتَشعرًا مرارةً بجوفي من أن يكون اليوم هو صورة طبق الأصل لما حدث بالأمس في التطاول والإهانة والإهمال، لكني سرعان ما لفظت هذا الخاطرَ عن بالي، فمن غير المعقول أن يُلَاحِقني الخطأ الذي بدأ في نقطة التفتيش، مارًا بالمخفر، إلى هنا، فبالتأكيد هناك تحريات أو تحقيقات سيتم إجراؤها معي بفرض أني متهمٌ بشيء أو مشتبهٌ به بشأنِ شيءٍ ما، فلا يُعْقَلُ أن يستمر حبس المرء هكذا دون تحقيقٍ أو محاكمة، وربما يكون هذا المكان الضخم هو ذلك الذي يقومون فيه بالتحري، وأنهم - ولا ريب - سيجدون ورقة أو ملف أو إثبات يكشف لهم التباسًا في الاسم أو رقم الهوّية حاملًا صَكَ برائتي مما لا أعلمه.. ولا أريد أن أعلمه.

لكني.. رأيت ما بعثر حِساباتي تمامًا..

تحياتٍ متفرقة وزعها شُرطيا المخفر – اللذان أتيا بي إلى هنا – على ذويهما، بعد أن خرجا من الغرفة، مُتجهين إلى خارج المكان.

صُعقت وانقضضت على القضبان: أنتما! أنتما! انتظرا.. إلى أين تذهبان؟!.. إلى أين تذهبان؟!

امتلأ مجال رؤيتي بوجه شرطيٍ ما: مابك؟! لا تصرخ هكذا هنا!

شببت محاولًا رؤية شرطيا المخفر من وراء رأسه: لقد ذهبا!.. لماذا ذهبا؟!..

ضاقت عيناهُ تعجبًا: ماذا تعني بـ (لماذا ذهبا)؟، ذهبا إلى عملهما بالمخفر.

- المخفر؟ ولماذا لم ينتظرا ليُخْرِجاني من هنا أو يُعيداني إلى حيث كنت.
- أتهذي؟! من قال لك أنك ستعود أو تذهب لأي مكان؟

نقلت بصري إليه مبهوتًا: ماذا تعني بأنني لن أعود؟! أو ليس بعد تحرياتكم عني أو تحقيقكم معي سأخرج من هنا؟

- من قال لك أننا نتحرى عنك أو سنحقق معك؟
- ماذا تعني بمن قال؟! إذن فما الذي سيحدث؟ ماذا ستفعلون بشأني؟!

اقترب مني أكثر قبل أن تضيق عيناه تفحصًا: ألَا تعرف لم أنت هنا؟!

- قسمًا بالله لا أعرف، فأنا قيدُ الحبسِ منذ الأمس، ولا أحد يريد أن يخبرني عن السبب..
- ما اسمك؟
- زين.. زين الدين أحمد الشُهيبي.
- انتظر إذن.

غادرني تشيعه هذه المرةِ قدمان سائبتان وأعصابٌ تالفة، أشعر أني أغرق أكثر، وأتورط أكثر، وكل ما يحدث يُرعبني أكثر وأكثر، وقفت مُتَعلقًا بالقضبان أنتظره - ذلك الشرطي. لكن الدقائق مرَّت في غيابه كالساعات، حتى اِنْدَكَّتْ أعصابي بحرقَةِ القلق والتوتر، فوجدتني أصرخ مناديًا مرةً أخرى، حتى وجدت ذلك الذي يأتيني ركضًا، الدهشة أنه كان هو! الشرطي نفسه!

- لماذا تصرخ ثانيةً؟
- يا أخي، لقد طلبت اسمي لتتحرى عنه.
- وماذا تريد الآن؟
- ماذا تعني بـ "ماذا أريد الآن"!! ما سبب وجودي هنا؟! طلبت اسمي ولم تأتِني بإجابة، أخبرني لماذا أنا مقبوضٌ عليّ؟!

حَدَّقَ بي مُستنكرًا: أحقا لا تعرف لم أنت مقبوضٌ عليك؟!

صِحت: يا أخي قلت لك أني والله لا أعرف، لا أعرف، أخبرني أنت.

- أتعني أنك لا تعرف أنه محكوم عليك بالسجن لسبع سنوات..

- سبع ماذا!.. ماذا تقول أنت؟!.. لا لا لا.. يا أخي أنا جَاد.. هذا هو اليوم الثاني الذي أبيت فيه خارج منزلي ولا بد أن أهلي يبحثون عني ولدي أمورٌ والتزامات كثيرة ولست في موقفٍ يحتمل الضحك أو السخرية فأنا....

قاطعني متجهمًا: وهل أعرفك حتى أضحك معك؟! طلبت أن تعرف لِمَ أنت مقبوضٌ عليك فها قد عرفت.

رُحت أفحص وجهه مُسْتَبِينًا صدقه في حين تابع هو:

- أنت محكوم عليك بالسجن لسبع سنوات، خمس سنوات لحيازتك المخدرات وسنتان لأنك هربت بعد أن قبضنا عليك، هل هناك شيءٌ آخر؟

فُغرِ فاهي لثوانٍ ولم أعِ ما سمعت، دُخت للحظات.. هممت لأسأله.. لكني لم أجده.. غادر.. متى غادر؟!

تمتمت عدة مراتٍ بحروف الكلمات مأخوذًا وكأني أحاول استيعابها من جديد: "مخدرات!.. هروب!.. سبع سنوات!"..

أي مخدراتٍ! وأي هروبٍ! وأي سنواتٍ سبع تلك التي تحدث عنها!

هل كنت أنا المعنيُّ بكلامه أمْ شخصٌ آخر؟! أم ربما أنيّ لم أسمع جيدا!

لكنه قال اسمي ونطق به!..

مادت بي الدنيا ذهولًا، ولفّ رأسيّ دوارٌ ترنّحت على أثره، فاتكأت إلى الباب وقوفًا..

ماذا هناك؟! ماذا يحدث بالضبط.. حقاً ماذا يحدث؟!.. هل أحلم.. هل هذا كابوس؟!..

كانت قبضتاي لا تزالان متشبثتين بالقضبان، فوجدتهما لا إراديا تجذبانها بقوة، ثم تشدانها أكثر وأكثر وكأنهما تبغيان خلعها، ثم على الباب تتابعت ضرباتي، قوية غاضبة، حتى خِلت أن الباب، على صلابته وقسوته، سينهار بين لحظةٍ وأخرى..

أضرب وأصرخ.. بلا توقفٍ أو كلل..

من الغرف والممرات هرع العساكر وتكأكأوا أمامي، مُلوحين ومهددين أن اسكت وإلاَّ فعلنا كذا وكذا، لكني لم أكن أسمعهم، أو بالأحرى لا أريد أن أسمعهم، كنت فقط أريد لهذا الباب أن يُفتح، لا مفاوضات، لا كلام، لا وعود، أريد فقط أن أُلقى في الشارع لحال سبيلي، أن أعود لما كنت عليه قبل أربعٍ وعشرين ساعة من الآن، كانوا يهددون ويتوعدون وكنت أُزايد عليهم في الصراخ كالمجنون، حتى أني خِلت للحظةٍ أنهم يخشوْن لو فتحوا الباب لفاقد العقل هذا أن يخرج ليعقر أعناقهم، وكان هذا حين توقفت أصواتهم فجأة فور أن أطلَّ من بين رداءاتهم العسكرية رجلٌ بزيٍ مدنى، أشيب الشعر، وقور الهيئة والملامح، تبادل مع أحدهم بضعَ كلماتٍ قبل أن يتقدم نحوي ليفسحوا له الطريق إجلالًا.

تأملني للحظات: فيم صراخك؟

تمهلت بحثًا عن أنفاسٍ التقطها: سيدي أأنت المدير المسئول هنا؟

- نعم، ما بك؟
- استحلفك بالله أن تخبرني لم أنا هنا؟!.. ما تهمتيّ؟.. لمَ أنا مقبوضٌ عليّ؟!
- ما خَطْبُه؟! سأل الشرطي بجواه.

لم يرفع الشرطيُّ عينيه المتوعدتين عني وهو يهمس للمدير بكلماتٍ التقطت منها: حكمٌ قضائيٌ.... حبس.. سبع سنوات.. مخدرات.. هروب..

في تلك اللحظة انهمرت دموعي، لأول مرة، قهرًا وضعفًا:

- والله أبدًا أبدًا.. لم أفعل شيئا مما قيل.. ولا علاقة لي بكل هذا.. أي مخدراتٍ تلك وأي هروب هذا الذي تتحدثون عنه؟!.. أنتم قبضتم على الشخص الخطأ.. أنتم تتحدثون عن شخصٍ آخر.. أسألوا عني في كل مكان.. لم أفعل هذه الأشياء قَطْ.. ولا دراية لي بها.. أخرجوني من هنا أرجوكم.. أنا لم أفعل شيئًا.

التفت المدير إلى الشرطيّ: هل تأكدتم؟

أومأ الشرطي برأسه إيجابًا، فتهافتت مني الكلمات:

- لا لا لا لا.. لم يتأكدوا.. لم يتأكدوا.. يا أخي لا تقل ذلك.. حرام عليك هذا الكلام.. والله حرام.. لا أعرف عما تتكلمون أصلًا.. أنا بريءٌ مما تقولون.. أنا في عِرضك يا حضرة المدير لاتتركني هنا.. لا تتركني لهم.

لم تكن عينا المدير تفارقاني طوال الكلام، وكأنما يقرأ في دموعي ما لم تُسعفني به الكلمات، يتفحصني صامتًا.. فأتوسله باكيًا.. يعود ليلتفت لعساكره وضباطه.. يطرق برأسه.. وكأنما يزن الأمر كلّه بينه وبين نفسه.

أشار: أحضروه إلى فوق.

فُتِحَ لي البابُ فشَهِقَتُ معبئًا صدري بالهواء، قبل أن أتقدم باسطًا يديَّ بهوانٍ للشرطيّ، فعقصهما هامًّا بوضع القيود لولا أن استوقفه المدير: لا لا.. هاته كما هو.

تقدمنا المدير فتسارعت خطايّ لألتصق به سيرًا، يحاوطني أفراد الشرطة من كل جانب، أو بالأحرى يحاصرونني، لم أكن أرى ملامحهم، لكني أشم غيظهم وغَضبهم كالشياط، يترقبونني ترقب الصيّاد لفريسته، ربما لهذا كنت أتلفَّت كالمجذوب عن يَميني وشمالي، وكأنما أتوقع أن ينتشلني أحدهم من جواره - المدير - غدرًا، فاستحث خطايّ لألتصق به أكثر، وكأنما أستمد الأمان من بقائي في محيطه، وصلنا إلى مكتبه فجلس إلى كرسيه، قبل أن يتناول من الشرطيّ إثبات شخصيتي ويبدأ في نقر لوحة المفاتيح ناقلًا عيناه بين شاشة الكمبيوتر والإثبات، فيما رُحت مُتلفهًا أتابع تعابير وجهه، واختلاجات ملامحه، مُستشفًا منها ما يراه على الشاشة.

بعد لحظات: زين الدين أحمد الشُهيبي، أهذا اسمك؟

- نعم نعم هو.
- أليس رقم بطاقتك هو (......).. وعنوانك هو (......).. ووظيفتك هي (.......).
- نعم بالضبط.

تمهل شيئًا وكأنه يتيقن أكثر من المكتوب: زين.. مع الأسف كل ما قالته الشرطة صحيح، أنت محكوم عليك بالسجن لسبع سنوات، خمس سنوات لحيازتك المخدرات وسنتان للهرب بعد القبض عليك..

تلك اللحظة.. تلك اللحظة بعينها.. أدركت أن الخوف ليس مجرد شعورٌ نقرأه بالقصص أو نشاهده في الأفلام، بل شيءٌ حيٌّ يرزق، له قبضةٌ حديدية تعتصر القلب، ومخالب تنهش في الجسد، وألجمةٌ تقيّدُ اللسان. للحظات تيبَّس جسدي فأمسيت حجرًا، غامت المرئيات من حولي وانصهرت الألوان..

- لا لا لا.. كيف هذا؟.. كيف؟!.. والله هناك خطأ.. هناك خطأ بكل تأكيد.

تفرق ذُهولي بين كل الوجوه المنتظرة.. والمتحفزة:

- مستحيل ما تقولون! أنا لم أفعل أيًّا من تلك الأشياء.. مخدرات ماذا وهروب ماذا؟!.. أنا لا أعرف شكل المخدرات ولم أكن في أي مكان من قبل لأهرب منه.. لا لا لا مستحيل.

ارتعشت سبابتي وأنا أشير إلى الكمبيوتر:

- بالتأكيد هناك التباسٌ ما.. هناك خطأ ما.. حضرة المدير تحر مرة أخرى.. فقط تحر مرةً أخرى أرجوك.

بهدوءٍ آسِفٍ أغلق المدير الجهاز، وهمَّ بمغادرة كرسيه فوثبت متشبثًا بكفه:

- لا لا لا.. لا تتركني.. لا تتركني بالله عليك.. أقسم لك أني بريءٌ من كل هذا.. أنا شابٌ صالح ولم أفعل أيّ شيءٍ مما قلتموه.. زفافي بعد ثلاثة أيام.. أسأل عني في كل مكان.. أسأل عني أي شخص..
- حسنًا حسنًا يا زين، اذهب الآن معهم، وسوف أنظر في موضوعك مرة أخرى.

تَعلَّقتُ بكفه أكثر: إذن سأنتظر معك.. سأنتظر هنا حتى تتأكد.. لا تتركني بالله عليك.. لا تتركني لهم.

لم يرد بل سحب كفه وأشاح بوجهه، ما كانت إيماءة لهؤلاء المتحفزين لينقضوا عليّ بشراسةٍ، محاولين إبعادي عن طريقه، حاولت التملص منهم فلم أستطع، فتلمَّسَتْ عيناي، من بين أجسادهم المتكتلة حوليّ، طريقًا إلى عينيه.. راجيًا.. متوسلًا.. وكأنما أعيدُ قَصّ الحكاية بدموعي مرةً أخرى، مُستجلبًا رحمةً لم تكن منذ قليلٍ بعيدة المنال، لكنه لم يلتفت، وغَادَرَ المكانَ على عجلٍ وكأنَّه لمْ يرني قبل اللحظة.

جرَّني العساكر خارج الغرفة جرًّا، تتلبسني الصدمةُ من قِمّةِ رأسيّ حتى أخمص قدميّ، ما جعلني أمشي دائخًا مترنحًا، غامت عيناي فبدت كل المرئيات ضبابيَّة الشكل، والغرف والممرات متداخلةً ببعضها البعض، من هوةٍ سحيقة كانت تأتيني الأصوات، أصوات العساكرِ وهم يعنفونني كي أتمالك نفسي سيرًا لأنهم لم يعودوا يقوون على حملي، وأصوات المارين من حولي أن لم أتحرك بهذه الرخاوة وأن "ربما مخمورٌ هو والعياذ بالله".. "أو مدمن".. "أو مجذوب"..

بانفراجِ بابِ الحجزِ وجدتُ قدميَّ وحدَهُما تَسُوقاني إلى الداخلِ وكأنَّ قوةً خفية تدفعني في رفق. لم أنطق، ولم أعترض، ولم أُطالب بأي شيء، وحتى لما أُغلق الباب لم أجزَعْ، ولم أثِبْ ناحية القضبان كالعادة، وإنما تابعت سيريّ كالماشي نائمًا حتى وقفت في مواجهة الحائط الداخلي للحجز، أُحَمْلِقُ فيه بعينَين ذاهلتين، لم أعد أسمع شيئًا، ولم أعد أحس بشيء، وكأن عقلي قد توقف تمامًا عن التفكير والسؤال، ربما لهذا، وعندما فُتح باب الحجز، تقدمت مني تلك الخطوات بهدوءٍ وحذر، قبل أن تمتد إلَيَّ يدٌ يبدو أن صاحبها تردد كثيرًا في اختراق سَكِينَتِي الصاخبة: "تعال معي.. تعال معي يا زين"..

لم أُجِبْ، كما لم أُقَاوِمْ، عندما ساقتني اليد مترفقةً إلى خارج الحجز، قبل أن يسيرُ بي صاحبها متهاديًا في الممرات والطرقات، وكأنما يقود كفيفًا يترفّقُ بحاله، يربت على كتفي مُطَمْئِنًا، قبل أن يُدخلني متأنيًا إلى مكتب الشرطة، أجلسني ثم أسقاني ماءً، لم أكن أدري ما سُقيت، ولم أعِ أصلًا وقوفه أمامي، غير أني سمعت بعض العساكر يعاتبونه أن كيف تُخرِجُ سجينًا دون إذنٍ مسبق، فماذا لو رآه أحد الضباط أو المسئولين، فعاتبهم راجيًا أن بعضًا من الرحمةِ والرفق، وأن انظروا لحاله، شابٌ صغير أوجعني توجعه وحكيِّه، دموعه تشي بأنه لم يعهد تلك الأمور من قبل، سيُجَنُّ إن بقيَ على هذا الحال.

جلس قبالتي - شرطي التنفيذ - قبل أن يبلِّل كفَّه بالماء ويمسح على وجهي عدة مرات.

- اِهدأ يا زين.. اِهدأ واسترح!

تأمَّل وجهي مُنتظرًا لحظة دخول عيني التائهتين إلى نطاق الوعي: ألَا تريد الاتصال بأهلك؟

أومأت إيجابًا، فمدَّ لي بهاتفه فالتقطتُه بلهفةٍ وضغطت أرقام المنزل، ثوانٍ حتى أتاني الصوت، فأغلقت الهاتف بسرعة.. اندهش الشرطي..

- كانت أمي..
- إذن فلِمَ لمْ تُكلمها؟!
- لا لا لا.. مستحيل.. مريضةٌ ولن يحتمل قلبها أمرًا كهذا، ستهوى أرضًا قبل أن أكمل أو أخبرها بأي شيء، أنا أعرف ما أقول.

بعد تفكير: من هو أقرب إخوتك إليك إذن؟

- عمرو، هو الأصغر سنًّا مني مباشرةً.
- إذن اسمع، دعني أتحدث أنا إلى والدتك، سأخبرها أني صديقٌ لعمرو، وأطلب التحدث إليه، ثم أقص عليه أمرك، فيأتي لمساعدتك ويحاول معرفة ما موضوعك بالضبط.

أحيا كلامه الأمل فيِّ شيئًا، فضغَطتُ رقمَ المنزلِ مرةً أخرى وأنا أفكر أن كيف سيتلقى عمرو كلام الشرطيّ وماذا سيكون رد فعله؟! كل ما أرجوه ألَّا تلاحظ أميّ عليه - عمرو - تغيرًا، أو تُلّح في سؤاله فيجيبها كارهًا بما حصل، أتاني صوت أمي فألقيت للشرطي بالهاتف كقطعةٍ من جمر، فالتقفه وضغط زر مكبر الصوت قبل أن يخطو مبتعدًا، مُلتمسًا مكانًا لا يعلوُ فيه صخبُ المكان.. سألها عن عمرو..

- خرج منذ قليل.
- هل لي إذن برقم هاتفه الجوَّال؟
- لقد ترك هاتفه هنا اليوم.
- إذن فمتى سيعود؟
- اتصل به بعد العاشرة مساءً، فالأولاد لا يتأخرون بعد العاشرة في كل الأحوال.

- حسنًا، سأفعل.

همّ الشرطيُّ بإغلاق الهاتف.

- بنيّ.
- تفضلي.
- أتعرف زين؟ شقيقه الأكبر.

نظر لي الشرطي قبل أن يجيب: لا يا أمي، لا أعرفه.

- خرج البارحة ولم يعد حتى الآن، طلبت من كل إخوته وأصحابه الاتصال به فلم يتلق أحدهم ردًّا.
- ردَّه الله إليك سالمًا ولا تقلقي إن شاء الله يكون بخير، ولو عرفت شيئًا سأخبرك على الفور.

طال صمت أمي وكأنها لا تريد أن تُضيع فرصة ذلك الاتصال دون أن تصلها أية معلومة. لكنها في النهاية أذعنت وشكرت الشرطي.

تقدَّمَ الشرطيُّ ناحيتي وهو يغلق الهاتف: واضح أن أمك قلبها مشغول عليك جدًا يا زين.

فقدت السيطرة على دمعتين: تلك هي المرة الأولى في حياتي التي يمر فيها كل هذا الوقت دون أن تعرف عني أي شيء، ولا بد أنها قلقةٌ أشد القلق، لا يتعبني الآن إلَّا هي.

سَادَتْ فترةٌ من الصمت كنت فيها أُكفكف دموعي، وكان الشرطي مُطرقَ الرأس مُفكرًا، وكان ذلك قبل أن تتناهي إلينا جلبةُ أقدامٍ تتحرك بالخارج، ما جعل الشرطي ينتبه من إطراقه، ويهمس:

- زين.. اسمعني جيدًا.

أكمل وعيناه على باب الغرفة المُغلق:

- يجب أن أعيدك للحجز فورًا، لأنه..

همَّ بقول شيء لولا أن تاهت عيناه وسط دموعي فتلطَّف فيما كان يبدو أنه سيقوله:

- لأنه بعد قليل سوف تأخذك الشرطة إلى مكانٍ آخر.

- إلى أين ؟!!

- ليس مسموحًا لي أن أخبرك.

- أرجوك.. أنا تعبت.. حقًّا تعبت.. لا تتركني.

- لن أتركك، في العاشرة سأعاود الاتصال بمنزلك، وأتحدث إلى أخيك، وأخبره عن مكانك وموضوعك كله، وبالتأكيد سيحاول هو التصرف.

- عِدْني إذن أن تفعل.

قلتها مهزومًا وأنا أخترق عمق عينيه مُلتمسًا صِدْقه.

- أعدك، ولا تقلق بشأن ذلك.

أعَادَنِي الشرطيُّ إلى الحجزِ مرةً أخرى، ورغمًا عن الغُمّة التي كنت عليها إلَّا أنَّ شيئًا من أملٍ بدأ يتدفق بداخلي، فإن صدق الشرطيُّ وعده واتّصَلَ بِعمرو وأعلمه بأمري؛ فسيبدأ عمرو بالتحرك بحرية، بين كل تلك الأماكن، حتى يجد مكمن ذلك الخطأ، فقط أدعو الله ألَّا ينسى ذلك الشرطي وعده، وألَّا تشغله الشواغل عن ذلك الاتصال.

بعد عشر دقائق نُوديَ على اسمي واثنين من الهنود كانا قد حُجزا معي قبل ساعات، فتقدمنا ثلاثتنا لتوضع بأيدينا الأصفاد، اِنْقَدْنا عبر الممرات والطرقات حتى خرجنا من مبنى تنفيذ الأحكام قبل أن نتوجه إلى سيارة شرطة رابضة على بُعد أمتار. ركبت والهنديان بالخلف فيما قفز الشرطيان إلى الأمام.

بدأت السيارة بالتحرك خارجةً من الساحة الكبيرة، وخلال ذلك راح أحد الهنديين بجواري يجولُ ببصرِهِ فيما حولنا مُستكشفًا، فسألته إن كان يعرف وجهتنا، فردَّ أن لا ولكن بوسعه التأكد مع الوقت، فطلبت منه أن يخبرني فور أن يتأكد.

ستُ ساعاتٍ تبقَّت حتى يتصل الشرطيُّ بالمنزل مرةً أخرى، سأحسبها بالدقائق والثواني، سائلًا الله أن يمدني فيهم بالجَلَدِ والصبر.

وكُنَّا قد بدأنا نمشي في شوارعَ أكثر رَحابةً واتساعًا، أجلس فيها متواريًا عن أعين الجميع، أغوص بمقعدي أكثر وأكثر كلما تمادت الأعين في التطلع إليّ، داعيًا الله ألَّا يكون قد تعرفني أحدهم أو انتبه إليّ، وطوال الطريق لم تكف بطني عن الاضطرابِ والقلقلة، فابتعادي عن مكانٍ لا يعني سوى اقترابي من آخر.. مجهول آخر.. وهوانٍ آخر.. وطالما أن الغُمّة لم تزل بعدُ قائمة فالتالي إذن لن يكون إلَّا محطة أخرى في سلسلة هدم الأعصاب.. ترى أين قد يكون رائد بتلك اللحظة؟! هل يسعى في أمري بطريقته واتصالاته؟ وعائِشة! كيف هي الآن؟ هل تسأل وتحاول الوصول إلىَّ ولا تستطيع؟! هل قد يخبرها رائد بما حصل؟! وهل قد يخبر أمه وإخوته؟ أو أمي؟!

بعد نصف ساعة أَبطأت السيارةُ شيئًا، قبل أن تنعَطِفَ إلى طريقٍ جانبي لتضطرب حركة أحد الهنديِّين بجواري وتدور رأسه بحركاتٍ حادة... لليمين.. لليسار.. للخلف.. لليمين مرةً أخرى.

- ماذا هناك؟! سألته.

- هنا!.. هنا! أجابني مُلتاعًا.

- هنا ماذا؟!

ردَّدَ ورأسه تأبى الثبات: السجن.. هنا.. سجن.. كبير.

- سجن! أي سجن؟!

تلفتُّ حوليّ فوجدت العُمران يَـشِحُّ شيئًا فشيئًا!..

السيارات تَقِلْ!..

المارةُ يَنْعَدِمُون!..

جررت جزعي للأمام تعوقني الأصْفَاد:

- أهذا هو الطريق المؤدي إلى السجن؟! سألت الشرطيين.

- نعم، السجن المركزي.

- وما الذي قد يأتي بنا من طريق السجن المركزي؟!

نظر لزميله يُقاسمه استغراب السؤال: وهل لديك مكانٌ آخر؟!

- مكانٌ لأجل ماذا بالضبط؟!

لم يرد بل ضحك مُسْتخفًا، فالتفتُّ للهِنْدِيَيْن جَزِعًا عَسى أن أرى في ملامحهما ما يُكذِّب حدسي، فراعني أن وجدت على وجهيهما وجوم المهزوم وصمت المضطر، وكان ذلك في نفس الوقت الذي أبطأ فيه الشرطي من سرعته تفاديًا لتروسٍ حادّه، مُدَبَبة، ثُـبِّتت بالأرضِ بشكلٍ متعرجٍ لتجبر السائقين على البطء والتمهل، حين رأيت ما انخلع له قلبي..

فعلى مرمى البصر، وفي الفضاء المترامي البعيد، استقر بناءٌ، بدا جاثِمًا في الغروب كقلعةٍ حصينة، أو ككاسرٍ يغفو منتظرًا، يلوذُ بجدرانٍ رماديه اللون، غرق نصفها، مع رحيل الشمس، بالسواد، توزَّعَتْ حوله أبراج المراقبة بمسافاتٍ متساوية، يعلو كل برجٍ منها جنديٌّ ببندقيةِ قَنْص. هكذا بدا لي مهيبًا، مُنْعزلًا، كَئيبًا، مُقْبِضًا، ما عرفت أنه السِجن "الكبير"، وهكذا راح صدري يخفقُ بعنفٍ باقترابنا منه بذلك البطء القاتل، البُطء الذي لأجله، ربما، وُضِعَت تلك المطبات والتروس والأسلاك لتكون إمعانًا في إطالة الوقتِ قبل الوصول إليه، ليشقى من كُتب عليهم الشقاءُ أكثر وأكثر بتلك الطلَّة المُقبضة.

تعلقت عيناي رُعبًا بالمبنى الرهيب:

- لا لا لا.. مهلًا مهلًا مهلًا.. مهلًا بالله عليكم.. أوقف السيارة.. أوقفها أرجوك.. كيف تصل الأمور تلك الدرجة؟!.. فقط اسمعني.. اسمعني بالله عليك..

عرج الشرطيُّ بالسيارة وهو يتفادى التروس مُتمهِلًا:

- أيًا ما تريد قوله لن يُجدي نفعًا هنا، فقد انتهى أَمْرُك، والكذب لن يفيدك بعد اليوم.

- والله لست بكاذب.. قسمًا بالله لست بكاذب.. هناك خطأ.. أخي انتظر.. انتظر بالله عليك.. أوقف السيارة للحظة.. دعني أكلمك.. فقط كلمة والله.

انفعل الشرطي الآخر: أنت! كفاك ثرثرة، أية سيارة تلك التي سنوقفها لأجلك؟! أمجنونٌ أنت؟ لن نسمع شيئًا ولا تقل شيئًا، اِهذِ بما تريده في الداخل.

بنهاية عبارته تَعَمْلَقت أمامنا اللافتة -"السجن المركزي"- ليُخفض الشرطيُّ من سرعته شيئًا، تاركًا الفرصة لبوابة السجن كي تتثائب في بطءٍ كاشفةً عن ساحةٍ واسعة تهادى إليها بالسيارةِ دخولًا وهو يُفرِقُ التحيَّاتِ على ذويه، أُغلقت البوابة في نفس الوقت الذي توقف فيه المحرك ليسود صمتٌ مُقبض، تَرجل الشرطيان كلاهما قبل أن يفتح أحدهما الباب ويأمرنا بالنزول، أطاعه الهنديان صاغران فيما انكمشت أنا ملتصقًا بركن السيارةِ كورقةٍ يابسة مُصفرَّة، أمرني الشرطي بالنزول فتوسلته أن يترفق بي، فلقد داهمتني تلك اللحظة انقباضاتٌ عنيفةٌ بالبطن، ما جعلني أشعر أني على وشك التقيؤ، ما جعله - الشرطي - يدخل السيارة بنصف جسده ويُحكم كفه على ياقة قميصي قبل أن يشدني للخارج جرًّا.

وقفت أمامه سائبًا أكاد أقع من تلف الأعصاب وهوانها، يرتعش لساني لا إراديًا بصوتٍ خفيض: لم أفعل شيئًا.. لم أفعل شيئًا..

- قِف جيدًا.
- لا لا لا.. لم أفعل شيئًا.. لم أفعل شيئًا.

رجَّ كتفيِّ بكفين صَلْبَيْن:

- قلت قف جيدًّا وكفاك جعجعةً، اسمع، اسمع أقول، هذا المكان ليس كالمخفر ولا تنفيذ الأحكام، هنا لصوص، ومجرمين، وقَتَلَة، وقُطَّاع طرق، وولاد حرام، والشرطة هنا ليست كأي شرطة، بل هم ألعن شرطة، لا يتعاملون إلَّا بالضرب والشتم بأقذر وأوسخ الألفاظ، فالأسلم لك أن تسكت وتنفِّذ الأوامر بلا نقاش، وإلَّا سوف ترى منهم ما لم تره في عمرك كله، واضح؟

انهز رأسي خوفًا، فأدار جسدي يُمم على قيودي حين وجد أصابعي ترتجف بين كفيه:

- اسمع نصيحتي، أنت شابٌ صغير، لن تحتمل المهانة والإيذاء هنا، نَفِّذ الأوامر بلا نقاش، وبعد ذلك اسأل بالداخل عمن تستطيع أن تشرح له أمرك، أفهمت؟

اِرتجف رأسي إيجابًا، فدَفَعني عبر حرم السجن سيرًا، وكانت الصدمة قد ألجْمت لساني تمامًا، فلم أعد أقوى على الكلام أو الاعتراض، فقط كُنتُ أسيرُ في صمتِ المهزوم، واستسلامِ العاجِز، وانكسارِ المغلوب على أمره، تَطُوف عيناي ذاهلتين بالمكان كله.. مبانيه السوداء.. نوَّافذه المُقْبِضة.. أَبْراجَ مراقبته السامقة.. عساكره المُترسين بالسلاح.. سيارات الشرطة وعربات الترحيلات العملاقة.. قبل أن ترتفع إلى السماء للمرة الأخيرة، لتتلألأ من وراء دموعي شمس الغروب وهي تَنْسلخ راحلةً في الأفق، مُعلنةً عن نهاية أطول يومٍ في حياتي، يوم دخولي السجن[٢]، كان عمري وقتها ستةً وعشرين عامًا.. ولم يزِدْ من حينها يومًا واحدًا.

[٢] نوفمبر ٢٠٠٢

القِسْمُ الثَّاني

عَبَرَات

- ١ -

كانت الساعة قد بَلَغَت السادسة مساءً حين عَرَجَ بنا الشرطيُّ - أنا والهنديين - إلى غرفةٍ بها عدة مكاتب يجلس إليها أفرادُ شرطة، بمجرد دخولنا اعتدلوا شيئًا على كراسيهم وخفَّ حديثٌ ضاحكٌ كان بينهم، قبل أن يتلقفني أحدهم بإشارةٍ من يده أن أَتَـقَدَمَ فتقدمت. ربـَت بيديه على جانبي بنطاله ما يعني "أفرغ جيوبك كلها" ففعلت، بينما راح هو يتابع أولًا بأول ما يتناثر على مكتبه:

- اِخْلع ملابسك.
- ماذا ؟!
- اِخْلع ملابسك.
- ملابسي!
- اِخلع ملابسك كلها.
- كلها!

قَطَعَ حديثه مع زملاءه وانتبه إليّ: أقول ملابسك كلها.. كلها.. كلها.. اخلع كل شيء.

كان الهنديان قد بدءا في خَلْعِ ملابسهما صاغريْن بلا اعتراض، في حين انتبه شرطيو المكان إلى ترددي فوجدت في أعينهم تحفزًا ما، تقدَّمْتُ هَامِسًا: أرجوك، يا أخي، أنا لست كما تظن وإنني...

لوَّح بسبابته مُنْذِرًا: لست بأخيك.. اسمع.. لا لا اسمع.. أنتَ الآن لست سوى سجين.. مفهوم.. سجين.. والكلام لن يتكرر مرتين بعد ذلك.

مُنصاعًا خَلَعْتُ الحذاء فالقميص فالبنطال، فعلتها متباطئًا بعض الشيء عسى في تلك الثواني القليلة أن يتراجع عن أمره - الشرطي - أو يتبدل شيءٌ ما، لكنه توقف عن الكلام مع رفاقه وصرت أنا شغله الشاغل. تعرَّيت حتى لمْ يتبقْ على جسدي سوى ما يستر سَوْأَتي، ألقيت نظرةً حولي قبل أن أتهيأ لخلع

آخر ما يسترني، وكان ذلك حين أشار إليّ بيده أن توقَّف فتوقفت، ليقتادني إلى ساترٍ بطرف الغرفةِ: أكمل هنا.

خلَعُت آخر ما تبقى من ستري لأقف أمامه عارِيًا تمامًا، فيما راحت عيناه تمسحاني من قمة رأسي حتى أخمص قدميّ، قبل أن يُشِر إليَّ بأن أحلَّ يداي اللتين عقدتهما خجلا أمام ذَكَرِي فباعدتهما قسرًا، ليتأمل هو ما انكشف مني قبل أن يَدُور حولي.

- عندما أقول لك "انزل" تنزل في الأرض، وتجلس كجلوسك لقضاء الحاجة[٣]، مفهوم؟
- حاضر.

أمرني أن "انزل"، فنزلت، ثم "انهض" فنهضت، كررها ثلاثًا فنفذتها ثلاثًا، راح بعدها يفتش ملابسي، يتفحص الجيوب والطيَّات، قبل أن يأمرني بارتدائها مرةً أخرى.

خَرَجتُ من خلفِ الساتر بعد أن ارتديت ملابسيّ لأجد الهنديين عارييّْن تمامًا، جالسي القرفصاء، في الوقت الذي راح أحدُ أفراد الشرطة يطوُف حولهما مُتفحصًا جَسَدَيْهِمَا في مهمةٍ جعلته يتضاحك مع زملائِه في أمورٍ أكثر تسلية. بعد أن انتهى لكَزهما بطرف حذاءه أن انهضا، فهبَّا مُسَارعين لارتداء ملابسهما، غَير أنَّ حظ أحدهما العاثر ألقاه قبالة شُرْطيٍ أنهكه الضحك فلم يجد أقرب من مؤخرة الهندي لتتقاسمه البهجة، فكال لها شلوتًا قَذَفَ بالهنديّ عدة أمتار، مُجبرًا إياه على ارتداء بِنطاله بسرعة البرق اِتقاءً لنوبات ضحكٍ أخرى.

بخروجنا من الغرفة تَسَلَمَني، والهنديين، أفرادُ شرطةٍ آخرين، أكثر شِدَّةً وغِلظة، عرفت أنَّهم شرطة العَنابِرْ والزنازين. اِقْتَادَنا هؤلاء عبر حرم السجن لندلف إلى مبنىً حصين، عبرنا مدخله قبل أن يواجهنا بابٌ ضخم أَوْلَجَ أحدهم المفتاح بقِفْلِه لينفرج كاشفًا عن ممرٍ طويل انتظرنا بمنتصفه ثلاثة كراسٍ يقف خلفها سجينٌ بماكينة حلاقة ضخمة، أجلسنا العساكر إلى الكراسي في حين راح هذا يحرث رؤوسنا حرثًا، بسرعةٍ وعجلة، حتّى تعرَّت تمامًا من الشعر.

[٣] بعض السجناء يقومون بتهريب المخدرات والممنوعات بأسفل أجسادهم.

توجهنا بعدها إلى غرفة الملابس، حيث مسح العسكري طولي وعرضي قبل أن تمتد يده لتناولني زيًّا بنيّ اللون، وبالمثل فعل مع الهنديين. بعد أن أبدلت ملابسي بملابس السجن رافقني الشرطيُّ وحدي، هذه المرة، دون الهنديين، إلى غرفةٍ ثالثة، بها موظف أوقفني أمام حائط أبيض قبل أن يُناولني قطعةً خشبية كُتب عليها رقم ما:

- ضعها أمام صدرك، تحت ذقنك مباشرةً.
- حاضر.
- اجعل الحائط عن يمينك، وضَعْ اللوحة تحت وجهك.
- حاضر.

همّ بالتقاط الصورة لكنه توقف: امسح دموعك.

التقط الصورة وصورًا بأوضاعٍ أخرى، أخذ مني اللوحة بعدها ووضعها على المكتب ثم جلب ورقةً قام بملء خاناتها قبل أن يُمسك كفي كلها ويغمسها في قطعة مشبعةٍ بسائل أسود لزج، ضغط الكف على الورقة لتنطبع بصمات الأصابع كلها، أغلق بعدها الملف ثم أعطاني ورقة بيضاء لأمسح بها سواد اليد، قبل أن يتوجه بالكلام للشرطي:

- انتهى.. خُذه إلى عنبره.

سَلَخَتْ الكلمة مسامعي فنقلت بصري بينهما بذهول، لكنه ذهولٌ استهلكته الصدمات فكان مُشَبَّعًا بالخدر والرخاوة، لهذا لم أعترض ولم أقاوم عندما سحبني الشرطي من الغرفة لينعطف بي في طرقاتٍ مشيتها حافيًا، دائخًا، قبل أن نَلِجَ في النهايةِ طُرْقَةً طويلة تَرَاصَّتْ على جانبيها أبوابٌ حديدية ضخمة، مخيفة، لكل بابٍ مزلاجٌ عريض وقفلٌ كبير. الأبواب مُصْمَتة، بلا نوَّافذ أو قُضْبَان، فقط جُعِلَتْ بأعلاها ثُقوبٌ دائرية صغيرة يتسلل منها الهواء، الحوائطُ رمادية اللون، بلا نوَّافذ أو فتحات تنمُّ إن كان الوقت بالنهار أو بالليل، البلاط انصهرَ لونه بما دارَ عليه من الأيام والسنين وصرخات الأحذية التي تشي بأن الآلاف سيِقُوا من هنا. تسعة أبوابٍ كانت بالممر، عن يمينٍ وشمال، أتابع أرقامها واجمًا، ذاهلًا، حتى أني رحت أمسح أصابعي المعجونة بالسائل الأسود، بلاوعيٍّ، في ملابسي، أحكها حكًّا في القميص والبنطال

بينما الورقة التي أعطانيها العسكريّ لم تزل بيضاء باليد الأخرى. لم أعد أسمع أصواتًا حولي، أنفاسي نفسها لم أعد اسمعها، حتى عندما تحدثتُ للشرطيّ جاء صوتي أنفيًا وكأن شخصًا آخر هو من يتكلم.

- مسئول..

هجم الشرطي بأذنه على فمي: نعم، حبيبي.

- مسئول..
- مسئول عن ماذا؟!
- أريدُ مسئولًا.
- آاه، أنت تريد مسئولًا!
- مسئول أشرح، أشرح له.. مسئول أشرح له..

ضحك: طبعًا طبعًا، المسئولون كلهم بالداخل، تَعَال يا حبيبي، تَعَال.

أمام بابٍ يحمل اسم (عنبر ٩) تَوَقَّفَ الشرطيُّ ليُعالِج القِفل بمفتاحٍ اصطفاه من سلسلةِ مفاتيحٍ تدلَّت بحِزامه، أمسكت بذراعه:

- استحلفك بالله.

أَصْدَرَ القِفلُ "حشرجةً" جَرْجَرَ الشرطيُّ على إِثْرِها مزلاجًا ضخمًا..

- بالله عليك اسمعني.

انجرَّ المزلاج ليصرخُ حديده إفاقةً من غفلته..

- أُقبِّل يديك، ورأسك، أريد أن أكلمك، أكلمك أنت.. أنت من سيسمعني.. أنا لم أفعل شيئًا.. أقسم بالله لم أفعل شيئًا.

فَتَحَ الشرطيُّ الباب لتنفجرَ جلبةُ العشرات بالداخل، قبل ينخرس الصوت فجأة وينتبه الصاخبون. تشبثت بالباب:

- ضَعني في مكان آخر.. في غُرفة.. في مكتب.. أو اتركني بتلك الطُرقة.. سأنتظر حتى ينظر فقط أحدهم في أمري، ووقتما يشاء، لكن بالله عليك لا تدخلني هنا!

- ادخل.

- أنا بريء والله.

- كلكم أبرياء.

- أريد مسئولًا أتحدث معه.

- ادخل.

- إذن أريد أن أهاتف أهلي.. أريد أن أكلم أمي.. دعني أكلمها لدقيقة واحدة.

- قلت ادخل.

دفعني دفعةً قوية ألقتني للداخل بمسافةٍ كانت كافية كيْ يسترجع بابه من جديد، قبل أن ينغلق القفل والمزلاج بنفس الطريقة، ويرحل الشرطي بعدها بمفاتيحه بعيدًا.

وقفت مُوليًا المكان كله ظهري، أرْمُقُ الباب المخيف منتظرًا، لا أعْلَمُ فيم وقوفي! ولا انتظاري! وقد حُسِمَ الأمر، لكن ربما لأنه لا خيارات أخرى سِواهما، أو ربما لأن شيئا ثالثًا لم أكن لأستوعبه. كنت أشعر بلسعات الأعين ترمقني من الخلف مصحوبةً بالغمز واللمز، التفتتُّ لأرى عرضًا جماعيًا لعشرات الفانلات الداخلية[٤]، والجلاليب، وأشباه الملابس، عُلِّقت تعليقًا ما على أجسادٍ مختلفة الأشكال والأحجام، راح أصحابها يتطلعون إليَّ بعيونٍ فاحصة، يُقيمون للذاهلِ الجديد وَزنًا، أو ربما داعب دخولي ذكرىً ضبابيةً بعقولهم، قبل أن تتسرب الحياةُ مرةً أخرى إلى أجسادهم، ليعودوا إلى ما كانوا يفعلونه.. أو ما بدا أنهم كانوا يفعلونه.

جَـثوْتُ بجوار الباب انهيارًا، ضَامًّا ركبتيَّ إلى صدري، طَمَعًا في أقلِ مساحةٍ يشغلها جسدي من المكان، شحيحة أنفاسي ضَيِّقٌ صدري، حتى مع محاولتي للتنفس بعمقٍ لعدة مرات لم أكن استشعر هواءً،

---

٤ يحق للمسجون أن يرتدي أي زيّ داخل العنبر، لكن خارج العنبر يرتدي فقط الزيّ الرسميّ الذي يتسلمه عند الدخول.

عن يميني اشتعل الباب طولًا، وعن شمالِيّ انبسطَ ممرٌ طويلٌ ترامت على جانبيه زنازين حديدية، بأسياخٍ طُولية سميكة. بداخل الزنازين، وحَوْلها، وعلى عتبتها، وفي الممر نفسه؛ انحشرت أجساد، أجسادٌ كثيرة، ضَاقَ بها المكان فتَضَامَّت جلوسًا، ووقوفًا، ونومًا، وبأوضاعٍ بين النوم والجلوس، وبين الجلوس والوقوف، الكلُّ يتكلم في نفس الوقت، ويضحك في نفس الوقت، ويهتف في نفس الوقت، كأنَّما هي مدينةٌ معزولة أو سوقٌ منسيٌّ..

كانت عيناي تجولان في المكان فأرى ما أراه فقط كصورٍ متتابعة بلا أية مشاعر أو استجابات، وكأنها ما أراه يدور في مكانٍ آخر وبُعدٍ آخر، أسندت رأسي إلى كفيّ فاعترتني رجفةٌ لإحساس شعيراتي النابتة كالدبابيس وهي توخز أصابعي، مررت بيدي مستكشفًا الرأس الجديد، أمسحه من الأمام والخلف، متعجبًا، ومستغربًا، أن كيف انقلب بي الوضع بتلك الطريقة بين يومٍ وليلة، هل أحلم؟! أهذا كابوس؟!..

حين تشبَّعت عيناي بالمكان، وحواسي بما أنا فيه، جاء دور الأسئلة لتتشبع رأسي بضرباتها الموجعة: ثم ماذا بعد؟! أهكذا إذن انتهى الأمر؟! لن يحتمل البيت أمرا كهذا! لن تحتمل أميّ، وحتمًا ستعرف، ولن يكون وضعها طيبًا إن علمت، كما أن وضعها ليس طيبًا وهي لا تعلم، وماذا عن رائد؟ أين هو؟ هل يسعى في اثري؟ ويحاول في مكانٍ آخر بطريقة أخرى؟ أتراه يُسرُّ بما حصل لنفسه حفاظًا على ما بيننا؟ أم يحكه لأهله وعائِشة.. عائِشة!.. آهٍ يا عائِشة، تبقت ثلاثة أيامٍ على اللحظة التي انتظرناها بفارغ الصبر، فهل قد يأتي الفرج من عند الله قبلها؟! هل قد يكتشفون الخطأ الحاصل خلال الساعات القادمة؟!..

سمعت أقدامًا تقترب، فانتفضت واقفًا، وكنت أول ما يرآه الشرطي الذي فتح الباب: أنا زين.. أنا زين..

نظرَ الشرطيُّ مُستغربًا لآخرَ كان يقف ورائه بما يعني "وماذا يريد هذا؟!"..

- أنا زين.. أكلموكم بشأني؟!

كنت أسدُّ بجسدي تلك الفُرجة التي انفتحت من الباب، فلوّح الشرطيّ بيده كأنما يهش ذبابًا ليرى ما ورائي: بـلديـة[٥].. بـلديـة..

- لا لا لا تُنادي أحدًا.. لا تُنادي.. أنا زين.. أنا زين.. اتصلوا بكم؟.. أخبروكم بأنهم على خطأ؟!.. اكتشفتم الخطأ الحمد لله!

أزاحني الشرطي بعيدًا ليتيسر لبعض السجناء الخروج قبل أن يعودوا ساحبين على الأرض صوانٍ ضخمة، مُغَطَّاة..

- فقط اسمعني.. لقد جئت هنا بالخطأ.. لم أرتكب جُرمًا، ولم أفعل يوما ما يُسيء لأحدٍ.. أرجوك يا أخي.. زواجي بعد ثلاثة أيام.. و بالمنزل قد..

لم ألمح في وجهه استجابةً فاستدركت لافتًا انتباهه: هناك خطأٌ في الاسم.. أتدري ذلك؟!

لمحت آخر صينية تدخل العنبر: أو ربما في رقم الهوية.. نعم.. نعم.. هو خطأٌ في رقم الهوية.

همَّ بإغلاقِ الباب فتشبثت بقوةٍ أحول دون إغلاقه: أرجوك، أتوسل إليك، أريد التحدث لمأمور السجن.

ضَحِكَ: مأمور السجن مرة واحدة.

- دعني أتحدث إليه لدقيقة واحدة فقط.

دفع الباب محاولًا إغلاقه: ارجع للخلف إذن.

- أرجوك..

- ارجع قلت..

تشبَّثت أكثر: أتوسل إليك اسمعني.

---

[٥] البلدية: مساجين؛ أغلبهم مغتربون فيضطرون للخدمة في العنبر لكسب القوت (كنس، تنظيف، طبخ، غسيل ملابس..)، معظمهم هنود، وسريلانكيين، وبنغال، ويقومون بهذه الأعمال بمقابل مادي من باقي أفراد العنبر.

دَفَعَ الشرطيُّ الباب بكل عزمه، فأفلتُّ كفي لئلا تَنْسَحِقَ فرمًا، لينغلق الباب، ويرحل الشرطي من جديد..

عُدْت إلى مكاني في نفس الوقت الذي أكمل فيه أفراد البلدية جَرَّ الصواني إلى منتصف الممر، دون أن يلتفتوا لما حدث أو يعيروه اهتمامًا. ما أن استقرت الصواني حتى بدأ المساجين في التجمع حولها بقدورٍ في أيديهم راحت تصطك ببعضها البعض أن أيـُّها أكثر غرفًا، أيادٍ تحلقت حول الصواني، وأيادٍ غاصت ولم تخرج، سبّةٌ هنا ولكزةٌ هناك، ضحكاتٌ وشتائمٌ، وعتابٌ مرفقٌ بسباب، وتشابكٌ مستترٌ بين البعض للحصول على نصيب أكبر. من زنزانةٍ بجواري خرج سجينٌ ضخمٌ ممتليء الجسد، برزمةِ أوراق، سائلًا عن الإيرادات[٦] الجديدة، عرفت فيما بعد أنه أقدم الموجودين وأنه المسئول عن نظام العنبر. أشارَ البعض إليّ، فتوجَّه ناحيتي يطلب "باقي" بياناتي، نظرت إليه وإلى الأوراق بحوزته، فسرت بي رعشةٌ أن اسمي مسجلٌ بها، لم أقوَ على النطق، فدوَّن الضخم بضعة أشياءٍ في أوراقه ومضى.

أُعِيدَت الصواني مرة أخرى ناحية الباب، فارغة، فدفعتها بسرعةٍ وخوفٍ بعيدًا عني، ثم عدت أتقوقع بالركن..

ثم هربًا من حرقة التفكير والقلق، وانتظارًا للباب كي يُفتح من جديد، رُحت أُشْغِل عينيَّ بالصور والأشكال، فما أن يتناهي إليّ صوت اثنين بقربي حتى يتحرك رأسي في آليةٍ ليتابع كلامهما وحكاياتهما، ينتهيان فيتحرك الرأس بنفس الوهن ليتابع تجمعًا من بضعة سجناء غرقوا في الهزل والمزاح والتنكيت، ثم كان هناك ذلك الذي عزلته سمَّاعات الأذن عن العالم كله فراح رأسه يتمايل وشفتاه تتحركان بلحنٍ ما، آخر استيقظ من النوم لتوِّه وراح يقوم بتسخين الطعام من قِدْرٍ أنقذه صاحبه من معركةِ الصوانيّ، البعض نائمٌ، والبعض سارحٌ، والبعض يتمشى ويحوم هنا وهناك بلا هدفٍ ولا غاية..

جنَّ الليلُ.. فتفسخت التجمعات والشِلَلْ، وانسلَّ من كانوا بالممر واحدًا تِلْو الآخر دخولًا إلى زنازينهم، اثنان بخارج كل زنزانة راحا يحشران بين الأسياخ الحديدية جلاليب قديمة، وأكياس قمامة، يُثبتانها بطريقةٍ

---

[٦] إيرادات جديدة = مساجين جُدد.

ما لتحجب قدر ما تستطيع أن تحجبه عن الخارج. دخل الكل إلى زنزانته، حتى لم يتبقَّ في الممر كله سوى سجينين مُطأطأي الرأس نُعاسًا يتهامسان، فتابعتهما لأنهما، ربما، الشيء الوحيد الذي تبقى لأنشغل به في المكان، حين انتهيا قاما مُتحاملين على بعضهما البعض مشيًا حتى زنزانتيهما، دقائق أخرى ثم أُغلقت الأنوار في العنبر واحدًا تلو آخر، ليزحف السواد على المكان كله، إلَّا من مصباحٍ وحيد بآخر العنبر، كان خافتًا، مُقْبِضًا، وأكثر كآبةً من لو أظلم المكان كله، وليبدو العنبر بخلوِّه وصمته المُفاجئَيْن وكأنه مدينةٌ للأشباح..

في تلك اللحظة بالذات شعرت باختناقٍ شديد، وكأن روحي تُنتزع من جسدي، فمن المستحيل أن يأتي أحدٌ ويطلب مني الخروج الآن.. مستحيل.. أنت هنا ليومٍ آخر يا زين.. حاولت النوم فلم أستطع، حاولت إيقاف التفكير والأسئلة وأيضًا لم أستطع، حتى بعد وقتٍ انتبهتُ لغطاءٍ كان قد أعطانيه العسكري الذي سلمني زي السجن، فقمت وفرشته على الأرض ثم جلست فوقه قبل أن أطوي نصفه وانكمش بداخله حتى يسعني، ثم رُحت أسرح في السقف، وشخبطات الحوائط، ورقعًا بالباب ذابت قشرتها فتطفل من ورائها لحمه الصديء، وذلك قبل أن تستقبل زاوية الباب رأسي، ليبتلعني ظلام التعب والنوم.

***

في صباح اليوم التالي أَفَقْتُ من نومي على مياهٍ تغمر البنطال والغطاء، أفراد البلدية يمسحون أرضية العنبر، وقفت بمشقةٍ متحاملًا على نفسي حين حاصرني هؤلاء بجرادلهم ومساحاتهم الخشبية، يمسحون الركن وينظفونه بعد أن أغرقوه بالصابون والمُطهرات، قبل أن ينتقلوا للبلاطات المجاورة، دقائقٌ انتظرتها حتى جفَّت الأرض شيئًا ثم جلست كما كنت، مُغمِضًا عيني من الصداع والألم..

انفرج باب العنبر، ونُودِيَ على البلديةِ لسحب صواني الإفطار، فَزِزتُ لأجد شرطيًا لم أره بالأمس: لو سمحت!

- خيرًا!

- جاءوا بي إلى هنا بالأمس.

- حمدًا لله على السلامة، بلديااااااه.

- أريد فقط أن أقول أني هنا بالخطأ، لم أفعل شيئًا، لديكم التباسٌ خطيرٌ في الأوراق، جاءوا بي مكان شخصٍ آخر.

- آخر! هههههههه ومن هذا الشخص الآخر؟!

- لا أعرف من هو! كل ما أعرفه فقط هو أني لم أفعل شيئًا لأكون هنا.

- اسمع اسمع، أنا قادمٌ لتويّ ولا مِزاج لما تقوله، اَفْسِحْ.

نغزني في كتفي كي يوسع مجالًا لأفراد البلدية الذين تقدموا لسحب الصواني..

- لم لا يسمعني أحد؟!

- طالما أنك هنا فلن يسمعك أحدٌ حتى تنتهي عقوبتك.

- ألّا يوجد قانونٌ واحدٌ من بين كل قوانين الأرض ينص على أن تسمعوا شخصًا مظلومًا، ويقسم لكم بالله أنه بريء؟!

توجه لي بكامل جسده: بالضبط، لا يوجد قانونٌ واحدٌ ينص على أن نسمع مظلومًا ويقسم بالله أنه بريء لأن العنبر به مائتي مظلوم، وكلهم أبرياء، وكلهم يُقسمون بالله بأنهم لم يفعلوا شيئًا، وأن مكانهم ليس هنا، أفهمت؟!

- لكني حقًّا بريء، ولم أفعل شيئًا، تحرّوا جيدًا، راجعوا الأسامي والأوراق.

- راجعنا كل شيء وتأكدنا أنه أنتَ الحمد لله، هيا.

قالها ثم دفعني وأغلق الباب، فيما ظللت واقفًا أتابع الصواني وهي تُسحَبُ إلى داخل الممر.

***

ساعات تمر تلو ساعات وأنا لم أزل ملتصقٌ هكذا بالركن، كلما انفرج الباب شبرًا فززتُ من مكاني متوددًا للشرطيِّ القادم، أسأله عن جديدٍ في أمري، أو أن أتفاهم مع مأمور السجن أو واحدٍ من المسئولين،

لكن بلا جدوى، حتى حفظوا جميعهم وجهي كما حفظت وجوههم، لم تتغير طلباتي كما لم تتغير ردودهم. نهارًا احملق في العنبر، وليلا يحملق في العنبر، والليل والنهار هما لدي سواء، فلا نافذةٌ ولا ثقبٌ واحدٌ يشي إن كان الوقت صباحًا أم مساءً، أعرف فقط الوقت بالتقريب حينما يدخل الطعام، وبمواعيد الصلوات، أو بسؤال المساجين الذين لا يفوِّت الواحد فيهم أن يشفع إجابته بتعليق أن لِمَ تسأل؟ وراءك اجتماع! بعضهم إن مرَّ بي يضحك أن سُيفتح الباب الآن يا أخي، حالًا، فقط لا تبرح مكانك، كما أنت..

غير أن تعبي الأكبر كان "عائِشة"، فلا بُدَّ أنها تعاني هي الأخرى قلقًا فوق قلقها إذ يقترب موعد الزفاف، لا بد أنها تحاول الوصول إليّ ولا تستطيع، هل اتصلت بالمنزل؟! هل أخبروها أنهم أيضًا لا يستطيعون الوصول إليّ؟! أم هل لما وجدها رائد بهذه اللهفة أراح بالها بما حصل؟! سامحه الله إن فعل، وعلى ما فعل، وعلى خذلانه لي بتلك الطريقة التي لا أجد لها تفسيرًا، ماذا قيل له في نقطة التفتيش إذن؟! أهو ذلك نفسه الذي قيل لي؟! إذن فلم لم يَتَحَرَّ بنفسه ويتقصى الأمر، لكن وحتى إن أساء الفهم والظن، بل وحتى وإن أَعْرَضَ عني؛ فعائِشة لن تفعل، عائِشة شيءٌ آخر، عائشة لن تظن بي سوءًا أبدًا، ستدرك أن ما حصل إنما هو محضُ خطأٍ أو كيدٍ أو التباس.

الوقت يمضي وموعد الزفاف يقترب، صدري يضرب وجعًا وحسرةً ولهفةً، ما العمل؟! ما الحل؟! أريد حلًا؟! يوم التتويج لصبر السنوات والأشهر الطوال، تتويجٌ لكل ما حلمت به ولم أتمنَّ غيره، اليوم الذي يجمعني بكِ يا عائِشة، وانتظارنا له بفارغ الصبر وكثير الأمل، حين كنا نُحصي سويًا الأسابيع والأيام.. عشرة أيام.. ثم سبعة.. ثم خمسة.. ثم أربعة.. ثم زفافي اليوم..

زفافي اليوم..

- أيُّ زفافٍ يا معتوه؟!

يقولها الشرطي وهو يجول بعينيه في وجهي الذابل، وعينيّ المنهكتين، وذقني التي نبت فيها الشعر بغير انتظام، وزييِّ المتسخ إثرَ ثلاثة أيامٍ من ملاصقة الباب..

- غُرْ بعيدًا..

أزاحني متأففًا، فعُدتُّ إليه مُعاندًا: والله يا أخي زفافي اليوم، دعني أخرج، اليوم زفافي، عائِشة تنتظر، لا بد أنها تنتظر.

- عائِشة من؟! ومن هؤلاء الذين ينتظرون؟! أمجنونٌ أنت؟!

دفعني بقوة أكبر لأتعثر وأهوى وسط حلقةٍ من السجناء، دفعني أحدهم ضاحكًا:

- أفرجوا عنه اليوم ليلحق بزفافه، ثم اقبضوا عليه في صباح اليوم التالي هههههههههه.

استعيد توازني وأعود للشرطي: لم يزل هناك وقت، أتعلم؟ لو أني أخرج الآن فاستحم وأشذِّبُ رأسـ.. بل لا لا سأخطف البِشت والشماغ[7] وأطير إلى الصالة وبالتأكيد سألحق، أليس كذلك؟ إنهم هناك، كلهم هناك..

"قابله بالمأمور ليستأذن منه لزفافه على وعدٍ بأن يعود في اليوم التالي". يقولها أحدهم فيسخسخ من حوله ضحكًا. تلمع عيناي في حماس:

- نعم نعم أريد مقابلة المأمور، أريد مقابلة المسئول هنا، قابلني بمسئول الآن أرجوك.

يلقي الشرطي نظرةً متمهلةً على كفي المتشبث بذراعه، قبل أن يعود رأسه إليّ متأنيًا:

- أتريد مسئولًا؟

- نعم.. نعم أريد مسئولًا.. أريد مسئولًا..

- تعال إذن، سأُقابلك بمسئول.

قالها ثم سحبني إلى خارج العنبر حيث الطُرقة الخارجية، سِرنا لبضع خطوات ثم أمرني بالتوقف فتلفتتُّ حولي.. لا أجد شيئًا.. لا غُرف ولا ضباط ولا مسئولين.. لكني وجدت ذلك الذي يحيط بمعصمي.. قيدٌ حديدي..

- قِف على أطراف أصابعك.

---

[7] البِشت: العَباءة الرجالية البدوية. الشماغ: الكوفية أو الغُترة.

ذُهلت: ماذا؟!.. ماذا؟!.. لا لا..

- أقول قِف على أطراف أصابعك.
- لا لا.. أرجوك.. لا لا اسمعني.

صرخ: قلت قف..

مرتعشًا وخائفًا شببت قدر ما أستطيع، فشَبَّ هو بدوره رافعًا يدي المكبَّلة لأعلى، مُغْلِقًا القيد على شبكةٍ حديديةٍ مثبتة بأعلى حائط الطرقة.

- يا أخي لِمَ؟ لم أفعل شيئًا!
- ولا صوت.

قالها وتركني معلَّقًا، إحدى ذراعيّ مكبلة إلى أعلى الحائط، بينما أطرافُ قدميّ تلامس الأرض، أو تكاد، عوجت رأسي قدر استطاعتي حولي بحثًا عن نجدة فلم أجد أحدًا، أبواب العنابر كلها مُغلقة ولا يوجد أي مخلوق بالطرقة، بعد نصف ساعة من الوقوف والتحامل بدأ الألَمُ يتسرب إليَّ، بتريثٍ وإمعان، كأن أصابع خفيَّة تقوم بفك كل عظمة من عظامي على حدة، حتى وهنت أعصابي تمامًا، فوجدت معصمي موكلٌ بحمل جسدي كله، يكويه القيد كيًّا، حتى شعرت بين لحظةٍ وأخرى أن كفي سينخلع، شرطيٌ عبر بي فتوسلته الرحمة، فنظر لجسدي المعوَّج إذ لم أعد أملك السيطرة عليه: قِف جيدًا.

- فكني أرجوك، لم تعد بي قدرة للوقوف.

وثب ناحيتي بشراسة: أنت تتطلع إليَّ، عيناك بالأرض، عيناك بالأرض يا كلب.

نكَّستُ رأسي.

- اِخفضها أكثر.
- حاضر.
- أكثر قلت أكثر ألَا تسمع؟

-   حاضر، والله حاضر.

بعد ساعة كان جسدي قد تخدَّرَ كله، فلم أعد أتحكم به مطلقًا، وكان ذلك حين اقترب الظل:

-   ليس هناك ما هو أسهل من أن أجعلك طوال اليوم معلقٌ هكذا كالذبيحة.

أحنى جزعة ليضع وجهه في مجال رؤية رأسي الساقِط: هل سأسمع صوتك مرةً أخرى؟

لم أقو على الرد، لكن يبدو أن إعيائي كان قد منحه إجابةً شافية، فشبَّ وحلَّ القيد لأهوى مرتطمًا بالبلاط صارخًا، حاولت الوقوف فلم أستطع، فالجسد متميعٌ، مُفككٌ، لا عظام ولا عضلات أتكيءُ عليها، ويبدو أنه - الشرطي - الذي ربما مارس ذلك مرارًا، يعلم نتيجة فعلته، ويحفظ هذا السيناريو، فلم يطلب مني الوقوف، بل فتح باب العنبر وانتظر، فجعلت أحبو بيدي السليمة جارًّا جسدي كله ناحية الباب، فيما كان حِذَاءه الذي كان في مستوى وجهي يقرع الأرض برتابةٍ يستعجلني الدخول، عشر دقائق استغرقتها حتى عبرت ونجحت في الوصول إلى ركني المعتاد قبل أن يُصفع الباب من خلفي بقوة، اعتدلت وأسندت ظهري إلى الحائط، ضممت بعدها شفاهي مُغلقًا عيني استعدادًا لألمٍ محتمل، ثم بيدي اليسرى - السليمة - رُحت ألملم باقي أجزائي إليّ.. ذراعي الأيمن، قدمي اليمني، قدمي اليسرى، ثم في النهاية سحبت الغطاء وانزويت بداخله قبل أن أدفن وجهي في تلك الزاوية بين الباب والحائط.. تاركًا عينيَّ تطفحان بالدموع.

***

بعد وقتٍ لم أُحْصِه وجدت اليد تربت على كتفي: أخي..

ارتفع رأسي بعناءٍ حين ألفيت شابًا في منتصف الثلاثينيات، نحيفٌ، قصير اللحية، يرتدي البنجابي الباكستاني.

-   لا تحتك بهم، ولا تتكلم معهم، ابتعد عنهم تمامًا واسلم من شرهم، كي لا يؤذونك.

تحسست الطوق الناري التي حفره القيد بمعصمي، هاذيًا بكلماتٍ متفرقة عن أني قد ظُلِمْتُ ولم أفعل شيئًا، فسمع مني ما قلت في صبرٍ وتأدب قبل أن يتابع:

- قد تكون كذلك فعلًا، لكن لا أحد يسمع لأحدٍ في هذا المكان، طالما وصلت إلى هنا فالأمر تقريبًا منتهي، هذه الحقيقة ستوفر عليك كثيرًا من المشقة والعناء، حاول أن تتأقلم، حتى يُفرجها الله عليك.
- أهذا هو العدل إذن؟! أن أُلْقى هكذا دون تهمة أو تحقيق! دون أن أرتكب جُرمًا!
- ولا تقل مثل هذا الكلام بداخل العنبر، أو بالسجن عمومًا، لأن أي كلامٍ قد يؤخذ عليك، وقد يُعاقبونك عليه.

سكتتُّ ولم أجبه، فتململ في مكانه فيما يبدو أنه لم يعد يجد ما يقال. ربت على كتفي مرةً أخرى:

- اسمي عبد الشكور، باكستاني، أعمل حلَّاقًا، إن احتجت شيئًا أخبرني.

ثم تركني ومضى..

- ٢ -

منذ ذلك اليوم لم أعد أتحدث إلى أيٍّ من أفراد الشرطة، لم أعد أتوسلهم أو أترجاهم في شيء، فات الزفاف، وراحت عائِشة، وخسرت كل شيء، والله وحده يعلم بحال أمي وإخوتي. فقط عندما كان ينفرج الباب كنت أقف في مجال رؤية الشرطي الواقف عساه إن رآني من بين الوجوه المتكالبة ينتبه لأمري، أو يتذكر شيئًا بشأني، لكن الباب كان يُفتح ويُغلق مراتٍ ومراتٍ بلا جدوى، ما جعلني أزهد في الوقوف والطلب، فصرت أنزوي بالركن طوال الوقت ساكتًا لا أنبس ولا أتحرك، حينًا فقط كان رأسي يرتفع للشرطيّ العابر بي لعله يرى في عيني ما لم يبُح به فاهي، لكن ذلك أيضًا لم يكن يُقابلُ إلَّا بالإعراض واللامبالاة، أو بكلام لا يزيد عن: "ابتعد عن الطريق".. "ما الذي يحشرك هنا طوال الوقت".. "جِد لك زنزانة".

وكانت قد ألـمَّت بيدي رعشات رتيبة، صاحبتها تقلصاتٌ ببطني، فأدركت أن جسدي يصرخُ طلبًا لزادٍ لم يزره لأيام، وأن وجع الرأس قد ألهاني عن صراخ بطنٍ جائعة، هكذا في هذا اليوم ما أن عادت الصواني ناحية الباب حتى أزحت عنها الأغطية الواحدة تلو الأخرى، قبل أن أطوف بأطراف أصابعي ملهوفًا بقعرِ كل صينيةٍ، مُلْقيًا بما تكوَّم في فمي، لم أُدقق في الموجود، ولم أكُن أشعر بطعم أي شيء، فقط كنت أبتلع ما أجده بلعًا، فقط حتى تمتلىء البطن وتهدأ قليلًا. أيضًا بدأت تفوح من ملابسي رائحةٌ خانقة، من طول الالتصاق بالبلاط والباب، ما جعل الرائحة لا تُطاق أكثر هو الماء القذر الذي كانت تتشربه الملابس يوميًا عندما تغسل البلدية الأرض في الصباح، فأفراد البلدية ليس لديهم وقتٌ لإيقاظ كل النائمين أو تنبيه من يعترض طريقهم بالممر، فلديهم أعمالٌ يجب إنجازها قبل انحسار النهار، لذا يصرخون في العنبر مرةً واحدة، وعلى الصرخة يستتيقظ من يستيقظ وليظل غافيًا من غفا.

ولانشغال غرف الاستحمام طوال اليوم كنت أنتظر لآخر الليل، فأطوف بالغرف كلها أولًا لألملم بقايا الصابون التي تركها مَنْ قَبْلي، تلك المهملة بالأركان والزوايا، لأضمها فوق بعضها البعض حتى أصنع كتلةً

لا تتعدى ربع الكف، أدخل بعدها إلى إحدى الغرف وأغسلها - الكتلة - بالماء، مُزيلًا ما عَلِقَ بها من وسخ الأرض والبلاط، استحم ثم أغسل ملابسي بعد ذلك، بالماء فقط، لأن الصابون الذي جمعته لم يكن يكفي بأي حالٍ لإزالة الأوساخ كلها.

***

ذات مساءٍ، وكنت جالسًا بجوار الباب كالعادة، وجدته يقف أمامي:

- عادت الصواني اليوم فارغة.

قالها وجثا على ركبتيه مادًّا إليَّ يده بطبقٍ فيه أرزٌ وبعضٌ من قطع اللحم تصاعد بخاره كثيفًا، لمح ترددي فلكزني بالطبق أن كُل، فتناولت قطعةً من اللحم حين رأى بوجهي استحسانًا، فناولني ملعقةً ووضع الطبق أمامي تاليًا بضع كلماتٍ عنٍ "الصبر" و "التأقلم" و "إلى أن ينصلح الحال"، قبل أن يُغادرني عائدًا إلى زنزانته.

اسمه سالم، عُماني، ولقُرب زنزانته من الباب كان يراني يوميًا ويتابع تطور حالتي في أطوار اليأس والذهول، ممتلىءٌ قليلًا، يكبرني بعامين، ملامحه مستكينةٌ راضيةٌ، عرفت فيما بعد أنه المسئول عن مَؤُونة الزنزانة التي يبيت فيها مع بضعة عشر آخرين، وأن الطعام كله هو مسئوليته، يأتي الطعام للعنبر باردًا، نيّئًا، فيقوم بإعادة طهيه بعد أن يزيده بالبهارات والتوابل والمرق. وسيلته في ذلك، كما لاحظت، موقدٌ حراري، يتم توصيله بالكهرباء ليضويّ سلكٌ ملفوفٌ على قاعدة حجرية بالحرارة، يفعل هذا بمقابل شهريٍّ من أفراد الزنزانة، ويغسل ملابسهم أيضًا، لكنه لم يطلب مني مالًا مقابل الطعام، ولم أكن أطلب أكثر مما يجود به.

كان بسالم، ودونًا عمن رأيتهم بالمكان، شيءٌ من العطف والرحمة، فَوْرَ أن يستيقظ من نومه كان يقوم بإعداد الطعام لكلينا بعد أن يُعدِّه لأفراد زنزانته، في اليوم الذي يغيب فيه، لأي سبب، كنت أُضطَّرُ لانتظار عودة الصواني، فألتقط ما تركه المساجين في قعرها إما شبعًا أو ترفًا، ملعقتين أو ثلاثًا من الأرز أو المكرونة، كبشة أو اثنتين من الفول أو العدس، أيًّا ما فاض عن الحاجةِ كنت آكله، في أفضل أوقاتي

حظًّا كنت أعثر على قطعٍ صغيرةٍ جدًا من الدجاج، أو اللحم، مدسوسةً بين البقايا والفتات، فأبتلعها كما هي سدًّا لرمقي دون أن تلوكها أضراسي، لأنها في الأغلب تكون نيئَّةً وعصيةً على المضغ.

عرض عليّ أيضًا عبد الشكور الباكستاني عدة مرات أن يحفَّ لي رأسي ولحيتي التي هاشت، على أن أدفع له عندما يتيسر الأمر، لكني اعتذرت له بأني لا أفكر في حلاقة ولا في غيرها، ولا أهتم بهذا الشأن كله الآن.

وكان سالم يمرُّ بي من وقتٍ إلى آخر، مُحاوِلًا قدر استطاعته أن يُلهيني عما أنا فيه، وكنت أيضًا، في بعض الأحيان، أمر بزنزانته، ملتمسًا الكلام والفَضْفَضة، ووأدًا لتفكيرٍ يحرق الرأس، فكان يأتيني من فوره إن لم يكن مُلزمًا بالطبخ أو الغسيل، ليُجالسني عند باب العنبر، ويتكلم معي لدقائق لا تطول عن عمر سيجارته، قصصت عليه موضوعي عشرات المرات، وكأني بالحكي، وفي كل مرةٍ، أحاول أن أجد الخطأ الذي ارتكبته، مُلتمسًا منه المشورة والعوْن، فكان يهز رأسه تعاطفًا مرة، وتساهلًا مرات، إنهاءً للموضوع برمَّته، قائلًا أن الشكوى لن تفعل شيئًا إلَّا إذكاءً للمواجع، لم يعد أحدٌ يحكي هنا، أو يشتكي، وكانت نصائحه الثلاث لا تتبدل:

"اصبر حتى يأتي الفرج.. تجَنَّب الكلام والجدال مع الشرطة نهائيًا.. اندمج مع الموجودين حتى لا تُجَن".

في اليوم الخامس بدأت أتمشى بممر العنبر، شاغلًا عيني ورأسي بالصور والأشكال، والعنبر كبير واسع، اكتظ بأكثر من مائتي سجين، ما بين هنود، وسريلانكيين، وبنغال، وباكستانيين، وعربًا، من مختلف الأعمار والفئات.. شيوخًا، ورجالًا، وشبابًا، فبدا بكل هذا العدد، وبتلك الجلبة، وكأنه مدينةٌ منسيَّةٌ، أحدهم ألقى هؤلاء هنا ومضى.

وممر العنبر طويل، تراصت على جانبيه بضعة عشر زنزانة، والزنزانة غرفة كبيرة، بثلاثة حوائط، أما واجهتها، المُطلة على الممر نفسه، فهي أسياخ حديدية طولية سميكةٌ. كلُّ زنزانةٍ تضم ما لا يزيد عن بضعة عشر فردًا، تسعهم نومًا فقط، لكن، لضيقها، لا يمكنهم الجلوس فيها جميعًا بنفس الوقت، لهذا كان

أفراد العنبر نهارًا يتوزعون بطول الممر نفسه، وفي الليل يعود كل واحدٍ إلى زنزانته، ليلف نفسه بالغطاء وينام كالألف.

في آخر الممر كانت هناك صنابير للشرب والوضوء، وبجوارها غرفٌ للاستحمام يسمونها (مسابح)، ولكن لا حمامات لقضاء الحاجة، لهذا اقتطع أفراد كل زنزانة ذلك الركن القصيّ من زنزانتهم وجعلوه حمامًا، بعد أن طوَّقوه بشكلٍ دائري بالملاءات وأكياس القمامة، ليواري من بالداخل عن الخارج قدر الإمكان، ولأنه لم تكن لي زنزانة فقد أمسيت ضيفًا ثقيلًا على زنزانة مسئول العنبر، والذي كان مُكرهًا يسمح لي بالدخول حين أقف على بابه شاكيًا بطنًا متعبة أو مثانةً تكاد تنفجر، فأتواثب خَجِلًا بين رؤوس المتطلعين قبل أن أزيح الملاءة ثم أضبطها مواريًا نفسي عن عشرين عينًا منتبهه فاحصة..

صِرتُ أقتل الساعات بالجلوس إلى سالم، وتقتلني الساعات إذ يغادر سالم، لمْ أعد أحكي، فصار هو يحكي ما يتداعى لخاطره من قصصٍ وحكايات، عن العنبر والشرطة والسجن والسجناء، هو يحكي وأنا أسمع، وحينًا يحكي وكأنني أسمع، هو يحكي ولا يَأْمَل مني ردةُ فعل، وأنا أسمع ويتشابه لديَّ ردُ الفعل، فقصص سالم على غرابتها حينًا، وطرَافتها في أحيان أخرى، لم تكن تُثر في مشاعري إلَّا أقَلَّ القَليل، فبعد أسبوعٍ بالسجن انطبعت هيئتي بتلك السحنة البائسة، فصار البؤس عاملًا مُشتركًا بين كل المشاعر، فأنا في تلك القصة بائسٌ مُندهش، وفي ذلك الخبر بائسٌ مُستغرب، وفي تلك الطرفة بائسٌ يبتسم. ثم يُغادر سالم؛ فأقوم من جديد وأتمشى في العنبر، والعنبر كله مفروشٌ بالشلل والتجمعات، شِلل صغيرة وشِلل كبيرة، شِلل للبسطاء وشِلل للمخضرمين، كنت أذهب دومًا إلى تلك التجمعات التي لا تزيد عن فردين أو ثلاثة، فأقترب لمسافةٍ تسمح لهم برؤيتي، لافتًا الانتباه بالترحيب والتحايا، لعلَّ أحدهم يدعوني إلى رفقته، فكان بعضهم يقطع طولي وعرضي بعينيه قبل أن يعود لحديثه من جديد، والبعض الآخر كان يأمرني بأن أمضي إلى حال سبيلي وألاَّ أقف محملقًا هكذا، مررت بالكثيرين والكثيرين، عارضًا الصحبة والرفقة، فلم يقبل أحدٌ بما أتدلل به، لم أكن أريد من كل هذا إلَّا أن أُشغل رأسي بالكلام، أي كلام، فقط لئلَّا أُحاصر بالتفكير والأسئلة، فالتفكير مُنهك.. والأسئلة دومًا بلا إجابات.. ولا يلوح في الأفق إلَّا السواد.. والسواد هذه المرة حالكٌ جدًا.. إلَّا من أضواءٍ بعيدة.. تبدو وكأنها مصابيح صغيرة تسبح في بحرٍ أسودٍ عظيم.. المصابيح تقترب شيئًا فشيئًا.. هي ليست مصابيح إذن.. بل أعينٌ.. بعضها ذابلٌ واهن

وبعضها قاسٍ متوعد.. تحاصرني.. ويتمتم أصحابها بأشياء لم أتبينها.. ثم هناك يدٌ تقبضُ على ذراعي.. وتسحبني بعيدًا..

عندما ابتعدنا بمسافةٍ كافية، حاصرني بجسده - سالم - وفي يده قمصانٌ تَقاطر بللها على الأرض، ما بدا أنه قام من غسيله على عجل:

- ما أدخلك إلى هناك؟
- لا شيء.
- هل كنت تبحث عن أحدٍ بالداخل؟
- وعمَّنْ أبحث، أنا لا أعرف أحدًا بالمكان.
- هل قلت لهم شيئًا؟
- كلا.
- متأكد يا زين؟

أومأت برأسي أن نعم.

تنهد سالم في ارتياحٍ وهو يختلس النظر للزنزانة المغطاة تقريبًا بالكامل:

- انتبه لنفسك، ولا تدخل أبدًا زنزانةً لا تعرف أصحابها، فهنا زنازين قد انتهت تمامًا.

***

لم تكن تلك هي الزنزانة الوحيدة التي يسحبني سالم من أمامها، فعل ذلك مع ثلاثة أو أربعة زنازين أخرى، أغربها كانت واحدةً في آخر الممر ليس بها سوى ثلاثة أفراد فقط، وهو ما شجعني للتعرف عليهم، فور أن هممت بالدخول مُلقيًا السلام أتاني سالم مصعوقًا وانتشلني من على عتبتها كطفلٍ رضيع على وشك الوقوع من حافة بلكونة، رافقني حتى الباب ثم أجلسني بحرص، قبل أن يمضي لعمله مُسرعًا.

وسالم على طيبته، واهتمامه بأمري، إلَّا أنه لم يكن من الجرأة بحيث يطلب ممن يشاركونه زنزانته أن يقبلوا شخصًا جديدًا، لأن الزنزانة كانت بالكاد تكفي من فيها، كما أني في هذا الوقت كنت أرفض دخول أي زنزانة، فعلى هذا الضنك والوجع كنت أرفض، لأن دخولي كان يعني سطر النهاية، هو رضاءٌ بالأمر الواقع، وأن الموضوع قد انتهى: أنت مسجون يا زين، وعليك أن تتعامل كمسجون، وتتعايش كمسجون، لذلك لاصقت الباب لا أبرحه إلَّا للصلاة أو الاستحمام، على أملٍ قد يأتي بين لحظةٍ وأخرى.

مرَّت ثمانية أيام، وكان يقيني أن هناك شيءٌ ما يحدث بالخارج، لأنه بالتأكيد اتضح للكل؛ البيت، العمل، الأهل، الأصدقاء، أن زين قد اختفي، أين وصل الحال بوالدتي الآن؟ وأين بلغَ بها التعب؟ بأيّ مقدارٍ يزيد عليها الوجع كلَّ يوم؟ هل تعرف أصلًا أني بالسجن؟! هل يحاول أحدهم الوصول إليَّ ولا يستطيع؟ ماذا حكي رائد عن هذا اليوم؟ وماذا قيل لعائِشة؟ ماذا تظن فيِّ؟ وماذا قال أهلها وذووها للناس عن غيابي؟ وبم عللَّوا إلغائهم للزفاف؟.. نعم؛ كنت أعرف أنه لا زفاف، وفي ذلك اليوم الذي توسلت فيه الشرطي اللحاق بالزفاف كنت موقنًا أنه لا زفاف لألحق به! فأيُّ زفافٍ والعريس مختفٍ منذ أيام، لكن إنما هو عدم استيعابي لكل ما حلمت به مع عائشة أن ينهار، وشدة حبي لها وتعلقي بها، كل هذا تملَّك عقلي وكياني حتى زرع في عقلي الباطن أنها هناك.. تنتظرني.

أيامٌ أخرى أنهكتني فيها الأسئلة نفسيًا وعَصبيًا، كما أنهكتني قلة الطعام وركونة الباب بدنيًّا، حتى بدأ وجع النفس يتسرب ليطفح على الجسد، فصرت أشعر بصداعٍ لا ينقطع، وأوجاعٍ لم أعد أعلم مصدرها، وكأن الجسد ينهرس في مطحنةٍ عظيمة، قطعةً قطعة، هكذا اختفت كل الأسئلة ليحل محلها سؤالٌ واحد.. أن كيف أُنهي هذا كله!..

الهرب؟!..

تَبرق الفكرة برأسي في لحظة، فأنظر حولي.. بوابات، وعساكر، ورشَّاشات، وأقفال فولاذية، وأبواب حديدية، وأجهزة إنذار، ومع قلة حيلتي سيغدو الأمر مستحيلًا، ولو كان ميسورًا لفعلها أولئك المخضرمون حولي، وما سكتوا وارتضوا بما هم فيه، أأزيد إذن من إلحاحي على الشرطة؟! أطلب وأتوسل أكثر! ولكن

ياليتها كانت في كم الإلحاح أو مقدار التوسلات، فهؤلاء قد صموًّا آذانهم تمامًا، لا يريدون سماعي أو سماع غيري، بل ولم أصلًا سيسمعونني هذه المرة بالذات أو أية مرات قادمة؟!..

إذن أأحتمل وانتظر حتى يأتي الفرج؟ لكن كم من الوقت سأحتمل في هذا المكان وبتلك الطريقة؟ أسبوعٌ آخر، اثنين، شهر، عام، ثم إذا هم لم يعبأوا بي مع كثرة إلحاحي وتوسلاتي فهل مع سكوتي سيأتيني أحدهم من نفسه هكذا قائلًا: والله نعتذر إنَّا مُخْطِئُون تفضل مع السلامة.

التعب يزيد، والوجع يتفحش، أنام وأظن أني بنومي أقطع يومين وثلاثة، فأُفاجيء أني لم أَنَمْ غير ساعتين أو ثلاث، محكومٌ عليَّ بسبع سنوات، وكل يوم يمضي وكأنه سبع سنوات.

في بعض الأحيان كنت أجدني أنقض على سجين لا أعرفه، صارخًا بوجهه بغية استفزازه ليكلمني، فأنشغل بكلامه عن جحيم الأفكار والوساوس، لكنه كان يدفعني عنه، فأتعثر متشبثًا برقبة ثانٍ، فيدفعني هذا أيضًا، لأتعلق برقبة ثالث، فيضربني هذا لأهوى مرتطمًا بالقضبان والزنازين. في أحيان أخرى كنت أركض بطول ممر العنبر، وأنا أزعق بأي كلام، حتى ارتطم بالحائط فأعود لأجري بطول الممر للناحية الأخرى حتى أرتطم بالحائط المقابل، لاحظت أنه مع تكرارِ هذا الأمر بالذات أن الممر يُصبح فارغًا، وأن السجناء عندما تنتابني تلك الحالة يقفون على الجانبين، يشجعون ويصرخون أن "هيا يا بطل، هيا، أسرع، أسرع"، وعند لحظة الارتطام يُهلِّلون ويصفقون أن "أكثر يا بطل، أكثر، أَرِنا أفضل ما لديك". بعضهم فقط كان يضرب كفًا بكف أن حرام عليكم هذا الضحك وتلك الشماتة، فما أدراكم بما به، أنتم لا تعرفون مِمَّ يُعاني أو يُقاسي.

في النهاية، وعندما كنت أهوى انهيارًا، كان سالم وعبد الشكور يحملاني إلى حيثُ مكاني بجوار الباب، يُكلمني عبد الشكور وهو يلطم خدي مُلتمسًا إفاقتي، ويمسح سالم بالماء على وجهي وصدري، يضعان كلاهما الطعام في فمي غَصْبًا، لينفرط فتاته على جانبي الفم والصدر، كنت أنظر إليهما باكيًا وأنا أتحسس لكزات السجناء وصفعات الحائط، فيأتيني الواعز الأسود من بينهما أن وماذا بعد يا زين، ستفعل هذا لسبع سنوات؟ تلتصق بالباب؟ تفترش البلاط؟ تستحم في مسابح خربة؟ تأكل طعامًا ليس بطعام؟

لقد انتهى كل شيء، خسرت عملك وحياتك وأهلك، وراحت عائِشة! عائِشة حبيبتك راحت منك يا زين، يا لخسارتك! لم لا تُنهي ألمك هذا؟ لم لا تنهي حياتك؟ اِفعلها.. اِفعلها الآن..

هكذا أقسم كل العنبر أني مجنونٌ وانتهى أمري، وأنَّ هذا الشخص لن يعود أبدًا كما كان..

أشفقت على نفسي، ورثيت لحالي، وأن كيف كنت قبل أيامٍ وكيف صرت إلى ما أصبحت عليه..

أوحشتني أمي، وأوحشني صوتها الرحيم تطمئن فيه علي زين، وأحوال زين، وفيم يفكر زين، وما الذي يشغل بال زين، أتُراها بعد كل هذه الأيام لم تزل تبحث وتسأل وتتصل؟! أما زالت تـُمَّني نفسها كل لحظةٍ بسماع صوتي؟!.

أمي أنا تعبت.. حقًّا تعبت..

مَضت عشرة أيام، فهل هناك من يبحث عني؟!..

- ٣ -

بالسجنِ تسعة عنابر، ولكلِّ عنبرٍ مسئول، ومسئول العنبر هو سجينٌ تختاره الشرطة من بين السُجَنَاءِ القُدامى لتمنحه بعضُ الصلاحياتِ فيما يخُصُّ حِفظ نظام العنبر وما إلى ذلك. زِنْزَانته في الغالب تكون مُتاخِمَةً للباب ليسهل له الإتصال سريعًا مع أفراد الشرطة بالخارج. يقومُ المسئول أيضًا بالفصلِ في نزاعاتِ المساجين، ينقل طلباتهم إلى الشرطة، يُحصي الإيراداتِ الجديدة، يُرَتِّبُ الزيارات إلى المستشفى أو العيادة وما إلى ذلك، وهو من يختار أفراد البلدية الذين يقومون بالتنظيف والمسح والكنس، المسئول له وزن في العنبر، وِثِقَل، وهَيْبه، وفي الغالِب يكون ممن تكون أحكامهم "ثقيلة".. مؤبَّد على الأقل.

ومسئول عنبرنا هو نصَّار، وهو ذلك الذي كنت أتَطَفَّلُ على حمَّام زنزانته كل بضع ساعات، وهو أيضًا الذي سألني عن بياناتي في اليوم الأول ضمن الإيرادات الجديدة التي كانت قد دخلت للتوِّ. كان في أوائل العقد الخامس من العُمر، داكِنُ البشرةِ، ضخمٌ بإفراط، عصبيّ المزاج، أفراد العنبر بالنسبة له لا يَعدوا كونهم، مهما اقترفوا وأجرموا، مجرد أطفال، لم يروا ما رآه، أو يعانوا معاناته، هذا ما يجعله يمشي في المكان بثقة العارف ببواطن الأمور والأقدم بين الموجودين، يحرص السجناء على رِضائِه وتجنبِ مُضَايقته، فلنصَّار من الحظوةِ لدي الشرطة ما يشفع له إنْ قدَّم شكوى في هذا أو ذاك أن يرى من قُدِّمَت فيه الشكوى أيامًا سُود، يخرج نصار من العنبر وقتما يشاء، ليتمشى في الطرقة الخارجية للعنابر، أو يجلس في مكتب الشرطة ليشرب معهم الشاي والسجائر، وهي حظوةٌ ليست إلَّا لبعضِ المسئولين.

في ذلك اليوم وجدت نصار يهرول بجسده الضخم على غير عادته بالممر، سائلًا الزنازين عن شيءٍ ما، فأشار بعض السجناء ناحيتي، حين لمحني أتاني مُسْرِعًا، فوقفت بأمل، خصوصًا أنه كان يمد في خطوته بعكس حركته العادية المتمهلة:

- أأنت الشُهيبي الجديد؟

- نعم نعم..

- تعال معي.

- هل سأخرج؟

لم يرد، بل نظرَ من خلال ثقوب الباب وأَوْمَأَ برأسه ما كانت إشارةً للشرطي بالخارج ليدس مُفْتاحه بالقفل ساحِبًا الباب ليخرج كلانا إلى الطرقة الخارجية، عندما أُغْلِقَ الباب نظرت حولي بلهفة، كانت الطُرْقة خالية تقريبًا، لا شرطة ولا أي شخص يبدو أنه في انتظاري! طُفْت ببصري من جديد فوجدت أبواب العنابر كلها مُغْلَقة، إلَّا عنبر وحيد كان بابه مفتوحًا.. عنبر رقم (١)..

- ألن أخرج؟!

أجابني بضغطٍ على ذراعي أَنْ سِرْ، فتوجَّه كلانا يتقدمنا الشرطيُّ ناحية العنبر المنتظر ودلفنا. العنبرُ كان من دورين، تَرَاصَّت على جانبيها الزنازين عن يمينٍ وشمال، صعدنا إلى الدورِ العلويّ على سلالِم حديدية حين اعترضنا بابٌ فولاذي، مغلقٌ بقفلٍ ضخم ومزلاج عريض، التفَّ حولهما بشكلٍ ثعبانيّ جنزيرٌ لا يتفاهم، اسْتَغْرَقَ الشرطيُّ خمس دقائق حتى حلَّه كاملًا قبل أن يفتح القفل ويجر المزلاج. انفرج الباب فوقف الشرطيُّ مُنْتظرًا في حين ضغط نصار على كتفي أن تابع السير، فدلفت وأنا أشعر بغُصَّةٍ في حلقي، فقد تيقنت أن الأمر لا يتعلق بخروجي بأي حال، كان نصار يتقدمني مُجْتازًا الزنازين واحدةً تلو الأخرى، تتفرَّقُ يده بالتحايا الصامتةِ على الجالسين والواقفين والمستلقين نومًا، إلى أن اقتربنا من زنزانة انتظر على عتبتها بعض الأشخاص مترقبين، ما أَنْ رَأونا حتى تهللت أساريرهم:

- يا أهلًا بالغالي، يا أهلًا وسهلًا، يا أهلًا وسهلًا.

قالوها ثم أقبلوا عليَّ بالمصافحات والقُبَل، احتضنوني وكأني آتٍ لتويّ من سفرٍ بعيد، فاستقبلت كل ذلك بدهشةٍ كبيرة بينما تنظر عيناي من بين أحضانهم لنصار أن لا أفهم شيئًا.

- شكرًا يا نصَّار، اتركه وتفضل أنت مع السلامة.

قالها ذلك الذي فرغ من احتضاني، فغادرهم نصَّار قبل أن يعود إلى حيث ينتظر الشرطي.

دَعاني أحدهم مُتلطفًا إلى الزنزانة في نفسِ الوقت الذي سمعت فيه الباب الفولاذي ينغلق والجنزير يلتف حول القفل مرةً أخرى. دلفت فقام الجالسون مُرَّحبين ومُقْبِلين بحرارة، جلسوا جميعًا وجلست بينهم مأخوذًا، مُتأملًا وجوههم واحدًا تلو الآخر، كانوا ثمانية، أعمارهم متفاوتة، أكبرهم في الخمسين، وأصغرهم في العشرين تقريبًا، لا أعرف أيًّا منهم، ولم أرَ أحدًا منهم قبل اليوم، كانوا يتأملونني بشغفٍ من انتظروا لقاءه طويلًا، كأني قريبٌ أو صديقٌ قديم، ألقيت نظرةً حولي فوجدت الأرض قد افترشت بسجاجيد في غاية النظافة على عكس ما تفترش به زنازين عنبرنا من جرائد وملاءاتٍ قديمة، كانت هناك أيضًا رائحة زكية عَبَقَ بها المكان، الزنزانة وكأنه قد تم تنظيفها للتوِ فيما يبدو أنها قد أُعِدَّت لمثل هذه الجلسة بالذات. انتظروا هم بأدبٍ جمٍ حتى فرغت من تأملهم، بعدها قال ذلك الذي بدا أنه أكبرهم سنًّا:

- كيف حالك يا زين؟!

كرَّر سؤاله، فأجبته تائهًا أن الحمد لله.. بخير والله.. الحمد لله..

- كنّا نظنك أكبر من ذلك، كم عمرك؟

- ستٌ وعشرون.

- شابٌ صغير - قالها وهو يميل عليّ هامسًا وضاحكًا - لا تقلق من شيء يا زين، أنت وسط أهلك وجماعتك، فكلنا شُهبان مثلك.

أومأت برأسي إيجابًا.. هكذا إذن.. لقد فهمت الأمر.

قال آخر: من أيِّ شُهبان أنت؟

- من بني غانِم.

نظروا لبعضهم البعض مبتسمين قبل أن يربت أحدهم على كتفي: "ما شاء الله ما شاء الله". تابع كبيرهم:

- كلنا شُهبان مثلك، وعيال عمك الكبير، لكنَّ هذين هما الأقرب لك، هذين من ضِلْعِك[٨] - قالها وهو يشير إلى شخصين بالذات - فهد و صالح.

---

[٨] أي الأقرب نسبًا لك

بشَّ صالح في وجهي وحيَّاني بضحكةٍ واسعة، بينما فزَّ فهد من مكانه متحمسًا وكأنما وجد كنزًا، جلس بقربي، مدَّ لي يده بسجائر فاعتذرت، كان طويلًا، نحيلًا، مشدود القد، قمحي البشرة..

- كم مكثت هنا يا زين؟

- أسبوعان تقريبًا.

- لا تبتئِس، ولا يتملكنَّك اليأس، فنحن معك، سنساندك حتى تخرج سالمًا. طمئنني كيف هي أحوالك بالمكان؟ كيف تأكل وتعيش؟ واصدقني القول، فأنا أعرف الكذَّاب.

- الحمد لله، الحمد لله، أحاول أن أتأقلم.

فوجئت بذلك الذي يلتصق بي من الناحية الأخرى، كان صالح، قال بصوتٍ عالٍ وهو يهز كتفي بقوة:

- زين لا تحمل همًا، لا تحمل همًا أقول، أنت رجل، لا تخش من أي مخلوق داخل السجن، فقط أشر لنا عمن يضايقك وسنجعله يندم على فعلته تلك، ولن يضرنا ذلك بشيء، فنحن في كل الأحوال مساجين.

ضحكوا فيما لم أقاوم ابتسامةً ضلَّت طريقها لفمي، جعلوا بعدها يسألون عن أحوالي ومدى تكيفي مع المكان، ويُطمئنوني بأنهم سيكونون معي وسَنَدِي، ولن يتركوني حتى يأذن الله بالفرج القريب، ثم جعلوا يقصون طُرَفًا وحكايات، عن أشياء حدثت لهم داخل السجن وخارجه، يختلسون النظر إليّ بين القصة والأخرى وكأنهم يُشْبِعُون أبصارهم من ابتسامتي، حتى بمرورِ الوقت بدأ شعورٌ بالأُلفة يتسللُ خفيفًا إلى قلبي، متعجبًا أن كيف صرت هكذا أتفاعل معهم بشيءٍ من الكلام والضحك، فمنذ أسابيع لم أحظ باهتمامٍ كهذا، أو جلسةٍ كتلك، أنا الذي كنت أتدلل بالرفقة والصحبة على أفراد العنبر. بعد ساعةٍ شعرتُ بارتياحٍ كامل، وائتنس قلبي بصحبتهم، وخاصة فهد، كان هو الأكثر اهتمامًا بي وسؤالًا عن حالي، وُضِعَت أكواب الشاي وناولني صالح كوبًا فتناولته شاكرًا، مال عليَّ فهد وهو ينفث سيجارته:

- إذن قل لي يا زين، هل يضايقك أحدٌ بالعنبر؟

- لا أبدًا والله.

- أنا أخوك، أصدقني القول، أهناك من يتعرض لك؟ بالتلميح أو التجريح! سجين أو شرطي حتى؟

لم أشأ أن أحكي ما حصل لي في طرقة العنابر وتعليق الشرطي لي، وكذلك تلميحات وسخرية السجناء، فلا أزيد من مشاكله أو مشاكلي.

- أنا مسالمٌ كأقصى ما يكون يا فهد، وأتجنب الاحتكاك بأي أحد.
- لكن في عنبرك لا يتجنبون الاحتكاك، أعرفهم جيدًا، من الصعب أن يمضي عليهم الوقت دون أن يتحرشوا بخلق الله.

قالها ثم تابع ملوحًا بسيجارته:

- أي مخلوق يا زين، أي مخلوق، في العنبر أو السجن كله، يتعرض لك، فقط أرسل لنا خبرًا.
- لا حاجة بك لتقول ذلك.
- أتأكل جيدًا؟
- نعم، إلى حدٍ ما.
- خذ كفايتك من الأكل، اهجم، ولا تُعِرْ أحدًا اهتمامك أو انتباهك، ولا تحسب حسابًا لأحد، خذ كميتك كلها، وما يفيض عنك.
- هذا ما سأحاول فعله في تلك الأيام.
- لا تحاول بل أفعل ما أقوله لك، ألديك غطاء؟
- نعم.. واحد.
- سَأُوصي الشرطي بأن يجلب لك أغطية أخرى.
- لا داعي يا فهد، مرتاح الحمد لله.
- حسنًا، وما قضيتك إذن؟

قالها وانتظر الإجابة، وكنت قد تفاجأت بالسؤال الذي يبدو معتادًا في مكانٍ كهذا، طال صمتي، فاعتدل بجسده ناحيتي:

- زين! أسألك عن قضيتك.

- لا أعرف.

ابتسم بطرف فمه مجاملًا لمزحتي: لا لا حقًا أسأل ما قضيتك؟

نظرت دامعًا إلى عينيه المتسائلتين: والله يا فهد لا أعرف، حقًّا لا أعرف.

نظر فهد إليهم ثم عاد ينظر إليَّ متعجبًا، ساد الصمت في الزنزانة، وكل العيون ترمقني باستغراب..

- منذ أيامٍ قُبض عليَّ في الشارع، تنقلت من مكانٍ إلى مكان، حتى أتوا بي في النهاية إلى هنا.

ذُهل: نعم؟! ولم يخبرك أحدٌ لِمَ؟!

- قالوا أن عليَّ حكم بسبع سنوات.
- سبع سنوات ولا تعرف السبب!
- قيل أنها قضية مخدرات.
- وهل لك علاقة بالمخدرات؟!
- لا والله أبدًا، ولو كانت لي علاقة ما وقعت في تلك الحيرة، لكني فعلًا لا أعرف ما تلك القضية ولا تلك التهم؟! أنا حقًّا لا أعرف لم أنا هنا! تكلمت وسألت ورجوت وشكوت حتى يئِست، بل حاولت حتى أن أفهم فلم يسمعني أحد.. أو يُجبني أحد.

تَرقرقت عيناي بدموعٍ لم أستطع حبسها عندما أتتني لمحاتٌ من عذاب وتعب الأيام السابقة، فضاقت الدائرة التي تجمعهم ليحاوطونني في ألفةٍ وود، وكأنهم يحاولون ألَّا يرى أحدٌ من خارج الزنزانة بكائي، تجهمت وجوههم مما أقص وأحكي، بينما جعل صالح يمرر كفَّه على وجهي ماسحًا دموعي، كانوا يتبادلون النظرات فيما بينهم وكأنهم يحثون بعضهم البعض على ايجاد اقتراحٍ أو حل، وكنت بدوري مُسْتَاءً لأني قد تسببت بضيقهم في وقتٍ كانوا يحاولون فيه مؤازرتي وإلهائي عن همومي ومشاكلي، وكان فهد هو أكثرهم صدمة، بدا عليه الضيقُ الشديد وهو يُنصتُ ويزنُ برأسه ما أحكي:

- إذن ألم تتواصل مع واحدٍ من المسئولين أو كبار الشرطة؟
- حاولت كثيرًا، لكني لم ألقَ سوى التجاهل والإعراض.

قال كبيرهم: لن يسمعه أحدٌ هنا يا فهد، ولن تُجْدِ شكواه شيئًا، هنا يُنفذون الحُكم فقط.

سألني فهد: هل قمت إذن بتوكيل محامٍ؟

- كلا.

قال خافيًا انفعاله: وهل يُعقل هذا؟! كيف يا زين! كيف فاتك هذا الأمر؟! كيف أمضيت كل تلك الأيام دون أن تفكر في تلك الخطوة؟ قم بتوكيل محامٍ ليسعى ويتابع الاجراءات، ويجد مكمن ذلك الخطأ، لا تترك نفسك هكذا، لا تدع الأيام تمر عليك بهذا المكان هكذا، زين لا تهمل في نفسك.

- حسنًا، سأفعل.

- ستفعل يا زين، فور خروجك من هذا الباب..

- سأفعل، سأفعل..

قال كبيرهم: إن شاء الله خيرًا يا زين، من الواضح أنه التباسٌ ما فعلًا، وبالتأكيد هناك من يسعى لك بالخارج. اطلب من الشرطة التواصل مع محامٍ وسيقوم هو بالبحثِ والتحري في موضوعك، وطالما أنه خطأٌ إجرائي فلن يزيد الأمر عن بضعة أيامٍ أخرى، لكن الأهم أن تأخذ تلك الخطوة بنفسك، وإلاَّ سيبقى الوضع على ما هو عليه.

أومأت برأسي إيجابًا، فساد الصمت للحظاتٍ كانوا فيها واجمين وكنت فيها ساكتًا، إلى أن انتزعنا من ذلك الوجوم طرفةٌ قالها صالح، فانتزعت الضحكات من القلوب، فيما تسلل إليَّ من بين دموعي طيفُ ابتسامةٍ تصيَّدوها لتعلو نكاتهم وطرفهم أكثر وأكثر، ولأتجاوب معها بشيءٍ من التعليق والضحك، ضحكٌ حاولت أن أجعله صافيًا، تقديرًا لمحاولاتهم، لكنه خرج مُشوَّبًا بما لم أفلح في إخفاءه من الهم والحزن. بدأ بعضهم يُخرِج المعلبات والخبز والعصائر، استعدادًا للعَشَاء، حاولت أن أعتذر لكنهم لم يقبلوا:"ستأكل أيّ ستأكل". وُضعت الأطباق وتسابقوا لمدي بالطعام والمشروبات، وكان الارتياح قد بلغ بي مبلغه، حدَّ أن ثلاث ساعاتٍ قد انقضت دون أشعر. ما أدهشني أن كيف زادت محبتي لفهد بالذات بتلك الطريقة والسرعة؟ وكيف أني في ساعاتٍ قليلة قد تعلَّقت بإنسانٍ لم أره ولم أعرفه قبل اليوم، ولكن بدا لي وكأني

أعرفه منذ زمن، لم يكن قلقه عليَّ اِدعاءً، بل كان خوفًا حقيقيًا، خوف الأخُ على أخيه، كان منشغلًا ومهمومًا بحالي أكثر من حاله، هو الذي أمضى ربما السنوات ولم أمضِ أنا إلَّا أيَّامًا قليلة. بعد أن وُضعت الأطباق سبقهم جميعًا للجلوس بجانبي، يضع لي طعامًا من طبقه، ويأخذ من أطباق المحيطين مُداعبًا "كفاكم، هو لم يأكل وأنتم تأكلون منذ سنوات"، ثم جعل يؤكد عليَّ بشأن توكيل المحامي تاليًا عليّ أسماء أولئك المختصين بمثل ذلك النوع من القضايا، قبل أن يمدَّني بنصائح للتعايش بالعنبر هذه الفترة حتى تنفرج الأزمة، وعن معاملة السجناء، وأفراد الشرطة، والنوم، والأغطية، والاستحمام، كان يُطمئنني طوال الوقت بأنه لن يتركني وسيكون معي حتى أخرج. في معرض كلامنا سألته:

- وأنت يا فهد، ما قضيتك إذن؟

توقَّف كوبُ الشاي وهو في طريقه إلى فمه، عقد حاجبيه والتفت إليّ بكامل جسده، نظرته لعيني كانت ثابتة، طويله، خبا فيها بريق عينيه كثيرًا. ارتبكت إذ كنت حريصًا أن أهمس إليه فلا يكون سؤالي له مُحْرِجًا أمام الجميع.

- نعم؟
- كنت أسأل فقط عن قضيتك؟!
- قضيتي أنا!
- نعم.
- قضيتي أنا يا زين؟!

ارتبكت وأنا أنظر حولي: هل أخطأت؟!

وضع فهد كوب الشاي أمامه بحذرٍ وتأمَّلني: زين! ألَا تعرف أين أنت؟

تنقلت بين الوجوه التي بدأ بعضها ينتبه إلينا: نعم، نحن في السجن المركزي.

ضحكوا جميعًا إلَّا فهد الذي تابع في ثبات: كلا، لا أقصد، ألَا تعرف هذا المكان؟

- هذا عنبر تقريبًا.
- نعم، لكن عنبر ماذا؟
- لا أعرف والله.
- هذا عنبر (١) يا زين.
- نعم بالفعل، قرأتها عند الباب.
- عنبر (١) هو عنبر القتل.

دُخت لثانيتين: عنبر ماذا.. الـ ماذا؟!..

قال كبيرهم وهو يتناول شايَّه ضاحكًا: لا تثر خوف الرجل يا فهد، شايك سيبرد يا زين.

لكن فهد تابع: الدور السفلي هم المحكوم عليهم بالمؤبد في قضايا القتل، وأولئك الذين ينتظرون الاستئناف والطعن وما إلى ذلك.

أشار إلى السلم الذي صعدت منه في أول الممر: ثم أنك لما صعدت إلى هنا وجدت بابًا مغلقًا بجنازير وأقفال..

أشار بسبابته من أول الممر لآخره: أترى كل هذه الزنازين يا زين؟

عاد إلي: هذا هو جناح الإعدام.

دوارٌ داهمني، ترنَّحت شيئًا، فوقع كوب الشاي.

- عادي.. عادي.. خيرًا.. لا تحمل همًّا.

قالها ذلك الذي لم أستطع أن ألتفت إليه إذ كانت عيناي وحواسي كلها مسلطةٌ على فهد، أفتش في ملامحه أنه يهذي أو يضحك، وأنه سيقول بين لحظة وأخرى أن تلك لم تكن إلَّا مزحة من المزحات، وما أغربه من مزاح، لكني لم أجد إلَّا الثبات، نظرت إلى وجوههم مبهوتًا:

- ماذا تقولون ؟!.. حقًّا ماذا تقولون ؟!..

عدت أطوف بوجوههم واحدًا واحدًا: كلكم!.. كلكم إعدام ؟!..

- كلنا يا زين.

- وأنت يا فهد ؟

- وأنا يا زين.

قال صالح موجهًا كلامه لفهد: يا أخي لا تصدمه هكذا، قلها له واحدة واحدة.

فزَّ صالح واقفًا وهو يضع كَفَّه على صدره: قل له مثلًا "أنا إعدام يا زين" ثم أقول أنا من بعدك "وأنا أيضًا إعدام يا زين".

غَرِقُوا جميعًا في الضحك حتى استلقى بعضهم على ظهره، فيما كنت لم أزل أطوف بوجوههم في عدم تصديق، كنت أعرف أن أسئلتي ستبدو لهم في موقفٍ كهذا موجعة، وأنه من الذوق أن أتجاوز تلك النقطة لطفًا وأدبًا إلى حوارٍ آخر، ولكني لم أستطع، كانوا جميعهم قد وصلوا إلى غلاءٍ في قلبي بلا حساب، ما تعجبته أني كنت أنا المصدوم، وهم كانوا يضحكون.

- ألا تنتظرون الاستئناف أو الطعن أو تلك الأمور ؟!

- أحكامنا نهائية.

- متي ؟ متى قالوا لكم ؟

- ربما بعد أيام.. أسابيع.. أشهر.. هو متوقفٌ على توقيع الملك على كتاب الإعدام..

قال كبيرهم: ولكن الملك، جَزاه الله خيرًا، يُؤَخِّر التوقيع ليتركنا بضعة أشهر أخرى، لكنها في كل الأحوال لا تزيد عن عام، كل واحد ونصيبه.

تَنَقَّلَتْ عيناي بين أركان الزنزانة: أنتم لستم ثمانية!

- صِرْنا ثمانية.

- لم يا فهد؟ لم كل هذا؟

- قتل يا زين.

- أنت قتلت؟

- كلنا قتلنا. كل الموجودين حولك قتلوا.

- ولم؟ ما السبب؟!

- معارك ومشاجرات.. أشياء كتلك.

- وأنت؟

تغيَّر وجهه حين تذكر: صديق، بل ربما أخ، وجدته يومًا تحت رحمة أكثر من عشرة أشخاص، يركلونه ويضربونه، فلم أشعر بنفسي إلَّا وأنا أجلب سكينًا وأزود عنه، ووسط الهرج والمرج ضربت أحدهم فنَفَذَ فيه قضاء الله.

تَبَدَّلَت وجوههم عندما رأوا عينيَّ تلمعان بالدموع فاقترب مني فهد وقد ساءه أن حكى:

- لم نعد نبكي هنا.. اِنس.. وكأني لم أقل شيئًا.. وكأننا لم نقل شيئًا.

مسحت دموعي وجعلت أتأملهم، كنت تائهًا في وجوههم وكلامهم، خرجت من قصتي لأدخل في قصصهم، انظر إليهم واحدًا واحدًا، فلا أجد إلَّا ما يُزيد تعجبي ووجعي.. هؤلاء قتلوا؟! كيف؟! كيف شقَّ الغضبُ طريقه إلى تلك القسمات الرحيمة؟! وكيف أن تلك الأيادي التي تسابقت لمدِّي بالطعام والشراب ارتكبت يومًا فعل القتل؟! وكيف خدعَ الشيطانُ تلك الفطرة النقية التي طرِبت لمرأى من لا يعرفونه ولم يقابلوه قبل اليوم ليقوموا بهكذا إثم؟! ما أدهشني أنهم هم من كانوا يقومون بتغيير دفة الحديث كي لا يضايقونني أو يُثقلونني بِهَمِّهم.

دقائق أخرى حتى أتى الشرطيّ وهمس في أذنِ كبيرهم ما فهمت أن وقتي معهم قد انتهى، وأن المزيد قد يُسببُ له إحراجًا لدي مديريه، فقاموا جميعًا يصافحونني واحدًا واحدًا، يودعونني بعناقٍ حار، قال كبيرهم بعد أن فرغ من احتضاني:

- زين، أنتَ ابن عمنا، لنا حقٌ فيك كما أن لكَ حقٌ فينا، لن نكف عن السؤال عنك فلا تَغِب بسؤالك عنَّا، وحتى يفرجها الله عليك فنحن معك، لا تتردد في أن طلب أي شيء، فقط أرسل ما تريده مع نصَّار وستجدنا إن شاء الله من الملبِّين، وإن حان موعد أحدنا واستلم الله أمانته..

أشار إلى الواقفين وراءه: "فالباقون معك". فهَزُّوا رؤسهم مُؤَّمِنين على كلامه..

رافقني فهد حتى وصلنا إلى الباب الفولاذي، دسَّ في يدي نقودًا، حاولت أن اعتذر فأجبرني على أخذها:

- يعينوك في الأيام القادمة، انتبه لنفسك.

- وأنتَ أيضًا يا فهد.

- ولا تُسرف في طيبتك ونقائِك، ولا تدخل في معارك ليست لك، فما أكثر الشجارات والمشاكل هنا.

نظر وراءه إلى حيث ينتظر رفاقه وكأنه يتيقن أنهم لن يسمعوا حرفًا مما يقول:

- لقد عرَّضت نفسي للموت دفاعًا عن صاحبي، قتلت نَفْسًا لأجْله، وتخيَّل أنه خلال كل هذه السنوات يا زين، خلال كل هذه السنوات لم يزرني ولا مرة، والله ولا مرة، حتى وأنا أنتظر الموت بسببه لم يسأل عني.

لمعت عيناه بدمعتين وأدهما في المهد، فلم أجدني إلَّا وأنا أضمه بقوة، وكان ذلك حين دخل نصار، فانسحب فهد عني وهو يمسح عينيه مُخفضًا رأسه، قبل أن يطرق صدر نصار بطرقاتٍ متتابعة، قوية، وهو يكز على أسنانه:

- نصّار، اسمع، اسمع جيدًا، لن أوصيك بزين، فاهم؟! زين ابن عمي، زين أخي، من دمي..

- لا حاجة بك لأن توصيني يا فهد.

زادت طرقات فهد على نصار: أنا لا أمزح يا نصار، لو مسَّه أحدٌ بسوء..

- لا تشغل بالك، طالما أنا موجود فلن يقترب منه أحد.

قبض على كتفي: لا تنسَ توكيل محامٍ، لا تترك نفسك في هذا المكان.

أومأت برأسي إيجابًا، ثم احتضنته لمرة أخيرة، قبل أن ألوِّح للمنتظرين هناك، وأمضي مع نصار..

***

عندما دخلت إلى العنبر غسلت وجهي جيدًا، توضأت وصليت العِشاء داعيًا الله في كل سجدةٍ لأبناء العمومة بالعفو والمغفرة..

تجويفٌ آخر من تجاويف الوجع حُفِرَ في قلبي الساعات الماضية على مهلٍ، ودون قصد..

عندما انتهيت من الصلاة عُدت إلى الباب ساهِمًا حين رأيت سالم في إثرى، قال لي أنه بحث عني بالعنبر كله فلم يجدني، فقصصت عليه ما كان من أمر الشُهبان، كانت دهشتي أن وجدته يعرفهم كلهم، واحدًا واحدًا، كلما ذكرت له اِسمًا اتسعت ابتسامته أكثر وهزَّ رأسه: "نعم، نعم، أعرفه، هذا شكله كذا وكان يفعل كذا وكذا"، اتضح أنه التقاهم في صلاة الجمعة عدة مرات وتكلَّم معهم.

- أوتعرف هؤلاء يا زين؟ هؤلاء الذين جالستهم..

تابع وهو يرفع سبابته: هم رجال حقًّا، رجال بمعنى الكلمة والله.

أومأت شاردًا، فأردف:

- كلا يا زين، خذها مني أنا، أقول رجال بمعنى الكلمة، قمة في الأخلاق والأدب، شديدو الرقي والذوق، حبهم واحترامهم وخوفهم على بعضهم البعض لم أره في أحدٍ طوال السنوات التي قضيتها هنا.
- لا يستحقون الموت يا سالم.
- قَدَرُ الله، ولكل أجلٍ كتاب.

ساد الصمت لحظات قبل أن أتوجه إليه: كيف ألقاهم في صلاة الجمعة؟

- لا أريد أن أخيِّب رجاءَك، لكن المرات التي التقيتهم فيها لم تتعد الدقيقة، وكانت بعد الصلاة مباشرة بداخل المسجد، لأنه بخارج المسجد من الصعب الوصول إليهم.
- لِمَ؟!

- لأنهم يدخلون المسجد في حراسةٍ مشددة، يجلسون بالصفوف الأمامية المحجوزة لهم قبلًا، يُتِمُّون صلاتهم ثم يخرجون بنفس الطريقة إلى عنبرهم، في حين يظل باقي السجناء بالمسجد حتى يأتي التأكيد بأن هؤلاء قد دخلوا بالفعل وأُوصد عليهم الباب بالقفل والجنازير.

- ولِمَ كل هذا؟!

ضاقت عيناه فيما بدا أنه كان يبحث عن كلماتٍ بعينها:

- لأن جناح الإعدام بالذات له وضعٌ خاص، هؤلاء مختلفون عنَّا، أو صاروا مختلفين، هذا ما فرضته عليهم طبيعة الأمر. هؤلاء بطريقةٍ أو أخرى لم يعودوا مثلنا، تفكيرهم ليس كتفكيرنا، ونومهم، إن ناموا، ليس كنومنا. وإن شردوا فلا يدري أحدٌ فيم شرودهم! وأين يذهب عقلهم! لهذا تحجزهم الشرطة عن باقي السجناء في الفسحة والصلاة، بل إن الشرطة نفسها حذرةٌ جدًا في التعامل معهم، تتلاطف معهم ولا تعنفهم كباقي العنابر، طلباتهم مُجابة، يمكنهم لقاء من يريدون كما فعلوا معك، وهي حظوةٌ ليست لأحدٍ إلَّا لهم.

- ألا يزورهم أحدٌ من أهلهم وأقاربهم؟

- في باديء الأمر فقط كانت هناك زيارات.

- ثُمَّ؟

- عرفت أنها توقفت عندما أصبح الحكم بإعدامهم نهائيًا.

- هل أوقفتها إدارة السجن؟

- بل هي رغبتهم هم..

- ألَّا يزورهم أحد؟

- تستطيع أن تقول أنها رسالة لأهلهم وذويهم ومن يعرفونهم أن تعوَّدوا على الحياة دوننا، لأننا قريبًا لن نكون هناك.

أطرقت برأسي مُفكرًا، حتى مضت دقائقٌ لم يجد فيها كلانا ما يُقال، فاستأذن هو وانصرف إلى عمله، فوقفت ونظرت من الثقوب إلى الطُرقة، حيث عنبر (١)، مُتأملًا الباب الساكت وأنا أحدس أن ربما كان في لقائي بهؤلاء رسالةٌ من الله عزّ وجل أن اصبر واحتسب، فهناك من هو مصيبته أعظم مني وأَجَّل..

- ٤ -

في ظهيرة اليوم التالي مررت على زنزانة سالم، فأجابني من بين دوشةِ صوانيه أن خمس دقائق وأخرج إليك، فوقفت بالجوار منتظرًا حتى راعني الهمس، بدا وكأنَّ أحدهم يتحدث سرًّا في تليفون.. أنصتُّ أكثر.. نعم هناك تليفون!.. هناك تليفون!

- اخفض صوتك، أَجُنِنْت؟! ما بك؟

قالها سالم وهو يُكمم فمي بكفيه بعد أن قفزت إلى داخل الزنزانة التي استقبلني أصحابها فَزِعين..

قاومت يده: هناك تليفون، لقد سمعت أحدهم يتحدث، أين هو؟ أريد واحدًا.

حاصرني مُحذِّرًا: التليفونات هنا ممنوعة.

- لكني سمعت أحدهم يتحدث، أنا واثق مما أقول.
- لم أقل أنها غير موجودة، قلت فقط أنها ممنوعة، نُدخلها خلسةً دون علم الشرطة، فإن ضُبِطَت تكون قضية كبيرة.
- إذن أريد واحدًا، أرجوك.
- الثمن كبير جدًا، لا قِبَل لك به، تقريبًا ثلاثة أضعاف سعره بالخارج، فتمرير التليفونات مخاطرة كبيرة جدًا.
- أريد أن أكلم أهلي يا سالم.
- هل دخلت لك "أمانات"؟
- ماذا تعني؟
- أقصد هل جاء أحدٌ من أقاربك ووضع نقودًا باسمك عند بوابة السجن.
- كلا لم يحدث، ولا أعرف أن شيئًا كهذا ممكن.

- إذن بإمكان أحدهم أن يأتي ليترك لك مبلغًا من المال، ثم تأتي الشرطة، وتقوم بتسليمك المبلغ، عندئذٍ يمكنك أن تتحدث من هاتف أحدهم بعد أن تدفع له.
- هل ما يُسمح لهم به هو وضع المال فقط؟ ألَا يمكنني أن أراهم؟
- بالطبع يمكنهم تسجيل زيارة عند البوابة، العنابر كلها تأتيها زيارات.
- وكيف سيأتون وهم لا يعرفون أني هنا؟ ولا أستطيع أن أصل إليهم!..

أطرق سالم برأسه للحظةٍ ثم قال: سأحاول أن أتفاوض مع أحدهم من أجل دقيقة واحدة، وسأدفع لك حق المكالمة.

همَّ بالانصراف لكنه التفت: زين.. أرجوك.

أومأت إيجابًا فانسحب لأحد السجناء يُفاوضه متوددًا، رافعًا سبابته طوال الوقت ما يعني أَنْ هي إلَّا دقيقة واحدة، واحدة فقط! انشرح صدري حين رأيته يلتقط التليفون، أتاني يحتضنه بين كفيه فشددته ملهوفًا، نبَّهني بألَّا أبرح ذلك الركن بالزنزانة فوعدته قبل أن انكب على أرقام المنزل ضغطًا، لم أعد أشعر بشيءٍ حولي، حتى الأصوات على صخبها وكأنها اختفت فجأة، لم تكن هناك إلَّا رنَّات التليفون على الناحية المقابلة كأنها ضربات قلب آدمية.

ثوانٍ حتى سمعت تلك الـ (مَرْحبًا)، فحُبِست الكلمات بحلقي ودَمَعَتْ عيناي، فقد كان هو الصوت الذي انتظره.. ولكنه ليس كما كنت انتظره، كان واهِنًا وكأنما خرج من الحلق بجهدٍ جهيد، مشفوعًا بتنهيدةٍ كسيرةٍ وكأنما بعد كل تلك الأيام لم يعد يهتم بمن اتصل.. أو يتصل، أو ربما لأن الأصوات الآتية صارت له متشابهة والصوت الوحيد المُنْتَظر.. لم يعد بمُنتظر. ربما لهذا قيلت (مرحبًا) مرة واحدة ولم تتكرر، ليسود الصمت لثوانٍ، قبل أن أسمع صوت خرفشة التليفون تهيئةً للإغلاق..

- أمي..

ثم وكأن الزمن توقف فجأة، ثم أني سمعت احتشاد الشهيق، ثم أني سمعت الشهقة، ثم أن الصوت الواهن انتعش فجأةً:

- "زين".. "زين".. "زين"..

- اشتقتك يا أمي.. اشتقتك كثيرًا..

- زين.. زين.. زين يا حبيبي.. زين يا حبيبي.. زين يا حبيبي.. زين يا...

لم تقدر وتحشرج صوتها بعد أن انزلقت لبكاءٍ مريرٍ وهي تكرر اسمي بلا توقف..

- لا تبكي يا أمي.. أنا بخير.. بخير والله.. اشتقتك كثيرًا... كيف أنتِ؟.. كيف أنت يا حبيبتي؟..

- لست بخير.. لست بخير يا زين.. قطعنا البلاد كلها طولًا وعرضًا حتى عرفنا ما حصل!.. ماذا حدث؟!.. ماذا حدث يا حبيبي؟!.. لِمَ كل هذا؟!.. زين.. ألَا زلت هنا؟!

- والله العظيم لا أعلم ما حصل؟! ولم يحصل كل هذا؟.. أمي.. الوقت ينفد مني.. أريد أن أراكي... يقولون أنه يمكنك زيارتي.

- إذن سآتي إليك، لا تحمل همَّ ذلك، سآتي إليك، من الغد سآتي.. بل سآتي الآن.

همس لي سالم: هناك وقتٌ محددٌ للزيارة.

- متى؟

- كم مضى عليك هنا؟

- أسبوعان تقريبًا.

- إذن غدًا يمكنهم أن يسجلوا زيارة عند البوابة.

عُدت لأمي التي تابعت:

- حسنًا حسنًا.. من الغد نحن عندك.. سآتي لأتكلم معهم وأسألهم عن أمرك ولم حصل كل هذا؟!.. إذًا ماذا حصل يا حبيبي؟.. أخبرني أنا.. هل تسببت في مشكلة مع أحد؟!

- لا يا أمي.. لا أبدًا والله.. أنت تعرفينني.. أمي..

- سآتي يا زين.. سآتي إليك يا حبيبي.. سآتي إليك..

- أمي أجيبيني سريعًا.. ألَا تعرفين شيئًا عن عائِشة؟

- زين لا أسمعك جيدًا.. زين..

- عائِشة يا أمي.. عائِشة... ألَا تعرفين شيئًا عنها؟

- عائِشة!.. لا لا لا.. منذ ذلك اليوم وأنا لا أعرف أي شيء عن أي مخلوق.. دعك منها الآن.. أخبرني كيف تعيش عندك؟!.. كيف تأكل وتشرب وتنام؟

- إذن لأجلي يا أمي، لأجلي اتصلي بها أو بأمها، لتوضيح الأمر، وأن هذا كله ما هو إلَّا التباس سيتم حله خلال أيام، سيتفهمون ذلك أنا واثق.. لأن..

- زين.. زين.. ألَا زلت هنا؟!

انقطع الكلام فجأة، حين استوعبت أن التليفون لم يعد معي، وأن يدًا انتزعته من بين أصابعي قبل أن يبتعد صاحبها بعيدًا.

خرجت من الزنزانة وأنا أمسح دموعي، عائدًا إلى مكاني بجوار الباب، لحق بي سالم:

- هوِّن عليك.. فها قد اطمئن كلاكما على الآخر.. أوليس هذا كان أكبر همك؟

- بكاءها يا سالم.. بكاءها آلمني فوق الوصف.. لم أر أمي بهذا الحال أبدًا.

- لأسبوعين لا تعرف عنك شيئًا.. هذا طبيعي.. لكن لتُرح بالك.. ها أنت ستراها وتراك، بل والأكثر أنها ستسعى في أمرك حتى تنفرج تلك الأزمة.. هَانَتْ..

- إن احتجت أن أكلمها مرة أخرى فهل تستطيع أن..

قاطعني برَبْتٍ متتابعٍ على كتفي: لا تشغل بالك، لا تشغل بالك، وقتما تريد أخبرني، وسأتصرف.

شكرته ممتنًّا، فانصرف لعمله، من بعدها أتاني عبد الشكور مادًّا إليَّ يده بزيٍ ما:

- زين! اذهب واستحم، وارتدِ هذا، فزي السجن لا نلبسه بداخل العنبر، فقط عند الخروج للزيارات أو المستشفى.

تناولته شاكرًا، بنطال وجلباب قصير مفتوح من الجانبين حتى الركبة، قُمت بعدها متوجمًا إلى أماكن الاستحمام، في منتصف الطريق اعترضني شابٌ عشريني، نحيل، مشعَّث الشعر: ألديك صابون يا أخي؟

أجبته بالنفي، فألقى إليَّ بصابونه جديدة، فتناولتها مستغربًا لأنه لأسبوعين بالمكان لم يعرض عليَّ أحدٌ أيَّ شيء. تحسَّست حدودها المستوية وملمسها الناعم، شكرته ومضيت، بعد عدة خطوات وجدت ثانيًا يقفز أمامي خارجًا من زنزانته:

- ألديك منشفة؟
- منشفة! كلا.
- هذه واحدة.

أخذتها باستغرابٍ أكبر ومضيت، وقبل أن أزيح ستار المسبح وجدت ثالثًا يظهر من لامكان: معك ليفة يا طيب؟!

- ومن أين قد آتي بليفة؟!

مَدَّ لي يده بواحدة متهالكة تمامًا، مثقوبة في عدة مناطق، تناولتها فنبهني رافعًا سبابته: ولكن عندما تدخل أماناتك آتِني بواحدة جديدة.

إذن فخبر أن هناك زيارة وأمانات قد انتشر بالعنبر بطريقة ما..

دخلت بكل تلك الأشياء إلى المسبح، خلعت ملابسي وفتحت الدش ثم فركت جسدي مستشعرًا للمرة الأولى احساس الصابون النظيف بعد كتلِ البلاط والمواسير، أسرفت في المياه وافتريت في فرك وعزق ظهري وبطني وأجنابي، مرشت قدميَّ اللتين تفحمتا تمامًا من البلاط بالليفة التي ازدادت هلاكًا فوق هلاكها، أنهيت استحمامي فارتديت الزي الذي أعطانية عبد الشكور، والذي انتهكت قماشته ما لا يقل عن عشرة أجساد قبلي، لكنه كان مغسولًا ونظيفًا، وهذا يكفي. غسلت بعدها زي السجن، ثم خرجت لأجد وجهاً رابعًا يخطف مني الزي المبتل:

- تعال يا أخي، تعال.. انشره هنا.

***

في آخر اليوم أتاني سالم عند الباب، كانت عيناه شاردتين، يزداد بريقهما من وراء ضباب سيجارته، ما يشي بفكرةٍ تتبلور في خاطره:

- أوتعلم ما الغريب في قصتك يا زين؟ أعني عندما أفكر فيها..

تابع: أنهما قضيتين وليس قضية واحدة، قضية حيازة المخدرات، وقضية الهروب.

- هكذا قيل لي.

- أقصد.. انظر للقضية الثانية بالذات، قضية الهروب تلك.

- ماذا تقصد؟

- هروب! يعني أنهم أمسكوا بك من قبل، ووضعوك بالسجن، ثم هربت، قبل أن يمسكوا بك هذة المرة ويأتوا بك من جديد، أَتَفهم ما أعنيه؟

- والله لم يُقبض عليّ لا مرة أولى ولا ثانية لأهرب، ولا أعلم شيئًا عن هذا كله.

- أفهم ذلك، أنا فقط أفكر: إن لم يقبضوا عليك في المرة الأولي، فعلى من قبضوا إذن؟! هناك شخصٌ تم القبض عليه قبلك، فمن يكون؟!

- ليتني أعرف، لأنه إن كان هناك شخصٌ قُبض عليه وهرب كما تقول فكيف يدَّعون أنه أنا؟ كيف يقبضون على شخصين مختلفين في قضيةٍ واحدة؟!

- شخصان مختلفان لهما نفس الاسم! وليس فقط الاسم بل رقم الهوية، والوظيفة، والعنوان، أنت قلت أن المدير في تنفيذ الأحكام سألك "رقم هويتك كذا؟"، فأجبته بنعم، فقال عليك حكم بكذا وكذا.

- هذا ما حصل.

- من يكون إذن هذا الشخص الآخر الذي جاء هنا؟!

قالها سالم وهو ينظر لي مُفكرًا وفاحصًا.

- ٥ -

بمرور الوقت، وطوال ساعات ملاصقتي للباب، لم يكن هناك ما أُشغل به نفسي سوى التفرُّج على الناس، وما يفعله الناس، وما يلتهي فيه الناس، وهو ما جعلني أتعرف على أنماط معيشة الكثيرين، عرفت مواعيد لعب الورق بالزنزانة المجاورة، ووقت جلسات الأُنس والضحك في الزنزانة التي تليها، متى يستيقظ فلان ومتى ينام علان، شهدت حيواتٍ تبدأ بالصباح وتنتهي بالليل، وأخرى تبدأ في الليل وتنتهي في الصباح، حفظت سحناتٍ وسمعت حكاياتٍ وشهدت على أسرارٍ ووعودٍ ورجاءاتٍ ومُناجيات.

ومن بينِ كل هذا وذاك؛ رأيت بسَّام..

كان بسَّام في أواخر العشرينات تقريبًا، لا يظهرُ بالعنبرِ إلَّا مساءً، يخرج من زنزانته ليتمشى في الممر مُستعرضًا صدرًا مشدودًا وفانلة ضيقة، وكتفين عريضين سبحت فيهما الأوشام والرسوم، حَمَل منهما كتفه الأيسر كلمة "أمي" وتحتها حرف (B)، بينما حَمَلَ الأيمن وشمًا لامرأةٍ تموضعت بإغراء، تُعانق قدميها الحياتُ والثعابين. يتمشى بالممر مُلقيًا النظرات على الوجوه والزنازين، مُسْتَنشِقًّا جديد اثنتي عشرة ساعةً كان فيها يغط بزنزانته، ناثرًا نكاته وتلميحاته الجنسية بطول جولته، بَسطًا لهيمنته. يحيا في المكان بعجرفةٍ واثقة أزكتها لديه شلةٌ من سبعة أفراد، يقاربونه عُمرًا ويقلِون عنه صِيتًا، ما جعلهم يعتبرونه أبيهم الروحي، فلا يبدأ يومهم إلَّا به، ولا تحلو جلساتهم إلَّا معه، هكذا كانوا يتحاومون أغلب النهار حول زنزانته انتظارًا لخروجه، فإن خرج وفرغ من معرفة أخبار العنبر، تموضع وسطهم متزعمًا، ليُنصتوا إليه إن تكلم، ويتنافسون في الضحكِ على نِكَاته، حتى أن بعضهم، إثباتًا لولاءه، كان يتصيد سجينًا، شاردًا، وحيدًا، لينهشه بالسخرية والسباب، فيكون قُربانه لبسَّام، ولعلَّه يقبل.

وكان بسَّام من أولئك الذين تطالني تلميحاتهم وتجريحاتهم طوال الوقت، يدفعني إذا وجدني أمامه، ويعرقلني إذا عبرت من جوار زنزانته، لأني بهذا أدخل في محيط سيطرته، واستهلك هواء تنفسه، وأقطع عليه مجال الرؤية، وأي رؤية؟! وهل بالعنبرِ أصلا ما يُرى؟ هي تُرَّهات وسخافات - كما يقول سالم -

افتعالًا لأية مشكلة. لكني في كل حالٍ كنت أعتذر وأومىء أن حاضر أنا آسف، ثم أغادر دون تعليق، فلم يكن لدي استعدادٌ للاحتكاك بأي مخلوق هنا، أو إثارة أي مشاكل، هذا ليس مكاني، ولن يكون، كما أنه مع هؤلاء بالذات لن يكون الأمر في صالحي بأي حال.

في ذلك المساء تابعت الفريسة الجديدة التي كان يتسلى عليها بسَّام ورفاقه، حين قطع مجال بصري سالم وهو يمد يده إليّ بأحد صحنين من العدس:

- لا تعره انتباهك، ولا تعطه أكثر من حجمه، مجرد تافه منتشٍ بنفسه.

تناولت منه الطبق: لا أفهم ما متعته في فعل ذلك؟

- خمسة عشر عامًا هي مدة عقوبته، كيف له أن يقضيها صامتًا؟

تابع سالم وفمه ممتلىءٌ بالطعام بينما كان ينظر كلينا للسمين الذي كان يستقبل سخريتهم بضحكٍ أُرْغِمَ عليه:

- بسَّام هذا تافه، لا يمُارس فتوته إلَّا على البُسطاء والمساكين، أولئك الذين يأنَس فيهم ضعفًا واستسلامًا، سجينٌ ليست له شلَّة أو ظهير، لكن دعه مثلًا يقترب من هذه الزنزانة أو تلك.

نظرت إلى الزنازين التي أشار إليها: وماذا بتلك الزنازين؟

- قبائل.

- قبائل!

- أعني أفراد من قبيلة أو عشيرة واحدة، مثل الشُهبان الذين قابلتهم.

- أهم خطرون لتلك الدرجة؟

- بالعكس، هم مُسالمون، وفي حالهم دائمًا، أعرف كثيرًا منهم، لن أقول إنهم شديدي الودِّ والطيبة، لكنهم في العموم لا يغارون على أحد، ولا يبدأون بالمشاكل، لكنهم عند الشدائد على قلب رجلٍ واحد، وإن مسَّ أحدهم أدنى أذى..

ضاقت عيناه وهو يرفع سبابته التي تضم اللقمة المعجونة بالعدس:

- لا أراكَ الله ما يحدث ولا أسمعك ما يُقال، ينقلبون في لحظةٍ لوحوشٍ كاسرة، فيُمسي المكان في لحظة نارًا تصلي الجميع صليًا، تأكل بسَّام وأبو بسَّام ومن أتوا ببسَّام إلى الوجود، رأيت العجب منهم في سنواتي هنا.

أشار سالم إلى بعض الزنازين:

- وهؤلاء لهم زنازينهم الخاصة ولا يقبلون الغرباء، فأن يستقبلوا واحًدا من قبيلتهم لم يروه من قبل، خيرٌ لهم من أن يستقبلوا واحدًا ولو عاشروه لسنوات، صلة الدم هي الأهم.

تابعت ذلك السجين الذي انصرف بعد أن نال قسطه من السخرية حين أكمل سالم:

- أما بسَّام هذا فهو كطفل المدارس السمج، الذي يستمد عجرفته من أوباشٍ يأتمرون بأمره، فلا يتخذ إلَّا من الأضعف وليمةً لهراءه وسخريته، وكأنه يقول لكل من بالمكان أنا موجود، أنا مهم، فلا تستخفوا بي لو سمحتم.. لكن المُجاهر بقوته في كل وقت خائف ومتوتر، الأقوى هو الذي لا يعلن عن قوته إلَّا وقت الحاجة.. كالعصابات.

لسعت الكلمة مسامعي: عصابات.

- اخفض صوتك! مجرمون لا يتفاهمون ولا يمزحون، مشاكلهم تساوي دمًا، وبسَّام ليس مجرمًا، هو يحاول أن يكون، لكن لا يستطيع ولن يستطيع، الإجرام له ناسه.

- أهم معنا في العنبر؟ أعني تلك العصابات!

- القليل منهم، فليست لهم زنازين مُحددة، بل ولا حتى عنابر محددة، فالشرطة تحرص على توزيعهم على العنابر بشكلٍ دوري لأن وجودهم مجتمعين في عنبرٍ واحد يعني مشاكل لا تنتهي، ستعرفهم وحدك عندما تراهم.

نظرت للزنازين المترامية بالممر: ماذا عن باقي الزنازين يا سالم؟

***

عند المغرب أقبل عليٌّ سالم، بيده سيجارته المعتادة وبالأخرى كوبٌ من الشاي، جلس منتشيًا بعد أن أنهى عمله مُبكرًا وظفر بمقابلٍ طيب، علاوةً على أنه وجد مادةً للحديث هذه المرة، قال وهو ينظر إلى الزنازين:

- بهذا العنبر أربعة عشر زنزانة، وبكل زنزانة ما لا يزيد عن بضعة عشر سجينًا، وكما أن لكل عنبر مسئول فلكل زنزانةٍ مسئول أيضًا، ومسئول العنبر هو الذي يختار مسؤولي الزنزانين. هل فهمت شيئًا؟

تابع سالم: مسئول هذا العنبر اسمه نصَّار، أنت تعرفه، وهو تقريبًا أقدم الموجودين، وهو الذي يختار مسئول تلك الزنزانة وتلك وتلك - قالها وهو يشير للزنازين - أي أن هناك أربعة عشر مسئولًا عن الزنازين في هذا العنبر.

- فَهِمت..

- ثم أن مسئول كل زنزانة يختار معاونيه، فهناك مسئول للطعام، ومسئول للنظافة، وهكذا. أنا كمسئول الطعام في زنزانتي مهمتي هي أن آتي بالطعام إلى الزنزانة، ثم أحول هذا الطعام.. إلى طعام. كل زنزانة يتشابه أفرادها نوعًا ما، هناك زنازين لكبار السن، وزنازين للبسطاء، وزنازين للعُتَاة والفتوات، وعمومًا لا يمكنك الدخول والجلوس بأي زنزانة إلَّا إذا كنت تعرف من فيها جيدًا.

أومأت فهمًا، قبل أن تقع عيناي على تلك الزنزانة التي انتشلني سالم من أمامها في أيامي الأولى، وقد امتدت بين أسياخها الأغطية والأكياس لتحجب ما بداخلها تمامًا عن الممر، حتى بدت وكأنها مهجورة تمامًا.

- وماذا عن تلك؟

نظر سالم إلى حيث أشير: لا لا مثل تلك الزنازين لا تقترب منها نهائيًا، ولا تدخلها، ولا تعبر من ناحيتها، فهؤلاء قد انتهوا تمامًا.

- انتهوا!

- مدمنون، ماكثون بالداخل ليل نهار، ولم يعد فيهم أمل.

- مدمنون! تقول مدمنون؟!

- متعاطون للمخدرات وما شابهها.

- مخدرات يا سالم! بداخل المكان هنا؟!

- اخفض صوتك، نعم.. حقن وهيروين وحشيش ومصائب أخرى لا تحب أن تعرف عنها شيئًا، ولا تُعلو بصوتك في مثل هذه الأمور.

- وكيف هذا؟ كيف يأتي المدمنون بالمخدرات إلى هنا؟!

- من التجار.

- وكيف يصل التجار إلى هنا؟!

- إنهم لا يصلون، التجار هنا بالفعل.

ألقيت نظرةً على الممر المترامي وعشرات المساجين يمشون فيه جيئة وذهابًا، وكأنني أتوقع أن يكون مكتوبًا على جبين التاجر أنه تاجر. تابع سالم:

- المخدرات يتم تهريبها بعيدًا عن أن أعين الشرطة إلى السجن، فتتنقل من يدٍ إلى يد، حتى تصل إلى هؤلاء.

- عنبر المخدرات به مخدرات!

ضحك: بل تلك هي الفرصة الذهبية، بالخارج يبحث المدمن عن التاجر، ويبحث التاجر عن المدمن، أما هنا فما أسهل اللقاء. قضايا المخدرات هي أكبر مشاكل هذا السجن منذ زمنٍ بعيد، وهو ما استدعى وجود مكتب للمباحث الجنائية، يرأسه العَيْدروس.. عبد الرحمن العَيْدروس.. مكتبه في آخر تلك الطرقة، رأيته أنت من قبل، ذلك الأربعيني الممتليء السَبَّاب، الذي يدخل العنبر ويصرخ في الناس كلما ملَّ الجلوس ووجد ما لا يفعله.

- رأيته فعلًا مرتين أو ثلاث..

- مافيا المخدرات متجذرة هنا منذ سنوات، وهي أكبر من حجمه، ومن إمكانياته، لم يستطع هو ولا مَنْ قَبْله السيطرة عليها، فراح يستعيض عن ضعفه أمام رؤسائِه الذي كانوا يراهنون على ذكاءه الغير موجود بدخوله العنابر ليصفع هذا ويركل ذاك، ينتقي سجينًا مسكينًا لا حول له ولا قوة ليوقفه

لساعاتٍ في الطرقة الخارجيه، أو يصفده في الحائط، أو يأخذه إلى المكتب ليتسلى عليه هو ورفاقه من المباحث طوال الليل، فرضًا لنفوذٍ أجوف وسيطرة قليلة الحيلة.

ويبدو أن سالم قد خَمَّن ما أفكر فيه فتابع: لا تحتك به إطلاقًا، ولا تلتقي بعينيه، اختفي عن ناظريه، ليمر الأمر بسلام، فلم يسلم أحدٌ في السجن ولا العنابر كلها من سخافاته وتفاهاته.

- ولا حتى عنبر القتل؟

قطع سالم رشفته للشاي فجأة: لا لا لا.. طبعًا ما عدا عنبر القتل.. هو يدخل كل العنابر ما عدا القتل.

رفع سبابته يبثني أهمية ما يقول:

- زين.. يجب أن تفهم شيئًا.. لا مخلوق في هذا السجن.. في هذا السجن كله.. يجرؤ على العبث مع عنبر القتل.

- ٦ -

بعد يومين دخل شرطيٌّ إلى العنبر ثم نادى اسمي وأسماء آخرين لاستلام "الأمانات"، وقَّعْتُ على إيصال الاستلام وتناولت منه النقود قبل أن أعود لمكاني، وكذلك فعل آخرون قبل أن ينصرفوا إلى زنازينهم.

ما أن أُغلق الباب حتى وجدت هؤلاء يهرعون ناحيتي من آخر الممر، سائلين عن حق الصابون والمناشف ونشر الملابس، فدفعت لهم مقابل ما أخذت، فنظروا إلى ما تبقى من نقودٍ بيدي في شبقٍ عارضين عليَّ بحماس أن يأتوني بما أريد في التوِّ واللحظة، فطلبت (صابون)، و(شامبو)، و(منشفة)، و(نعل)، ليتفرق النقد الثلاثون[٩] في لحظات بين الأيادي الممدودة، ما استطعت أن أنجده أعطيته لسالم ثمنًا للمكالمه، ولعبد الشكور ثمنًا للزي البنجابي، آخرُهم كان صاحب الليفة المتهالكة يسألني عن سببٍ مقنعٍ لتأخير ليفته الجديدة، فلما اعتذرت مدَّ لي يده طالبًا حقها، فمنحته آخر ما تبقى معي.

هَمَمْتُ بالجلوس فوجدت ذلك الذي يمسك ذراعي مُسْتَمْهِلًا، شابٌ في منتصف العشرينات، كان يراقبني من بعيد، منتظرًا أن ينفَّض هؤلاء من حولي، حاوط كتفي بذراعه وتمشى معي سائلًا عن حالي وأخباري..

- إذن فكم حُكمك يا أخي؟
- سبع سنوات.

توقف فجأة وهو يطلق صافرةً من فمه: سبع سنوات!

قطع بعينيه المكان ناظرًا لبلاط العنبر ثم للجدران ثم للسقف قبل أن يعود إلي باثـًا تأثره:

- كثير يا أخي.. والله كثير.

---

[٩] أقصى مبلغ كان يتم إيداعه هو ثلاثون نقدًا كل أسبوعين.

تابع: ما قولك إذن فيمن يجعل تلك السنوات السبع تمضي هكذا؟

فرقع بإصبعه مبتسمًا حين بدا عليّ التساؤل، فاقترب وأخرج من جيبه قرص دواء، وهو يختال برأسه يمينًا ويسارًا يبثني النشوة:

- ستنقلك إلى عوالم أخرى، وتصنع برأسك ما لا يصنعه أي شيء آخر، ستجعل سنواتك السبع تمضى كالومضة، بل أنك ربما هههههههههههه تُطالب بسَبْعٍ أُخَرْ.

مال عليّ: ولن تجد مثلها في العنبر، بل في السجن كله.

غلا الدم في عروقي: ما الذي تظن نفسك فاعله؟! من تظنني كي تعطيني تلك القذارة؟!

- وماذا قد أظنك؟.. وزير!.. كغيرك ممن جائوا إلى هنا.

- إن لم تختفِ من أمامي ستَلقَى ما لا يُحمد.

- جرأتك تلك تدل على أنك لم تأخذ جرعتك بعد.. ها!.. لم يزل العرضُ قائمًا..

في لحظةٍ قفزت إلى باب العنبر مُناديًا على الشرطي، فركض هذا إلىّ وجذبني من قميصي بجزع:

- "يا أخي انتظر.. ماذا تفعل.. ماذا دهاك؟!"

لمحت شرطيًا، فعلا صوتي أكثر، فرفع الشاب يده متبرئًا مما معه: "انظر، انظر، ليس معي شيء، لو طلبت الشرطة ليس معي أي شيء.. كنت أمزح معك.. يا أخي كنت أمزح".

تجمَّع البعض من الزنازين المجاورة ليفضوا الأمر، هرع سالم وآخرين وأبعدوني جميعهم عن الباب، صرفوا الشاب من أمامي وسألني سالم عما حدث، فأخبرته بما حصل وأنا أنهج من الانفعال..

- ولم تعطي هؤلاء نقودك أصلًا؟!

- قالوا أنهم المختصين بحاجيات العنبر من صابون ومناشف وخلافه.

- لا يوجد هنا مختصون بأي شيء.. هؤلاء مجرد لؤماء وجرابيع.. ثم أي ليفة تلك التي تدفع ثمنها كل هذا؟.. أمعقول يا زين؟!

أمسك بكتفي ليجعلني أنظر إلى صاحب الليفة الذي كان يسيح في الممر بلا هدفٍ ولا غاية:

- باالله انظر.. ما حاجة هذا الوجه لـ (ليفة)؟!.. أخبرتك بأن المدمنين هنا كُثُر، تتعثر فيهم كما تتعثر في حصى الأرض.

لم أنظر لصاحب الليفة بل تابعت بغيظٍ بائع الأقراص الذيّ انسحب لآخر العنبر مع رفاقه وهم ينظرون ناحيتي أن احفظوا وجه هذا المجنون، لا تعرضوا عليه شيئًا آخر، فقد يفتح علينا أبواب جهنم.

تابع سالم: إن تعرضت لمثل هذه الأمور تجاوزها وأَرِح بالك.

- أنا لا يهمني ما يبيعه، ولا ما يفعله، لكن بعيدًا عني، أنت لم تر كيف كان يصر ويعرض علي قذارته، إن تكرر هذا الأمر سأسلمه إلى الشرطة.

- الشرطة لن تأتي يا زين..

التفت إليه مُستغربًا حين تابع: الشرطة هي ما تمرر كل هذا إلى هنا..

***

- هيروين.. حشيش.. أقراص.. كله تمرره الشرطة إلى هنا.

قالها سالم حين جلسنا ناحية الباب.

قلت ولم أستوعب بعد: الشرطة؟ كل الشرطة؟!

- ليسوا كلهم بالطبع.. بل القليل منهم.. لكن آثار النعمة التي ظهرت على البعض أضعفت قلوب آخرين، ونالت من ذممهم وضمائرهم ما نالت.

بسط إليَّ كفّه شارحًا: كيس صغير بهذا الحجم، بهذا الحجم يا زين، يُدخله الشرطيُّ إلى العنبر فيحصل مقابله على ضعف راتبه، وليس ذلك فقط بل يُمررون كل ما يمكن أن يُترجم إلى أموال، وكل شيء وله ثمنه، سعر إدخال التليفون يختلف عن سعر إدخال المخدرات يختلف عن سعر إدخال أية ممنوعات أخرى، لأن كل واحدٍ من تلك الأشياء يُباع هنا بسعرٍ مختلف.

- ومن أين يأتي هؤلاء المتعاطون بكل هذا المال ليدفعوه، لا يبدو عليهم أنهم يملكون شيئًا؟!

ضحك سالم و تحشرج صوته من أثر السجائر، قال بعد أن تمالك أنفاسه:

- المتعاطي مسكين، بالكاد يتحمّل ثمن جرعته، من يأتي بكل هذا هم تُجار كبار جدًا، زعماء عصابات، وليست أية عصابات، عصابات دولية، أعني أن نشاطهم موزعٌ عبر دول العالم، مليارديرات يرتحلون بين البلدان، من مشارق الأرض إلى مغاربها، ليُتموا صفقات بملايين الملايين، حظ أحدهم العاثر قد يوقعه بقبضة حكومة إحدى تلك الدول التي يرتحل إليها فيُسجن، كما حصل هنا.

تنقلت بعيني بين السجناء ما بدا لسالم وكأني أبحث عنهم..

- لا لا.. ليسوا هنا.. هنا لا يوجد سوانا؛ أنا وأنت وباقي المساكين..

تابع: أما هؤلاء الأباطرة فبالعنابر المجاورة، الواحد منهم زعيم بحق، لا يبيع بنفسه ولا يجزيء بضاعته بنفسه، وإنما يجلس بزنزانته كالملك، وبتليفونه يا زين، بتليفونه فقط، يدير صفقاته عبر المحيطات، وينقل بلاويه من أقصى الدنيا إلى أقصاها، ويجلب ما يريد إلى داخل السجن، أكياس المخدرات تلك يجنى من ورائها الملايين، وقوعه في قبضة الشرطة لا يعني أن يتوقف عمله، أو أن يتعطل نشاطه، لهذا أنشأ بالسجن إمبراطوريته الخاصة، لتصبح العنابر هي جِنانه، والسجناء هم زبائنه.

- ولم لا يأتي تفتيشٌ مثلًا ليقبض على هؤلاء جميعًا؟!

لوَّح سالم بيده بلا مبالاة: يفتشون، ويبحثون، ويجدون ما قد يجدون بعد أن يقلبوا الدنيا كلها رأسا على عقب، ويحجزون كل ما يقع بأيديهم من الممنوعات في المسابح والزنازين، ولكن من الذي يتم مقاضاته في النهاية؟!

- المتعاطون.

- وهذا لأن التاجر يكون قد احتاط قبلًا، فله أعينٌ بإدارة السجن تخبره بقدوم تفتيش أو تغيير حراسة السجن وما إلى ذلك، هي مافيا، شبكة كبيرة متشعبة ومتجذرة في قلب المكان منذ عقودٍ طويلة، لا أحد يقربها، ولا أحد استطاع القضاء عليها.

نظر سالم إلى زنزانته التي وقف على بابها بعضُ السجناء:

- سأذهب الآن لتسليم البعض ملابسهم، ولنتكلم في وقتٍ آخر، لكن المهم الآن..

قام ودعس سيجارته قبل أن يلتفت لشلة المدمنين الذين كانوا في آخر الممر:

- لا تتعامل مع هؤلاء مرةً أخرى.. ولا تحتك بهم.. اسلم من جنونهم وشرِّهم.. فهؤلاء في أغلب الأوقات لا يكونون في وعيهم..

- ونقودي ؟!

نظر لي وعيناه تبحثان عن رد..

- ٧ -

بعد يومين دَخلَ شرطيٌّ وهتف بالعنبر: "زيارات" ثم أتبع هتافه بنداءات أطلقها كالقطار من كشفٍ بالأسماء بيده، ليتحلَّق حوله سجناءٌ راحوا يزيدون واحدًا بعد آخر.

سمعت اسمي فقمت ملهوفًا وهَممَت بالخروج، فاعترضتني يده - الشرطي - قبل أن ترتفع عيناه عن الكشف شيئًا:

- الخروج من العنبر يجب أن يكون بالزيّ الرسمي.

مُسْرِعًا خلعت البنجابي وارتديت زي السجن، هممت بالخروج مرةً أخرى، فاستوقفني شرطيٌ آخر مشيرًا لرأسي:

- لا يمكنك الخروج وشعرك بهذا الطول.

"تعال يا زين، بسرعة، بسرعة"

تلقفني عبد الشكور الذي كان يراقبني من البداية، وكأنه كان يعرف هذا السيناريو بالنسبة للإيرادات الجديدة، أنهى حلاقته لرأس أحدهم قبل أن أستوى بين يديه ليبدأ في إزالة شعر وجهي كله بماكينته فيما تتواثب دقات قلبي في كل ثانية أن أسرع! أسرع يا عبد الشكور! فقد كنت أخشى أن يتراجع أفراد الشرطة في كلامهم، أو أن يكون هناك وقتٌ محددٌ للخروج، لم يعد أي شيءٍ مضمون في هذا المكان، ما أن خرست الماكينة حتى قمت ولم أنتظر لأزيح الشعر العالق بثيابي، ركضت وعبد الشكور يهتف من خلفي كمشجعي المباريات: هيا، هيا، اِجرِ بسرعة، بسرعة يا زين.

خرجت من العنبر وانضممت إلى الموجودين، ليقتادنا أفراد الشرطة، صفًّا واحدًا، ملاصقين للحائط، حتى وصلنا في النهاية إلى بوابةٍ ضخمة، ما أن فتحها الشرطي حتى ألفينا صالة هائلة المساحة، مُقسمة إلى

محطات، بكل محطة كرسي وتليفون، ويفصلها عن الخارج زجاجٌ سميك تتلهف من وراءه عشرات العائلات انتظارًا.

انتشر السجناء جريًا بطول المحطات بعد أن تلاقوا مع ذويهم بالتلويح والإشارات، فيما رحت أبحث بعيني حتى وجدت عمرو يلوّح ليّ مناديًا، فهرولت إليه متفاديًا الاصطدام بالمبعثرين في الصالة. كانت عيناه تضيقان باقترابي، وحاجباه يزدادان انعقادًا، حتى ارتخت يداه عن التلويح ظنًّا أنه قد أشار للشخص الخطأ.

التقطت السماعة هاتفًا: عمرو.. عمرو.. أوحشتني.. أوحشتني كثيرًا..

لم يرد بهتةً، بل ظلَّ يحدق برأسي الأصلع، ومنه أبحر إلى عينيّ، ثم وجنتيّ، ثم ذقني التي تركت فيها ماكينة عبد الشكور هيشاتٍ متناثرة من الشعر، أطال التحديق في وجهي كله الذي لمحت انعكاسه في الزجاج فأدركت إلى أيِّ درجةٍ بدا غريبًا عني.

رفع السماعة ذاهلًا: ما هذا يا زين؟!

- أين أمي!!.. ألم تأتِ معك؟!.. أين هي؟!

- ما هذا يا زين؟!

مهزومًا: والله لا أعرف يا عمرو.. حقًّا لا أعرف.

جعل يجول بعينيه في وجهي مرةً أخرى وكأنه يحاول استيعاب ما الذي أوصلني إلى تلك الحالة، وكان ذلك حين سمعت من وراءه صوتًا يهتف في لهفة: زين.. زين.. زين..

- أمي!..

كانت تجاهد للركض ناحيتي وهي تلوِّحُ بذراعيها، فوقعت مني السماعة وانهمرت دموعي رغمًا عني، انكبَّت على الزجاج بيديها وكأنها تحاول أن تصل إليَّ، فلمست موضع كفيها في شغفٍ.. ويأس! شَدَّت السماعة من عمرو الذي لم يزل في غفلة الذهول..

- زين.. ماذا حدث يا حبيبي ؟!.. ماذا جرى ؟!.. تكلم معي.
- والله العظيم لا أعلم يا أمي.. ولا أعرف سببًا لهذا كله.. لقد أخذوني من الشارع إلى هنا.. دون أن أفعل أي شيء..
- أتسببت في مشكلةٍ مع أحد ؟!
- كلا والله أبدًا أبدًا.
- إذن لم كل هذا ؟!.. نادهم يا زين، هاتهم يكلموني أنا، أريد التحدث إليهم، نادِ هذا العسكري الذي يقف هناك.
- لن يسمعك يا أمي.. لا أحد يسمع لأحدٍ هنا.. صدقيني.
- صارحني يا زين! أنا أمك.. هل تشاجرت مع أحد ؟!
- كلا والله أنتي تعرفينني، لم أتشاجر مع أحد، ولم افتعل أي مشكلةٍ مع أي مخلوق..

أطالت النظر إليَّ كأنها تحاول أن تسبر ما قد أخفيه: هل صدمت أحدًا بالسيارة ؟!

أومأت نفيًا، فعلا صوتها مرةً أخرى:

- إذن لماذا يحبسونك ؟!.. لماذا ؟.. لا لا هذا غير معقول.. نادهم، نادهم يا زين بالله عليك.. أريد أن أتحدث إليهم.
- أرجوكِ يا أمي.
- نادِهم قلت، سيُقَدِّرُون أني أم و كبيرة في السن، أريد أن أفهم ما يحدث.. لن أسكت على هذا أبدًا.

تحت وطأة دموعها ذَهَبْتُ إلى أحد أفراد الحراسة وأخبرته برغبة أمي في الكلام معه أو مع المسئول هنا فهز رأسه نفيًا دون حتى أن يلتفت إليّ، همست إليه راجيًا أكثر فهدَّد بإنهاء زيارتي وإعادتي إلى عنبري، فعدت والتقطت السماعة آسِفًا.

- زين! هل آذيت أحدًا ؟ كُن صريحًا معي..

- أمي، أنا ابنك، تربيتك، أنتِ تعرفينني أكثر من أي مخلوق، هل تصدقين أني قد آتي بأيٍّ من تلك الأمور.

انفلتت دموعها أكثر وهي تتلفتُّ حولها في جزعٍ وكأنها تبحث عما يمكنها أن تفعله لتخرج بي من هنا، أعيتها قلة الحيلة حين صدمتها البوابات والعساكر والحراسة، فترنَّحت لولا أن أسندها عمرو مُسرعًا وسيدتان كانتا بجوارها، في تلك اللحظة بالذات غامت الدنيا أمام عينيّ.. هتفت بالسماعة:

- عمرو.. عمرو.. اسمعني يا عمرو.

التقط عمرو السماعة، وهو يُسند أمي باليد الأخرى: ماذا؟.. ماذا يا زين؟

- قم بإخراج أمي من هنا.. انصرفا الآن... استحلفك بالله أن تفعل.. أمي.. إن كنتِ تحبينني حقًّا.. فلا تأتِ إلى هنا مرة أخرى..

صرخت بعينيها إذ عَجِزَتْ عن الكلام، اِلْتَفَتَ إليَّ عمرو غاضبًا:

- ما هذا الذي تقوله يا زين؟!

- بالله عليك يا عمرو، لا تأتيا أنتما الاثنين إلى هنا مطلقًا.

ذهب عمرو متأنيًّا بأمي إلى أن أجلسها على مقاعد بنهاية الصالة ثم عاد ليخطف السماعة:

- لِمَ يا زين؟ لِمَ تقول ذلك؟

- لا تأتيا.. لا يجب أن تتواجدا هنا.. ليس هذا مكانكما.

- أهو مكانك إذن؟

- لا تَزِد من همي يا عمرو، يكفي ما بي، لا تأتِ بأمي إلى هنا! حتى لو ترجتك، حتى لو توسلت إليك فلا تفعل.. لو أتيت بها لن أسامحك عمري كله، بل لن أخرج إليكما من عنبري.

- حسنًا.. حسنًا.. ألم يحددوا لك المدة التي ستمضيها إذن؟

- حدَّدوها.

- كم؟ أسبوع مثلًا، أسبوعان.

- عمرو خذ أمي الآن أرجوك.
- ثلاثة أسابيع مثلًا.. كم؟.. شهر!
- خذها وسأهاتفك عندما أرجع إلى العنبر.
- كم يا زين؟
- سبعة.
- سبعة ماذا؟.. سبعة أسابيع.
- سبع سنوات.
- سبع ماذا؟.. زين.. لا أسمع.. لا أسمع.. ماذا تقول؟

دمعت عيناي مرةً أخرى، في حين بدا التوتر الشديد على عمرو: تقول سبع ماذا؟!

- سبع سنوات يا عمرو.. سبع سنـ..!!!.. لم أكمل إذ زاد بكائي.

ذُهل عمرو: ماذا؟! سبع سنوات!! ماذا فعلت لكل هذا؟!

- وكأنك لا تعرفني يا عمرو؟! وماذا أكون قد فعلت؟!

هجم على الزجاج: إذن ففيم حبسك لسبع سنوات؟.. ماذا تُخفي؟!.. تكلم.. أمنا لن تحتمل.. أتعلم هذا؟!.. أنت لن تتخيل كيف مرَّ عليها الأسبوعان الماضيان.

- إذن لا تأتِ بها مرةً أخرى، لا تأتِ بها نهائيًا، ولا تأتِ أنت أيضًا، لقد كلمتهم في تنفيذ الأحكام، نعم يا عمرو كلمتهم، كلمت المدير ووعدني بأنه سيتحرك فورًا، وقالت لي الشرطة هنا فلتأمل خيرًا يا زين، طالما أن هناك خطأ فبالتأكيد سيتم اكتشافه، وهم الآن يسعون في أمري، لأنه لا أحد يمكث كل هذه المدة دون أن يكتشفوا الخطأ، اِمْشِ وخُذ أمي من هنا الآن أرجوك.

بدا عمرو وكأنه يحاول أن يُقنع نفسه بما أقول، لكنه لم يُجادل أو يعترض، فقط عندما انتهى وقت الزيارة أخبرني بأنه في كل الأحوال لن يهدأ ولن يكل حتى يُخرجني من هنا، قبل أن يعود إلى أمي ويساعدها على النهوض لتقوم بمشقةٍ وكأن على كتفيها أثقال الدنيا كلها، ويبدو أنها حاولت أن تأتي لتودعني فلم تسعفها

عافيتها، فاكتفت بتلويحٍ واهنٍ ونظرةٍ تكفَّلت بفرم ما تبقى من روحي، قبل أن تتحامل بإحدى يديها على عمرو بينما تضع الأخرى على صدرها ملتمسةً شهيقًا لا يأتي.

- ٨ -

ليومين متتالين لم يكن لي شغلٌ ولا همٌ سوى السؤال والاطمئنان على أمي، فكنت أتسلل مع سالم إلى حيث أصحاب التليفونات، لأستعير من كل واحدٍ دقيقةً على الأكثر، واعدًا بدفع الثمن لاحقًا، بعد أن يتوسط في سالم في ذلك كله. طمأنني عمرو بأنها - أمي - قد هدأت وتماسكت، بعد أن استوعبت الأمر جيدًا، بل وأنهما قد بدءا التحرك الفعلي، فقَصَدَا واحدًا من أكبر المحامين في البلاد والذي أخبرهما بأن هذا ما هو إلَّا خطأٌ إجرائيٌّ يحدث في كل مكان، وأنَّ الأمر محسومٌ ومنتهي، فاطمئنوا وأبشروا خيرًا، وهو ما جعلني أشعر للمرة الأولى بقرب الفرج، وبأن الأمور قد بدأت في طريقها الصحيح إلى الحل.

أما نظرة سالم الحائرة - وقتما سألته عن مصير نقودي التي أعطيتها لبائعي الصابون والمناشف - لم تُفارقني، بل وجدت صداها في أعينٍ تائه وأبصارٍ شاردة حين ذهبت مُطالبًا بمقابل ما دفعت، فيما بدا لي أن النقود لم تَبِت طويلا في جيوبهم، تَعَلَّلَ بعضهم بأنه لم يجد ما طلبت، أو أن طلبي آتٍ غدًا أو بعد غد، فيما أخبرني البعض الآخر بأنهم سيعيدون لي نقودي مع أول أمانات تدخل إليهم، لكن لو كانت تدخل لهم أمانات - كما قال سالم - لما اضطروا للنَصْبِ والاحتيال. كنت ضحية، مجرد ضحية! يفعلون ذلك مع الإيرادات الجديدة التي لم تفهم الوضع بعد، لا يحتاج الأمر أكثر من صابونة ومنشفة لسَبْك الخدعة، وأن تلك المماطلة لم تكن تعني إلَّا شيئًا واحدًا: اِنس الأمر كله واِسْتعوض ربك.

اعْتراني الغضب في البداية لأن ما بي يكفيني ولم يكن ليحتمل النصب وتلك الأفاعيل، إلَّا أن ضيقي كان يتلاشى شيئًا فشيئًا كلما وقعت عيناي على واحدٍ من هؤلاء لتحل محله الشفقة والدعوة بالهداية وصلاح الحال.. أشباه بشر.. انتهوا تمامًا.. يعجُّ العنبر بالعشرات منهم.. يمشي الواحد منهم سائحًا في الممر وحول المسابح وعلى أبواب الزنازين بحثًا عن فكرة أو حيلة أن كيف يأتي بالنقود. هؤلاء كما قالي لي سالم: "لا أمل فيهم، ذهبوا بلا عودة، وإن أرادوا العودة فلن يكون هذا المكان هو البداية بكل تأكيد". عندما كنت أمر مصادفة بزنازينهم ألمحهم من وراء رُقع الجلاليب واقعين بأنحاء الزنزانة كصرعى الحروب، وكأنَّ

هناك من فتح عليهم رشاشًا فحصدهم واحدًا تلو الآخر، المنسدح تمامًا على بطنه، الواقع على ظهره وقدماه فوق رأس ثانٍ، وثانٍ قدماه فوق رأس ثالث، أفخاذٌ فوق بطون، وبطونٌ فوق صدور، وصدورٌ فوق وجوه، ووجوهٌ مهروسة في بلاطِ الزنزانة غارقة في زَبَدِها ولُعابها، أما المباحث، فكما قال سالم، كانت تحار في كل هذا، فذكائهم لم يصل بعد لحيل الزعماء الكبار، فلا قِبَلَ لأحدٍ هنا بالوقوف أمام المافيا الممتدة منذ عشرات الأعوام، وعَيْدَروسهم -كما يحلو لسالم تسميته - مضطربٌ حائر، يُلهي الأعين عن قلة حيلته بدخول العنابر، مُتطلعًا إلى سحنات السجناء وكأنه في سوبر ماركت، لينتقي واحدًا فيقوم بإيقافه طوال الليل على عتبة مكتبة ليتسلى بإمطاره مع رفاقه بالنكات والبذاءات، لهذا كان العُرف إن دخل العَيْدروس إلى عنبرك نَمْ.. أو تَصَنَّع النوم.. لتسلم من رذالته وسخافاته.

***

بعد عدة أيام أبلغني الشرطيُّ بأن هناك محاميًا يطلب مقابلتي بمكتب الشرطة.

دقائق وكنت أصافح ذلك الذي قَدَّمَ لي نفسه بحماس أنه من مكتب (....)، وهو أكبر مكتب للمحاماة في البلاد، وأنه قد تولى قضيتي، وأن أبشر خيرًا، وأن مثل تلك القضايا محسومة قبلًا. جلسنا فابتدرني:

- لكن قبل كل شيء كُن صريحًا معي، ماذا فعلت؟

أجبته بالديباجة المعتادة "لم أفعل شيئًا"، "ولا أعلم لِمَ كل هذا؟!"، "وقد أُخذت عنوةً من الشارع إلى هنا"، ففتح ملفًا كان بيده:

- حسنًا حسنًا، لقد درسنا ملف القضية جيدًا، وهناك بضعة أسئلة أريد توجيهها إليك، ما علاقتك بالمدعوة (بلقيس)؟

قالها ثم نظر لي بغتةً وكأنه يريد معرفة وقع السؤال عليّ..

- بلقيس! أنا لم أسمع هذا الاسم من قبل، من هي بلقيس؟ ومن تكون؟
- قل لي أنت.
- لم أسمع هذا الاسم من قبل، ولا أعرف صاحبته، أقالت أنها تعرفني؟

نظر في الملف: أتعرف إذن حسان وطائل؟! أخوي بلقيس.

- لا أعرفها، ولا أعرف بلقيس هذه، ولم أقابل أيًّا منهم في حياتي، ماذا هناك؟ من هؤلاء؟ وما شأنهم بموضوعي؟ هل لهم علاقة بما يحدث لي؟! هل هم السبب فيما أنا فيه؟!

- ألَا تذكر إذن شيئًا ما قد حدث في الأسبوع الأول من شهر نوفمبر عام ٩٩؟

قلت بعد تفكير: وأين يمكنني أن أذكر أيَّ شيءٍ حدث منذ ثلاث سنوات. ربما كنت بالمنزل.. بالعمل.. مع أصدقائي.

- ألم تكن في منزل بلقيس؟

- قلت لك أني لا أعرف من بلقيس حتى أكون بمنزلها، ما الأمر؟!

قرأ الأوراق: التحقيقات تقول أنك في هذا التاريخ كنت في منزل بلقيس، وتهجَّمت عليها، وأن أخويها، حسان وطائل، عندما حضرا إلى المنزل تعاركا معك، ثم أبلغا الشرطة عنك، وعندما حضرت الشرطة قيّدتك وأودعتك المستشفى نتيجةً لإصاباتك، وبالتفتيش اكتشفوا أن معك أقراص مخدرة، فوجهت لك النيابة تهمة حيازة المخدرات التي كانت عقوبتها خمس سنوات، هربت أنت من المستشفى بعدها فوجهت إليك تهمة الهرب بعد القبض القانوني وعقوبتها سنتان، لهذا أنت تقضي الآن سبع سنوات، خمس سنوات لحيازة المخدرات، واثنتين للهرب بعد القبض عليك.

سمعت مشدوهًا ما قيل في حين كان هو يتطلع إليَّ منتظرًا تعليقي.

- أوتدري شيئًا؟! تلك القصة الغريبة التي قلتها لم أسمع بها قبل اليوم، أنت تحكي عن شخصٍ آخر بكل تأكيد.

- الأغرب أن الشرطة بتفتيشك وجدت إثباتك الشخصي: (زين الدين أحمد الشُهيبي).

- إثباتي معي، حتى في يوم القبض عليّ كان معي، أنا زين الدين أحمد الشُهيبي. وهذا الذي تهجم على بلقيس ثم هرب لا أعلم من هو، ولا من يكون؟ ثم حتى لو كان معه إثباتي وقدَّمه للشرطة، ألم تقارن الشرطة بين وجهه ووجهي الذي بالإثبات ليروْا أن الشكل مختلف وغير متطابق، كيف يقبضون على شخصين مختلفين في قضيةٍ واحدة؟!

ظلَّ يحدق في يتبين صدقي، فنفذت بدوري إلى عينيه:

- أقسم لك أني لست هذا الشخص الذي تتحدث عنه، أُطْلب من الشرطة أن تأتي ببلقيس وطائل وحسان وكل هؤلاء الذين ذكرتهم، كل من له صلة بهذا الموضوع اِئْتِ به إلى هنا، واجمعوني بهم جميعًا، وإن تعرف عليَّ واحدٌ منهم.. واحدٌ فقط.. فلن أمضي فقط سبع سنوات.. بل مستعدٌ لأن أقضي هنا عشرين عامًا.. بل عمري كله.

تنهد المحامي وتراجع للوراء مُغلقًا الملف في ارتياح:

- حسنًا حسنًا، هكذا اطمئننت يا زين، أبشر خيرًا واعتبر أن الموضوع منتهٍ، من الواضح أن هناك التباسٌ ما في الاسم أو الإثباتات الشخصية، ما علينا سوى الوقوف على هذا الخطأ بدقة، وتوضيحه، وستخرج بعدها بإذن الله.

انشرح صدري: أحقًّا؟ أتقسم أن هذا ما سيحدث؟

- بل لن يحدث غير ذلك.

قام بتدوين بعض الملحوظات، قبل أن يُقَدِّم لي ورقة: وَقِّع فقط على هذا التوكيل والذي بموجبه سأستمر في إجراءات الإفراج عنك. سنطلب كل الأوراق لفحصها جيدًا فنخرج منها بما تسبب في هذا الالتباس، وسنمشي في الإجراءات سريعًا دون تأخير.

وقَّعت على الأوراق بحماس، قبل أن يتناولها مني، ويغلق الملف ويقوم ويصافحني:

- أطلب منك فقط أن تصبر لأيامٍ أخرى قليلة، ثم بعدها سآتي لأبشرك بقرار عودتك إلى المنزل.

كان لكلمة "منزل" وقع السحر على أذني، فشددت على يديه مُرتعشًا من الفرحة:

- إن شاء الله.. إن شاء الله.. حسنًا حسنًا.. سأصبر.. لا بأس سأصبر.. الله معك..

بنهاية الأسبوع أقام مكتب المحامي دعوى قضائية، مُرْفَقةً، كما أعلن، بعددٍ من القرائن والإثباتات، ومصحوبةً بالكثير من اصبروا، وأبشروا، تلك مهمتنا.. تلك قضيتنا.. هذه لعبتنا.. وزين ابني.. وسأتأبطه عائدين إلى المنزل قريبًا جدًا بإذن الله.

وكانت قد مَضَت أربعة أسابيع على دخولي السِجن، كيّفت فيها أموري المعيشيةِ إلى حدٍ ما، فقد كان رشيد، مسئول زنزانة سالم، يأتيني بطلباتي من جمعية السجن مع باقي أفراد زنزانته، بعد أن توَسَّطَ سالم لأجلي في ذلك الأمر، والجمعية أشبه بسوبر ماركت يبيع المستلزمات التي قد يحتاجها السجناء في عنابرهم باستمرار، كأدوات النظافة والمأكولات والمخبوزات. يخرج مسئولو الزنازين ظهيرة السبت من كل أسبوع، محمَّلين بأوراق مدونٌ بها طلبات الأفراد قبل أن يعودوا بالطلبات نفسها في عصر نفس اليوم.

في صندوقٍ كرتونيٍّ بجواري كنت أضع حاجياتي ومُتعلقاتي، أما النقود فكان مَخبأها الدائم في ملابسي الداخلية، تمامًا كما يفعل معظم السجناء مع أشيائهم الثمينة.. النقود.. الهواتف.. المخدرات.. أيٍّ من تلك الأشياء لو ابتعد عن صاحبه شبرًا يختفي في التوِ واللحظة.

في مكالمة سألت عمرو عن أهلنا وإخوتنا والناس، فأخبرني أنه لا يوجد أي شخص يعرف بما حصل، ولا حتى إخوتنا، وأنه - عمرو - وأمي قد أقنعا الكل؛ الإخوة والأهل والجيران، بأن زين قد تم استدعاءه لسفرٍ هامٍ وعاجل.

- وعائِشة يا عمرو؟!.. هل تعرف أخبارها؟!.. ما وضعها ووضع بيتها؟!.. ألم يصلك أي شيء منهم؟
- لا للأسف، لا أحد يعرف شيئًا عنهم من وقتها، ولم يصلني شيء.
- ألم تتواصلوا معهم أو يتواصلوا معكم؟
- لا والله يا زين.
- ألم تحاول داليا إذن الوصول لعائِشة؟

- جرَّبت عدة مرات ولم تتلق ردًّا.

- أولا تجرب مجددًا؟

- لا أظن أنها قد تفعل، فكما سمعتها، وهي تُحادث أمي ذات مرة، أنها لا تعلم بأي وجهٍ تحدث عائِشة وبأي حججٍ قد تقنعها لسفرك هذا، أنا لا أقصد أن أُخَيِّبَ ظنك يا زين، ولكن ضع نفسك مكانها!

- ألا تستطيع إذن الوصول لرائد فهو الذي....

قاطعني: زين زين رأيي أن تُرِيحَ بالك من كل هذا، فهذا الأمر بالذات لن يحسمه غيرك، وعلى لسانك أنت، خروجك الآن هو شغلنا الشاغل وأكبر همنا، وهو صكُّ برائتك أمام أي قيلٍ وقال، وأي فعلٍ نلجأ إليه لن يكون له معنى أو جدوى وأنت في حبسك هذا..

- للأسف معك حق.. معك كل الحق..

***

وبرغم ما حَكَاه لي سالم عن العصابات والمُدْمِنين والمشاغبين إلَّا أنَّ شيئًا من هذا أو ذاك لم يكن ليأخذ أدنى مساحةً من تفكيري، أو قلقي، ولم أكن أُعمل التركيز فيمن يقترب مني من هؤلاء أو يبتعد، ليس شجاعةً أو صلابةً منيّ بقدر ما هي قناعتي أني لست مُغْرِيًا للاستثارةِ أو للاستكشافِ عمومًا، فلن يهتم أحدٌ بذلك المرتكن إلى الباب، هذا إن لاحظ أحدٌ أساسًا أن ثمَّة من يرتكن إليه، علاوةً على أني لا أحتك بأحد، ولا أُثير انتباه أو ضيق أو فضول أحد، أصمُّ آذاني إن تكلم من تكلم، أو سخر من سخر، فما بي يكفيني ويفيض، وإن هي إلَّا أيامٌ وأغادر..

إلَّا أنه وبرُغم ذلك، ومن بين كل من حولي، كان هناك شخصٌ واحدٌ فقط، هو الذي يقطع عليَّ بمروره منافذَ التفكير كلها، ويتحفَّز انتباهي أضعافًا إذ يقترب، هو ذلك الذي جاء ذِكره صدفةً في إحدى جلساتي مع سالم، ولولا سؤالي ما أجابني ولا عرفت، وكان هذا حين كان سالم يقوم بتقديم بعض الزنازين إليّ ذات مرة، ويقوم بتعريفي بمن فيها، فسألته عن تلك الزنزانة بآخر الممر، بسكوتها، وخلوّها من السجناء إلَّا ثلاثةً فقط، في وقتٍ تضيقُ فيه باقي الزنازين بالعشرات، ولِمَ انتشلني من أمامها بتلك اللهفة قبل أسابيع إذ كنت أهم بالدخول للتعرف على من فيها؟ أبهَا مُشاغبوُن أو مُدْمِنُون؟

- لا لا..
- تُجار كِبار مثلًا.. زعماء عِصابات؟
- كلا أيضًا.
- ماذا إذن؟
- مريض.
- مريض!
- مريض إيدز.

قالها بلا مبالاةٍ وهو يرتشف الشاي.

- مريض إيدز يا سالم! تقول إيدز؟!

بتر رشفته: نعم إيدز يا زين! ما بك؟

العزل عن الآخرين!.. عدم الاختلاط!.."جمجمة" و"عظمة" أعلى إعلان تلفزيوني تتراقص بأسفله أرقام تليفونات ساخنة، ومرفقه بصوتٍ رفيقٍ أن تشجعوا وأبلغوا عن الإصابات وكل شيء بسرية تامة، كان هذا هو كل ما أعرفه عن هذا المرض، أما كيف ينتقل بين الناس؟ كيف ينتشر؟ أعراضه وصفاته؟ هي أشياءٌ جعلت أسئلتي تتتابع لاهثةً على سالم:

- وكيف يضعونه هنا؟!
- تهمتة مخدرات.. وهذا عنبر مخدرات.
- أقصد كيف يتركونه هكذا بين الناس وهو حاملٌ لهذا المرض؟!
- تركوه كما تركوا غيره، وماذا يكون هنا غير زبالة، اقْبُضْ و ارمي، من المفترض أنك فهمت الموضوع.
- وماذا لو أصاب أحدًا؟

يلوي فمه بلامبالاة وهو يُكمل الشاي ما يعني (والله لا تفرق)..

- وكيف يتأقلم الناس مع وجوده؟!

- وماذا قد يصيب الناس هنا بأكثر مما هم فيه؟!

كان سالم يبدو كمن يتحدث عن مريض انفلونزا، أو ربما عن عنبرٍ آخر غير عنبره، قطع إحدى رشفات الشاي في منتصفها:

- وبالمناسبة، بإمكانه أن يسجل طلبًا للذهاب إلى مستشفى، أو مصحة، وأن يمضي باقي مدته هناك، ويلقى الرعاية اللازمة، هذا حقه.

- ولِمَ لا يفعل؟!

ضحك نصف ضحكة: يقول أنه مبسوط هنا وسط الناس.

- مبسوط وسط الناس؟! وألا يُحتمل أنْ يكون أحد هؤلاء الناس قد دفع ثمنًا لإنبساط هذا الرجل وحَمل المرض دون أن يدري؟! سالم أتعي ما تقول؟!

يُنهي سالم شايه: كل من في العنبر يتعايشون مع الرجل منذ سنوات، وعمومًا في مكانٍ كهذا لن يفرق مع الموجودين وجود مريض إيدز من عدمه، انظر حولك، الناس هنا كالموتى الأحياء.

لم أنظر حولي، بل طَفقت أنظر لسالم نفسه، فقد اِتَّضَح لي لأول مرة أن مستوى الاندهاش لديه شحيحٌ جدًا، ربما لكثرة ما رأى وسمع خلال سنواته هنا.

كفَّ سالم عن الدهشة والقلق ولم أكف أنا بعد، سنواته الطويلة جعلت تبلده نعمة، وأسابيعي القليلة جعلت دهشتي نقمة.

أمَّا صاحِبنا هذا فَما أن كان يخرج من زنزانته حتى كان رأسي المرْتكِن إلى الحائط يرْتفع رغمًا عني، لأسرح في هيئته وكأنَّه أيقونة نادرة، أو كائنٌ خرافيٌ لا يحط بالمكان إلَّا لِمامًا، الغريب أنه كما لو كان زنزانةً متحركة، طولًا وعرضًا، جدارٌ لم يكتب له السقوط بعد، ما تعجبته هو أن الناس كانت تتحرك حوله بأريحيةٍ تامة، دون أن يبدو عليهم أيَّ قلقٍ أو خوف، فيما بدا لي أن كلام سالم كان صحيحًا، وأن الناس لا يفرق معها أن يكون بينهم شخصًا - أو حتى ربما عدة أشخاص - مرضى بهذا المرض الخطير، أو حتى

غير هذا المرض، ماذا لو كانت هناك أمراضٌ أخرى أخطر وأغرب في هذا المكان؟ ولا يدري حاملوها بإصابتهم بها! بل لم لا تكون هناك أمراضٌ جديدة لم يسمع بها أحدٌ من قبل؟ فبالتأكيد كل مرض وله بداية، ولن يكون أمثل لتلك الأمراض كي تبدأ وتنتشر من هذا المستنقع العامر بالقذارة والمخدرات والأذرع المثقوبة!.. هذا القبر الآدمي رحمٌ مثاليٌ للأوبئة.

وحين شعرت في ذلك اليوم بتلك الحكة الغريبة في ظهري لم أُلْقِ بالًا ولم أهتم، لكن عندما تزايدت بشكلٍ مضطرد خلعت قميصي ونَفَّضْتُه عدة مرات، ظنًّا أن تكون الحكّة من جفاف العرق، أو من ملاصقة الحائط والباب، وكان ذلك حين لمحت بطرف عيني سالم إذ يحدق في ظهري: "زين، اذهب واغسل جسدك جيدًا".

- ماذا هناك؟! ماذا ترى؟

بعينين لم تُفارقا ظهري: اذهب فقط.

اعْوَججت برقبتي وشددت جلدي من الخلف، فلمحت خلايا متآكلة تُشكل بقعًا دائريةً حمراء متداخلة..

صُعقت وجريت هلعًا إلى المسبح، خَلَعت ملابسي وفتحت الدش، لا أعرف ما علاقة ما بي بالماء، ولا إن كان صوابًا أن يختلط جسدي به وهو في هذه الحالة أم لا، أَتتني الإجابة في سخونةٍ بظهري، البقع الدائرية تنفثء وتنفلق عن مادةٍ صفراء لزجة!.. عدوى! بالتأكيد عدوى، وبأي شيءٍ غير العدوى قد يأتيني هذا المكان؟! مرض جلدي! من ملاصقة الحائط الناشع أو من قلة النظافة، أو ربما هي حالة نفسية! سمعت كثيرًا عن أشياءٍ قد تظهر بالجسم تأثرًا بحزنٍ أو اكتئابٍ شديد، كيف أداوي هذا؟ وهل له أصلًا دواء؟! وهل سينتشر في باقي الجسم؟!

قفزت من المسبح بحثًا عن سالم ليُشِيرَ عليَّ بما أفعل، فوجدته بجوار الباب يمسك بالصندوق الذي يحوي متعلقاتي، ابتدرني وهو يُخرج كيسًا منه: من أين أتيت بهذا؟

- أعطانيه رشيد مسئول زنزانتك، ما العمل الآن؟ أأذهب للعيادة؟ أم أبلغ الشرطي بالخارج؟ أم ماذا؟

- لم أعطاه لك؟

- طلبت مسحوقًا لغسيل الملابس فلم يجد بالجمعية إلَّا هذا، وقال لي هذا ينفع.. هذا ينفع.. خذه وهات ثمنه.

- أهذا ما غسلت به ملابسك؟

- نعم نعم لم كل هذه الأسئلة؟ ماذا أفعل الآن؟

- هذا ليس مسحوق غسيل، تلك مادة كاوية، نستخدمها لإزالة السواد العالق في قدور الطعام والصواني الكبيرة.. تبًّا لرشيد وقلة ضميره.. اطمئن.. ساعة أو اثنتان ويذهب كل هذا.

***

كان نوَّاف قصيرًا، نحيفًا، في الثلاثينات من عمره، يكبره سعد بعامين، ويفوقه طولًا وعرضًا، رفيقان حميمان، متلازمان، لكنها يبدوان كما لو كانا متناقران طوال الوقت، كلاهما صديقان لسالم، يجالسانه في بعض الأوقات فصِرت بالتبعيَّة أنضم لهذا الجمع، مع عبد الشكور أحيانًا بعد أن ينتهي من حلاقة الرؤوس والذقون، كان نوَّاف فكهًا، ضحوكًا، أمضى سبع سنواتٍ كانت كفيلة لأن تجعل ذاكرته عامرةً بالقصص والحكايات، والتي كان يستقيها من زنازين ليصُبها في أخرى، بعد أن يزيدها بما جاد خياله من المبالغات والخيالات، يشفع له في ذلك موهبته في القص والحكي، وبحبوحته في الكلام، حتى أني دُهشت أن معظم ما حكاه لي سالم كان مصدره في الأصل نوَّاف، رغم أن سالم أقدم من نوَّاف في المكان. أمَّا سعد فكان بعكس نوَّاف؛ راسخٌ، هاديءٌ، ولا يتكلم إلَّا بحساب، على معرفةٍ وثيقة بالكثير من المُروِّجين والموزعين والتجار بالعنبر، وبالعنابر الأخرى، لكنه لم يُمارس هذا الفعل قط، يعرف بعض أسرار الترويج، وحِيَلِ إدخال المخدرات، والتي كان يحكي بعضها لسالم، بعد أن يعرف أنها لم تعد سرًّا ولن تضر أحدًا ممن يعرفهم، أما جديد الأسرار، وطازجها، فهي حبيسة صدره، وهي تلك التي عرفت أن نوَّاف يتلظى شغفًا وفضولًا لمعرفتها، وليزيد بها مكتبته من الحكايات والتسالي، لكن - وكما يقول سعد - لو أن سرًّا واحدًا من تلك الأسرار انكشف لنوَّاف، فالمافيا التي عزَّزت وجودها لنصف قرنٍ بهذا السجن ستنهار في غضون ساعات.

- وكأنك بكلامك هذا تحاول الإبقاء عليها يا سعد؟!

قلتها مازحًا بينما أجلس إليهما - نوَّاف وسعد - وكان برفقتنا سالم والذي انشغل بإعداد الطعام على الموقد أمام الزنزانة، قال سعد:

- المافيا راسخة منذ زمن، وهؤلاء لهم أسرارهم وطرقهم الخاصة، وكلما انكشفت حيلة نبتت عشرًا، فالتجار هنا يُعزِّزُون أساليبهم باستمرار، ويسبقون الشرطة دائمًا بعدة خطوات.
- أتساءل أحيانًا لم لا يعالجون هؤلاء من الأساس؟! ذلك هو طرف الخيط! بل ما فائدة هذا المكان أساسًا إن كان الذي يدخل يخرج كما دخل؟!.
- لا أحد يهتم بذلك، فالمكان هنا ليس تقويمٌ وإصلاح، كان من المُفترض أن يكون كذلك، لكنه ليس كذلك، فهنا مبنىً عازل فقط، يعزل المُذنبين عن باقي الناس، ولا أكثر، يعزلهم بوبائهم وأمراضهم وبلاويهم.

أكمل نوَّاف: كـ "سلة المهملات" بالضبط يا زين، هل فكرت يومًا في تجميل سلة مهملاتك، هل فكرت في حال الورق الجيد إذا ما اختلط بالورق الوسخ، أنت ترمي مالا تريده عمومًا بغض النظر عن حالته..

أكمل سالم وهو يتذوق الطعام:

- ثم علاج من؟! علاج من يا زين؟! أَفِقْ يا أخي، هل نسيت ما حكيته لك؟ وما رأيته أنت! وهل مثل هؤلاء ينفع معهم علاج؟! من يعالجهم؟!.

ضحك نوَّاف: بالضبط، فهل تتصور مثلًا أن يأتي أحد لهذه السحنة، ويأخذ صاحبها من يده إلى مصحة، ويُعطيه دواءه، ويشرف على علاجه، ثم فترات نقاهته، ومتابعته بعد الخروج، ثم يتفاجيء - بعد أن يُنفَقَ عليه ما يُنفَق - بأن صاحبنا هذا قد عاد لما كان عليه مرةً أخرى.

قال سالم: نعم وهذه هي النقطة الأهم، بعد أن ينفق عليه ما ينفق!! أوتعرف كم في هذا العنبر يا زين؟

نظرت حولي وكأني أتوهم عَدَّهُم: مائتان مثلًا؟

- مائتان وثلاثين، هذا في عنبرنا فقط، وأضعافهم في العنابر الأخرى، يتبدلون يوميًا، يدخل هذا ويخرج ذاك، يخرج ذاك فيدخل هذا، من سيفعل ما تقوله مع مئاتٍ يتجددون كل بضعة أسابيع؟! فيضعهم في مصحات ومستشفيات ويدفع ثمن علاجهم، وإقامتهم، وأدويتهم.

ضحك نوّاف: بل يا ليتهم حتى يدفعون لنا ثمن أكلٍ آدمي، أرى في التلفزيون سجون بالخارج توظف طباخين، وعمال نظافة، وحلاقيين، بل واستشاريين نفسيين للسجناء، لكن الطعام هنا يطبخه سارقون، ونظافة العنبر يقوم بها مدمنون، والحلاقة يقوم بها مغتصبون وهاتكي عرض، تخيل أن رأسك، وبطنك، ونظافتك، بأيدي كل هؤلاء.

قال سالم ضاحكًا: وليت ذلك فقط، بل صحتنا أيضًا، لأنه حتى طبيب السجن نفسه سجين.

- الطبيب سجين؟! سألت.

- نعم، شابٌ صغير مضى له عامان بالمكان تقريبًا.

- وما تهمته إذن؟ أرجو ألَّا تكون القتل! قلتها مازحًا.

- لا لا لا أيُّ فألٍ هذا؟ تزوير الحمد الله.

- ماذا زَوَّر؟!

- شهادة الطب.

غرقت في الضحك.. رغمًا عني..

- ١٠ -

مَرَّت عشرون يومًا منذ جلست إلى المحامي ولم أكن أعرف تحديدًا ما المفترض أن يحدث بالضبط! أخبرني فقط أني سأخرج لكني لم أكن أعرف تحديدًا كيف "سأخرج؟"، هل سيأتي شرطيّ ليطلب مني الخروج عودًا إلى بيتي مع السلامة؟ أم سيطلبونني للتحري والتحقيق من جديد! أم سأمثل أمام محكمةٍ ما! أم غير ذلك كله!..

كل ما كنت أريده على اختلاف المسميَّات أو الإجراءات، هو أن أغادر هذا المكان نهائيًا، وبأسرع وقت، وبأيةِ طريقة.

وكُنتُ بشكلٍ شبه يوميّ اتصل بعمرو لأسأله عمَّا وصل إليه المحامي في إجراءَاته، فلا يجد إلَّا أنْ يجيبني بالإجابة الدائمة الحاضرة على لسانِه - المحامي - أنْ "ابشروا خيرًا، فلقد تم رفع الدعوى وانتهى دورنا في هذه المرحلة، والأمر الآن بيد القضاء، وأيّ جديدٍ يحدث سوف يتم إبلاغكم به فورًا، دوركم الآن أن تواظبوا على دفع أتعاب المحاماة كيّْ نستعد لأية إجراءات متبقية". لكن الأيام كانت تمرُ دون أيِّ جديد، أقاوم شعورًا بأن هناك تهاونًا وتقصيرًا وأن المكتب ربما يتلكأ لحين إكمال باقي المبلغ! مصدر الأموال الوحيد في المنزل أصبح معاش والدي بعد أن توقفت بطاقتي البنكية، ومنها علمت أنَّه تم فصلي من العمل.

وكان سالم يرى ويتابع لحظةً بلحظة توتري وشرودي وحيرتي وأسئلتي واتصالاتي ومشيّ جيئَة وذهابًا أمام باب العنبر طوال اليوم، ويتلمَّس بمرور الأيام والأسابيع تدهور حالتي نفسيًا وجسديًا. ألحَّ عليَّ عدة مراتٍ أن يتوسط لدى رشيد، مسئول زنزانته، كي يجد لي مكانًا في الزنزانة بدلًا من الانتظار ومجاورة الباب تلك، فكنت اعتذر له شاكرًا ومُمْتنًا ومُعَلِّلًا رفضي بأن الباب يُفتح ويُغلق في اليوم مائة مرة، فلأمكث هنا، حيث أنا، لعلَّ وعسى تأتي إحدى انفراجاته بأخبارٍ طيبة.

- وهل مَبِيتك في الزنزانة هو الذي سيُعطِّلُ الأخبار أم جيرة الباب هي التي ستعجِّلُ بها؟ ما الفارق الذي سيصنعه مكانك إن كان بجوار الباب أو بالزنزانة، سواءً أتتك أخبارٌ أو لم تأتِ مطلقًا.

يقولها سالم فأنظرُ ساهمًا للزنازين المترامية على مَدِّ البصر، للمدينة المنسية بالداخل، لقصص الأوجه ومتاهات الأعين، للأتونِ المتأجج على مهل، للساخطين والراضين والمنكسرين والساجين بعقولهم وأبصارهم في ملكوتٍ غير الملكوت، نعم؛ معه كل الحق فيما قال، جلوسي هنا أو هناك لن يُغيِّر من الأمر شيئًا، ولن يُعَجِّلَ بالأخبار أو يُعطلها، ولن يأتي بالبشارات إن لم يكن بخيبات الأمل، لكن ربما كان في الأمر بُعدٌ آخر لا تُسْعِفني لشرحه الكلمات، أو ربما لا طاقة بي للبوحِ بِه، ربما كان ارتكاني إلى الباب ليس انتظارًا وإنما رفضًا أيضًا، انعكاسٌ لقناعتي بأني بريءٌ لم أفعل شيئًا، فكما ترْفض النفسُ أن تُوضع على قوائم المذنبين يرفض الجسد أن يطأَ أرضهم، لهذا زهدت في أرض العنبر رافضًا أن أقتطعَ من بلاطهِ ما لا أستحقه. الْتِصاقِي بالباب أمرٌ نفسيٌ بحت، وابتعادي عنه لا يعني إلَّا اقترابي مما لا أريد أن أكونه، أن أصبح سجينًا حقًّا، ليس اسمًا فقط بل معنىً أيضًا، أن يستقر في صدري دون أن أشعر أني هنا لأدفع ثمن جرمٍ ما، سواء ارتكبته أو لم أرتكبه، لن يصنع هذا فارقًا مع الأيام، فمع الوقت ستتوَحد الأضداد، وتنطمس التفاصيل، فلا يتبقى على السطح إلَّا العناوين بالخط العريض أن أنت مسجونٌ يا زين وانتهى الأمر، كالعشرات هنا.

تمر أيام تلو الأيام، حتى بدت بطولها وتوانيها كيوم واحدٍ مرير كئيبٍ مُتَّصِل، ولم تأتِ انفراجاتُ الباب، على كثرتها، لا بخيباتٍ أو بشاراتٍ، أسأل الشرطيَّ عدة مراتٍ عن جديدٍ بشأني، فيجيبني وهو ينادي على البلدية أو يسلم البعض أماناتهم بأنه مثلي؛ حبيسٌ بهذا المكان، لا حول له ولا قوة، ولا يعرف أكثر مما أعرف، وإذا ما أتته أخبار فلَنْ يضن بها عليّ بكل تأكيد.

هَزل جسدي، وَوَهنت صحتي، ولا أعلم كم من الوزن خسرت تحديدًا، فقط وجدتُّ زيَّ السجن قد أصبح واسعًا فضفاضًا حتى صِرتُ أقلقل فيه كالجرس، راعني أن رسمة القفص الصدري وضلوعه بعد خمسين يومًا من قِلَّة الطعام بدأت تبرز واضحة أسفل الجلد، وكذلك عظام الفكين على جانبي الوجه، كتفاي أصبحا مُدَبَبَيْن إذ برزت عظامهما. أحد الكتفين - الأيمن - كسته رقعةٌ داكنة من طول الاتكاء إلى حديد الباب. عندما يزيد الوجع كنت أفرش الغطاء وأتمدد فوقه، أحاول أن أفيق قبل أن تبدأ البلدية بالمسح والغسيل كل صباح، وإلَّا تَسَربت إليَّ المياه بما تحمله من طين الأقدام ووسخ البلاط، وقبل أيضًا أن يأتي الإفطار وإلا تلقَّى جسدي لكزات المتدافعين على صواني الطعام.

بعد سبعين يومًا لم أعد أسأل أو آمل، ولم أعد أقطع العنبر ذهابًا وإيابًا من التوتر وإلحاح الأسئلة، استسلمت لمصيرٍ أسود بات في الأفق، فربضت مكاني حيث أنا، حتى صرت ككومة لحمٍ ملقاة بجوار الباب، لولا أن ظهرت أطرافي من تحت الغطاء لما فطنوا أن تلك روحًا وليس كيس قمامة.

في ذلك اليوم اقترب مني سالم، اتزَّن على ركبتيه، قبل أن ينفذ إلى عينيّ اللَّتَين غاصتا في بروازين من السواد:

- زين.. اسمعني جيدًا.. صدقني لن يفيدك الانتظار هنا بشيء، ولن تجني منه إلَّا إيذاءً لنفسك، وأن تنتظر في الزنزانة هو أفضل من مكوثك هنا بأيه حال، سأتحدث إلى رشيد.

لم يعد بي ترفٌ للرفض، أو وسعٌ للمجادلة، نزلت على رأيه قسرًا وقبلت عَرْضَه، تحدث هو إلى رشيد فاشترط الأخير أن يكون معي نقودًا، هكذا أعطيت لسالم ثلاثين نقدًا مقابلَ مترٍ ونصف المتر بزنزانته.

عصر ذلك اليوم لملمت حسيرًا ومُنكسرًا حاجياتي من جوار الباب؛ المنشفة، وفرشاة الأسنان، ونصف قطعة صابون، ورغيفين من الخبز كنت قد ظفرت بهما لأجل طعام العشاء، أكْتب في ذلك سطر النهاية لصبرٍ لم يدم أكثر من ثمانين يومًا. جررت قدماي ثقيلًا إلى زنزانة سالم، دلفتها مُلقيًا السلام على من بها، كانت وجوه معظم الموجودين مألوفةٌ لي، كما أن وجهي مألوفٌ لهم، يعرفونني منذ كنت أعبر بهم طوال الأسابيع الماضية سؤالًا على سالم. اصطفيت ركنًا وضعت به حاجياتي، وأقعيت بجوارها جلوسًا، لم أتكلم مع أحد، كما لم يُحدثني أحد، فقط أسندت رأسي إلى الحائط، وأغمضت عينيَّ وأذنيَّ عن كل شيء.

***

زنزانة سالم كانت كباقي الزنازين، غُرفةٌ من ثلاثة حوائط، وواجهتها هي القضبان المُطلّة على الممر، في زاويتها اليسرى كان الحمام الذي اصطفَّت بجواره زجاجات بدا أن سوائلها جاهدت قدر الإمكان للحد من طَفحان رائحته على زنزانةٍ بها بضعة عشر رجلًا ينتهكون عرضه يوميًا. الأرضية افترشت أغلبها ببطاطين قديمة وأوراق جرائد، بالرُكن الآخر يربض الموقد الحجري لإعداد الطعام والشاي وهو عُهدة سالم في معظم الوقت. هناك أيضًا تليفزيون قديم لا يبثُّ إلَّا قناتين بالكاد..

شكرت سالم على مكان الزنزانة، لكني لم أُخفِ عليه عتابي على كَمْ النقود التي دفعتها، لمْ يتبقْ لي الكثير حتى الأسبوعين القادمين. فقال لي على لسان رشيد مُحَلِّلا نقوده: أني قد جئت على الجاهز بعد أن أنفقوا على الزنزانة ما أنفقوه، ونظفوها وهذَّبوها وشذَّبوها، وتعبوا في تجهيزها بهذا الشكل؟

- بهذا الشكل!

أقولها وأنا أجول ببصري مُستكشفًا أوجه الإنفاق: سقفٌ مُشقق، وتليفزيون متهالك، وورق جرائد، وحوائط نشعت المياه في جوانبها، سبحان الله النصب لا يتوقف في أي مكان.

- لا تنس أن هناك كراتين للجُبن، تستطيع أن تأخذ منها ما تشاء.

لا أعلم إن كان يمزح أم لا، لكني لم أُطِل في اللوم أو العتاب، فلم أكن أريد أن أبدو له جاحِدًا، أنا ممتنٌ له على توسطه لي في هذا الأمر بالذات، وعلى مُساندته لي عمومًا طوال الأسابيع الماضية، وإن كان لا يمكن إغفال أن الأمر بشكلٍ كبير ينطوي على كثيرٍ من الاستغلال، فكما علمت لاحقًا أنه من حق أي فردٍ بالعنبر أن يدخل أي زنزانةٍ دون اعتراض من أي شخصٍ كان، لأن الزنازين ليست ملكًا لأحد، لكن بطريقةٍ ما، وبالجَبرِ، أصبح الأقدم في الزنزانة هو المتحكم فيها تقريبًا، وكأنها تصير مِلكه بوضع اليد، يتعاقب عليها السجناء فيتعامل معهم وكأنها فندقه الخاص، وهم مجرد ضيوف، ادفع: تقعد، لا تدفع: اتكل على الله مع السلامة. هكذا استحدثوا تلك البدعة "اشتراك الزنزانة" والتي أصبحت فيما بعد سِلْوًا مُتَّبعًا في هذا العنبر وباقي العنابر كلها.

عدد أفراد الزنزانة كان أربعة عشر شخصًا، وكنت أنا الخامس عشر، من الحكيّ عرفت أن قصص معظمهم في سكك الظلام تقليديةٌ إلى حدٍ كبير، إنها التجربة التي يكون بدايتها فضولٌ، ثم فضولٌ يؤدي إلى التعاطي، ثم التعاطي الذي يؤدي إلى السجن، في أفق كل قصةٍ يلوح رفيق سوء، أو شلة ضائعة، وأحيانا مآساة هرب صاحبها من بؤسها ليمحق وعيه بالدخَّان والكيف.

وعلى كثرةِ ما سمعتهُ من قصصِ الموجودين إلَّا أن هناك قصةٌ واحدةٌ، لم تُحك أمامي، أو تُروَ لي، هي قصة ذلك الساكت الذي كان يتقوقع في هذا الركن، كسيرٌ كأشد ما يكون الانكسار، حزينٌ كأقصى ما يكون الحزن، لا يتكلم مطلقًا.. عمَّار..

ففي ظهيرة أحد أيام السبت، وحين كان رشيد يتلقى قصاصات الورق المُدَوَّن بها طلبات أفراد الزنزانة قبيل ذهابه إلى الجمعية، دنا منه عمَّار بخطواتٍ بدا في تثاقلها وكأنه فكَّر قبلها ألفَ مرة، قبل أن يمدَّ يده إلى رشيد بقصاصةٍ لم يُعِرها الأخير انتباهًا، فلوَّح عمَّار بيده أكثر مُنبِّهًا، فتوقف رشيد لحظة عمَّا يفعله، قبل أن يمسك اليد الممدودة، ويردَّها إلى صاحبها لتلمس صدره:

- نقودك أولًا.

- أدفع لي وفي المرة وفي المرة القادمة ســ...

قاطعه رشيد وهو يقرأ قصاصة أخرى:

- لا مرة قادمة ولا غير قادمة، ليتني أكفي نفسي كي أدفع للآخرين.. أنت.. نقودك لا تكفي.. زِدْ نَقْدَك..

- ماذا إن قلت لك أن هناك أمانات ستدخل لي بعد أربعة أيام؟!

- ماذا إن قلت لك أنه لا أمانات تأتيك منذ أربعة أشهر!

همَّ عمَّار بالكلام لولا أن تلقى دفعةً من أحدهم: يا أخي قال لك ادفع أولًا، ألَا تفهم، غُر وأفسح مكانًا لغيرك.

تراجع عمَّار ليجلس بجوار ذلك الذي لا يطيق نفسه فلكزه ليبتعد، فانزاح عمَّار نصف مترٍ آخر ليزيحه ثانٍ، ثم ثالث، قبل أن يقوم من فوره اتقاءً لشرور كل من حوله، ليجلس بجوار الحمام كما كان.

كان عمَّار في منتصف الثلاثينات، نحيلٌ نحول البؤس والهم، شعره قصيرٌ مجعدٌ، بَهِتَ سواده حتى مال بطريقة لا أفهمها للاصفرار، ومن قلة العناية به صارَ كقشٍ مقصوف، غائر العينين شاحبهما، تلتمع بمنتصِفِ كلٍ منهما الحدقة كثقبٍ صغيرٍ تائه وسط كهفين مهجورين.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها عمَّار يُعامل بتلك الدونية، وليس من رشيد فقط، بل من كل أفراد الزنزانة، فلسببٍ لا أعلمه كانت مُضايقة هذا الرجل عملًا مشتركًا جليلًا بين كل الموجودين. فَرْشَته كانت بجوار الحمام، أو هكذا جُعلت، حيث أدوات التنظيف والمُطهرات، وهو مكانٌ يعاف الكُل

عن الجلوس إليه، أو النوم ناحيته، لأن الجالس هناك يصبح مَطيةً للمتتابعين على الحمام دخولًا وخروجًا طوال الوقت، مُستقبلًا ما يجود به الحمام من صوتٍ وصورة، ورائحة أيضًا.

يجلس عمَّار مُنكسرًا طوال الوقت لا يتكلم، فلا يُحدِّثُ أحدًا ولايتحدث إليه أحد، لا يخرج من الزنزانة إلَّا نادرًا، فخروجه يعني أن تُنتهك فرشته وحاجياته من قِبَلِ أفراد الزنزانة، بعثرةً وإتلافًا، لن أنسى تلك المرة التي تَوسَّع فيها أحدهم في نشاط إهانة عمَّار فرَفَس بحاجياته إلى الممر لتنتهكها الأقدام دعكًا ودهسًا، لم يكن عمَّار بالزنزانة حينها، ولم أكن أعرفه جيدًا، فقط تصورت أن صاحب تلك الأشياء لو جاء ووجدها بهذا الشكل فستقوم مشادةٌ عظيمة، وكان ذلك حين توقفت - من بين عشرات الأقدام المارة - قدمان، انحنى صاحبهما في خنوعٍ مُلَمْلمًا - بعاديةٍ مؤلمة - فرشاة أسنانه، ومنشفته، وأدويته، ومن الصابونة التي اندهس معظمها راح يستخلص منها ذلك الجزء الصلب المتبقى، قبل أن يضع كل هذا في الكيس من جديد، ويدخل الزنزانة في سكوت.

لم يكن عمَّار مدمنًا، أو مخبولًا، بل كان شخصًا عاديًا جدًا، لكن بلا حولٍ ولا قوة، يتلقى الإهانة تلو الأخرى فلا يُدافع ولا يُعقِّب، ينطوي على نفسه بركن الحمام، لا يتكلم ولا يلتفت، وكأن ما حوله يدور في عالمٍ آخر وبُعدٍ آخر.

اختلف أفراد الزنزانة على أشياءَ كثيرة، لكنهم، لسببٍ ما، اتفقوا على التنكيل بعمَّار..

***

عصرًا جاء رشيد محمَّلًا بالأكياس من الجمعية ووزع منها كلٌ حسب قصاصته، أعطاني أقلامًا وأوراقًا كنت قد طلبتها منه بالإضافة إلى بعض حاجيات النظافة الأخرى، تناول سالم أيضًا حاجياتٍ تخصه وأكياسًا تخص طعام الزنزانة، فتح بعضها فورًا وصبَّ على القدور المغلية حتى تعاظمت رائحةٌ راح يتذوق مع بُخارها ملعقةً أو اثنتين ليعرف جيدًا ما قد ينقص من مقادير..

وُضعت القدور على الأرض بمنتصف الزنزانة، فأتينا بأطباقنا وتحلَّقنا حولها..

مدَّ عمَّار ملعقته وغَرَف، لكن الملعقة توقفت في منتصف الطريق، يد رشيد أمسكت بالمعصم:

- مهلًا مهلًا، ماذا تفعل؟!

نظر إليه عمَّار نظرة من يعرف ذنبه، فتابع رشيد:

- أَكل أَكل أَكل.. الأَكل هو كل ما تجيده.. أَرِنا نقودك! مساهمتك في الطعام والزنزانة، أنت لا تدفع شيئا مطلقًا، لقمتان فقط ثم اتكل على الله.

رفعنا أيدينا جميعًا عن الصواني مُفسحين المجال لعمَّار الذي امتدت ملعقته لتغرف كومةً كبيرة ضَخَّها بفمه، قبل أن يدسّ الملعقة مرةً أخرى لتخرج هذه المرة بكومةٍ أكبر، راح بعدها يجول في وجوهنا للحظة مستجديًا، لكن الكل كان قد بدأ يُكمل طعامه في سلام، فانسحب من فوره إلى مكانه المعتاد تُشيعه نظرات رشيد غيظًا وشذرًا، نظرت إلى سالم فوجدته يأكل في هدوء دون أن يعيرُ الأمر أي اهتمام.

***

- قلتها لك قبلًا يا زين.. لا تحمل همَّ أحدٍ هنا.. لا تحمل همَّ أحد.. لا عمَّار ولا غير عمَّار.

قالها سالم وهو يُغرق ذلك القميص بالصابون ويفركه جيدًا - وكنا واقفين عند المسابح - قبل أن يتابع:

- العنبر كله أنطاع في أنطاع، ولو أعطيت محرومًا لما أعطى محرومًا آخر، ولو أعطيت عمَّار لما أعطى عمَّارًا آخر. هذه سمة المكان ولعنته، أنت هنا إنسان مع وقف التنفيذ، هنا تعيش لنفسك فقط، أولم يقلها لك فهد؟

- لكنك لم تَعِشْ لنفسك يا سالم، لقد ساعدتني كثيرًا، وترفقت بي، فلا أفهم سر ما تفعله مع عمَّار.

- وهل فعلت له شيئًا؟!

- سكوتك على ما يحدث له هو في حد ذاته غريب، يمكنك حتى أن تتحدث إليهم ليكفوا أيديهم عنه، فلك عندهم حظوة عني.

- ولمن أتحدث؟! - قالها وهو يشير إلى أشخاصٍ وهميين - لهذا أم لهذا أم لذاك، نحن خمسة عشر فردًا تقريبًا، ولو توددت لكل واحدٍ فيهم لأنفقت اليوم كله في توسلاتٍ وعتابٍ ولومٍ وأنا ورائي عمل.

- إذن فلماذا لم لا يتركونه لحاله؟ الضرب في الميت حرام.

فرك القميص بعصبية: ومن قال لك أنه ميت، والله إنك طيب، أتعرف ماذا كان يعمل عمَّار قبل أن يأتي إلى هنا؟

- نقَّاش.. بقَّال.. مدرس.. محاسب.. أو حتى سفير، فيم سيفرق عمله مع الحاصل؟!
- شرطيّ، نسيت أن أخبرك بذلك.

اندهشت وتألَّمت شيئًا عندما لمع بذهني جلوسه المنكسر، وذله الدائم..

- ما بك؟ أراك قد سكتت.
- أعني أن هل كَوْنه شرطيًا يمنح أي شخص الحق في معاملته بتلك الطريقه وإهانته؟! تهمتهم مخدرات وتهمته مخدرات، هم تعاطوا وهو تعاطى، أهم أفضل حالًا منه؟! لماذا ينتهكون كرامته ويمنعون عنه الطعام، الذل موجع، والحرمان موجع.
- والضرب موجع! من قال أنه متعاطٍ، عمَّار لم يتعاط المخدرات يومًا، عمَّار كان سجَّانًا، أقذر سجَّانٍ أتى على هذا العنبر.

***

قال سالم بعد أن أنهى قسطًا من عمله وجلس بجواري خارج الزنزانة:

- يا الله، من يُصَدِّق؟ ما كان لك أن تُذكرني يا زين.. ما كان لكَ أن تُذكرني.. ما تراه ليس بعمَّار.. هذا بقايا عمَّار..

أشار ناحية الباب:

- منذ سنوات، وعندما كان ينفرج هذا الباب عن عمَّار، كنا نجري إلى زنازيننا ونختبيء، ولم يكن هو وقتها ذلك الممصوص الذي تراه الآن لا لا لا كان سمينًا قويًّا عفيًّا، يتمشى في الممر فيرجه بصوته رجًّا، رجًّا يا زين، لو تلقَّف أحدًا في طريقه فيا ويله، يدخل ضباط وعساكر طوال اليوم إلى العنبر وكنا نتحرك بسلامٍ وأريحيه، لكن دخول عمَّار بالذات كان يعني اختفاء الجميع، فعمَّار لم يكن يرحم كبيرًا ولا صغيرًا، من يقع في يده ينال شتمًا وضربًا وتعليقًا في الطرقة، يشتم بأبشع الألفاظ وأحقرها، وينال من كرامة الكل.. وذلك حتى أتى ذلك اليوم..

ينفث سالم دخان سيجارته بعُمق:

- اليوم الذي شاءت الأقدار تواجد هذا الشخص بالذات في نفس اللحظة التي دخل فيه عمَّار إلى العنبر.

أشار سالم بسيجارته إلى شخصٍ ما، في آخر الممر، كان في أوائل الأربعينات، سمين، قصير، أسمر البشرة، يضحك بقوةٍ مع آخرين تحلَّقوا حوله..

- جابر؛ أحد أكبر تجار المخدرات هنا وأخطرهم، ذا سطوةٍ وشهرة وفوق ذلك محبوب من الكل.

تابع: دخل الكل إلى زنازينهم هربًا، ما عدا صاحبنا هذا الذي ظلَّ واقفًا غير عابيء، صرخ فيه عمَّار فلم يستجب، صرخ فيه مرةً أخرى فلم يستجب، فما كان من عمَّار إلَّا أن أتى بتلك الفِعلة التي ندم عليها طوال عمره..

تابع سالم: صفعةٌ! صفعةٌ بمائة صفعة! هوت على جابر كالسوط لينظر من بعدها لعمَّار نظرةً لن أنساها، ولم ينسها أحد، قال له أن بحق تلك الصفعة سنري من سيُدخل الآخر إلى تلك الزنزانة.

أشعل سالم سيجارة أخرى، ونفث دخانها:

- ثم تمر الأيام تلو الأيام، ويُفتح باب العنبر كما يُفتح في اليوم عشرين مرة، لكن هذه المرة عندما فُتح لم يصدق أحدٌ عينيه، كان هذا هو عمَّار، لكن هذه المرة ليس بزيِّ الشرطة، بل بزيِّ السجن، مدفوعًا للداخل بأيدي زملائِه، عندما أُغلق الباب تسمَّر مكانه وكأنه أُلقيَ في قفصٍ للأسود، لم يتحرك، ولم يبرح الباب، فجلس بجواره منكمشًا، تزوغ عيناه بين الجميع، ينتفض إذا ما اقترب منه أي شخص.. وكان ذلك حين اقتربت منه تلك القدمان..

- جابر!

- قال له تلك فقط قرصة أذن وأقسم بالله لو أن عينيَّ التقتا بعينيك في هذا العنبر، أو في أي مكان، فكما أضعت مستقبلك سأضيع ما تبقى من ذكورتك، ستتمنى يا ابن الـ (...) ويا ابن الـ (....) لو لم ترني في ذلك اليوم.

- أمعقول؟! كان الأمر من تدبيره.

- اتضح أنه قد أوعز إلى بعضٍ من أفراد الشرطة الذين يقومون بتمرير المخدرات إلى العنبر بأن يضموا عمَّار إليهم، وكان عمَّار ممن يرفض هذا الأمر بشدة، رغم قذارته ووساخته كان يرفض، لكن لكل شيءٍ بداية، هكذا مارس هؤلاء معه أساليبهم في إغرائِه، فمنهم من كان يُريه تليفونًا جديدًا، أو يُحدِّثه عن شقة جديدة انتقل إليها، حتى أسالوا لعابه، فتقبَّل المخاطرة، فأعطوه كيسًا صغيرًا ليقوم بإدخاله في موعدٍ متفقٍ عليه، وفي اللحظة الحاسمة - فرقع سالم باصبعيه - وجد نفسه في قبضة المباحث.

- أوقع به أصدقاءه!

- بعد حبسه كان يتودد إليهم ليستوصوا به في الطعام والأغطية وغير ذلك، لكنهم تنكروا له تمامًا، وكأنهم لم يعرفوه من قبل، بل حتى أن زوجته تنَصَّلَت منه، هي التي كانت - كما كنا نسمع - تُفاخر وسط أهلها وأصدقائها بنفوذ زوجها وسلطته، كل الزنازين رفضت استقباله، لم يدخل هنا إلَّا بعد أن دفع مبلغا كبيرًا، وبرغم ذلك أجلسوه في أكثر الأماكن عفونة، بجوار الحمام، كان هذا مَنْفاه الدائم طوال الوقت، يفعلون به الأفاعيل، حتى سُلِبت منه شخصيته وانمحت تمامًا، يعيش في انكسارٍ لا ينتهي، وصدمةٍ لا يفيق منها، لا يخرج من الزنزانة إلَّا قليلًا، يخشي أن يتعرض له أحدهم خارجها، ما تراه ليس بعمَّار.. بل هذا ما تبقى منه..

أنهى سالم القصة ليتركني في أغرب حالة من تضارب المشاعر منذ جئت، حتى أني لم أشعر بقيامه من جواري منصرفًا إلى أعماله ومشاغله.

وكانت قد دخلت لي أمانات في ذلك اليوم، فقمت ودَلَفت إلى زنزانة شابٍ كنت قد تعرفت عليه قبل أيام، لفرط سمنته لم يستطع أن يعمل في النظافة أو الغسل أو الطبخ كباقي المغتربين الذي لا تأتيهم أمانات، فكان يشتري الحلويات والمخبوزات من جمعية السجن ويفرشها بزنزانته، ليبيعها بضعف الثمن أو أكثر قليلًا. عبَّأتُ الكيس بقطعٍ من الكعك والشيكولاتة وعُدت إلى الزنزانة، فأعطيت أول من قابلته واحدة، ثم أعطيت الثاني، ثم الثالث، حتى أدرك الباقون المنحة المجانية فقاموا من مجلسهم تتهافت أيديهم على ما بالكيس، الواحدة التي ادخرتها قبل النسف ذهبت بها إلى عمَّار، حين لَمَح اليد الممدودة رفع رأسه شيئًا قبل أن يتناول مُستغربًا، عدت لمكاني بينما راح هو يقلب القطعة بين يديه، كنتُ أُدْرِكُ أن شخصًا بنفسيته وانهزامه لن يقتنع أنها كما تبدو، حينَ أتاه الأمان فضَّ ورقتها ثم تناول قضمةً أراحها بين الأضراس مستأنيًا، استحسانٌ بدا في عينيه جعله يرتدي نظارته ليقلِّب في ورقة الشيكولاته باهتمام، قضم قضمةً

أخرى فعل بها مثل ما فعل بالأولى، قبل أن يُغلِّف ما تبقى جيدًا ويدسه في جيبه العلوي بحرصٍ شديد، بجوار نظارته.. قبل أن ينظر لي في تمعنٍ وسكوت.

***

في وقتٍ متأخرٍ من الليل وعندما نام الكل؛ أخرجت الأوراق والأقلام التي اشتريتها من جمعية السجن، وبدأت بكتابة رسالتي الأولى لعائِشة.

قاومت التعبير عمَّا يضطرم في صدري من حبٍ واشتياق، فقد كنت أعرف أنها - عائشة - بالتأكيد أنها لم تزل بعد في حالٍ من الاضطراب والصدمة، لحبيب قيل عنه ما لم تتخيل يومًا أن يُقال، ولحياةٍ كانت تأملها، ولأحلامٍ أضحت بين يومٍ وليلة طي الخوف والنسيان، ولذلك فإن أي تعبيرٍ عن مشاعري الآن لن يعبر حائطها هذا، حائط الخوف والصدمة، هكذا أرتأيت أن أكون موجزًا ومُباشرًا في رسالتي الأولى.

أوضحت لها بدايةً أني ليس كما سَمِعَت أو عَرِفَتْ، وأني لم أفعل أيًّا مما يكون قد وصلها عني، وأن ما حصل كله إنما هو محض كيدٍ أو التباسٍ في أمورٍ إجرائيةٍ وأوراق، وهي أمورٌ تحدث في كل الدنيا، وأني لم أخدعها إن كان هذا ما ذهب إليه عقلها، أو ربما أُوحي لها به، فكيف آتي بهكذا جُرم وأنا مقبلٌ على الحياة معها، الحياة التي تخيَّلناها ورسمنا تفاصيلها سويًا، وعدتها أن كل ذلك سيتم حله في أقرب وقت، إذ أوكلت أكبر محامٍ في البلاد وهو يسعى في هذا الأمر الآن بكل طاقته وخبرته، ولا أطلب منها سوى الصبر والانتظار، وأنه عندما يأذن الله لي بالخروج سأشرح كل شيء، وسأبرر لكل ما حصل، وأني في النهاية أحبها وسأظل، ولن أفعل شيئًا منذ تلك اللحظة سوى انتظار الرَد على رسالتي تلك بفارغ الصبر.

- ١١ -

كان عبد العزيز فنَّانًا أو هكذا كان يَعتَبِرُ نفسه، لم أكن أَرَاه في أغلب الأوقات إلَّا وهو يرسم بركن زنزانته، حيث صفحاتٍ بيضاء تنتظر، وأخرى لم تكتمل، وصندوق خشبي ترتاح بداخله الفرشات والألوان ولوازم العمل. وهو في أثناء فعله المقَدَّس هذا لا يلتفت لأحد، أو يأبه بأحد، بل وحتى مع الصخبِ والشجارات والمناوشات فوق رأسه، وبجواره، وخلفه، لم يكن حتى يرفع طرفه، فقط ينكب على أقلامه وألوانه وصفحاته ليخط ويلون ويُعَدِّل بصبرٍ وشغفٍ نادرين.

والرسومات نفسها كانت غريبة وعجيبة، وإن كانت تتسقُ مع كل عجبٍ يأتي به المكان، شموسٌ خضراء تخرج من بحارٍ عاتية الأمواج، جنيَّات يرقصن حول نارٍ تحترق فيها أخريات، أشخاص برؤوس أفيال يقرأون من كتاب، ومغامرون يتسلقون جبالًا تغوض قممها في قدورٍ وحللٍ سابحةٍ بالفضاء، ونساءٌ بعضهن كاسياتٍ لكن الأغلب عاريات، إحداهن كانت مرسومة على جدار الزنزانة نفسه، شعرها مسترسلٌ كموج البحر من أول الجدار لآخره، يقول أنها تُبعثُ ليلًا، لتحادثه ويُحادثها، تُسامره ويُناغشها، لكنها أبدًا لم ترض أن تمارس معه فعل الحب. يتعامل مع زنزانته كمعرضٍ مؤقت، حيث تتوزع رسوماته على جدرانها، سعيدًا بالمديح على قلته، ومُنْطَرِبًا بالمجاملات التي يستحلبها ممن حوله، فرسوماته - رغم تواضعها - إلَّا أنها كانت تعني له الكثير والكثير، لكنها لم تكن تعني لمن حوله إلَّا رُقَعًا ملونة تُوَاري قذارة الجدران ومياهها الناشعة، فلا أحد في المكان - كما يقول - يُقَدِّره حقَّ قدره.

- ألهذا أسمعه دائمًا يقول أنه عندما يخرج سيمتلك مرسمه الخاص ومعرضه الخاص وأن العالمية تنتظره وكل تلك الأمور ؟! أسأل سالم.

ضحك: أي نعم يقول، هكذا يقول، لكن أي معرضٍ وأي مرسمٍ وعقوبته خمسون عامًا أو تزيد، لو كان سعيد الحظ وخرج من هنا فسيكون إلى مدافن أسرته وليس المعارض والمراسم.

- خمسون عامًا!

ضحك أكثر: وربما تكون زادت عامًا آخر أو عامين أثناء حديثنا هذا.

- ولم كل هذا؟! أكان واحدًا من هؤلاء التجار؟
- لا لا.. تعاطي ثم تعاطي ثم تعاطي، مسطول لا يعي ولا ينتبه مهما أخبرناه وحذرناه، تأتي الشرطة فيُقسم لها أن ليس لديه شيء بينما فرشاته بيد وحشيشه باليدِ الأخرى.

يميل عليَّ سالم: يدمن خلطةً اسمها عين العفريت، تشيط لها الدماغ شيُّطًا، فتصل بصاحبها إلى مستوياتٍ خيالية من النشوة الدائمة وطول الأمل، وربما هي التي تدفعه لرسم غرائبه، وبالمناسبة لا تقل أمامه "رسومات" فربما يقتلك على تلك اللفظة.. اسمها لوحات.

وفيما تمضي الأيام على عزيز هائمًا في عوالمه وعفاريته، وحالِمًا بأمنياته المؤجلة، يدخل هؤلاء الثلاثة إلى العنبر كإيرادات جديدة، قبل أن ينضموا إلى زنزانته لأنهم كانوا على معرفة ما بمسئولها، حين رأوا اللوحات سألوا، فأشار البعض لعزيز الذي نفض عنه فرشاته وألوانه، مستأذنًا من امرأةٍ لم يُكتب لها الستر بعد، ليرحب بضيوفه، ويجيبهم شارحًا المغزى والمعنى في كل لوحة، متلقيًا في ذلك الإطراء بسعادةِ طفل صغير، قال له أحدهم في النهاية وكان سمينًا أصهب، بأن أخيه يعرف بعضًا ممن يعملون في الجرائد والصحافة، ومن الممكن الاستعانة بهم ليتم نشر بعضًا من تلك اللوحات فتجد بذلك طريقها إلى الذواقة والمهتمين الحقيقيين.

- فعلًا! أممكن يا سيدي؟! يسأل عزيز مُنتشيًا.
- هذا أقل ما تستحقه، بل وقد تسافر إلى المعارض والمحافل.
- خارج البلاد! ويراها كل الناس وما إلى ذلك، أليس هذا ما تقصده يا سيدي؟
- بالطبع، أوروبا وأمريكا مثلًا، فلوحاتك تحكي الكثير الكثير، وبها أكثر مما لم تخبرنا به، هناك ستلقى ما تستحقه، سأعطي لأخي بعضًا من لوحاتك في زيارته القادمة.

ابتهج عبد العزيز بهجةً عظيمة، وانتشى بالكلام إلى مستوياتٍ عجزت عنها أعين عفاريته، استلقى على فرشته ليلتها ناظرًا إلى حبيباته بحبٍ وتقدير، قبل أن ينام مُتخمًا بالأحلام والأماني، لكن الأحلام والأماني لم تكن إلَّا لتلك الليلة فقط، لأنه عندما استيقظ ودَّ لو لم "يستيقظ"، فأيًّا من لوحاته لم يكن بمكانه، همَّ

ليسأل جَزِعًا، لكنه لم يَحْتَجْ إلى السؤال، كما لم يحتج قطعًا إلى الجواب، فالمصير الأقبح كان ماثلًا أمام عينيه، فالشموس التي تغوص في البحار مُسِحَت بها أكف وأفواه أولئك الذي انتهوا لتوهم من الأكل، وجنياته الراقصات كن ينظفن مؤخرة ذلك الذي خرج للتوِّ من الحمام، ومغامروا الجبال لقوا حتفهم تحت أجساد الذين اتخذوا من اللوحات فرشاتٍ لهم، أما نساءه فكُنَّ شافيات الجذوة في أجساد الكُل.

لم يصدق عزيز عينيه، فانقض على الثلاثة كالمجنون، يُخَلِّص من بين أيديهم إرثه المتداعي، فتلقفونه ضحكًا وسخريةً واستهزاءً، ناوشوه باللوحات لتي لفوها كالأقماع والقراطيس، شخبطوا على خطوطه لتتغير معالم الرسمة إلى بذاءاتٍ أثارت ضحكهم أكثر وأكثر، كسروا أقلامه وأتلفوا ألوانه وكبُّوا صندوقه، ضاجعوا فتياته أمام عينيه، تنافسوا على إغاظته: "لقد صدق، الأبله صدق أن هناك معرضًا ينتظره".. "أي معرض ينتظر هذا الهراء والزبالة".. "يقول أوروبا وأمريكا".. "إذن ها هي أوروبا وها هي أمريكا".. خلع الأصهب بنطاله وبال على حبيبة الحائط بطول شعرها هاتفًا أن ما أمتع التسلية بهؤلاء المخبولين والبلهاء، فارتمى عليه عزيز في تلك اللحظة صفعًا وخمشًا فما كان من الأصهب إلَّا أن طوقه معتصرًا جسده قبل أن يرفعه لأعلى ثم يهوى به أرضًا ليتقرقع العظم منبطحًا بلا قيام.

- ماذا فعل لهم حقًّا ليفعلوا به ذلك؟! حقًّا ماذا فعل؟!

قلتها لسالم بعد أن قام مع البعض بفضِّ الأمر، وقمت مع آخرين بجمع ما تبقى من اللوحات والأدوات إلى جوار عزيز الذي انزوى على نفسه متوجعًا، شاخصًا، مصدومًا، لا يتكلم، حتى بدا وكأنه فقد النطق للأبد.

- هذه هي مشكلة الإيرادات الجديدة دائمًا وأبدًا، ما أن يأنس أحدهم في نفسه شيئًا من القوة حتى يستقوى على هذا وذاك ليحجز مكانه في قائمة العتاة والكلاب، ومُنبهًا الموجودين أن أنا موجود اعملوا لي حساب لو سمحتم.
- ألم يجدوا إذن غير هذا المسكين ليؤذونه ويتسلوا به بتلك الطريقة؟
- وللأسف هذه هي المشكلة الثانية للإيرادات الجديدة، تخدعهم المظاهر، فيخونهم حدسهم في التفريق بين المسكين وغير المسكين، فلا يفيقون إلَّا على الكارثةِ تحلُّ بهم.

لم أفهم ما الذي كان يقصده سالم بجملته الأخيرة تحديدًا! كما لم أفهم لم أصرَّ المسئول على إخراج الأصهب ورفيقيه من الزنزانة، لأنه - كما قال - لن يقدر على المشاكل التي ستحدث! وأيضًا لم أفهم ما صار يتناقله الناس عجبًا بأن أي فعلةٍ حمقاء قد ارتكبها هؤلاء الثلاثة وأي ثمنٍ ذلك الذي قد يدفعونه جزاءً لما جنته أيديهم! كل هذا لم أفهمه إلَّا في اليوم الثالث، حين انفرج باب العنبر.. عن بابٍ آخر؛ جدارٌ بشريٌ دَلَفَ بأناةٍ وثقة، ضخمٌ كأبطال المصارعة، زاخرٌ جلده بالمخالب والنمور وأوشامٍ لم تزهد إلَّا في أشبارٍ قليلة، لحيته قصيرةٌ هرمية الشكل، شعره طويلٌ لامس الكتفين وبعضه تضافر أمام عينيه، لتبدو العينان وكأنهما تتلصَّصان من وراء خصاص شباك، خلفه دلف آخر، لم ألحظه في البداية، كان أصغر حجمًا، ولكن بدا أقل أناةً وأكثر تحفزًا، معروق الساعدين، نافر العصب، مشدود الصدر، حتى بدا وكأن أحدًا شَكَّل عوده للتوِ بالحديد والنار.

- أولم تسألني يومًا عن العصابات والمجرمين الحقيقيين؟ همس سالم.
- من يكونان؟
- أخوي المسكين.. أو الذي كنت تظنه مسكينًا.
- هذان؟!
- الأدهي أنهما الأصغران، ساجِد وعلي، هذا الضخم ذا الأوشام هو ساجِد وهو الأخ الأوسط، أما الآخر فهو علي.. الأصغر.
- وأين كانا إذن؟
- في عنبرٍ آخر، فكما قلت لك أن الشرطة تعمل على توزيع المجرمين كل بضعة أسابيع حول العنابر بشكل دوري لئلَّا يتمركزوا جميعهم في عنبرٍ واحد فتصير المشاكل.
- وماذا قد يفعلان؟

لم يرد وضحك..

ويبدو أن الأصهب قد أدرك للتوِ أي ورطةٍ قد أوقع نفسه بها، وأي طامةٍ قد تنزل على رأسه في أية لحظة، لهذا انضم وصاحباه إلى زنزانة بها نفرٌ من قبيلته، يعتزي بهم سرًا ويستقوي بهم جهرًا، يلازمهم أكلًا

وشربًا، سمرًا وسهرًا، صحوًا ونومًا، وما بينهم، ألمح إليه البعض بأن يعتذر لكنه أبى واستكبر، فأي اعتذارٍ هو الذي بدأ للتوّ ببناءٍ سمعته في المكان، مجاهِرًا ومتوعدًا بأنه سيذيق الكثيرين من البُلهاء مَرارًا آخر فوق مرارهم، خصوصًا بعد أن صار الناس يتحاكون بما فعله بالرسام المسطول، ووسط هذا كان الأخوان هادئين تمامًا، يتحركان في العنبر بأريحيةٍ حتى شكَّ الناس بأنهما لا يعرفان شيئًا، أو يعرفان ولا يعبئان، أو يعبئان ولا يقدران، حتى ذات مساءٍ أخبرني نوَّاف هامسًا بعد أن عسَّ في العنبر بأن ساجِد سيفعلها، سيقتنص الوغد من عزوته التي لا يُفارقها، هو فقط يبحث عن اللحظة الحاسمة.

واللحظة الحاسمة أتتني بعد يومين.. حتى عندي.. بنفسها وحَسْمِها.. حين كنت استحم.. بقعةٌ حمراء! تسرَّبت من أرضية المسبح المجاور حتى لاذَت بقدمي، ظننتها في البداية منظفات البلدية أو رغاوي صابون، لكن تلك الصرخة المكتومة جعلت للأمرِ شأنٌ آخر.

طِرت من مسبحي وأنا أتعثر محاولًا ارتداء البنطال، رميت نظرة على المسبح المجاور لكني لم أجده، اختفى وكأنه لم يكن، وآخر ما لمحته كان ذلك الضخم - ساجِد - يطوق بذراعيه ذلك الذي غُوفِلَ أثناء استحمامه محاولًا التملص من ستارة الحمام.

"تعال.. تعال يا زين"..

هتف بها سالم فجريت إلى حيث كان يجلس مقرفصًا إلى موقده يقلب الطبيخ أمام الزنزانة.

- ماذا يحدث؟! ألن يتدخل أحد؟! لقد رأيت دماء، هناك دماءٌ عند المسبح.

قلتها والتفتُّ إليه، فوجدت ملعقة طبيخه تهاجم وجهي: ذُقْ وأخبرني.

لم أرد بهتةً، فعادت الملعقة إلى فم سالم الذي حمل وجهه ابتسامة ذلك الذي على وشك مشاهدةِ فيلمًا يحبه، ويبدو أنه لم يكن وحده كذلك، فالعشرات نفروا من زنازينهم جماعاتٍ ليتحلقوا حول الحدث المثير، متصارعين على الصفوف الأولى دفعًا ولكزًا، إذن فذلك النوع من المشاجرات له الحظوة الأكبر عند الجميع، ويبدو أنه التسلية الأفضل على من تمضي أيامهم هنا بلا فعلٍ ولا عمل.

وكانت الأصهب قد بُوغِتَ من المفاجأة، بعد أن فضَّ عنه رفيقاه ملاءة المسبح، وانضما إليه بمواجهة ساجِد وعلي، معركة حدسنا فيها الغلبة منذ اللحظة الأولى، فالأصهب بدا مرتابًا من الاشتباك، فتقافز حول التل الواثق يناوشه مُختبرًا، إلَّا أن كل مناوشةٍ كانت تُرد له بضربةٍ كالصاعقة، كف ساجِد يهوى كالإرزبة، على الرأس أو الظهر أو الكتف، فيلف هذا دائخًا ولا يستعيد ثباته إلَّا بعد ثوان، فيحاول من جديد ليُباغت من جديد، أما علي فكان يتقافز بخفه بين رفيقي الأصهب الآخرين، ينتشهم بضرباتٍ سريعةٍ خاطفةٍ، في أسفل الرقبة، في أعلى الصدر، بين الفخذين، بتمرسٍ دام لسنوات، الأصهب ورفيقاه لم يَحروا منطقًا في مجاراة هذين الاثنين، تتطوح أجسادهم وتترنح وتتخبط والناس في ذلك يزيد صياحهم ويعلو تشجيعًا وكيدًا ودهشةً، تهافت الناس أكثر وتلاحموا فسبَّ سالم بعد انسدت الفُرجات الضيقة التي كان يتحينها للرؤية، وسَبَّ أكثر حين انكبَّ الطبيخ على ملابسه في غفلة المتعة. قبيلة الأصهب كان أفرادها يتفرجون وسط الناس ويتبادلون النظرات حيارى لا يدرون ما قد يفعلون.

- لم لا يتحرك أحدهم؟! سألت سالم وعيناي لا تفارقان ما يحدث..

- ومن يجرؤ؟ انظر.

أشار بملعقة الطبيخ إلى أشخاص بِعينهم، مُندسين وسط الجموع، بعضهم كان فحلًا كالجدار والآخر كان قصيرًا هزيلًا كالقرود، يتفرجون بعين، ويَعُسُّون بالأخرى، فيحرسون المباراة من الدُخلاء، ويدرأون التدخلات في مهدها، متأهبين للتدخل الشامل إن لزم الأمر، تحت أكمامهم توارت أشياءٌ لامعة، بدت كأنصال السكاكين[10].

- العصابات التي كنت تسألني عنها! ها هي أمامك بشحمها ولحمها، عصابة علي وساجِد.

في لحظةٍ ما انفرجت حلقة المُشاهدين تلك لتفتح طريقًا لعلي الذي انطلق بكل عزمه وهو يجرجر الأصهب النازِف إلى منتصف العنبر، قبل أن يُفلته مسجيًا إلى جوار رفيقيه اللذين تم جرهما بنفس الطريقة، دلف إلى زنزانة أخيه الذي لم يزل مُلتاثًا بركنه منذ أيام، عاد به وصرخ أن "خذ ثأرك"، لكن

---

[10] يكسرون ريش مراوح السقف، فيقومون بسَنِّ أعلاه ليصبح في حدة النصل، وتشكيل أسفله بالنار ليصبح كالمقبض.

الحزن كان أكبر في القلب من أي انتقام، فرمى المكلوم نظرةً وولى عائدًا حين شَدَّه علي مُكرِّرًا أمره، فعاجله عزيز بصفعةٍ شهق لها الكل دهشةً، ليمسكه علي من تلابيبه شجارًا، لولا أن فضَّ بينما رفاقهما في لحظة، انسحب عزيز إلى زنزانته، فعاد علي إلى الأصهب وركب على بطنه، وظل يضربه بعزم قوته في أنحاء وجهه، وهو يسبه بأسوأ الألفاظ وأقذرها حتى صار الناس يسألونه الرفق والرحمة.

هبَّ علي مغرورقًا في العرق والاحمرار بعد أن برزت عروقه ونفر صدره وكأنه خرج للتوِ من فرن صهر، بين قدميه استقر الأصهب، بلا حولٍ ولا قوة، مجدوع الأنف، متورم وجهه، مكدوم الصدر والساعدين، أما رفيقاه فقد كانا منبطحين بجواره، شاحطين في إصاباتهما، بعد أن فقدا القدرة على الحركة أو حتى الأنين.

انفتح باب العنبر ودخل جمعٌ من رجال الشرطة، سحبوا علي وساجِد اللذين تمشيًا طوعًا إلى الخارج، جرجروا الأصهب الذي لم يتحرك سوى زحفًا على قدميه، فيما حُمل الكسيحان الآخران على سريرين طبيين، شرطيٌ آخر رافق عزيز بسلامٍ إلى عنبر ٨، بحسب طلبٍ قد قدمه لمكتب الشرطة قبل أيام وقُبل، فهو لم يعد يطيق هذا العنبر ولا تلك الزنزانة، خرج مصطحبًا معه ما تبقى من أدواته ولوحاته، فيما بدا للكل أنه سيبدأ حلمًا جديدًا.. في أرضٍ جديدة.

اِنفضَّ الناس وعاد الكل إلى ما كان ينشغل به وسط الضحك والاستغراب، وبدأت البلدية بتنظيف المكان من الحطام، وكان هذا حين جاء نوَّاف مُسرعًا:

- أرأيت يا سالم؟.. أرأيت يا زين؟.. ألم أقل لكما؟! ساجِد ثم ساجِد ثم ساجِد، ذكي ذكاء خارق، غدرة المسبح تلك سيتم تسجيلها باسمه في تاريخ العنبر، بل في تاريخ السجن كله.

أشاح سالم بيده: علام تفرح؟! على سنَّةٍ سيئة قد سنَّها في العنبر؟ كم من الغدرات ستحدث من اليوم في المسابح بسببه؟

- اسكت اسكت أنت لا تفهم شيئًا، أرأيت ما حصل يا زين؟

- كنت في قلب الحدث، ولحُسن حظي أن هذا الضخم لم يخطيء غدرته، وإلَّا كنت محمولًا على أحد تلك الأسرَّة.

ضحك نوَّاف: لا لا.. هذا الضخم لا يفعلها، بالمناسبة ساجِد بعكس ما يوحي به شكله، أخوه علي متهور وأرعن وطائش وأهوج، أما ساجِد فرغم ضخامته فبه حكمةٌ، وتريثٌ، وتدبر، طبعًا بالإضافة إلى قوته وأيضًا جرأته، تخيل أن ساجِد هو الوحيد في السجن تقريبًا، من بين مئات المجرمين والخطرين، الذي لا يُحاذي الحائط وهو في الطرقة الخارجية[١١]، لا أعرف إن كنت تعلم ذلك أم لا؟ والله يمشي إلى العيادة مُفَرْطِحًا جسده على آخره ولا يعبأ بأي مخلوقٍ كان.

- إلى العيادة! وما حاجة من في عافيته للعيادة؟ سَألت.

أجاب سالم: لديه عيبٌ خلقي في القلب فيصرفون له دواءً شهريًا.

- سبحان الله، تلك ما يُطلق عليها نوائبٌ مضحكةٌ مبكية.

دقائقٌ أخرى ثم استأذن نوَّاف ومضى، قام بعدها سالم عن طبيخه مُفرغًا تعب الأعصاب في زفرةٍ طويلة:

- حسنًا إذن، لا أعلم إن كان من الجائز أن أقول ما سأقوله لكني سأقوله، جيدٌ أن رأيت ما رأيت، كي تعلم الحاصل هنا عمومًا، وبرغم ذلك فأنت لم ترَ شيئًا، فما حصل كان غيثٌ من فيض. ساجِد وعلي، مجرمان متمرسان وعصابتهما من أقوى عصابات السجن وأشرسها، عشراتٌ عشراتٌ متشعبين في كل عنابر السجن تقريبًا، وكلا ثم كلا ثم كلا، لأني أعرف سؤالك، هؤلاء ليسوا كذلك التافه بسَّام وأوباشه، فلو أن أقلَّ واحدٍ من هؤلاء المجرمين نظر لبسَّام نظرة واحدة لتبول بسَّام على نفسه وهوى سرواله من ثقل البلل، أقول: أقل واحد فيهم فعلًا، أرأيت كيف خرجوا مع الشرطة بكل سلاسة؟ لأنه لا ضيرٌ من زيادة عقوباتهم، أتعلم لماذا؟ لأني عندما جئت منذ سنوات طويلة كانوا موجودين، وعندما نمشي جميعًا سيظلون موجودين، يُفرَج عن الواحد منهم ثم يعود بعد شهرين أو ثلاثة، لماذا؟! لأنه لم يتبق لهم شيءٌ في الخارج، لا أهل ولا أصحاب ولا عمل، هنا صارت دنياهم

[١١] من أحد أعراف السجن أن أي سجين يمشي في طرقة العنابر ليذهب إلى العيادة أو إلى زيارة أو إلى مكتب الشرطة يجب أن يلتصق بالحائط تمامًا، فلا يمشي أبدًا في المنتصف، وأن يُنكِّس رأسه في الأرض أثناء مشيه، فلا يرفع عينه أبدًا في عين شرطي.

وحياتهم وأيضًا سيكون مماتهم، ولذلك - وكما نقول فيما بيننا - الأولى لك والثانية عليك، أي: إن نظرت إلى أحدهم فلا تُطِل، وإن اضطررت للكلام فلا تَزِدْ، وإن عبروا أمامك فَتَنَحَّ جانبًا، أو اختفِ إلى أي مكان، فلمحةٌ واحدة لا تعجبهم قد تُكَلِّفك الكثير، أفهمت؟ أرجوك قل لي أنك فهمت، حسنًا إذن، هيا إلى الطعام.

- ١٢ -

كان مكان نومي هو الأول من ناحية الحائط.. أنا أول من يقابله الداخل إلى الزنزانة.

وكان آخرُ الليل - وأثناء استلقائي نومًا في مواجهة الحائط - هو وقتي الأمثل مع عائِشة، فأُغمض عينيَّ لأُمسي معها في لحظة، مُستدعيًا أحاديثًا كانت بيننا يومًا، وأحاديث لم تكن، وأحاديث وَدَدْتُّ لو تكون. كان صوتها يحضر في لحظة، مُتَسَلِّلًا من بين تلافيف الرأس بنغمته وبحَّته المميزة، حتى مع الوقت صُقِلت مهارة التخيل تلك، فتمكنت من اشتقاقِ درجاتٍ مختلفة من صوتها، حتى صارت لدي عشرات الضحكات المتباينة، ونبرات الكلام المتنوعة، بل حتى صمتها كانت له درجات، ما بين صمت التأمل، وصمت الاشتياق، وصمت الارتباك، وكأن لكل صمتٍ صوته المميز، ولأن الصوت في العادة يستدعي الصورة، كان مُحيَّاها يتسلل شيئًا فشيئًا لينطبع علي أديم الحائط، شفَّافًا كعلامة مائية راحت تزداد وضوحًا يومًا بعد يوم، بل وتزداد ألقًا ونَضَارة، ساعد في ذلك أن طلاء الحائط لما وقع في بعض المناطق ترك رُقَعًا بأشكالٍ هلامية، من تلك الأشكال كان ثمة رقعةٍ مميزة تقاربُ بيضاوية عينيها، فَرَحت بأظافري، بينما أنا مستلقٍ نومًا، أحفر بجانبها رقعةً أخرى، اجتهدت كي تُماثل الأولى، قبل أن أساوي بين الاثنتين في الاتساع والبيضاوية، متحريًا بحبٍ وصبرٍ مسافات الإلتقاء وزوايا الإنحناء، ثم من العينين كان خيالي يُكمل المسيرة ليبدأ في تشكيل الأنف، والوجنتين، والذقن، والشعر، ثم هناك نتوءاتٍ بالحائط صارت لي غمازتاها وطابعُ الحسن بذقنها، هكذا رأيت رؤى العين اختلاجاتِ وجهها، وانعقاد حاجبيها، وضيق عينيها وانبساطها، وانفعالات ملامحها مع ما أحكيه ضحكًا، ودهشةً، واستنكارًا، ولتصبح تلك الرقعة البسيطة بالزنزانة هي عتمتي الأليفة، وجنتي الصغيرة في هذا المكان.

وكنت قد أرسلت حتى ذلك الوقت ثلاث رسائل، لا أفعل شيئًا سوى انتظار ردها، ولا أملك إلَّا الانتظار، فبمجرد أن يُفتح باب العنبر كنت أهرع إلى الشرطي لأسأله عن أيه خطاباتٍ قد وصلت باسمي، فكاني يُرَدِّدُ هازئًا: خطابات؟ أية خطابات؟! فأشرح له أني قد أرسلت أكثر من خطابٍ خلال

الأيام الماضية، فهل هناك مواعيد مثلًا لتسليم البريد كما يحدث في تسليم الأمانات والزيارات وغير ذلك، أم ماذا بالضبط؟! فكان الشرطي يسمع متعجبًا.. يضحك.. يدفعني للدخول.. ثم يغلق الباب وينصرف.

كنت، أيضًا، أبحث في الزنزانة يوميًا، في الأركان والزوايا وبين فرشات الناس، لعلَّ خطابات تكون قد وصلتني واستلمها أحدٌ بدلًا مني، أسأل سالم عن ذلك، فلا يفهم ما أحكي عنه، ولا يفهم أية خطابات تلك التي أُرسلها وأنتظر ردَّها.

حتى في ذلك اليوم دخل شرطيٌّ إلى العنبر ونادى أسماءً كان من بينها اسمي، ففززتُ إليه..

- هل وصلني شيء؟ ألديك خطابٌ لي؟

- لديك جلسة.

- جلسة! ماذا تعني؟ ما هي الجلسة؟

- أنت قمت بتوكيل محامٍ قبل بضعة أشهر أليس كذلك؟ وهو قد أقام دعوى أليس كذلك؟

استجمعت الأمر: نعم نعم حصل، ماذا إذن؟

- جلستك بعد أسبوعين.

- أسبوعين!

- أسبوعين.

- إذن هل سأذهب إلى تلك "الجلسة"؟ أم أنها ستحدث وتبلغوني بنتائجها أم ماذا؟ أخبرني!

انتهى الشرطي من حديثه مع آخرين كان فيه يُعلِمهم بموعد جلساتهم قبل أن يتوجه إلي بكامل جسده:

- طبعا ستذهب إليها، فلم إذن تظنني قد أتيت إليك؟

- وأين ستكون تلك الجلسة بالظبط؟

استغرب: وأين قد تكون؟! بالمحكمة.

- تعني أني سأتحدث إلى القاضي؟!

- كما تُحدثني الآن.

- وسأقول كل ما أريد قوله!

- وبكل ما كنت تزعجنا به طوال الأشهر الماضية، وقِّع هنا.

قمت بالتوقيع مُرتعشًا فانصرف الشرطي لأظل على تسمري أنظر للباب المُغلَق لا أستوعب إن كان ما حصل حلمٌ أم حقيقة.

حين أفقت وجدت قدماي تحملاني إلى المسابح حيث وجدت سالم يعبىء الماء لغسل الملابس بينما يتحدث مع عبد الشكور، انتبها حين وجداني بهذا الاضطراب، فحكيت لهما ما حصل، وكانت ابتسامتهما تتسع مع كل كلمة، حتى إذا ما انتهيت أخبراني بأن الأمر هكذا قد انتهي وأن مباركٌ لكَ يا زين.

- أحقًّا؟ أتظنان؟!

ابتسم سالم: وهل يحتاج الأمر إلى كلام؟ أنت كنت تبحث عن مسئول أو ضابط وهذا قاضي، قاضي يا زين! أتفهم؟ هذا رأس العدل.

- سيسمعني أليس كذلك؟! طالما أن لي جلسة فهذا يعني أني سأتحدث إليه أليس كذلك؟

أجاب عبد الشكور: أنت لن تحتاج للتحدث أصلًا، فلن يستغرق الأمر سوى دقائق حتى يعرف بالخطأ الذي حصل.

عقَّب سالم: بل إنما هي دقيقة واحدة حتى يعرف بأنك لست المعني بهذا الأمر كله، وأنه ليس من المفروض أن تكون أنت الذي أمامه، ثم عذرًا منك، ثم عفوًا عنك، ثم تفضل إلى بيتك مع السلامة.

احتوى عبد الشكور كتفي: وأسبوعان ليسا بالكثير إن كان مقابلها هو الخروج من هنا يا بطل.

نقلت عينيَّ بينهما أزن منطقهما للحظات قبل أن أفرد ذراعيَّ.. اقترب منهما.. أحتويهما..

ربت سالم على ظهري: أبشر يا زين، أبشر والله، وإن شاء الله سيتمُّ الأمر لك على خير، هيا هيا فيم انتظارك؟ اذهب وهاتف بيتك.

حين هاتفت أمي وعمرو ألحَّا كي أعيد على مسامعهما الخبر، فأعدته التماسًا لبهجةِ صوتين كنت قد نسيتها، تفرقت حروف عمرو غبطةً وبغير تصديق، فيما تهدَّج صوت أمي أن تلك بركة الدعاء والصلاة، أَخبَرَاني

بأنهما سيكونان في المحكمة من الصباح الباكر، لكني أصررت ألَّا داعي لذلك، فالأمر لن يطول، سأنتهي من تلك الجلسة وأعود رأسًا إلى المنزل.

بعد المكالمة عرجت على عبد الشكور مرةً أخرى في زنزانته، همست إليه راجيًا بأن يأتيني في ذلك اليوم بمُعطرات وصابون وليف ومنشفة، على أن تكون كلها جديدة، ولو حتى بأكثر من الثمن المعتاد، فلا أريد لباقي إخوتي - الذين لم يزالوا يظنونني في سفر - أن يرتابوا بشكلي أو يتساءلوا، أريد أن أكون بأفضل هيئة عند عودتي إلى المنزل، فأخبرني بأنه سيدبر هذا الأمر من اللحظة، وألاَّ أحمل هم ذلك.

كنت أتمشى في العنبر فَرِحًا منتشيًا، مصافحًا كل من أقابله، وكان ذلك حين انتبهت إلى تلك النبرة المستهزئه، بسَّام وجماعته فيما يبدو أنهم كانوا يراقبونني من البداية، يتتبعوني بالضحك والسخافات، التفتُّ مستوضحًا ما يُقال بالضبط حين احتوتني تلك الكفُّ التي ساقتني بعيدًا، سالم الذي أنهى عمله للتو:

- أقل واحد فيهم عقوبته خمسة عشر عامًا، لم تعد لهم جلسات أو زيارات، فأي حسرةٍ قد تصيبهم لأمرك، لا تعرهم اهتمامك، تعال نشرب الشاي، فاليوم يومك.

شَفَّاطات التهويةِ بالعنبر ومراوح السقف العملاقة به خربت منذ زمن، لم تعد تعمل، ولم يعد في إصلاحها أمل، فربضت بضخامتها تلك بسقف المكان وأركانه، كحيواناتٍ ضخمة نافقة، مُغَبَّرة، مُعَفَّرة، ما جعل الجوُّ في العنبر خانقٌ دومًا، لا يعبق إلَّا برائحة الأنفاس والعرق. العشرات يستهلكون زفير العشرات، والعشرات يزفرون ما سيغدو شهيقًا لعشراتٍ آخرين. جوٌّ راكدٌ ركود الناس، وركود الأبدان، وركود الوقت، ولعل أزكى ما شَممت في هذا المكان لم يكن أكثر من رائحة الصابون.

إلَّا أنه في هذا اليوم، وبينما أصلي المغرب، فاح المكان حولي فجأةً برائحةٍ عطريةٍ زكيَّة، كأنها مسكٌ أو عنبر، قبل أن تلتصق بقدمي قدمٌ تمهل صاحبها شيئًا قبل أن يعلو صوته بـ (الله أكبر) بغية صلاة الجماعة، فانتبهت إمامًا للصلاة، أكملت القراءة وأتممت الركوع والسجود قبل أن انتهي تسليمًا عن يميني وشمالي فقام هو لإكمال ركعته الناقصة، بينما أرتدى نعلي رميته بنظرةٍ فاستقبلتني وقفته الخاشعة، وعطره الفوَّاح الذي وكأنما عَزله عن المكان بهالةٍ خفيّة، يصلي وقد استكان كِلا كفيه، يمينه فوق شماله، مُلامسين قلبه، بدا في منتصف الأربعينات من العمر، فارع الطول، بهيّ الطلعة، نضر الوجه، له أنفٌ طويلٌ مُستدق، تعلوه عينان عسليتان واسعتان غرب نصفهما تحت جفنين ارتخيا شيئًا طلبًا للخشوع، ملابسه باكستانيةٌ من قماشٍ لامع، حمل كتفاها حروفًا مُطَرَّزَةٌ غاب أغلبها تحت شعر طويلٍ مموّج، حتى بدا لي الرجل في هذا المكان، بعطره، وأناقته، وثيابه، ووسامته، كسائحٍ أجنبي أو نجمًا من نجوم السينما.

عُدْتُّ إلى الزنزانة فوجدت سالم وسعد ونوَّاف يلعبون الورق، وكنت لم أزل أردد أختامَ الصلاة، حين لمحني سالم أنظر للأنيق الذي كان في جلسة التشهد الأخير ابتسم: آه، سِرْدَار، متى جاء؟

- سِردار!

علَّق سعد: أيُّ مالِك السر، هكذا تعني بالباكستانية.

نظر نوَّاف للرجل ضاحكًا: وليس أي سر! والله اشتقنا لهذا الرجل.

- لم أره من قبل في عنبرنا. تساءلت.

رمى سالم بورقةٍ على الأرض: هو ليس من هذا العنبر أصلًا، وعمومًا هو لا يخرج من زنزانته إلَّا للأمور الهامة، الهامة جدًا بصراحة.

أَقعَيت بجوارهم جلوسًا وتنهدت: أيًّا كانت أموره، وأيًّا كانت أهميتها، فجيدٌ أنها لم تُثْنِه عن الصلاة، فليبارك الله فيه.

نظروا لبعضهم البعض قبل أن ينفجروا في الضحك، حتى انفلتت بعض الأوراق من بين أصابعهم سقوطًا على الأرض، قال سعد وكان الأسرع تمالكًا لنفسه: يُبارك في من بالضبط يا زين؟!

قال نوَّاف: بل أسأله يُبارك في "ماذا" بالضبط؟! لا تخدعنك المظاهر يا زين.

- ما بكم؟! سألت مُستغربًا.

أعاد سالم ترتيب أوراقه: أتذكر يوم حكيت لك عن المدمنين؟

نظرت إلى الرجل وهو يقوم بالتسليم: أتقصد أن هذا مدمن؟ مستحيل!

أكمل سالم كأنه لم يسمعني وهو يُلقي بورقتين على الأرض:

- ثم أتذكر أني حكيت لك بعدها عن المروجين والموزعين والتجار؟

لمَّ سالم الورق بسعادةٍ فيما يبدو أنه ربح، قبل أن يتوجه إلي:

- هذا هو قمة الهرم يا زين، أحد المتحكمين في كل ما حكيت لك عنه وكل ما سمعته وما رأيته، زعيم من كبار زعماء المافيا هنا، جلاَّب السعادة وباعث النشوة في الألباب والعقول والأجساد.. سِرْدار.. باكستاني.. ويُكنَّى بالسلطان.. السلطان سردار.

وكأن شيئًا في المكان لم يعد مدهشًا، تحسبنت وتحوقلت وأنا أتابع الأنيق وهو ينتعل حذاءه بينما يفضُّ عن عينيه خصلات شعرٍ بعثرتها انحناءات الركوع والسجود. فَرَّق سعد الورق من جديد:

- كلهم كذلك يا زين، كلهم كذلك، الواحد منهم مجرم وقاتل وتراه يقيم صلاته كأحسن ما يكون، يبتهل بالدعاء، ويجتهد في الخشوع، كما أولياء الله الصالحين، من شِدةِ تقواه تحسب نفسك أنك أنت الذي على ضلال.

- ولم الصلاة إذن مع كل هذا؟!

- هو لا يعتبر ما يفعله حرامًا، وأن تجارته كباقي تجارات الكيف والمزاج، سلعةٌ تباع وتشترى كما يُباع غيرها ويُشترى، وهو أيضًا لم يخدع أحدًا أو يضحك على أحد، فإن تكيَّفت وتمزجت فسلامٌ منا إليك، وإن رحلت فسلامٌ عليك وعلى روحك الطيبة، فالأدوية تقتل، والطعام يقتل، والذنب - أولًا وأخيرًا - ذنبك لأنك لم تُقَدِّر الأمر حق قدره.

- أيُّ منطقٍ هذا؟!

- يكفيه أنه مَنْطِقه.

من زنزانةٍ قريبة خرج ثلاثة رافقوا السلطان الخاشع إلى الداخل، فدلف وجلس كزعيم مُخَلِّص بين من يبدو أنهم كانوا ينتظرون قدومه، راح بعدها هؤلاء الثلاثة يحجبون الزنزانة بالملاءات والأغطية عن أعين الناس.

- وما سبب وجود هذا السردار هنا؟! تساءلت..

***

أعدَّ سالم الشاي، فيما جعلت أنا وسعد ونوَّاف نحملق في الزنزانة والتي بدت وسط صخب العنبر كبيتٍ مخيف معزولٍ، ارتشف نوَّاف:

- هؤلاء بالذات، أعني الزعماء الكِبار، لا يظهرون إلَّا نادرًا، فهم لا يتنقلون بين العنابر إلَّا إذا كان هناك حدثًا عظيمًا، أعتقد أنهم يَسْعَوْن هذه الأيام لإيجاد طريقة جديدة ومختلفة لإدخال شحنات المخدرات إلى السجن، هكذا سمعت.

وجَّهت كلامي لسالم دون أن أزيح ناظري عن الزنزانة: أو لم تقل لي قبلًا أن بعضًا من الشرطة هم من يقومون بهذه المهمة؟

- الشرطة حدودها العنابر فقط، ينقلونها بين العنابر، ولا حيلة لهم أكثر من ذلك، أما إدخال الشحنات إلى السجن نفسه، إلى تلك القلعة المحصنة فتلك هي المعضلة الكبرى، أن تعبر المخدرات هذه الأسوار والحراسة والتفتيش وكاميرات المراقبة وما إلى ذلك فهذا يتطلب عقلًا جهنميًا.

- ولماذا لا تعبر ككل مرة؟!

- يُفضِّلُ الزعماء أن تكون هناك طرقًا بديلة وجاهزة، حتى إذا ما انكشفت إحداها حلَّت الأخرى محلها على الفور، والمدير الحالي ليس سهلًا على الإطلاق، منذ تولى منصبه وهو يمارس تضييقًا كبيرًا على الجميع، فلقد ابتدع شرطةً تشبه في عملها المخابرات، شرطةٌ لا هم لها إلَّا تفتيش ومراقبة الشرطة، وهو ما أوقع بالكثير من المرتشين والمتعاونين مع التجار.

ضحك نوَّاف: فعلًا منذ جاء هذا الرجل شحَّت أنواعٌ كثيرة من المخدرات في السجن، وغلا ثمن الموجود أضعافًا بعدما تراجع المرتشون ورفضوا إدخال شحناتٍ جديدة، بل حتى الحقنة، تلك الحقنة المسكينة، صار من الصعوبة إيجادها.

- وهل يتم تهريب الحقن أيضًا؟! تساءلت.

ضحك نوَّاف أكثر: بالتأكيد، فهي لا تُباع في جمعية السجن.

نظرت إلى الزنازين: وكيف يتصرف هؤلاء مع غيابها؟

ردَّ سالم: يستعملون الموجود.

التفت إليه بحدة: يستعملون الموجود؟! أتُستعمل الواحدة أكثر من مرة؟!

- أكثر من مرة؟! الواحدة يتم استعمالها ما يفوق المائة مرة.

- أمعقول؟! في أي مستشفى لو كان هناك أدنى اشتباهٌ في دخول الإبرة في الجلد بالخطأ، بل حتى لو مسته عفوًا، يتم استبدالها في الحال.

أجاب سعد: غاية هؤلاء أن يرتاحوا يا زين، أن يرتاحوا ويُخرسوا خلاياهم الجائعة، والحقنة لن تقف حائلًا أمام ذلك، كما أن نقود الواحد فيهم لا تكفي لشراء واحدة جديدة في كل مرة، هي بالكاد تشتري الجرعة

اليومية، لذا يقومون بتطهير الحقن بالولاعة، يكوون الإبرة بالنار وهكذا هي تتطهر، بل أن بعضهم يهادي البعض بالحقن من باب المجاملة، ليس لديك واحدة؟! إذن خذ خاصتي وادع لي.

- أولا يخشون الأمراض والعدوى والأوبئة؟!
- لن يكون بأسوأ مما هم فيه، هؤلاء لن يوقفهم أي شيء عن تناول جرعتهم سواءً كانت تنقل وباءً أم لا، المهم أن تدخل إلى الجسم في موعدها.. وذلك لأن الواحد فيهم طوال الوقت أسير سؤال واحد فقط.. عندما يحين موعد الجرعة القادمة..

مال علي فاركًا اصبعيه: فهل سيكون لديّ نقود؟!

- ١٤ -

نجحت المخدرات في الدخول إلى السجن..

وسُمِعَتْ بالمكانِ عشرات الاستنشاقات، وحُفِرت بالأذرعِ عشرات الثقوب، وخرجت الأموالُ من زنازين لتتدفق إلى أخرى..

تَعَالت الهمهمات، والتنهيدات، والارتياحات، والضحكات، وتقبيل الأيادي والأقدام امتنانًا وتوسلًا، حتى أني سمعت واحدًا من هؤلاء يتباهى أن "مهما وصل ذكاء الشرطة فنحن الأذكى، ولو كانت لنا عشر حيلٍ وكشفتها الشرطة؛ فسنخرج هؤلاء بعدها بعشرين حيلة، ثم بخمسين، ثم بمائة، الشرطة دائمًا هي رد فعل، أما نحن.. الفعل نفسه".

- ما الطريقة إذن؟

سألته - سعد - وكنت أجلس إليه وسالم بآخر الممر:

- لن يعرف أحدٌ منَّا الآن، إلَّا الكِبار فقط، كقصص الجاسوسية التي تُفرج عنها أجهزة المخابرات بعد حين.

عقَّب سالم متعجبًا: الحق أني لم أشهد فترة نجحت فيها المخدرات في التدفق إلى السجن بهذه الصورة كتلك الأيام، أتُراهم أسقطوها جوًّا؟ أم حفروا نفقًا تحت الأرض؟ شاهدت ذلك فعلًا في أحد أفلام السينما.

اختلست النظر لعددٍ من الزنازين التي غابت وراء الأغطية فبدت كأكواخ مهجورة:

- ماذا لو لم يُعزّز مدير السجن بكل تلك الكاميرات والتجهيزات بل ويأمر بالمراقبة والتفتيش؟! أي كمياتٍ أخرى كانت ستدخل.

ضحك سعد: المدير! ياله من مسكين، لقد سمعت أحدهم يدعو الله بأن يطيل في عمره هنا.

ضحك سالم بدوره: ولعلَّه الآن يجلس في مكتبه متحسرًا وباحثًا عن الثغرة القاتلة وسط كل تحصيناته، أهي في شرطته؟ أم في أجهزة الإنذار أم في كاميرات المراقبة؟ أو في ماذا بالضبط؟ في ماذا بالضبط يا حضرة المدير؟!

"المدير... المدير.. "..

هتف بها نوَّاف وهو يركض ناحيتنا قبل ينحشر بجسده بيننا لاهثًا:

- لقد عرفوا الحيلة، كشفوا الطريقة للتو.
- أي طريقة؟! ماذا بالمدير؟ بم تهذي؟! تساءلنا في دهشة.
- المدير هو الوحيد الذي كان فوق مستوى الشبهات، المدير هو الذي لا يتم تفتيشه، كان هو حلقة الوصل بين خارج السجن وداخله.
- مرتشٍ؟! سأل سالم.

أشاح نوَّاف بيديه: لا لا.. ليس الأمر كذلك، بل كان ضحيةً لا حول لها ولا قوة.. والطريقة في غاية الطرافة.. والله غاية الطرافة!! ههههههههه...

التقط نوَّاف أنفاسه قبل أن يتابع: فقد سمعت عوَّاد - أحد التجار - يهمس لأحد أفراد الشرطة أن هناك كمية من المخدرات يريدون تمريرها، فأشاح الشرطي بيده أن اِنس يا عوَّاد، فالوضع الآن صعب جدًا الآن، إدخال المخدرات إلى السجن من اليوم مستحيل.

تابع نوَّاف وهو يغالِب ضحكه: لكن عوَّاد قال له "ومن قال أنك ستُدخلها إلى السجن، لقد أتت بالفعل، أنت فقط ستوصلها إلى هنا كالعادة"، فاندهش الشرطي ولم يصدق: "دخلت! كيف؟!" هكذا طلب منه عوَّاد أن يذهب إلى مكتب المدير ففعل الشرطي، وهناك هاتفه عوَّاد سائلًا هل جاء مديرك؟ إذن الحمد لله، هل هو جالس إلى مكتبه؟ إذن الحمد لله أيضًا، اذهب إلى جراج السجن أيها الشرطي الهُمام، أرأيت سيارة المدير، انظر أسفلها، هل وجدت شيئًا؟ هناك أكياس، اقطعها يا أخي بأي سكين،

لا لا تفكها، والله لا ترهق نفسك بالفك، الناس هنا مُتعبة وتنتظر، هل قطعتها؟ إذن حمدًا لله على سلامتك.. وسلامتها هههههههههههه..

- ولاد الحرام.. أيُّ عقلٍ هذا؟! قال سالم وهو يضرب كفًا بكف.

تابع نوَّاف وسط انبهارنا: أحدهم تتبع سيارة المدير وهي تغادر السجن حتى عرفوا بيته، وليلًا ربطوا المخدرات بأسفلها، لتعبر البوابة في اليوم الثاني دون أدنى شك، الرجل كان يدخل لأربعة أيام بالمخدرات ويلعن من يأتي بها.

ضحك نوَّاف وظل يسعل: لن يعيش السجن أيامًا من الانتعاش كما عاشها بفضل هذا الرجل الطيب، بل أن بعضهم عندما كان يتأخر المدير في المجيء صباحًا يُعاتب الشرطي أن اتصل بصاحبك وتعجَّله فلقد تأخر الشغل كثيرًا ولا وقت لدينا لتلك التلكوءات هههههههههههه وبعد استلام الكميّات كانوا يرددون أن الحمد لله، فطالما أن هذا الرجل موجود يا شباب فلا يحمل أحدٌ همًّا هههههههههههههه...

انقلب نوَّاف على ظهره من السخسخة، وضحك سالم كما لم أره من قبل، أما سعد فقد جعل يضرب كفًا بكف مغالِبًا دهشته، وسط هذا تناهت إلينا أصوات جلبةٍ كبيرة خارج العنبر، وكان بابه مفتوحًا، حيث كان يُدخل أفراد البلدية صواني العشاء.

جريت مع سالم وسعد ونوَّاف مع السجناء الذي خرجوا من زنازينهم ناحية الباب، نحاول أن نرى من بين عشرات الرؤوس المتفرجة ما يحدث، الجلبة كانت في طرقة العنابر.. شجارٌ ما.. سبٌ وشتمٌ.. كان الصوت مألوفًا.

- العَيِّدروس! ردَّدها البعض ببطء الدهشة.

- معقول! في أي عنبر هو؟! لا أراه. سأل سالم.

شببنا بأعناقنا ننظر لكل العنابر، حتى دخل في دائرة أبصارنا آخر ما كنا نتخيله!

"عنبر القتل"!

تداخلت التعليقات:

- الأحمق يتشاجر مع محكومي الإعدام.
- مستحيل! مع من تحديدًا؟!
- ومنذ متى يتشاجر مع شخصٍ بعينه، يطيح في الكل.
- خيَّبه الله، لن يهدأ حتى يرى حَتْفه بين عينيه.

كان العَيْدروس بالدور الأرضيّ يصرخ في محكومي الإعدام المحبوسين بالأعلى، واصفًا إياهم بكل البذاءات الممكنة، ما جعل أفراد الشرطة الذين كانوا يناولون الطعام للبلدية ينظرون لبعضهم البعض أن جُنَّ الرجل، ورغم ذلك فإن أكثر ما ألقى الروع في قلوبنا هي تلك الأصوات التي لم نألفها من قبل! أصوات ارتجاج أسياخ الأقفاص الحديدية لمحكومي الإعدام بفعل أيديهم الغاضبة وأجسادهم الفائرة غيظًا، فبدوا مع ثورتهم كأسودٍ حبيسة، استعاضت عن قلة حيلتها بأن نعتته - العَيْدروس - بأقذع الألفاظ وأقذرها، متحديةً ذكورته بأن يصعد إليهم، أو أن تُفتح لهم الأقفال فينزلون إليه، ما جعل ثورته - العَيْدروس - تفور أكثر وأكثر، فالرجل لم يحدث وأن تجرأ عليه أحدٌ بتلك الطريقة، فالعنابر الثمانية كانت تتجرع يوميًا فيض إهاناته وزيادة، واليوم تُرَدُّ له بضاعته وأكثر، بل وأمام أفراد الشرطة ورفاقه من المباحث الجنائية، وكان هذا حين دخل ثلاثةٌ من أفراد المباحث إلى العنبر وسحبوا صاحبهم إلى الخارج، جرُّوه جرًا يتميز غيظًا في نفس الوقت الذي أسرع فيه أحد العساكر لإغلاق الباب لئلَّا يلجه الرجل مرةً أخرى. ما أن أُوصِد الباب بالقفل والجنازير، حتى حُرِّرَ العَيْدروس من قبضة رفاقه، ليفزع إلى الباب من جديد يصفعه بقبضتيه وهو لا يزال يلعن ويشتم.

همس سالم: ليتني أفهم، ما شأنه بجناح الإعدام! ماله ومال جناح الإعدام حقًّا؟!

ردَّ سعد: يبدو أن رؤساءه قد وجهوا له اللَّوم على اخفاقاته الأخيرة، وعلى كميات المُخدرات التي دخلت السجن، فلم يجد إلَّا هؤلاء لينفث فيهم غيظه وغضبه، ليُلهي الأنظار وليكون بذلك أول من تجرَّأ على هؤلاء في تاريخ السجن كله.

تمتم نوَّاف: مضيت هنا السنوات الطوال، ولم أسمع لهؤلاء بالذات صوتًا، خيَّبه الله على ما فعل.

كان العَيْدروس لا يزال يضرب الباب الفولاذيَّ الذي حجب صوت السجناء من الداخل تمامًا، ما جعله يشعر وهمًا بأنه قد حسم المعركة، حين ثاب لرشده تلفَّت حوله لتُراعه أبواب العنابر التي يبدو أنه تفاجيء فقط لحظتها أنها مفتوحة تتفرج:

- بالداخل، بالداخل، فيم وقوفكم هنا يا كلاب يا ملاعين، فيم وقوفكم؟!

طار الكل إلى عنابرهم، وركض العَيْدروس وراءهم وكأنه يُطارد ديوكًا برية، ليمسك في النهاية بذلك الذي لم تُسعفه قدماه على الهرب: تعال.. تعال.. أنت تعال يا شبيه الكلب، كم حكمك؟

خائفًا: عشر سنوات.

يطوحه يمينًا ويسارًا: عشر سنوات! تقول عشر سنوات! أشفق عليك، فأيهما ستحتمل؟ شكلك أم حكمك؟ تعال تعال، فلا يزال اليوم طويلًا.

قالها وجرجر المرتعش من قفاه متوجهًا إلى مكتبه، قبل أن يدلف ويُغلق الباب على فريسته الجديدة.

***

الساعة الثالثة بعد منتصف الليل..

"عائِشة.. حبيبتي..

تلك هي رسالتي السادسة إليكِ ولم أتلق منكِ ردًّا بعد، وأيًّا كانت الأسباب فأتمنى ألَّا يكون من بينها هو إعراضك عني، أو ربما يكون هو إعراضك عن أي شيء وكل شيء، لا زلت أدرك جيدًا كم هو حجم اضطرابك وخوفك وصدمتك، ولكني أبشرك بأن ها جاء الفرج، فبعد ستة أيامٍ من الآن ستكون لدي جلسة في المحكمة، أولم أخبرك قبلًا بأن لدي محامٍ خبير يسعى في أمري بكل طاقته؟ فلقد أخبرهم - هذا المحامي - بما حصل لي فتحرى هؤلاء الأمر حتى تيقنوا وحددوا لي جلسة، وهي الجلسة التي سيقفون فيها على الخطأ والالتباس الذي حصل بشأني، ولن يطول الأمر حتى أنال اعتذارًا رسميًا وأخرج من هنا، عائِشة؛ اشتقتك بأكثر مما تتخيلين أو تتصورين، لكني أحبس الكلام لحين ألقاكِ ولئلَّا تنتهي أوراقي القليلة قبل أن أنتهي، لي رجاء! أرجو منكِ أن ترتبي لي موعدًا عاجلًا للقاءِ بأمك وإخوتك لأشرح للجميع كل ما حصل، أعلم أنكم جميعًا في حالٍ من الاضطراب والدهشة، ولكم عذركم، ولهذا فإني قد آليت على نفسي بأني سأشرح وأبرر وأفسر ولو أمضيت في ذلك الأيام الطوال، عائِشة؛ كم من مرةٍ أخبرتك فيها أنك خيرٌ فياض، ونعمةٌ استكثرها عليّ، ولأن لله في تسيير أقداره حكمةٌ لا نعلمها فلقد فطنت إلى شيء، بل وقنعت به، وهو أن لربما وضعني الله في هذا البلاء الصعب لأعاني، فتكون الرغبة بحجم المعاناة، ويكون الإنعام بقدر الابتلاء، فأتعادل في ميزان الحياة فأستحقك، حبيبتي؛ لم تتبق سوى ستة أيام، سأحصيها ساعةً بساعةً، بل لحظة بلحظة، وليُعِنِّي الله على ذلك، فلا شيء جعلني أحتمل كل ما مررت به إلَّا أني كنت طوال الوقت أُمني نفسي بكِ في النهاية، فوحدكِ من تعطيني الآن سببًا للاستمرار بهذه الحياة".

- ١٥ -

بعد يومين ارتج السجن كله بتلك الصرخة!..

صرخة العَـيْدروس!..

فالعَادةُ أنَّ الطعام يأتي لجميع العنابرِ في نفس الوقت، حيث يمر أفرادٌ من الشرطة مع أفرادٍ من البلدية يحملون الصواني، ثم في وقتٍ واحد تُفتَح الأبواب، ثم في وقت واحد تدخل الصواني، ثم في وقت واحد تُغلَق الأبواب من جديد، لتنصرف الشرطة وتنصرف البلدية.

في هذا اليوم، صباحًا، وقت الإفطار، فُتِحَت جميعُ أبواب العنابر، ومن كل عنبر تقدَّم اثنين أو ثلاثة من السجناء لسحب الصواني، وكان من بين أبواب العنابر التي فُتحت.. عنبر القتل.

نَزَلَ ثلاثةٌ من جناحِ الإعدامِ لتناولِ الصواني، ثم حين فرغوا وحيوا الشرطة منصرفين، وفيما كان الباب على وشك الإغلاق، لَمَحَ أحدهم من تلك الفُرجة البسيطة - قبيل الإغلاق - ذلك الذي يمرق سريعًا بالممر؛ العَيْدروس! لمحةً أيقظت بصدرهِ جَذوةً من نارٍ لم تخمد بعد، ولتبرق عيناه ببريقٍ رآه صاحبيه فنظرا إلى ما كان ينظر إليه قبل أن تتلاقى أعينهم جميعًا في اتفاقٍ صامت..

اتفاقٌ جعلهم ينوون.. ويقررون.. ويُنفِّذون..

هكذا، وفي لمح البصر، دُفِعَ الباب بقوة، وشُدَّ رجلا الشرطة للداخل ليسقطا أرضًا، قبل أن يقفز هؤلاء الثلاثة قاطعين الطريق على ذلك الذي تَصلَّب من المفاجأة: "ما هذا؟! ارجع إلى عنبرك.. إلى عنبرك قلت".

جُملته الواهية، والتي لم تكن على مستوى التهديد، قُوبِلت بحصارهم له أكثر، فتراجعَ هو للخلفِ خطوتين، حاول الشُرطِيَّان القيام والخروج فحجزهما بعض المساجين لحينِ انتهاءِ عرضٍ لم يبدأ بعد، حينَ

نقل العَيْدروس بصره بين الشُرطيين المُحتجزين وأعينِ هؤلاء اشتمَّ نيَّةً أرهبته: "أنتم تدركون عقوبة عدم إطاعة الأوامر!! ها؟! تدركونها أم لا؟!"..

شجاعته المستعارة كَشَفتها رعشة صوته، فتقهقهر للوراء أكثر، حين التفتَ عائدًا إلى مكتبه قطع الطريق عليه هذه المرة ثلاثة آخرين، كانوا من جناح الإعدام أيضًا، ليُحاصَر هو في النهاية بدائرةٍ من ستة أشخاص، عندما أدرك صعوبة وضعه تنقلت عيناه مرتعشتين بين وجوههم:

- حفظتكم واحدًا واحدًا، إلى أين مَفركم؟ تلك تُهمة أخرى تضاف لتُهمكم.

لكن أيُّ تُهمةٍ قد تُضاف لهؤلاء؟! وهل يَضرُّ الشاةَ بعد ذَبْحها سلخها! عقله أدرك لتوّه تلك الحقيقة المتأخرة التي بدا أنه لمْ يستوعبها إلَّا حين برَقَت أول صفعةٍ كالومضة على قفاه ليلتفت مبهوتًا، بَحثًا عن الكف المجهول، قبل أن تأتيه صفعةٌ ثانية، ثم ثالثة، ثم عوجل برابعةٍ وخامسة، لتبدأ كرامته في نزيفٍ تتلاحق فيه يداه كالمجنونِ لتقي وجهه الأكُفَّ التي راحت تنهال عليه يُمنةً ويُسرةً.

من العنابر التي كانت أبوابها مفتوحة قبلًا هرع السجناء جماعاتٍ إلى الطرقة، فيما كان يصرخ الشرطيان المحجوزان بالعنبر أن كفوا أيديكم، هذا ضابط يا ملاعين! تراجعوا! تراجعوا! مِنْ آخر الطُرقةِ توافد رجال شُرطة آخرين، ورجال المباحث أيضًا، لكنهم كما باقي السجناء الذين خرجوا من عنابرهم، لم يجسروا على الاقتراب من محيط الحدث، فجناح الإعدام في تلك اللحظة - ولأول مرةٍ في تاريخ السجن كله - كان كل أفراده أحرارًا خارج عنبرهم، يُطوِّقون بأجسادهم الحدث المثير، يمنعون المتطفلين، ويحرسون العرض من الانقطاع، عرضٌ أصبح فيه جسد العَيْدروس مَرْتَعًا للضربات والركلات، يمسك اثنان بذراعيه، عن يمينٍ وشمال، كاشفين بطنه لثالثٍ غاص فيها بلكماتٍ متتالية ليتقوس هذا وجعًا، قبل أن تُجبره على الاعتدال ركلةٌ حطمت أنفه، انهار أرضًا، فتكوَّرَ حول نفسه اتقاءً لضرباتٍ طالت كل أنحاء جسده. كَفه من بين الأحذية الراكلة شَقَّت طريقًا تلتمس فيه النجدة، صارخةً، مُتوسلة، لكنَّها - الكف - اختفت من جديد كما اختفَت باقي أعضائه في غابةٍ من السيقان المتوَحِّدة، حتى نشعت ثيابه بعروقٍ حمراء، راحت تتآلَف مع بعضها البعض صانعةً قنواتٍ راحت تسعى لأرجل الواقفين.

كانَ العَيْدروس يُضرَب بلاَ رَحمة، ضربٌ لا تفسير له إلَّا أن يكون لإزهاق رُوح، ما جعل بعض سُجناء عنبر القتل - والذين كانوا يُؤيدوُن تأدِيبه في أول الأمر - يتراجعون شيئًا، يختلسون النظر لبعضهم البعض بحثًا عمَّن يجرؤ على التدخلِ بين زملائهم بجناح الإعدام ليتوقف الأمر عند هذا الحد، حتى أن بعضهم راح يردد فعلًا أن الرجل قد نالَ ما يستحقه، وكفَّاه ما حصل، لكن أولئك الذين كانوا ينتظرون الموت! كان لهم رأيٌ آخر.

من بين كتيبةِ الإعدام تلك، كان هناك زنجيّ ضخمٌ، اِنْسَلَخَ من بين رفاقه جَريًا إلى عنبره، ذهب إلى الباب ونزع قفله الثقيل، حِين التفَّ عائدًا وجد نصَّار يعترضه صارخًا:

- لا.. لا.. استحلفك بالله.. استحلفك بالله.

صَرخَ فيه: ابتعد يا نصَّار! ابتعد!

- ولو لأجل زوجته.. لأجل أطفاله.

دفع الضخم القفل في صدر نصار لتحتجزه - نصَّار - أيدي سجناء آخرين ما يعني أن لا شأن لك هنا، قد قُضي الأمر.

عاد الزنجي ليصرخ في رفاقه: ارفعوه.. ارفعوه.. إلى فووق.

كان العَيْدروس من شدةِ الضرب قد تحوَّل لكومةٍ من اللحم المفريّ، لا قدمان لتحملانه ولا قوة للوقوف، فحمل السجناء جسده المترهل عاليًا، ودمائه تنزُّ على رقابهم وصدورهم وهم يتبادلوُن الضحك فيما بينهم كي يضْبِطُونَه كما يريد صاحبهم الذي عاد ليهتف بهم:

- أعلى قلت.. أعلى.. أعلى.

علَوًّا به أكثر وأكثر، وفي لحظةٍ حاسمة، رفع هذا القفل إلى الفضاء، إلى أعلى نقطةٍ ممكنه، قبل أن يهوى به على دماغ العَيْدروس كالصاروخ، ليستقبل سقف الطرقة نافورة دماءٍ انفجرت من رأس الأخير، صَرَخ بعدها صرخةً عظيمةً، جحظت فيها عيناه، قبل أن ترتخيا تمامًا، وليرتخي معهما فمه أيضًا، فتكون صرخته هي آخر ما يخرج من جوفه.

- مرَّة أخرى.. مرَّة أخرى.. لأجل خاطري.

صرخ بها الزنجيُّ مرة أخرى ضاحكًا، ليرُفع العَيْدروس عاليًا، وليستقبل رأسه صاروخ جو أرض جديد. هذه المرَّة لم يصرخ - العَيْدروس - ولم تَبدُ منه أية ردة فعل، فقط بَقَلَتْ الدماء من ثقبٍ جديدٍ بجمجمته، مَا جعل الكل، سجناءً وشرطة، يرفعون سبَّاباتهم مُرَدِّدِين الشهادتين وأن حسبنا الله ونعم الوكيل، قبل أن يتركه حامليه في وقتٍ واحدٍ ليهوى أرضًا وسط بحرٍ من الدماء.

عرضٌ من قلب الجحيم، لم يستمر لأكثر من عشر دقائق، كان العَيْدروس فيها قد انتهى تمامًا، لمْ نَعُدْ نرى له وجهًا، لا تعاريج أو ملامح للأنف أو الفم، كلها استوَت من شدة الضرب، عيناه انطمستا تمامًا فصار مكانهما كهفين أسودين، أصابع يديه وقدميه انهرست من طعن الأحذية والأقدام، الجميع ينظر في رعب وعدم تصديق، الشرطة مُلْجَمة لا تستطيع الاقتراب، السجناء كلهم مذهولون، محكومي الإعدام يضحكون بجنونٍ ودماء العَيْدروس تُغرق وجوههم وأيديهم، هكذا راحوا يتسلوّن بموته ولا أكثر، فيرفعونه عاليًا، ثم يبتعدون في نفس اللحظة ليهوى بثقله أرضًا، يشُوطُون وجهه، ويطحنون رأسه بأقدامِهم، فقط ليتأكدوا أن الحياة لم تعد تَسْكُن هذا الجسد.

وفيما بدا لنا جميعًا أن العرض لن ينتهي، وأن تلك الدموية ليس لها آخر، سمعنا في تلك اللحظة صوتًا رهيبًا..

صوتٌ ارتجَّت على أثره طرقة العنابر رجًّا!

دبيبٌ اقترب في سرعةٍ، وقوة، جعل كل من في المكان يلتفتون إلى بعضهم البعض في ذعرٍ قبل أن يصرخ أحدهم:

- اركضوووااا!!..

في ثوانٍ طارَ كلُّ من في الممر هَرَبًا إلى عنابرهم، ركَضَ العشرات مُتعثِّرين فوق عشراتٍ آخرين دَهَستهم الأرجل دهسًا. رعبٌ رأيته على وجوهٍ لم أكن أظن يومًا أنه يعرف لها طريقًا، نصَّار نفسه؛ المعرُوف في السجن كله بضخامته وقوته وعصبيته وبحظوته عند رجال الشرطة كلهم كان يركض هلعًا كطفلٍ صغير،

بل الأدهى أن محكومي الإعدام أنفسهم! الذين لم يعبئوا طوال الدقائق الماضية بسجناء ولا بشرطة، تركوا عرضهم الدموي هذا وفرُّوا إلى عنبرهم قبل أن يُغلقوُه عليهم غلقًا. العشرات كانوا يركضون كالمجانين، متعجلين بعضهم بعضًا للإسراع دفعًا، وشتمًا، وضَربًا، أبوابُ العنابرِ كلها أُغلقت واحدًا تِلو الآخر، حتى خَلَا المكان كله إلَّا من جُثة العَيْدروس سابِحا في دمائه،"ماذا هناك؟!" صرَختُ بِهَا في الطوفانِ الذيِّ حملني حملًا إلى عنبري، لتأتيني الإجابة فِي هلعهم وصُراخهم ببعضهم البعض أن: هيا، ادخلوا، لا وقت، الله يلعنكم، بسرعة، بسرعة. هكذا قُذِفت بقوةِ الدفعِ إلى العنبر قبل أن أُلقيَّ بزنزانتي مع المتدافعين لأنحشر وَسط سجناء لم أرهم قبل اللحظة، ولا أعرف إن كانوا من عنبرنا أم من عنبرٍ آخر. ما أَنْ تَكوَّم الجميع في زنازينهم حتى استلقوا على ظهورهم في وقتٍ واحد، وفي وقتٍ واحد شدُّوا عليهم الأغطية والبطاطين، وفي وقتٍ واحد تصنَّعوُا الثبات والنوم، فيما بدا لي أنه طقسٌ تَمَرَّسُوا عليه قَبلًا، فبَدوًّا في النهاية كأنَّهم أكفانٌ مرصوصةٌ بجوارِ بعضها البعض، لا تشعر سوى بصوت أنفاسهم تتلاحقُ رعبًا، ومحاولاتهم لإيقاف اهتزازات أجسادهم المرتعشة خوفًا، نِمت وواريت جسدي كله مثلهم، اقترب الصوت الرهيب فشَبَبت برأسي شبرًا لأجد من بِجوارِي يَكز بيده على جبهتي ليجبرني على الاستلقاء.

- يا أخي نَمْ! نَمْ!
- لم أفعل شيئًا.
- نَمْ خيَّبك الله، هؤلاء لا يرحمون.
- هؤلاء! من هؤلاء؟

مع نهايةِ عبارته تَنَاهَت إلينا تلك الصرخة، صرخةُ ألمٍ مُرَّوِعة من الطرقة الخارجية انخلَعَتْ لها قلوبنا، ما جَعَلَنِي ومن حولي نُبالغُ في شد الأغطية فوقنا أكثر وأكثر، تَبِعَتها - تلك الصرخة - صرخاتٌ أخرى، أكثرُ ألمًا ودُنوًّا من سابقتها، فيما بدَا أن أبواب العنابر التي أُغلقت كانت كلها تُفْتَحُ عُنوةً، واحدٌ تلو آخر، ما أن يُفْتح الباب حتى يتناهي إلى مَسَامِعنا صوتُ تكسيرٍ وصُرَاخٍ وتوسلٍ لم أسمعه في حياتي كلها، صراخ أناسٍ تتألم وتستنجد، وحناجرٌ تصرخ في فزع: أن"حرام عليكم.. استحلفكم بالله.. لم نفعل شيئًا.. لم نفعل شيئًا". انكمشت ومن حولي رُعبًا بداخل أغطيتنا أكثر وأكثر، وكان ذلك حين فُتِحَ بابُ عنبرنا ودَخَل

هؤلاء، لمحتهم من شقٍ بالغطاء، عمالقةٌ ضِخام، أخفوا وجوههم تحت أقنعةٍ سوداء لا يظهر منها إلَّا الأعين، يُمْسِكوُن بدروعٍ طويلة، وعصيٍ غليظة، يرتدون زِيًّا مُمَوَّها كُتِبَ عليه: القُوَّات الخاصة.

في الممرِ انهالَت العصا على كل من اعترضَ طريقها ضربًا وتكسيرًا، بلا رحمةٍ ولا تمييز، ترتفعُ العصا عاليًا لتنزل كيفما قُدِّرَ لها أن تنزل، على كتفٍ لم يواريه غطاء، أو فخذٍ لم يتدثر جيدًا، أو على رؤوس أولئك الذين لم يسَعْهُمْ الوقت للاختباءِ بزنازينهم. كُنا نسمع صراخ المضروبين، وتوسل من ينتظر الضرب. بدخول هؤلاء إلى الزنازين تنفجر الحلوق بالأنين والآهات، فهم يمشون بأحذيتهم الضخمة المدببة على أولئك الذين افترشوا أرض الزنزانة نومًا، يجولون على الأفخاذ.. البطون.. الصدور.. أينما حطَّت أرجلهم يدوسون، ينالوُن بالضرب على كل من ليس بمستلقٍ على ظهره، أو موارٍ جسده كاملًا كالكفن. الجزء المكشوف كان يُضرب بلا هوادة. لمحت كهلًا سبعينيًا يجلس بزنزانته القرفصاء، وكأنه كان موقنًا بأن كهولته لن تغري أحدًا بالتعدي، وأن شِيبَته ستمنع هؤلاء من إيذاءه، لكن الحِذَاء العسكري الذي دلف زنزانته كان له رأيٌ آخر، حين تطلع إليه السبعيني عَاجَلَهُ هذا بعصًا شَجَّت الكتف، فصرخ العجوز صرخةً أسكتته بعدها ضربةٌ أخرى كومته في مكانه جلوسًا بلا حراك. توجَّه بعدها صاحب الحذاء إلينا ليُقابِله ذلك الذي لم يَسَعْه مكانٌ للانحشار بالداخل، فبرز نصفه السفلي خارج الزنزانة، بينما تاهَ العلوي وسط أنصافٍ كثيرة مُتداخلة، فانغرز الحذاء في الفخذ المكشوف مُمْعِنًا في اللَفِّ والفعص وكأنه يُطفيء سيجارة، حتى فزَّ هذا صَارِخًا من الدبابيس التي غاصت في لحمه، ليستقيم نِصفه التائه من بين الأنصافِ المرتعشة فيستقبل رأسه من فوره ضربةً أقعدته من جديد. وسط توجع هذا، وارتعاشاتنا، تجوَّل الحذاء في الزنزانة بتريثٍ على أرجل وأيدي النائمين، باعثًا آهاتٍ جاهد أصحابها قدر استطاعتهم لكِتمانها، كنت في الركن القصيّ، ترتعد فرائصي رُعبًا وأنا أرى من شقِّ الغطاء العصا تحوم فوق رؤوسنا، تُفرِزُ الأكفان الحيَّة لتصطفي ضحيتها الجديدة، دعوت الله ألَّا تشي بي ضربات قلبي التي اصطرعت ببعضها رُعبًا، قبل أن أغلق عينيَّ مستعدًا لأول ضربة، وكان هذا قبل أن يهتز المكان كله إثـرَ انفجارٍ ضخم.

انفجارٌ جعل هذا يخرج مع باقي العمالقة إلى خارج العنبر..

الانفجار كان مصدره عنبر القتل..

ففي الوقت الذي دخلت فيه القوات الخاصة جميعَ العنابرِ وأَوْسَعَتْ من بها ضربًا بَاءَتْ محاولاتهم لاقتحامِ عنبرِ القتلِ بالفشل، إذ كان سجناءه متمترسين وراءَ البابِ يحولون دُون فتحه، صادِّين ضَربات القوات الخاصة على الناحيةِ الأخرى، فالصرخات التي كانت تأتيهم من باقي العنابر كانت تحثهم على الاستماته في الدفاع وعدم الاستسلام، فلئن كانت ما بالخارج هي صرخات من لم يفعلوا شيئًا فأيُّ جحيم قد ينتظرهم! هذا ما جعلهم يستميتون وراء الباب بكل قوتهم، هاتفين ببعضهم البعض أن اصمدوا، وكان أفراد القوات الخاصة يدفعون باب عنبر القتل بعصيهم ودروعهم وأحذيتهم الثقيلة. ثلاثةٌ أو أربعة من هؤلاء العمالقة كانوا يتراجعون للخلف ثم يَنطلقون كالقذيفة إلى البابَ فِي وقتٍ واحد، هكذا بعدما طَالَ الدفعُ والصد، أتى صوت ذلك الانفجار، قُنبلةٌ مَرَّرتها القوات الخاصة إلى داخل العنبر، لتُحدث دويًّا بالمكان كله طفح بعدها غازٌ طال كل من في الداخل، لتهُن عزيمةُ السدِّ البشريّ شيئًا بعد أن انسلخَ عنه البعض يلتمسون هواءً، أَلْقَت بعدها القوات بثلاث قنابلٍ أخرى، ليبتعد الكل عن الباب، ولينهار السدُّ البشريُّ تمامًا، ولتقتحم القوات المكان بعد أن وضع أفرادها أقنعة الغاز على وجوههم، ثم وسط الضباب وانعدام الرؤية انهالت العصي على أولئك الذين أمسكوا رقابهم وصدورهم فيما سالت أعينهم بدموع حارِقة، ضربًا على أرجلهم وبطونهم وظهورهم، لينطرحوا أرضًا وهم يصرخون ويتلوُون من اختناق الغاز وقوة الضربات.

بعد دقائق كان كل من في عنبرِ القتلِ طريحٌ على الأرض، إما مُصَابٌ أو مَغْشيٌ عليه.

كفَّ الضرب بالعنبر، وبالعنابر كلها، وانتهى كلُّ شيء فجأة.. كما بدأ فجأة.

أُوصدت العنابر من جديد كلها بالأقفال على من يبكون ويصرخون وينُوحون داخلها.

عنبر القتل أُغلقت زنازينه كلها على من فيه، وعادت السيطرة مرةً أخرى لأفراد الشرطة.

خرجت القوات الخاصة بالستة الذينَ فعلوُا بالعَيِّدروس ما فعلوُه، جرّوهم شبه فاقدي الوعي، محطَّمين، كَسِيحِين، قبل أن يقوموا بتقييدهم من معاصمهم بالشبكة الحديدية بمنتصف الطُرقة تمهيدًا لفعل ما لا نعلمه بهم.

حُمِلَ العَيّدروس في سيارة الإسعاف، وغادرت القوات الخاصة بعد أن أتموا مهمتهم وسط نُواحِ العنابرِ التسعة.

مكثنا بعنبرنا على أوضاع الموت تلك لبضع دقائق، خَوْفًا من عودة هؤلاء مرةً أخرى، حين أتانا الأمان؛ بدأنا ننسلت من تحت الأغطية، واحدًا تلو الآخر، بهدوءٍ وحذرٍ شديدين. أزحت غطائي وخرجت من الزنزانة، أغالبُ ارتعاشاتٍ بأطرافي، من سَيَبِ الأعصابِ وتلفها، تمَشيت في الممرِ تتَخطفني المَشاهِدُ من هنا وهناك، فقد بدَا المكان وسط الحُطام والأنـَّات الهائمة وكأنه معسكرٌ لجرحى الحرب. عشرات الواقعين في الممر، وفي زنازينهم، يتقلبُون ألمًا على جنوبهم وبطونهم بعد أن شمَّروا عن أرجلٍ وسواعدٍ تفرقت بها الكدماتِ والسحجات. البعضُ لم يكن هناك ما يوجعه، وإنما جلسَ بزنزانتهِ تحويِّ كفَّه رأسه الباكي تفريغًا لخوفٍ حبسته أعصابُ الدقائق الماضية. البعضُ كاتمًا دُموعه راحَ يُلملم حاجياته التي تبعثرت بأنحاء المكان.. منشفته.. نعله.. ملابسه.. يُناجي نفسه أن أيُّ ذنبٍ جناه ليُفعل به كل هذا، كان هناك كهلةٌ مزَّقهم كبر السن، فلم تُسعفهم حنجرتهم البالية على البكاءِ كالباقين، فجاء صوتهم من وجعِ الضربِ كحمحماتِ خيلٍ جريح.

عندما وصلت إلى بابِ العنبر رأيت من الثقوب البلدية وقد بدأت في تنظيف الطُرقةِ من الدماءِ والحُطام، ومن وراء الأبواب المُوصدة تناهى إليَّ بكاء السجناء مكتومًا موجعًا، أما في منتصف الطرقة فقد رأيت هؤلاء السِتَّة مقيَّدِين من معاصمهم بالشبكة الحديدية.. كانوا مُخضَّبين بالدماءِ.. مَغْشِيًا عليهم.. وكان من بينهم فهد.

- ١٦ -

أَتَتْنا الأخبار تِبَاعًا..

كان أَغْربها أن العَيْدروس لم يمُت، وإنما أنقذوه في اللحظة الأخيرة بالعنايةِ المَركَزَّة، حَمَل تشخيصهُ الطبيُّ الأوليُّ، من بين ما حملَ، عباراتٍ على غرار كسورٍ في كذا، وتهتكاتٍ وتشوهاتٍ في كذا، وكدماتٍ وسحجاتٍ في كذا وكذا، عرفنا أنه لن يعود كما كان، وسيمضي باقي حياته مشلولًا على كرسيٍّ متحرك وطبعًا.. خرج من الخدمةِ نهائيًا.

محكومي الإعدام السِتَّة أُخِذُوا إلى مكانٍ غير معلوم، قيل أنَّه أُوسِعُوا فيه ضَرْبًا حتى أُغشي عليهم، عادوا بعدها بإصاباتٍ جسيمة، ليُوضع كلٍ منهم بحبسٍ انفراديّ، غُمِّيَت فيه أعينهم ليومٍ كاملٍ بالطمَّاشات، قبل أن يُقتادوا في النهاية إلى عنبرهم، لم يكن لأحدٍ فيهم قُدرةٌ على النُطْقِ أو الحركة لأيام.

سالم لم ير ما حدث للعَيْدروس، كان يقف بمنتصفِ العنبر يخشى الخروج من هولِ الصراخِ والضرب. عندما دخلت القوات الخاصة كان هو الأوفر حظًّا لأنه أول من اختبأ بزنزانته قبل أن يستوطن رُكنا قصيًّا استولى فيه على أكبر كمٍ من الأغطية والبطاطين ليُغطى بها جسده كاملًا، وحتى عندما انتهى كل شيء لم يبرح مكانه، عندما ذهبت إليه وجدته من شدة الخوفِ وتعب الأعصاب.. قد نام.

كثيرون عانوا من آثار الضربات في العنابر كلها، بشكلٍ متفاوت، بعضهم لم يستطع الحركة بشكلٍ كاملٍ إلَّا بعدة عدة أيام.

ظلت حادثة العَيْدروس حديث السجن كله لأسابيع طويلة..

***

بعد يومين دَخَلَ عددٌ من أفراد الشرطةِ إلى العنبر، مَشَوْا بخطواتٍ متعجلة بطول الممر وهم يهتفون:

تسكير.. تسكير.. تسكير[١٢]

استقامَ كلُّ من كانوا جلوسًا بالممر، وخَرَجَ سريعًا كل من كانوا بغرف الاستحمام، ليدَخَل الكُلُّ جماعاتٍ طواعيةً إلى زنازينهم.

كنت واقفًا بالممر، فدخلت مع سالم إلى زنزانتنا وأنا أنظر حولي لا أفهم شيئًا. كان أفراد الشرطة يتابعون تنفيذ الأمرِ بأعينٍ مُتحفزة، فيما راح البعضُ الآخر يَطوف بأركان العنبر كله ومسابحه بحثًا عمَّن لم يصله النداء بعد.

فورَ أن دخل الكُلُّ إلى الزنازين بدأت الشرطة في إغلاقها، وكان ذلك في نفس اللحظة التي وصلتنا فيها نفس الجلبة من باقي العنابر، فيما بدا أن الأمر يتكرر فيها أيضًا.

- ماذا هناك؟! سألت سالم مندهشًا.
- سيغلقون علينا الزنازين.
- لِمَ؟
- حكمٌ بالإعدامِ سوف يُنَفَّذ.

قالها بعفويةٍ جعلتني أتأخر في استيعابها لثانيتين، أطبقت بيداي على كفِّه: فهد!

- الله أعلم يا زين، قد يكون فهد أو غيره، زنازين الإعدام كثيرة.
- أو ربما صالح، أو أحد الشُهبان.

وَثَبْتُ ناحية القضبان أسأل ذلك الشرطيُّ لكنه لم يُعْرِني انتباهًا، أكمل إغلاق البابَ وشدَّه مرتين ليتأكد من أنه قد أُوصِدَ جيدًا قبل أن يمضى للزنزانة المجاورة. عُدت لسالم:

---

[١٢] تسكير = إغلاق

- هل لهذا علاقة بما حصل مع العَيْدروس؟

- ليس شرطًا، هذا إجراءٌ روتينيّ في كل مرةٍ يُنفذ فيها حكمٌ للإعدام، يغلقون زنازين السجن كلها على الجميع لحين تنفيذ الحكم، تجنبًا لشغبٍ محتمل، لأنَّ بعض الموجودين قد تَرْبِطهم صِلة قرابة أو معرفة بمن سيُنفذ فيه الحُكم.

ارتعشت أصابعي فوق كتفه: سالم، لا يا سالم، والله وكأنَّ شيئًا ينهش جوفي، غمزٌ بصدري أنه أحدهم، سَلْ نصار أو سعد أو نوَّاف أو أي شخصٍ تعرفه.

- هدِّيء من روعك، نصَّار نفسه حبيسٌ بزنزانته، الأمر أكبر منه ومن الكل، ولن يعرف أحدٌ أيَّ شيءٍ قبل الغد.

- متي يُنَفَّذ الحُكم؟

- فجرًا.. في العادة..

- ومتى تصلنا الأنباء؟

- في الصباح سيعرف كل السجن من تم إعدامه، لن يكون الأمر حينها سرًّا.

غادرت الشرطة وأُغْلِق باب العنبر ليخلو الممر كله للمرة الأولى منذ جئت من الحركة والجلبة. من الزنازين حولنا تعالت أصوات التلفاز، وطرقعات الورق، وسفسطات الجالسين والمُستلقين والنائمين ومن عَاندهم النوم في صخبٍ جماعيٍ كبيرٍ عنوانه الملل. جلست وسالم لا نتكلم، وكانت تلك من المرات النادرة التي أجده في مثل هذا الوقت لا يفعل شيئًا دون الغسيل والطبخ، كان ساكتًا يرسم على الأرض خطوطًا عشوائية، وكُنت ساهمًا، مُرتكنًا إلى الحائط، يمرُ الوقت على كلينا مُتوانيًا.

- ما الذي يحدث حينها يا سالم؟

- يحدث حين ماذا؟

- وقت الإعدام.

زَفَرَ زفرةً طويلة انتزعته من فراغه، كفَّ عما يفعله واعتدل:

- والله لا أزعم أني أعرف كل شيء، كل ما أعرفه، ويعرفه غيري، هو بعض ما تلتقطه آذاننا من هنا وهناك.

- أخبرني فقط بما تعرف.

- عمومًا، وكما يُقال، فإن محكوم الإعدام يعرف بموعد التنفيذ قبل أربعٍ وعشرين ساعة، يدخل الشرطيُّ إلى العنبر، لكنه لا ينادي أسماءً كما يحدث في عنبرنا وباقي العنابر، بل يذهب للشخص المعنيّ نفسه، يهمس إليه بأن لديه مستشفى صباحًا، فيفهم هذا أن لحظته قد حانت، فيستحم، يتعطر، يقرأ القرآن، ويتصل بذويه إن أراد، وفي الغالب لا ينام، لأنها تكون ليلته الأخيرة، ثم قُبيل التنفيذِ بساعات، وكما رأيت، تُغلَقُ زنازين السجن كله على من فيها، ثم تأتي الشرطة فجرًا، وتخرج بمن سيُنَفَّذُ فيه الحكم، عندما يكون من أهل البلاد فإننا نسمعه يهتف : "أنا فلان بن فلان.. حِلّوني[١٣].. حلّوني الله يرضى عليكم"، المستيقظون حينها في العنابر يرددون: "محلل يا فلان.. محلل.. الله يغفرلك ويسامحك" أيُّ: أبرءوا ذمتي، سامحوني، لو صدر مني أي أذي ناحية أحدٍ منكم، لأنه قد يكون له بطبيعة الحال معارف وصداقات، بعكس باقي الجنسيات التي تأتي لا تعرف أحدًا..

- تعني أنه إذا من كان سيُنفذ فيه الحكم من أهل البلاد، فهل سأسمع هذا؟

- أفهم ما تَرمي إليه، لكن لا يُشترط أن يحدث هذا بالضبط، فالبعض يَخرُج مصدومًا لا يتكلم، وهناك من يحملونه حملًا لأنه لا يقوى على السير، هناك من يرددون أسماءً نُخَمِّنُ أنَّها أسماءُ عوائلهم.. زوجاتهم وأولادهم.. هناك من يهذي بجملٍ لا معنى لها.. هؤلاء يُسَاقُون إلى نهايتهم يا زين.

أومأت مُتَفَهِمًا فعاد سالم إلى سكوته وخطوطه العشوائية من جديد. دقائق حتى تناعست عيناه قبل أن تسْقُط رأسه على صدره وينام جلوسًا، وكان ذلك حين بدأ كل من في زنزانتنا ومن في الزنازين الأخرى يفترشون أغطيتهم ويستلقون فوقها، حتى ازدادت زفرات الساقطين نومًا وتعالى شَخِيرهم. كنت لم أزل على نفس جلستي، أحاول إلهاء نفسي بالتفكير في أيِّ شيءٍ دَرْءًا لغمزٍ راح يعيثُ فِي صَدْرِي قَلَقًا، لكني لم أستطع، فطوال الوقت كانت تتراءى لي وجوه أولئك الذين أحببتهم وينتظرون يقينهم على بعد أمتارٍ قليلة من هنا، أعينهم وهي تتطلع إليّ، كلماتهم وهي تترددُ في أذني، قَلقهم وخوفهم عليّ، نخوة فهد وطُرف صالح.. لطف وكرم الباقين.. رائحة زنزانتهم التي عطّروها لأجلي.. تسابقهم لإضحاكي وإلهائي عن

---

[١٣] يحل الشيء أي يَفكه، ويُحرره، حلوني أي حرروني من أي خطأ ارتكبته بحق أحد.

همومي ومشاكلي.. أصابعهم وهم ينْشِبُونها في ظهري عندما احتضنوني وداعًا: "يا زين لنا حقٌ فيك، كما أن لكَ حقٌ فينا".

قُبيل الفجر، وفيما أقاوم اِرْتخاء جفوني، تناهت إلي مسامعي أصواتُ أقدامٍ آتيةٍ من أول الطُرقة، ممتزجةٌ بحفيف أوراقٍ وصليل مفاتيح، نهضت في لحظةٍ كالملسوع، متواثبًا من بين المستلقين حولي قبل أن أنقضَّ على الأسياخ ماسحًا وجهي طلبًا لاستفاقة. الأقدامُ كانت تسير بتأنٍ لكنها وسط الصمت القاتل كانت واضحةً جدًا، إيقاع مِشيتها حتى لم يكن كإيقاع عشرات الأقدام التي حفظت صوت عِناقها للبلاط، حين توقفت - الأقدام - تعالت وسوسات المفاتيح قبل أن أسمع همسًا يدور بين الواقفين وكأنهم يتَّفقون على شيءٍ ما، استمر الهمس لنصف دقيقة! ثم سكت، أتى بعدها صوت صرير الباب ليشق سكون المكان قبل أن تغيب الأقدام بالداخل.

في الأيام التي كنت أسمع فيها صرير باب عنبر القتل وهو يُفتح؛ كان قلبي يرتعد، أقول لنفسي ليكن الله بعونِ من في الداخل، ففي كل انفراجةٍ للباب وكأنَّ موتًا أصغر يحل بهم قبل أن يحين موتهم الأكبر، فصرير الأبواب التسعة كله متماثل، لكن صرير باب عنبر القتل له وقعٌ آخر، وكل الأبواب تنفرج في كل الأوقات، ولكن انفراجة عنبر القتل شيءٌ آخر، فمن بالداخل لا يعلمون بم تأتيهم انفراجته هذه المرة، أبزيارة! أم بأماناتٍ! أم بغيرهما؟! ولئن كان عذابي بتلك الساعاتِ الماضيةِ عظيمٌ وأنا انتظر معرفة ذلك الذي ينتظر الموت، فكيف يكون عذاب من ينتظر الموت نفسه بتلك الساعات نفسها، بل كيف يكون عذاب مَنْ ينتظر الموت طوال الوقت.

شببت برأسي وكأني أريد أن أخترق بعيني الحُجُبَ لأعرف ما يدور بالخارج، وكان هذا حين تعالى من حولي همسٌ آخر، فانتبهت تلك اللحظة فقط أني لم أكن المستيقظ وحدي، فحولي وقف آخرون متعلقين بأسياخ زنازينهم، تحمل وجوهم قلقًا، وتوترًا، وفضولًا أيضًا! عشر دقائق حتى خرجت الأقدامُ بعد أن زادت عليها قدمان أُخريان بدتا تتحركان بمشقة، في تلك اللحظة سقط قلبي بين قدمي، وانتصب شعر رأسي، للحظةٍ وددت لو ينفرج باب العنبر شِبرًا لألمح لمحةً واحدة، لِم لا أسمع صوته؟! لِم لا يبكي إذن؟ لِم لا يتحدثون معه؟ لِم لا يتكلم؟! فهد! يا فهد! أهذا أنت؟! للحظةٍ كنت على وشك أن أصرخ بها،

زاغت عيناي وأنا أتنقل بين وجوه الواقفين عسى أن يصدر من أحدهم إشارةٌ واحدة تشفي القلق، لكنهم جميعهم بدوا مثلي.. يبحثون عن مجرد إشارات.

أُغْلِقَ باب العنبر من جديد قبل أن يتحرك الموكب مبتعدًا، فقط كانت تتوقف الأقدام كل بضع لحظات، لتتمهل مع القدمين المترددتين، قبل أن يتحرك الجمعُ مرةً أخرى.

اِسْتَغْرقتْ رحلة الذهاب ثلاثة أضعاف وقت القدوم، حتى تلاشى الصوتُ تمامًا وساد الصمت، عاد بعض الواقفين حولي إلى أماكنهم، بينما ظل بعضهم الآخر متصلبٌ أمام الأسياخ، على نفسِ حالتِهِ من الوجوم. عُدْتُّ إلى مكاني وأسندت رأسي للحائط، كفكفت دمعتان نضجتا دون أن أنتبه، ثم استلقيت بعدها على الأرض، ورُحت أنظر للسقف شاردًا.

***

في السابعةِ صَباحًا أَفَقت على صوت أفراد الشرطة يفتحوُن الزنازين مرةًّ أخرى، كنت أشعرُ بطنينٍ في رأسي، كأنَّ هناك طُبولًا عظيمة تقرع، حتى أني ظللت مغمضًا عينيّ لدقائق مِنَ الألم. وكان سالم قد استيقظ أيضًا للتو، فسألته بنصف عينٍ إن كان عرف بمن نُـفِّـذ به الحكم!

- لا يا زين، سَلْ نصَّار فقد تجد لديه خبرًا.

- لا علاقة لي بنصَّار يا سالم، سَلْه من أجلي أرجوك.

قامَ سالم بمزاجٍ خاملٍ يترنح في نعله مشيًا إلى زنزانة نصار، غاب داخلها لدقيقة ثم خرج تتحاشاني عيناه، نكَّسَ رأسه في الأرض:

- الذي نُفِّذَ فيه الإعدام من أهل البلاد فعلًا، لكن لم يُعْرَف اسمه بعد.. وربما..

قبل أن يتم عبارته خرج نصار بنصف جسده من زنزانته: لا يا سالم.. لا.. لا..

تابع هتافه: بل إيراني.. إيراني يا سالم.

تهدت لافظًا كل ألمي وقلقي وتعبي الساعات الماضية ثم دعوت الله أن يغفر لمن برأت روحه، وليرحمه رحمةً واسعة، ويُثَبته عند السؤال.

- ١٧ -

الجلسةُ غدًا..

لَمْ أَنمْ في تلك الليلة! عندما أُغْلِقَت الأنوار ونام الناس خرجت إلى الممر ألتمس المصباح الوحيد المضاء بآخره، وفي مساحة الضوء الفقيرة تلك، والتي لا تزيد عن المترين طُولًا، كنت أتحرك ذهابًا وإيابًا مُمسكًا بأوراقٍ كتبت فيها كل ما أنوي قوله غدًا أمام القاضي، فقد ارتأيت أن طالما لي جلسة وسيُسمح لي فيها بالكلام فلم لا أقص كل ما حصل، ثأرًا لنفسي وكرامتي، وكي لا يقع بريءٌ آخر في نفس مصيبتي، هكذا كتبت كل ما مررت به منذ قُبِضَ علي في الشارع وحتى ألقيت هنا، بإيجازٍ ودون إسهاب، فيقينًا أن للجلسة وقتٌ محدد، ثم رُحت أراجع كل ما كتبته كلمة بكلمة، وسطر وراء سطر. حينًا، ووسط كل هذا، كانت عائِشة تتسلل إلى مخيلتي رغمًا عني، فكانت قدماي وحدهما تتوقفان عن السير، وترتخي يداي بالأوراق إلى جانبي، لتَصْطَرِع برأسي عشرات الهواجس أن كيف سألتقيها وتلتقيني؟ وبأي حديثٍ سينطق لساني؟ بل كيف سينطق؟ وبِمَ سيُقَابَلُ كل هذا؟

فجرًا توَضَّأت وصَلَّيتُ مع المُصليّن، دخلت بعدها إلى أحد المسابح واستحممت جيدًا، ثم خرجت وتَمَدَّدت بالزنزانة لا أفعل شيئًا، فقط راحت عيناي تطوفان بالعنبر الساكت، وزنازينه المظلمة، وأشقياءه الغافين، قبل أن تنتهي جولتي عند سالِم الذي كان نائمًا بجواري، تَعَبًا من ليلةٍ قضى نصفها بالعمل ونصفها برفقتي، حين جالسته مُسْتَأْنِسًا ومُوَدِّعًا وشاكِرًا على كل ما فعله لأجلي.

في الثامنة فُتِحَ باب العنبر ونادى الشرطيُّ اسمي وأسماء آخرين، فخرجت وصافحت كل من وجدته أمامي، أعرفه أو لا أعرفه، شددت على الأكُفِ وعانقت الصدور، عبرت بالزنازين مُلْقِيًا السلام على الموجودين وأَنْ أراكم على خيرٍ في الخارج بإذن الله، عَرَجت على عبد الشكور وشكرته على مساعدته ومؤازرته لي طوال الوقت، فطلب مني أن أنتبه لنفسي وحالي ثم دعا لي بالتوفيق والسَّداد. انتهزت فرصة

أن بعض المساجين لم يتجهزوا بعد للخروج فعُدْت إلى الزنزانة وجثوت قبالة سالم، قَبَّلت رأسه وهمست له شاكرًا مرةً أخرى على كل ما فعله لأجلي، فاستقبل كل هذا بانفراجةٍ مُرهَقَةٍ من جِفْنيه، وبتلويحاتٍ من يده أن تصحبكَ السلامة والله معك، قبل أن ترتخي اليد ويبتلعه السُبات مرَّةً أخرى.

فَوْر أن خرجت من العنبر صفَّد الشرطيُّ يديَّ كلتيهما بالقيود، بعد أن أحَاطَ قَدَميَّ بِطَوْقَين حديدين كبيرين. القيود والطوقين مُتَصليْن ببعضهما البعض بسلسلةٍ حديديةٍ سميكة تحدُّ من حرية الحركة فتجعلها لا تزيد عن مجرد الزحف بالقدمين. بجواري اِصْطَّفَّ سجناء آخرون، قُيِّدُوا بنفس الطريقة.

سِرْنا، أو بالأحْرى حَبَوْنا مَشْيًا، صفًّا واحدًا، حَتى وصلنا إلى آخر الطُرْقة، حيث انتظرتنا كراسٍ وحلَّاقون بزيِّ السجن، جلسنا جميعًا لتُعمِل الماكينات الحرث والجزَّ في رؤوسنا وأذقاننا، فارِشةً الأرض ببحارٍ من الشعور. سِرنا بعدها صُلْعًا مُسَلْسَلين إلى خارج المبنى حيثُ باحة السجن وعربات الترحِيلات العملاقة، والتي بدأ هديرها يتعالى لنصعد إليها بعد أن تم تفتيش كلٍ منَّا تفتيشا كُليًّا دقيقًا، أُغلقت الأبواب علينا وعلى من رافقونا من حُرَّاسِ الشرطة لتسوُد العتمةُ بالداخلِ إلَّا من خيوطِ ضوءٍ تَسللت من أربعةِ نوافذ مربعة تحدُّها قضبانٌ من الحديد. تحرَّكت العربات وراء بعضها البعض تتبعها سيارتا شُرطة وتَسْبِقها أُخريان، قبل أن تَنفرِجَ بوابة السجن على مصراعيها ليعبرها الموكب الكبير.

سارت العربات مُتهاديَة في نفس ذلك الطريق الطويل العامر بالمتاريس والمطبَّات والذي حُمِلتُ فيه أول مرةٍ منذ بضعة أشهر، أترجرجُ فيها والمساجين من حولي كأقفاص الفاكهة، حين انزلقنا للحَضَر، وتناهت إلينا أبواقُ السياراتِ وضجيجُ الناسِ وجلبةُ الشارع؛ قُمت مأخوذًا من مكاني، لم أكن أعلم إن كان هذا مسموحًا به أم لا، فقط وجدت قدميَّ تقفان وحدهما رغمًا عنى، تَسْحَبَاني فيما يتعارك طوقاهما صليلًا إلى إحدى النوافذ، حين تهيَّأتُ لكفٍ قد يشدني أو تعنيفًا قد يطالني لم أجد هذا ولا ذاك، عندها فقط، مُطْمَئِنًّا، ألصقت وجهّي بالقضبان، ناظرًا للسماء بحنين، إلى زرقتها وسحاباتها، مُتمليًّا في تكوينات الحدائق بمنتصفِ الطريق، واخضرارِ الزرع على جانبيه، طُفْتُ بوجوهِ الرجال والنساء والشباب والأطفال مع أُمهاتِها، مَدَدتُ أنفى اشتَّم هواءً لم تُلوثه كتمةُ العنبر ولا روائحُ العَرقِ ولا سباب الناس، هكذا إذن جُعِلَت القضبان إذ تبْصرَ ما وَرائها، فتُذكرك إن لم تَعش كَمَدًا! مُتَّ أَمَلًا! وكان هذا حين سمعت جلجلة الحديد

من حولي! سُجناء آخرين؛ قاموا وانضمُوا إليَّ، من بريق أعينهم تحسبُ سنين الحِرْمَان، ومن قسمات الأَوْجهِ تدرك حجم الشقاء. في لحظةٍ ما كانت نوافذ العربة كلها مكتظةً بالرؤوس الصلعاء التي كانت تحاول أن تلتمس من بين بعضها البعض فُرجةً للرؤية ولو للحظات.

وكانت العربات تتحرك قاطعةً شارعًا تلو الآخر دون أن تقف في أية إشارات، فالشوارع تُغلق على المارة والسيارات الأخرى حتى عبورنا، وكان الناس يتهامسون وهم ينظرون إلى موكبنا بدهشةٍ عظيمة: "انظروا بسرعة! مساجين! مساجين!" كأننا كائنات من كوكبٍ آخر، هكذا كنت أفعل عندما كنت صغيرًا، قبل أن يتبدل الأمر بطريقةٍ لم تكن يومًا بالحُسبان.

بعد نصف ساعة توقفت العربات أمام مبنىً مهيبٍ ضخم؛ مبنى "المَحْكَمَة"!

اِنْفَرَجَتْ أبوابُ العربات ليستقبلنا كمٌّ كبيرٌ من رجال الشرطة، أنزلونا واحدًا تلو الآخر قبل أن يقتادونا مُحَاصَرِين إلى بابٍ جانبي للمحكمة، يبدو أنه مخصصٌ لدخول السجناء، عَبَرناه ونزلنا سُلمًا أفضى بنا إلى غرفٍ دلفناها قبل أن يأتي شرطيٌ وينادي الأسماء وأرقام القضايا، ومنها سمعت اسمي، وعرفت رقم قضيتي، دقائق أخرى وبدأ كل خمسة أو ستة من السجناء يخرجون من تلك الغرف صعودًا إلى المحكمة، يغيبون ساعةً أو أكثر قليلًا ثم يعودون، لم يكن أحدٌ يتكلم مع أحد، ولم أكن أدري ما يحدث بأعلى.

بعد ساعتين نادى الشرطيُّ اسمي وأسماء آخرين، فخرجنا وصعدنا سُلمًا أَفْضَى بنا إلى ممرٍ واسعٍ مشينا فيه صفًّا واحدًا، تلتصق فيه أجسادنا بالحائط، أو على هذا أُجبِرنا، فالشرطة كانت تمشي بحذائِنا في صفٍ آخر موازٍ لصيقٍ كعازلٍ بشريٍ عن المدنيين الذين بدأوا يتوافدون في نفس الممر المُفضي لقاعة المحكمة.. نساء.. شيوخ.. أطفال.. كان الكل يتطلع إلينا بفضولٍ كبير، تطوف أعينهم استغرابًا ورهبةً بسلاسلنا وملابسنا ورؤوسنا الصلعاء، حاولت أن أرفع يديَّ لأواري وجهي حين أعاقتني السلاسل، فَوَلَّيْتُ رأسيَّ شَطْرَ الحائط قدر استطاعتي.

دخلنا قاعة المحكمة، وكانت ضخمةً، مهيبةً، اِكتظَّت بالعشرات من العائلات التي راح يبحث أفرادها في وجوهنا عن ذويهم بالتلويح والنداءات. بالصفِّ الأول كان هناك محامون، وبالصفوف الأخرى أهالي السجناء.

أُدْخِلْنَا إلى قفصٍ حديديٍّ كبيرٍ كشفنا لمنصة القُضاة والحاضرين حين اقترب مِنَّا ضابطٌ وبدأ يُملي تعليماته، ومن وراءه عساكره يتنقَّلون بين ملامحنا ليتأكدوا أننا نعي ما يُقال..

- اسمعوا جيِّدًا، ستجلسون هناك - قالها وهو يشير إلى دكَّةٍ خشبية - لا يتكلم أحدكم بأية كلمة، عندما يدخل القُضاة ستقفون في ثباتٍ كامل، لا ينبس أحدكم بكلمة، ولا يتكلم مع أحد، ولا تجلسوا إلَّا بعد أن يجلس القُضاة، سيبدأ الحاجِب في النداء على القضايا، من يسمع اسمه وقضيته يقوم ويتوجه إلى هناك - قالها وهو يشير إلى القُضبان - ويقف كالألف، لا يتكلم إلَّا إذا سمح له القاضي بالكلام، أُكرر لا يتكلم إلَّا إذا سمح له القاضي بالكلام، أما فيما عدا ذلك - تقاطعت سبابته مع شفتيه - سكوت تام.

أومأنا برؤوسنا إيجابًا، ثم زحفنا بقيودنا إلى الدكَّة ننتظر، بعد دقائق دخل القاضي ومستشاروه واحتلوا أماكنهم على المنصة قبل أن يشيروا للجميع بالجلوس، أومأَ القاضي برأسه للحاجب فنادي هذا اسمًا ورقمًا، فقام من جواري أحد السجناء مقتربًا من القضبان في الوقت الذي تقدم فيه محامٍ إلى منصة القضاة بأوراقٍ ما.

ثلاث قضايا نادى بهم الحاجب وترافع فيها بعض المحامين، أنصتَ فيها القاضي والناس منتبهة، لم أكن أسمع أو أنتبه لما يُقال، كنت فقط أُرَدِّدُ بيني وبين نفسي ما أنوي قوله للقاضي، داعيًا الله أن يُنزِّل علي ثبات الجأش وطلاقة اللسان، فالأمر برُمته بدا لي أكثر رهبةً مما كنت أعتقد.

- "زين الدين أحمد الشُهيبي"..

قُمت وتوجهت إلى القضبان، وكان ذلك في نفس الوقت الذي تقدم فيه من المنصة محامٍ لا أعرفه ولم أره قبل اليوم! ناول القاضي عدة أوراق تَصَفحها الأخير: ما هذا؟

- مُذكرة يا حضرة القاضي.

- مُذكرة! ألَا يوجد لديكم من يترافع عن هذا الرجل؟!

تنحنح المحامي: في الواقع؛ هذه ليست قضيتي، أنا محامٍ مُنـاب، أعطاني هذا الورق دفاع المتهم وقال لي أن أقدمه لهيئتكم الموقَّرَة.

انصرف المحامي مِن أمام القاضي فيما رُحت أبحث بين صفوف الحاضرين عن ذلك المحامي الذي زارني في السجن لكني لم أجده! عُدْتُّ أنظر للقاضي الذي لم يزل يُقَلِّبُ في أوراق المذكرة حين اعتراني اضطرابٌ وتوترٌ شديدان، لِمَ لم يلتفت لي حتى هذه اللحظة؟ ألن يُكلمني أو يسألني؟ أولست أنا المعنيَّ بكل هذا في الأساس! التفتُّ للشرطي بجواري أشير إليه أن ماذا سيحدث الآن؟ وما الذي ينبغي أن أفعله؟ لكنه حدجني بعينيه إسكاتًا دون أن ينبس.

- "أريد أن أتكلم لو سمحت".

خرجت مني في لحظةٍ ما، مرتعشةً، وبعد أن كان التوتر قد بلغ بي مستوىً يفوق احتمالي..

تحوَّلت إليَّ رؤوس من في القاعة جميعهم، لمحت الشرطي بجواري يرمقني بنظرةٍ حطَّمت ما تبقى من أعصابي. أزاح القاضي الأوراق جانبًا والتفتَ إليَّ متأمِّلًا لعدة ثوانٍ ران فيها صمتٌ كامل تقديسًا لما سيأتي به:

- أأنت زين الدين أحمد الشُهيبي؟

- نعم أنا.

قرأ القاضي من ورقٍ أمامه:

- زين.. أنت متهم بحيازة المخدرات وبالهروب بعد القبض القانوني عليك.

- يا سيادة القاضي لست متهمًا بشيء، ولم أفعل شيئًا مطلقًا، فما حدث بالضبط هو أني كنت أسير بسيارتي في أحد الشوارع حتى استوقفتني نقطة تفتيش، وطلب أحد أفرادها رخصة القيادة الخاصة بي، لكن عندما أعطيته الرخصة وتحرَّى عني..

أوقفني القاضي بأن أغمض عينيه ورفع كفه مفرودًا:

- على قدر السؤال، رُد على قدر السؤال فقط، زين الدين أحمد الشُهيبي، أهذا اسمك؟

- نعم أنا.

- تُهمتك هي حيازة المخدرات والهروب بعض القبض عليك، مضبوط؟

- يا حضرة القاضي ليست تلك تهمتي، وليست لي أية تهمة، أنا لم أحز أي مخدرات يومًا ولم أهرب من أي مكان، لقد كنت....

- ألم تفهم ما قلت؟! فقط عندما أسألك ترد على قدر السؤال.. لا تسترسل ولا تشرح إلَّا إذا طلبت ذلك.

اقترب مني الشرطي خطوتين في تهديدٍ ضمني قبل أن يعلو صوت القاضي في القاعة:

- أنت زين الدين أحمد الشُهيبي، ومتَّهم بحيازة المخدرات وبالهروب بعد القبض عليك، صحيح؟

اضطربت وتسارع نبض قلبي بشدة:

- أنا هو زين الدين أحمد الشُهيبي، اسمي هو زين الدين أحمد الشُهيبي، لكني لست مَن بهذا الورق أمامك يا حضرة القاضي، مَن بالورق أمامك شخص آخر غيري، أعني لست أنا المفترض وجوده بهذا القفص، فأنا لم أرتكب أيًّا من تلك الجرائم التي أمامك..

زفر القاضي في نفاذ صبر، فأكملت في سرعة:

- يا حضرة القاضي أنا هنا مكان شخص آخر، أُقسم لك بأنه لا علاقة بي بهذا الأمر كله، لم أحز المخدرات يومًا ولا أعرف حتى شكلها، ولم يُقبَضْ عليَّ في أي يومٍ حتى أهرب، لقد أخذوني من الشارع فجأةً دون تحقيق ووضعوني بالسجن..

لوح القاضي بيده: حسنًا.. حسنًا.. انتهى..

أشاح بجسده عني وتناول قلمه وفتح ملفًا كان أمامه، فصُعِقت وانخلع قلبي، تشبثت بالقضبان:

- حضرة القاضي لقد أُلقيت بالسجن دون أي تحقيق، أنا لم أفعل أيًّا من تلك الأشياء التي أمامك.. والله لست أنا من يجب أن يكون هنا..

خطَّ القاضي سطورًا في أوراقٍ أمامه..

- حضرة القاضي لقد قالوا أني سأتكلم، قالوا أنك من ستسمعني.

أغلق القاضي الملف بنفس الهدوء..

- يا حضرة القاضي.

ناول القاضي الملف للحاجب الذي ضمَّه لتلٍ من الملفات بجواره، فاستقبل الشرطي بجواري لوعة عيني: هل انتهى الأمر؟! أهذا كل شيء؟!

توجهت إلى القاضي مرةً أخرى جزعًا:

- حضرة القاضي بالله عليك.. أنا بريءٌ من كل ذلك ولم أرتكب أي جرم.. فُصلت من عملي وضاع مستقبلي ودُمِّرت حياتي.. لم أحز المخدرات يومًا ولم أتعاطها ولا أعرف حتى شكلها.. أنا لا أُدخن حتى.. حضرة القاضي ألتمس عدلك.. لقد هزل جسدي ووهنت صحتي.. مَرِضْتُ من نومة الأرض ومن قلة الطعام ومن معاملة الشرطة والسجناء.. لست أنا من فعل كل هذا.. لست أنا قسمًا بالله..

كان الناس ينظرون لي اِشفاقًا واِستغرابًا، حتى أن الأطفال لاذوا بأحضان أهاليهم خوفًا من صوتي ونشيجي، وكان هذا في الوقت الذي استقبل فيه الحاجب هزةً من رأس القاضي فنادي هذا على القضية التالية، ما كان هذا إيذانًا للشرطي الواقف بجواري ليسحبني عن القضبان شدًّا فتلفت حولي كالمجذوب:

- لا لا لا حسنًا والله.. حسنًا.. انتظر.. حضرة القاضي.. حضرة القاضي سأجيب بقدر السؤال.. استجوبني.. أسألني.. سأجيب والله بقدر السؤال.

نادى الحاجب على اسم ورقم القضية التالية في الوقت الذي قفز فيه ناحيتي شرطيٌ ثانٍ ليستقبل مع الأول جنون حروفي: "لا لا لم أتكلم، والله لم أتكلم، لم تزل لي فرصة، لم تزل لي فرصة"، لكنهما انتزعاني بقوةٍ لانفلت عن القضبان قسرًا، قبل أن يحاصراني كلاهما ويُجلساني عنوةً إلى الدَّكة بعد تعنيفٍ ووعيد.

انتهت تلك الجلسة، ثم الجلسات كلها، فاِنقدتُّ ومن معي إلى العربات مرةً أخرى عودًا إلى السجن، حيث عرفت أن أحكام القضايا كلها ستصدر بعد بضعة أيام، وليس في نفس اليوم كما كنت أظن.

جلست بالعربة أفكر فيما حصل، تصطرع برأسي الظنون والهواجس، أقول لنفسي أن بإذن الله خيرًا، بإذن الله خيرًا، فبالتأكيد فطن القاضي إلى الأمر، بالتأكيد فهم شيئًا ما، وكانت العربات تقطع الشوارع واحدًا تلو الآخر.. لكني هذه المرة لم أقف لأتأمَّل النوافذ.

- ١٨ -

كانت الدقائق العشر التي استغرَقتها الجلسة تتكرر أمامي ليومين مُتتالين كفيلمٍ لا ينتهي، أتمعنُ فيه مرَّةً بعد مرة، راصدًا كل كلمةٍ نطق بها القاضي، كل إيماءةٍ وكل التفاتة، عسايَّ أجدُ في تفصيلةٍ ما يَشْفي القلق والحيرة، فأفهم ما خَلُصَ إليه واستنتجه، حينًا كان يرتفع رأسي مُنتبهًا بعد طول ارتكان: آآآه، أرأيت يا زين؟ طالما أنه فعل كذا إذن فقد فهم كذا وكذا، لكن لا لا؛ إشاحته بيده هنا توحي أنه لم يفطن بعد للأمر، لكن مهلًا! نظرته هنا تدل على أنه أدرك شيئًا ما.

"زين الدين أحمد الشُهيبي"..

انتفضت من مكاني وجريت إلى الشرطي الذي فتح باب العنبر للتو. كان يقلِّبُ أوراقًا بين يديه: أأنت زين؟

- ماذا هناك؟ ماذا لديك؟

استوقفته ورقة: أنت رفعت قضية (...).. بتاريخ (...)..

- نعم.. نعم.. خيرًا؟

تمهل لثوانٍ: حكم القاضي بقبول الطعن.

- قبول الطعن! ما معنى هذا؟ ما هو قبول الطعن؟ أوضح أكثر أرجوك.

- تم تخفيف عقوبتك إلى شهرٍ واحد.

تلعثم لساني فرحةً: ماذا تقول؟! شهر واحد! شهر واحد فقط! اصدقني القول يا أخي.

ارتفعتا عيناه عن أوراقه شيئًا: وهل قد أضحك معك؟

تلاحقت أنفاسي: شهر! شهر واحد فقط! شهر واحد فقط.

خفق قلبي بشدة وعلقَ لساني من الفرحة فتلفتتُّ حولي بحثًا عمَّن أبثه سعادتي: قال شهرًا واحدًا فقط.. قال شهرًا واحدًا.. أسمعتم؟! الحمد لله.. شهر وأخرج.. شهر واحد فقط وأخرج..

توقف عن تقليب الأوراق: شهر وتخرج؟

التفت إليه مندهشًا: أولم تقلها بنفسك؟

- أنا قلت شهر وتخرج؟

كزَّ على حروفه: قلت – تمَّ – تخفيف – حُكمك – إلى – شهر واحد.

مشدوهًا: ألَا يعني هذا تخفيضها من سبع سنوات إلى شهر واحد؟!

- كلا، بل تخفيضها من سنتين إلى شهر، هذه الجلسة كانت بخصوص قضية الهروب فقط والتي كانت عقوبتها سنتان.
- قضية الهروب!
- أنت عليك تهمتان، مخدرات وهروب، تلك القضية كانت طعن في عقوبة الهروب، فتم تخفيضها من سنتين إلى شهر.
- والأخرى؟!!
- كما هي..
- كيف "كما هي" ولماذا "كما هي"؟!
- لأنك لم تُقِم دعوى بشأنها.
- سأقيم إذن دعوى بشأنها.
- لم يعد ممكنًا.
- لماذا؟!
- لأنه كل مراحل التقاضي بهذه القضية قد فاتتك بينما أنت هارب، فأصبح الحُكم فيها نهائيًا، كم حُكمك؟

- خمس سنوات.

- إذن فأنت معنا لخمس سنوات وشهر.

وكأني أُلقيت من فوق جبل: هذا مستحيل! ماذا تقول؟! ألَا يُوجد إذن محكمة أخرى أو قاضٍ ثانٍ أشكو إليه؟!

- لا ثانٍ ولا ثالث.

- ما الحل إذن؟! ماذا أفعل؟! أخبرني!

- تكيَّف مع وضعك وليُعِنْكَ الله على باقي المدة.

"أتكيف؟!"...

شَقَّتْ الكلمة صدري فعُدت أنظر إلى أنحاء العنبر وكأني أراه للمرة الأولى، عندما التفتُّ إلى الشرطي وجدته قد أغلق الباب وغادر.

داهمتني دوخةٌ فارتكنت إلى الباب مرتكزًا، فيما اتَّشَحَ كل ما حولي فجأةً بالسوَّاد.. البلاط.. السقف.. الزنازين.. حتى وجوه السجناء.

ماذا يحدث؟! حقًّا ماذا يحدث؟! أهي مؤامرةٌ إذن؟! أكل هؤلاء يتآمرون علي؟!

على أيِّ أساسٍ إذن أخبرني ذلك المحامي بأن الأمر محسوم ومنتهٍ؟! لِمَ لَمْ يخبرني بأن مراحل التقاضي كلها قد نَفِدَت؟ هل كان يعرف هذه المعلومة قبلًا؟ وإن كان يعرفها فلم أخفاها عني؟ ألهذا لم يأتِ إلى الجلسة؟ وإن لم يكن يعرفها فماذا كان يفعل كل تلك الأشهر الماضية منذ تولى الأمر؟!

القاضي! لماذا كان يُعاملني طوال الوقت وكأنني المجرم الحقيقي؟! هل أضعت الفرصة إذ لم أستطع التحدث إليه؟ هل كان من المفروض أن استرسل سريعًا في شكواي؟ أو ربما أختصر! وفيم سيُفيد الاسترسال أو الاختصار وقد كان يرفض سماعي من الأساس؟! لِمَ لَمْ يستجوبني إذن؟! كيف هكذا في ثوانٍ أغلق الملف وأنهى الجلسة؟

انتبهت فجأة: نعم، كان هناك ملف؛ ملفٌ ضخم كان موضوعًا أمامه قبل أن يناوله للحاجِب، أهذا هو ملف قضيتي؟ أهذه هي تحقيقات النيابة! إذن هناك شخصٌ تم التحقيق معه، هناك شخصٌ سُجِنَ هنا قَبْلي، ربما في هذا العنبر أو في عنبرٍ آخر، وإلَّا فمع من كانت تلك التحقيقات؟! هل هناك زين آخر! اسمه هو اسمي! ورقم هويته هو رقم هويتي أيضا! بل وشكله هو شكلي، هل هذا ممكن؟ أم هي مؤامرة؟ هل معقول أن النيابة التي تحرَّت وحَقَّقت تتآمرُ علي؟! هل معقول أن كل هؤلاء يتآمرون عليّ، ولِمَ قد يفعلون ذلك؟ ما مصلحة كل هؤلاء في توريطي بتلك الجرائم؟! ما مصلحة أي شخصٍ عمومًا في توريطي في كل ما يحدث؟!

نظرت إلى الزنازين مرةً أخرى: أَمْ! هل قد أكون أنا من فعلت كل ذلك؟ هل أفعل أشياءً دون أن أدري؟ هل أعرف بلقيس تلك وتهجمت عليها فعلًا؟ وكانت معي مخدرات وقتها، وأنا الذي قُبض عليّ! وسُجنت ثم هربت!

"أتعلم ما الغريب يا زين؟ أنها قضيتان، قضية المخدرات والهروب، الأغرب هي قضية الهروب، هذا يعني أنه تم القبض عليك ثم هربت".

"والله يا سالم، لَمْ يُقبَض عليّ مرة أولى ولا ثانية لأهرب"

***

"حضرة الشرطي، جاءوا بي إلى هنا بالخطأ، جئت مكان شخص آخر"

"شخص آخر! هههههههه من هو هذا الشخص الآخر؟!"

***

"الأغرب أن الشرطة بتفتيشك وجدت إثباتك الشخصي: (زين الدين أحمد الشُهيبي)"

"إثباتي معي، حتى في يوم القبض علي كان معي"

***

"هل كنت تبحث عن أحدٍ بالداخل؟!"

"وعمَّنْ أبحث يا سالم، أنا لا أعرف أحدًا بالمكان"

"هل قلت لهم شيئا؟!"

"كلا"

"انتبه لنفسك يا زين، فهنا زنازين قد انتهت تمامًا"

***

سَحبتنِي قدمايّ إلى حيث كان سالم يُجالِس مَوقِده الحجري بالقُرب من زنزانته، لمَّا رأى وجهي ومِشْيتي أدرك الطآمة فقام من فوره بعد أن أولى جِهازه وقِدْرهِ إلى آخر بالزنزانة، ابتعدنا شيئًا قبل أن نستوي على الأرض جلوسًا، قَصَصْتُ عليه ما حدث فسمع صامتًا ولم يُعَلِّق، فقط اخْتَلَجَتْ ملامحه ضِيقًا مرة وتعاطفًا مرات. انتهيت فطأطأ رأسه سَاكِتًا ولم يتكلم، وكأنه أدرك لتوِّه أن أيًّا ما يُقال لن يهوِّن من فاجعتي، ولن يزيدني إلَّا كمدًا وبؤسًا، سألته أُغالب دموعي:

- هل ربما قد أكون قد فعلت تلك الأمور دون أن أدري يا سالم؟ هل ربما أكون مُصَابًا بازدواج الشخصية هذا، أو بانفصامها، أو أيًّا كان اسمه؟ هل أصير في بعض الأحيان آخر لا أعرفه؟ هل ربما تكون لي شخصيةٌ أخرى هي التي ارتكبت كل تلك الأمور وأتت بكل تلك الجرائم؟!

رفع رأسه بعد أن أطلق تنهيدةً طويلة وعدَّل من جلسته:

- والله يا زين ليس لي خبرة بهذه المواضيع، نعم سمعت بها؛ لكن والله لا دراية لي بها ولم أرها من قبل رَأْي العين أو أختبرها بنفسي.

- إذن كيف يتفق كل هؤلاء على جُرْمي؟! كيف تتفق الشرطة والقضاء والأوراق أنه أنا الذي قُبض عليَّ أول مرة، وحوكمت، وعوقبت بالسجن، ثم هربت؟

- بالتأكيد هناك شيءٌ لا نعرفه، شيءٌ يتعدى تفكيرنا وخيالنا، لأنه لو كان الأمر التباسًا فعلًا، أو خطأً إجرائيًّا، فكيف يمر هكذا من كل هؤلاء؟!

- بل وحتى القاضي يا سالم، ذلك الذي قِيل لي أنه من سيُنصت فكان أقلهم انصاتًا، وقيل أنه من سينصفني فلم أجد منه إنصافًا، لم يترك لي فرصة للكلام والله، أسكتني عندما هممت بأن أشرح وأوضح ما حصل، لم أكن أحتاج أكثر من دقيقتين، دقيقتين فقط! لكنه نفى وجودي تمامًا وكأني عدم.

سكت سالم ولم يُجِبْ، فلاذ كلانا بصمتٍ آسف، توجهت بعدها إليه بكل كياني راجيًا:

- والحل يا سالم، ما الحل؟

- بم أخبرك الشرطي بالضبط؟

أخبرته بما قاله الشرطيُّ للمرة العاشرة فبدا في عينيه - سالم - أنه يحاول أن يخبرني بشيءٍ يتخوف من رد فعله عليّ، صمت وطال صمته.

- ماذا يا سالم؟ قل لي ما يجول بخاطرك، قُل أي شيء، هل هناك حلٌ لم أفطن إليه ولم يفطن إليه هؤلاء؟

- صدقني يا زين، مضايقتك في موقفٍ كهذا هي آخر ما أرغبه ولكن....

- ولكن ماذا؟

- لم لا تُحاول مثلًا أن تتأقلم تلك الفترة؟

قاطعته غاضبًا: تأقلم.. تأقلم.. تأقلم.. سئمت تلك الكلمة.. وسئمت نطقها وحروفها كلها.. علام أتأقلم؟ وكيف أتأقلم؟ ومع من أتأقلم؟!

- أقصد أن هناك مثلًا (حِرَف) لتُشغل بها وقتك كالكهرباء أو النجارة، أو تنضم لبرنامج (التائبين) لتحفظ أجزاءً من القرآن، فتخفف من مدتك.[١٤]

- أنا أحفظ القرآن لأجل القرآن، وليس لأتوب من شيء، كيف أتوب من ذنبٍ لم أفعله؟!

- هي فترةٌ يا زين، فترة وستمضى كما مضى منها ما قد مضى.

- وماذا تبقى مني بعد ما مضى؟ ماذا تبقى مني؟ انظر لي ولحالي، أنا أتحطم في اليوم مائة ألف مرة، أتمزق روحًا وعقلًا وجسدًا، فماذا تظن أنه قد يتبقى مني بعد خمس أعوامٍ بهذا المكان؟

---

[١٤] برنامج التائبين: نشاط لحفظ القرآن يشترك فيه السجناء ممن لا تزيد عقوباتهم عن خمس سنوات، وفي كل عامٍ يصدر عفو ملكي لمن يحفظ الأجزاء المطلوبة.

نظرت حولي دامعًا: خسرت كل شيء، ولم يتبقَّ لي شيء.. لم يتركوا لي شيئًا يا سالم.. ضيعوني والله.. ضيَّعوا مستقبلي وحياتي وكل شيء..

التفتُّ إليه بحدة: ثم أمي!

أمسكت بكتفيه أبثهما جنونًا: كيف سأُبلغها بخبر كهذا؟ هي التي كانت تُمني نفسها بخروجي.. أنت لا تعرفها.. لن تحتمل.. صدقني لن تحتمل.

نظر حوله: زين زين اخفض صوتك بالله عليك.

- وعائِشة! لا أعلم عنها شيئًا، ولا أستطيع الوصول إليها، ولا تستطيع هي الوصول إليّ، ولا أحد يريد أن يصل إليها ليشرح الأمر.

كان الكثيرين حولنا قد بدأوا في التنبه إلينا، ما جعل سالم يلتفت حوله مُضَّطرِبًا وهو يزيد من ربتاته تهدئةً وتهوينًا، ولكن ما بين غضبي ومواساته، وما بين بكائي وعزائِه، تَنَاهت إلى مسامعي تلك النبرة، نبرةٌ مستهزئة، مُستخفَّة، مَبعثها ذلك الذي كان يجلس بالقرب منَّا متموضعًا كعادته وسط شلته وسجائره وأكواب شايه، وملتقطًا مني الجملة تلو الأخرى قبل أن يُعِيدها إليّ بعد أن ينفحها بسفالاتٍ يحصد بها من الضحكات مع ما يحصده من الورق على الأرض، لم أنتبه إليه في باديء الأمر، ولم أعِ ما يقول إن كان مُوجَّهًا لي أم لغيري! لكن في لحظةٍ بعينها وصلني شيئًا مما يقول:

"ثُمَّ أنه يا شباب كان هذا العنبر يومًا مصنعًا للرجال"..

ضحك وهو يلقى بورقته التي كوَّش بها ما على الأرض ظافرًا قبل أن يلتفت إليَّ بكامل جسده:

- حتى أتونا بمثل أولئك المُختَّثِين والشوَّاذ.

اِنفلق كفاي عن وجهي الغارق في الدموع، وانقشعت كل الأصوات من حولي، بل اختفى تمامًا كل ما حولي، حتى سالم نفسه لم أعد أشعر بكلامه ولا ربتاته، فلم يتبق في العنبر كله إلَّا هو؛ بسَّام! بفانلته الضيقة وضحكاته الشامتة وذراعيه العامريْن بالأوشام والأشكال.

في لمح البصر! جريت إلى موقد سالم.. نزعت طاسة الزيت المغلي.. انطلقت بها إلى بسَّام.. قبل أن أقفز بها إلى أقصى علو.. لأهوى بها على رأسه بعزم قوتي!

تبعثر الورق.. انقلبت أكواب الشاي.. صرخ هو محترقًا.. فيما أُلجم أصحابه من المفاجأة..

قبل أن يفيق أيٌّ من صدمته اعتليت صدره، ثم بكل ما فيّ من غضبٍ وغلٍّ اِنهلت عليه بالطاسة بضرباتٍ قويةٍ متواليةٍ سريعةٍ، حاول صَدها عبثًا وهو يعوي ألمًا من الزيت المغليّ الذي انكبَّ على كلينا، فأحرق من يديَّ وذراعيَّ ما أحرق، بينما تفحش معظمه على جسده لتلتهم النار عقارب صدره وحيَّات ذراعيه وكتابات كتفيه، في تلك اللحظة بالذات لم أكن أرى إلَّاه فقط - بسَّام، فبدا وكأنه السبب في كل ما أنا فيه، السبب في كل ما وصلت إليه من ذلٍ وهوان وتعب، لهذا كنت أضربه بالطاسة ضرباتٍ متتابعة كبندول ساعة لا يتوقف، أنها غضبًا وصراخًا وشتمًا ولعنًا، فيما تنفجر استغاثاته ألمًا من الوجع والحرق، سرعتي لم تعطه الفرصة ليقاوم، وجنوني لم يعطه ولو لحظة يستجمع فيها شتاته، وعزيمتي لم تَنَلْ منها شيئًا إلَّا محاولات رفاقه الذين ما أن استوعبوا ما حدث لرفيقهم حتى طالت ضرباتهم رأسي وظهري وجنبي وكتفيّ، لكن جسدي أبى أن ينسلخ عن جسده، بل وحتى حين نُزعت مني الطاسة لم أتوقف، فأرفقت غِليّ وغضبي في لكماتي التي شقَّت طريقها عبثًا إلى ما استطعت الوصول إليه من كتلته المسدوحة تحتي..

كل هذا لم يستمر أكثر من دقيقتين..

في الدقيقةِ الثالثة انقلبَ الحالُ فجأة.. لم أجد بسَّام.. اختفى.. سحبوه من تحتي.. أو ربما حملوني من فوقه.. كل ما أدركته أنيِّ طريحٌ أرضًا يحيط بي ظلام أربعة عشر حذاءً فولاذيًا يتنافس كلٌّ منهم في إيجاد مساحةٍ بجسدي لا تحمل بصمة الآخر، عشرات الأحذية؛ بأطرافها وكعوبها راحت تطعن صدري وبطني وظهري ورجلي وفخذي كمطارق أسمنتيه جعلتني أصرخ متكورًا، ومتقوسًا، ومنبسطًا، ومنبعجًا. ثمَّة حذاءٍ كان يُسافر إليَّ من بعيد، ركضًا، ليشوط بطرفه المدبب وجهي فأشعر بعنقي يكاد ينخلع من أوردته، قبل أن يبتعد الحذاء ويعيد الكرَّة من جديد، قدمٌ أخرى؛ برتابةٍ، كانت ترتفع لأقصى علو، ثم تهوى فيرتطم رأسي في الأرض هرسًا، وهكذا.. يعلو القدم.. يهوى.. فانهرس.. يعلو.. يهوى.. فانهرس.. قدمٌ ثالثة راحت بكعبها

العريض تدق ظهري حتى شعرت للحظةٍ أن فقراتي ستنشرخ من قوة الضرب. كلُّ هذا كان مشفوعًا بالشتائم والسباب: "يا وسخ.. يا بن الـ.... هنا قبرك.. هنا رح نقتلك.. هنا رح ندفنك.."، من بين أرجلهم كنت ألمح صورًا سريعة تلمع كفلاش الكاميرات للحظةٍ قبل أن تتآلف السيقان من جديد لتسوَّد الشاشة، عبد الشكور يقف ذاهلًا، سالم يركض مستغيثًا، سعد يُحاول أن يتدخَّل فيقومون بإبعاده، لوهلةٍ أدركت أن هؤلاء لن يتركوني إلَّا إذا همد جسدي تمامًا، وصُفيَّ من دمه.

في لحظةٍ ما انقشعت الأقدام من حولي لتحتل محيطي أقدامٌ أخرى بدا من لهفتها وسرعتها أن أصحابها يتشاجرون مع رفاق بسَّام، ليبتعد الكلُّ عني، ولتحتل مساحة الرؤية مَدُّ الممر، وعشرات المتفرجين.

حَبَوْت مُبْتَعِدًا عن الحِصَار كُلِّه قبل أن أتكيء على أحد القضبان لأبسط من طولي ما استطعت أن أبسط، اِنقدت وأنا أشحطُ في دَمي مُحطَّمًا إلى البابِ لأجلس فيما يتدافع من حولي الناس وتتداخل الهتافات، مِنْ شِقٍ رفيع بجفني المتورمين راعتني بقع الدم التي نزفت بمنتصف العنبر، وقد اِنبثق مِن مُحِطيها خطٌ أحمرٌ قانٍ تهادى مُتَعَرِجًا بطول الممرِ قَبْلَ أَنْ يُفضي في النهاية إلى حيث جلست، حول البركة وقف العشرات ينقلون أبصارهم بيني وبين بسَّام ورفاقه الذين كانوا يتشاجرون مع من أتوا من حيث أتوا ليفضوا الأمر. استمرت المشادة بين الفريقين خمس دقائق، تخللتها وعيد رفاق بسَّام بأن الأمر لم ينتهِ، وأنهم سيتصيدونني في وقتٍ لاحق قبل أن يمضوا مع صاحبهم الذي كان يحجل مَشيًا إلى زنازينهم، تُشَيِّعني أيديهم وألسنتهم بالسباب والبذاءات.

مَا إن انْفَضَّ الجمعُ شيئًا حتى تحاملت على نفسي وقُمت متوجهًا إلى المسالح، مُتكئًا على قضبان الزنازين، أمشي دقيقةً وأقف عشرًا، يَصرخُ جسدي كله من الألم، دموعي التي لمْ أُسِرَّ بها طوال الأشهر الماضية إلَّا لحوائط المكان أَمْسَتْ تهوي اليوم بلا تحفظٍ، على المشاع، وأمام الكُل، مُختلطةً بقطرات دمٍ تساقطت من عروقٍ حمراء تَشابكت كالسكك الحديدية بطول الوجه والرقبة، تَتَلَصَّص عليَّ من داخل الزنازين أعينٌ؛ مشفقٌ بعضها وغير عابيءٍ أغلبها، وبين هذا وذاك لم يتقدم أحدٌ مني سؤالًا أو مساندةً أو حتى مواساة، كنت أعلم أني هنا صفرٌ للكثيرين، وخصوصًا المُخَضْرَمِين في المكان، لا يهمهم إنْ عِشت أو مِتُّ

أو كنت بَيّْن بَيّْن، أمَّا البسطاء؛ فقد خشوًّا أن يتقاسموا معي مشهدًا من عطفٍ وشفقة، لئلَّا ينالهم أرذال بسَّام بما نالوني به من الشتم والضرب.

دلفت أحد المسابح وخلعت ثيابي حين أَبْصَرت سحجاتٍ وكدماتٍ بأنحاء الصدر والبطن، ألفيت حُرُوقًا بيدي ومعصمي من أثرِ الزيت الذي انكبَّ عليَّ لم أشعر بألمها إلَّا تلك اللحظة، أذني اليمنى؛ والتي كان يمارس أحد غيلان بسَّام استعداده العسكري فوقها، انعجنت في كتلةٍ من الدماء اللزجة حتى شعرت لوهلة، وأنا أزيل الدم المتجلط حولها، أنها قد تُمْسِي بيدي في أية لحظة، فتحت الدش ليغسلني الماء من الدم، أو ربما يغسلني الدم من الماء، فيما كنت أتابع من رقع الغطاء، بين لحظةٍ وأخرى، الممر وحركة السجناء خِشية أن يأتيني أحدهم غدرًا.

بعدما انتهيت عُدت إلى مكاني بنفسِ المَشقَّةِ والتعب، ارتكنت إلى الباب ولم أستطع حبس دموعي وأنا أتابع أفراد البلدية وهم يمسحون الممر من الدماء، لم يُجاورني أحد، ولم يقترب مني أحد، فقط كنت ألمح سجناء يقفون أمام زنازينهم وهُم يتحاكون مع بعضهم البعض بما حدث، قبل أن ينحسر الحكي شيئًا فشيئًا، وتنفض الجموع كلها، ويُغادر كلٌ إلى ما كان يفعله، فقط وحيدًا ذلك الذي كان يتكيءُ إلى إحدى الزنازين.. عاقدٌ ذراعيه الضخمين أمام صدره.. يتأملني مبتسمًا.. ساجِد!

ما رأيته في هذا اليوم جَعَلني أفهم كيف عَاشَ المغلوبُون على أمرهم سالمين في السجن، وكيف كان تقبُّلهم للإهانات وتجرعهم للسخافات جزءًا من ضريبة السلم والأمان. ما عانيته جعلني لا أُوِّجه لومًا لسالم ولا لعبد الشكور ولا لغيرهما على خِذْلَانهم لي، لا في هذا اليوم ولا في أيامٍ تالية، فأنا الذي اخترقت بروتوكولهم السلميِّ، وتَعدَّيْت على نمطِ حياتهم الساكِن، وكدَّرت صفو استسلامهم. ما حدث كان أعظم من حجمهم وأكبر من حيلتهم، وتَدَخُّلِ أحدهم لم يكن ليوقف ما حدث بأيِّ شكل، بل كان سيزيد رُقعةُ الدماء ولا أكثر، ضحايًا أُخَرْ ولا أكثر، حطامٌ آخر ولا أكثر، ولو جَامل هؤلاء بعضهم بعضًا في معاركَ ليست لهم لانْسَحَقُوا وسط الغيلان، وهَلَكوُا وضَاعُوا، ولربما إن تَدَخَّلت الشرطة لزادت قضاياهم وعقوباتهم سنواتٍ فوق سنواتهم، علاوةً على أن كلهم وافِدُون، لا تأتِيهم أمانات، يَعْتَاشُون على خدمةِ العنبر وأفراد العنبر، سالم نفسه يغسل ملابس بسَّام، ورفاق بسَّام، ورفاق رفاق بسَّام، وعبد الشكور يحلق رؤوس الجميع بلا استثناء، هي حساباتٌ كثيرة ربما كانت تدور في عقولهم بينما يَرَوْنَنِي أُطْحَن في تلك المعمعة، وعندما أَفْضَت تلك الحسابات إلى نتيجة - أيًّا كانت - كنت قد انتهيت تمامًا.

في وقتٍ متأخرٍ من نفس اليوم جالسوني، قائِلين لي كلَّ ما يُقال لشخصٍ أتى بفعلهٍ أكبر من حجمه، وأعظم من جُرْأته، وأنيِّ ما كان يجب أن أفعل ما فعلت، وأنَّه كان من المفترض أن أكون أكثر حِلْمًا وتَرَفُّقًا، خُصوصًا في هذا المكان ومع هؤلاء الأشخاص بالذات. جعلوا يُواسونني، وفي مواساتهم يواسُون أنفسهم، فيغسلون بكلامهم معي تخاذلهم، ويذيبون الندم في كثرة تعليلاتهم، يبحثون في عيني أني لا أعاتبهم.. ولم أكن لأُعاتِبَهم.

مَنْ فضَّ الأمر في دقائق كانوا عشرةً من الشُهبان في زنزانةٍ بالعنبر قدَّمني سالم إليها يومًا ما، لكنهم كانوا يختلفون كثيرًا عن شُهبان عنبر القتل، فهؤلاء لم يتقبَّلوُني يومًا أو يدعونني إليهم، فقد مضى لهم بالعنبر سنواتٍ طويلة شيَّدوا فيها سُمْعَةً لا تُضَام، وصار لهم حضورٌ بين العصابات والقبائل، هكذا كانوا يترسَّمُون

الخطورة ويَصْطَفوُن من الشُهبان الأقوى، والأكثر تحملًا وجَلَدًا، ولما دخلت العنبر باليًا، مُحَطَّمًا، كَسِيرًا، أَصْرخُ وأبكِي وأُهَرْوِل، رَأَوْنِي تَشويهًا مباغتًا لسُمْعَتِهم التي بَنْوها لسنوات، فتجاهلوني تمامًا، وغضوًّا الطَّرف عني.

في ذلك اليوم لم أسْتَجِب لتحايلات سالم لدخول الزنزانة، فلم أكُن أريد المبيت بها بتلك الهيئة الكسيرة والجسد المُحطَّم، ولم أكن لأحتمل أن أسمع تعليقًا على ما حصل، لهذا - وكما كنت أفعل منذ عدة أشهر - اسْتَلقَيْت بجسدي نومًا على البلاط بجوار الباب، بكيفيةٍ أجبرتني عليها أعضائي المُهشَّمة، فتموضع ذراعاي وقدماي ورأسي بزوايا محسوبة، إنْ زَادَتْ سنتيمترًا يئنُ العضو ألمًا، حتى أن بعض أصابعِ الكفيّن لم تكن تتحرك إلَّا بحساب، حتى غرقت في النوم وابتلعني الظلام، وفي الظلام وجدتُ القاضي وقد عَفَا عني، فخرجت من القفصِ مُبتهجًا، ليتلقفني بسَّام وأتباعه، فيطرحونني أرضًا ويتتابعوا على ضربي وركلي كما حدث منذ ساعات، والقاضي على بُعد أمتارٍ يشاهد ويضحك، والشرطة تُشَاهِدْ وتَضْحَك، وأشخاصٌ لا أعرفهم يُشاهدون ويضحكون بينما أصرخ أنا صراخ انسحاقَ الروحِ والجسد. في ظلامٍ تالٍ رأيتني أُهرول إلى المستشفى بعد أن تلقيت هاتفًا بأن عائِشة تلد، حين وصلت استقبلني الطبيب مُسْتَغْرِبًا بأنه لا أحد في المكان كله بهذا الاسم، لا مريض ولا طبيب ولا ممرضة حتى باسم "عائِشة"، فرحت أقطع غرف المستشفى جزءًا واحدة تلو أخرى، إلى أن وجدت عائِشة تجلس في إحداها على السرير مبتسمةً وتقوم برضاعة مَولودنا، حين اقتربت منها انتبهت لشخصٍ كان واقعًا بجوار السرير يتلوَّى ألمًا، أمي! عيناها كانتا جاحظتان رُعبًا وهي تُمسك برقبتها وكأن هناك من يُحاول خنقها، تُهمهم بكلماتٍ أَبَت أن تخرج من فِيها وكأنها تريد أن تحذرني من أمرٍ ما، في نفس الوقت كانت عائِشة تبتسم لي مُطَمْئِنَةً، وكأنها لا ترى ما يحدث لأمي، أو تراه ولا تعبأ به، حين دَنوت أكثر تَفَاجَأْتُ بأن الرضيع كان ميّتًا، ووجهه يحمل ملامح ليست آدمية، بدا كشيطانٍ صغير، وحولنا أشخاصٌ بوجوه مخيفة.

انتفضت من نومي مَصْعُوقًا وعيناي تزوغان بين الزنازين، وكان ذلك في نفس اللحظة التي استقبلني فيها أذان الفجر يصدح وأفراد العنبر يجهزون للصلاة، فهَمَمْتُ بالقيام للصلاة معهم، بدأت بتحريك ذراعيَّ وقدميَّ على مهلٍ مستندًا إلى الحائط، لكن ما أن اعتدلت وبسطت طولي كاملًا حتى شعرت بصداعٍ

يشقُّ الرأس، يبدأ قويًا من أسفل الدماغ وينتشر متواترًا في أنحاءها، وكأن شيئًا محشورًا بالداخل يصارع للخروج، غير أن هذا لم يكن فقط هو المؤلم. فالمؤلم، كل الألم، أني لما وقفت؛ وجدت بنطالي مُبْتَلًّا بأكمله!

مُسْرِعًا عُدت للجلوس قبل أن أُواري نِصْفي السفليّ بالغطاء، بينما أمسح بعيني الجوار لأتأكد من أن أحدًا لم يَرَني، عَضَضْتُ على شفاهي تحسُّرًا أن كيف حدث هذا؟ ومتى؟ ولماذا؟ تبولٌ لا إرادي، من شدة الخوف أو من تلف الأعصاب ربما. انتظرت حتى انتهى المصلون من صلاتهم وعاد كلٌ إلى زنزانته، فقمت بحذرٍ وأنا أزكُ إلى المسابح قدر استطاعتي، تواريت في أحدها وخلعت ثيابي ثم غسلتها بالماء والصابون، استحممت وصلَّيْتُ بصعوبةٍ ثم عدت إلى مكاني ولم تَزَلْ الصدمة تتلبسني. استلقيت نومًا وتجمَّعت الدموع في عينيّ لكنها هذه المرَّة لم تنزل، فجفناي المتورمان المُتقيِّحَان جَعَلاَ البكاء وكأنه سكاكين تكوي الجلد، فحبَست بكائي بينما يُدْمِي القلب بكاءٌ آخر، بكاء أني قد انتهيت تمامًا، ولم يعد في هيئتي أو روحي ما يمتُّ للآدمين بِصِلَة.

استيقظت في الثامنة صباحًا وكانت الحياة قد بدأت تدب في العنبر، وتحلَّق الكل حول صواني الإفطار، والذي أيقظني كان شابًا أعرفه من أفراد البلدية، قال أنه نادى عليّ عدة مراتٍ فلم أستجب، ما اضطره للكزي بيده متلطفًا، وكان طلبه أن أقوم لثوانٍ لينظف مكاني، قمت فصبَّ حولي الماء المُفعَّم بالمطهرات قبل أن يمد مسَّاحته الخشبية ويمسح، حين هممت بالجلوس استوقفني ثانيةً، جفَّف المكان بمنشفةٍ عريضة قبل أن يدعوني مرةً أخرى للجلوس.

دقيقةٌ أخرى جلستها مُقرفصًا، مغمضًا عينيَّ من الصداع، غائصٌ رأسي بين كفيّ تعبًا، وكان ذلك حين وجدت طبقًا أسفل ذقني به عدس، يحمله سالم والذي بدا وكأنه كان يراقبني من قربٍ لحين استيقاظي.

- كيف حالك اليوم؟

أومأت برأسي إيجابًا، فقرَّب مني الطبق أكثر: أنت لم تأكل منذ الأمس.

نَحيتُ الطبق شاكرًا، والْتفتُّ إلى الزنازين والممر والسجناء حين ضَحِك:

- لا تقلق بشأن الوغد، لن يقترب منك، الشُهبان حذَّروه ورفاقه من المساس بك، انتهى الأمر، ستمضي أيامك في سلام.

- تقصد سنواتي!

تململ ولم يحر ردًّا، أمسكت رأسي مجددًا من الصداع: أريدُ طبيبًا.

دقائقٌ وكنت برِفقة شرطيٍّ اقتادني عبر طرقة العنابر إلى عيادةِ الطبيب. تعَجَّبْت أن اِسْتَجاب - الشرطي - لطلبي بهذه السرعة دون تحقيقٍ أو تدقيق أو حتى استهزاء، فيما بدا أن حُطَامِي أوصلَ له هذه المرة رسالةً واضحةً لا تحتمل التأويل. والطبيبُ هو ذلك المزوِّر الذي حَكى لي سالِم عنه من قبل، شابٌ في نهاية العشرينات، أمضى ثلاث سنواتٍ في كلية الطب قبل أن يتوالى رُسوبه ويتم فَصْله لتُصبح الوسيلة الوحيدة لئلاَّ يَنْهار مستقبله هي أن يقوم بتخريج نفسه بنفسه، هكذا زوَّر شهادته وفتح عِيَادته قبل أنْ ينْكشف أمره ويتم القبض عليه، أُلقِيَ به هنا حيث لم يجدوا أمثلَ مِنه لمباشرة عيادة السجن، فثلاث سنوات في الكلية كانت كفيلة كي يقيس مُستوى الضغط والسُكَّر وأن يكتب المُسَكنَّات كعلاج لأيِّ شخص يشتكي من أي شيءٍ في جسده، تأمَّلْتُ بوهنٍ مكتبه المُزدان بالكثير من الأقلام وإعلانات الأدوية ودَعَوات المؤتمرات الطبية التي لا أعرف كيف وصلته ولا كيف سيُلبيِّها وهو حبيسٌ بالمكان، فور ما انتهى من سجينٍ بين يديه، دَعَانِي للجلوسِ وابتَدَرَنِي سائلًا فشكوته صُداعي ووجعي.. وأيضا بَللي، فأتي بجهاز الضغط ولف قماشته على ساعدي، انعقد حاجباه وانفرطا وهو يكمش بالونة الجهاز المطاطية ويبسطها عدة مراتٍ متابعًا في كل مرةٍ مُؤَشِره الزئبقيِّ، حين يبدو أنه تيقَّن مما بباله نزع القماشة وأغلق الجهاز، جلس خلف مكتبه ووجهه يحمل لي خبرًا عظيمًا.

- ضغطك مرتفع جدًا.

قلت وعيناي نِصف مُغلقتيّن من الصداع: ربما من كثرة التفكير، لقد مررت بأمور عصيبة منذ جئت.

- هو ليس علوًا عاديًا، هذا المستوى من الارتفاع خطير، و يُجبِرنا على متابعتك للأيام القادمة، أتتناول دواءً؟

- كلا.

- إذن سأصرف لكَ دواءً واظب عليه وتعال بعد ثلاثة أيام.
- سأنتظر حتى أخرج.
- من الخطر أن تنتظر أكثر من ذلك، فربما تكون مريضًا بالضغط ولا تعرف، من المفترض أن تدخل الطوارىء.
- أنا مُتعبٌ.. مُتعَبٌ جدًا.
- ارتفاع الضغط لا يُستهان به وهو السبب غالبًا في كل ما تشعر به من صداعٍ ووجعٍ وتَعَب، والسكوت عليه يعني الدخول في مضاعفاتٍ خطيرة، إن أردت يمكنك تقديم طلب للذهاب للمستشفى وغدًا، في الصباح، سيذهبون بك إلى هناك.
- المستشفى!
- هناك تستطيع أن تُجري تحليلًا وفحصًا شاملًا فتقف على أسباب هذا الإرتفاع بدقة.
- كيف سأذهب؟
- ماذا تعني؟
- أعني هل سأذهب في عربة السجن وبزيِّ السجن وبالقيود؟
- نعم، هذه هي القوانين.
- لا، لا، أشكرك، أعطني الدواء.

***

عصرًا دخلت إلى الزنزانة، لم أخبر سالم بما جرى عند الطبيب، ولم أتحدَّث إلى أحد، ولم يتحدث إليَّ أحد، عرفت فيما بعد أن سالم كان قد أوعز إلى كل من بالزنزانة بالسكوت، وعدم الحديث فيما حصل البارحة، تصريحًا أو تلميحًا، ورغم ذلك أَبَتْ النظرات والهمسات أن تتركني وشأني.

في اتصالٍ هاتفيٍ أخبرت عمرو بقرار القاضي، فسكت ولم يُعقِّب، أدرك هنا أن صدمته صدمتين؛ صدمة الخبر وصدمة أن كيف سيخبر أمي بهذا الخبر، هكذا مضت دقائقنا ثقالٌ رحنا نتدبرُ فيها الأمر مُتحَيريِّن، حتى اتفقنا في النهاية ألَّا يجب أن تعرف أمي بما حصل، وستكون الإجابة على سؤالها بأن

الجلسة قد تأجَّلت لأن أوراقًا لم تُستَوْفَ بعد، ثم تأجَّلت مرةً أخرى لأن إجراءاتٍ أخرى لم تكتمل، ثم تأجلَّت لأسبابٍ سنؤلفها - أنا وعمرو- في حينها، وذلك حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

في خطابٍ جديد، شرحت لعائِشة بإيجازٍ ما حصل مع القاضي، وما أفْضَى إليه الحكُم بأني سأمضي خمس سنواتٍ في السجن، ثم رجوتها أن تنتظرني، فقط تنتظرني! فما السنوات الخمس في عمرٍ سيمتدُّ بنا لعشرات الأعوام؟! - أوليس ما بيننا يستحق الانتظار يا عائشة -كُنت أرجوها باستفاضةٍ دامعًا، وسائلًا، ومُتوسلًا ويائسًا أيضًا، فلقد تحمَّلت الكثير ها هنا، وسأتحمل ربما الأكثر والأكثر، ولكن ما لم ولن أتحمله، هو فراقك يا عائِشة.

- ٢٠ -

كانَ قد استقرَّ في يقيني أن بي شيئًا لا أفهمه، وأن هناك فترات من الزمن رُبَّما تقع من ذاكرتي قَسْرًا فآتي خلالها بما هو خارجٌ عن إرادتي وعن عقلي الواعي، وأني قد ارتكبت كل ما اتُّهِمْتُ به، بل وربما أفعالًا أخرى لا أدري عنها شيئًا.

لم لا أكون مريضًا حقًّا؟! كالعشرات هنا! ولم لا يكون هذا السجن بالذات هو سجن الميؤوسِ منهم؟! بل لِمَ لا تكون الشرطة والنيابة وتنفيذ الأحكام على علمٍ بمرضي هذا ولديهم تقريرٌ طبيٌّ يثبت حالتي تلك؟ أني مصابٌ بانفصام الشخصية هذا أو إزدواجها أو أيًّا كان الاسم، وأن ثمَّة آخر يخرج مني ليفعل ما يفعل! لم لا أكون مجنونًا فعلًا ولا أعلم؟ وكيف أعلم؟ وهل يدري المجنون بجنونه؟! وهل يعي أيُّ مريضٍ عقلي في أيِّ مكانٍ بما يقوله أو يفعله حين تُداهِمُه النَوْبَات؟ تلك التهم الموجهة لي - والتي اتَّفَقَ عليها الكل بدايةً من العسكري حتى القاضي - هي أكبر من كونها محضُ التباسٍ أو كيدٍ أو خطأٍ في الإجراءات، أنا الذي فعلت كل هذا، أنا أعرف بلقيس تلك وأخويها، وأنا الذي ذهبت لمنزلها ثم قُبِضَ عليَّ ثم هربت قبل أن يُقْبَض عليّ هذه المرة، وهذا الملف الضخم الذي كان أمام القاضي هو ملف قضيتي، تلك تحقيقات النيابة التي أُجْرِيَت معي، أنا الذي ارتكبت كل تلك الأشياء، بل وربما أشياءً أخرى لا أدري عنها شيئًا أو لم تُكتشف بعد، بل ربما تَجَنَّيت وآذيت أُناسًا آخرين، ولهذا لم يستجب الله لدعائي، ولم يترفَّقْ القدرُ بحالي، وربما لهذا أيضًا أنقذ مني عائِشة المسكينة في اللحظات الأخيرة.

ومنذ معركة الزَّيت وأنا لمْ أَعُدْ أعرف للراحة طعمًا، كنت أنام نصف نومٍ وأمشيِ في الممرِ بعشرةِ أعين، استحم وعيناي لا تُفَارَقَان رُقع السِتار تَلَصُصًا على جنباتِ العنبرِ وأركانهِ وزنازينهِ تحسبًا أن يأتيني بسَّام أو أحد رفاقه غدرًا، آكل.. وأجلس.. وأمشي.. وأنام.. وكل حواسي منتبهةٌ كأشد ما يكون الانتباه، لمْ يزَلْ مَذَاقُ أحذية غيلان بسَّام بفمي، ووجع ضرباتهم بأنحاء جسدي، ووعيدهم وسبابهم يتردد بأذني، فصار همي الأول أن أنجو من شرِّ الأيام القادمة، أو بالأحرى.. السنوات القادمة!

وفي ذلك المساء، وبينما كنت استحم، لمحت من رقعةٍ بالغطاء ذلك الذي يُسرع ناحيتي، كان أحد الذين لم يزل يحمل جسدي أختامًا زرقاء من طعنات حذاءه، نحيفٌ، طويلٌ، تنتصف صلعته دائرةٌ من شعرٍ مجعد، حين لمح نصف وجهي من تلك الفُرجة بادلني نظرةً متحفزة قبل أن يمد خطاه ليتوارى بالمسبح المجاور، أزحت الغطاء شيئًا لأُبصر كل زوايا العنبر، فأرى إن كان ثمة من يتبعه أو يتربص بي مختبئًا هنا أو هناك، هل كان دخوله صدفة؟ أم كان يتتبعني وينوي شرًّا؟ أدرت مقبض الدش إغلاقًا واسترقت السمع عساي أسمع كركبة الماء في مَسبحهِ لكني لم أسمع شيئًا، فارتديت ملابسي بسرعةٍ وهممت بالخروج، لكني تراجعت حين رأيته يخرج قبلي، فتأكدت حينها أنه لم يستحم، ولم يخلع حتى ملابسه.

***

- كان يخشاك يا زين.. يخشاك والله.

قالها سالم وهو يصب الشاي له ولعبد الشكور في الزنزانة: لئلّا تفعل به كما فعلت مع صاحبه وتغدر به في المسبح.

- لم أكن لأغدر بأحدٍ بتلك الطريقة أبدًا، ليس هذا أنا.
- وكيف له أن يعرف؟! وهل كنت أنت حين ضربت بسَّام؟ كل ما رآه أنك انقضضت على صاحبه في غفلةٍ منه ومنهم، ونِلْت منه ما نلت بالضرب والصفع، فخشيَّ أن يتكرر الأمر معه.

تناول عبد الشكور الشاي من سالم وارتشف:

- لا تتعجب يا زين، فرفاق بسَّام يُفكرون بنفس الطريقة التي تفكر بها، فكما تحسب لهم حسابًا، هم يحسبون لك ألف حساب، وكما أنك متحفزٌ لهم، هم الآخرون مُتَحفِزُونَ لك، فما فعلته بصاحبهم لم يكن هيّنًا.

قَطَعَ سالم رشفة الشاي وضحك:

- في الواقع ليس هيّنا على الإطلاق، لقد مَرْمغت وغدهم في الوحل، فعلت به ما لم يجرؤ أن يفعله آخرون أمضوا أعمارهم هنا.

- لا تُبالغ، انظر لي ولحالي، فلَوّلَا الشُهبان لكُنت قتيلًا.

- بل لولا رِفَاقِه هو لكان قتيلًا، الشُهبان لم يفعلوا ما فعلوه حُبًّا فيك، بل كيلا يقال أن واحدًا منهم قد أُهين وهم بالمكان، ذلك يمس كرامتهم وهيبتهم التي شيَّدُوها في المكان لسنواتٍ طوال، ولو لم يتدخل أتباع بسَّام لنجدته لكان في عِداد الأموات، أنتَ لم ترْ نفسك كيف كنت! لم أكن أتوقع في أسوأ توقعاتي أن تقوم بمثل ما فعلت.

عَقَّبَ عبد الشكور: والله فعلًا ولا أنا، عندما سمعت الجلبة ظننته شجارًا عاديًا كعشرات الشجاراتِ اليوميةِ في العنبر، لكن عندما اقتربت لم أصدق عينيَّ أنك أنت الذي تعتلي هذا الفحل وتكيل له الضرب بالوعاءِ والزيت ينكبُّ على كليكما، أمعقول؟! أهذا زين؟! أهذا الذي أَلِفْتَه وديعًا طيبًا مُسالمًا؟ عيناك المتقدتان نارًا! صدرك المنفوش غضبًا! عروقك النافرة تحفزًا! بل وحتى عندما تتابع عليك رفاقه ضربًا وركلًا لم تتركه للحظة، حتى لكماتك نفسها لم تتوقف أو تهُن، وما حَادَ منها كان يضرب بلاط العنبر كمطرقة فولاذية، كيف تحملَّت يداك ضرب البلاط بهذه القسوة؟!

ضَممت قبضتي وتأملتها وكأنها غريبةٌ عني، ثُم وكأنَّ سالم قرأ ما أفكر به:

- وبالمناسبة ليس هذا كلامنا وحدنا، كي لا تقول أننا نبالغ، بل كل العنبر كان يتكلم طوال اليومين الماضيين عن المجنون الذي تجرَّأ على المتعجرف وأدَّبه بطاسةِ زيت.

قطع عبد الشكور رشفة الشاي ضاحكًا إذ تذكر:

- منذ يومين رأيت بعضًا من أفراد البلدية يتهامسون بالقرب منك بينما أنت نائمٌ عند الباب، فتوجست خِيفةَ أن يكونوا مُسَلطين من قِبَلِ بسَّام وأتباعه ليقوموا بإيذاءك بطريقةٍ ما، لكن عندما اقتربت وجدتهم يتشاورون فيما بينهم لإيجاد طريقةٍ يوقظونك بها دون ازعاجك، كانوا يخشوّْن أن تنفجر في واحدٍ منهم كما فعلت مع السافل.

- فعلًا، أيقظني أحدهم أمس بأدبٍ لم أعهده من قبل، ظننته يفعل ذلك إشفاقًا على حالي.

أشاح سالم بيده: قلتها لك ألف مرة ليس إشفاقًا ولا أدبًا ولا غيرهما، اِنس أن يتلاطف أحدٌ مع أحد هنا، فلسنواتٍ بُحَّ صوتي مع هؤلاء الملاعين كي لا يسرقوا صابوني ومساحيقي فلم يرتدعوا، هؤلاء لا يردعهم إلَّا أن يروا المثال والعبرة أمامهم، وقد رأوا منك ما هو كفيلٌ بأن يأمنوا جانبك.

أَنْهَى سالم ما تبقى من شايه، ثم التفت إليَّ فاحِصًا: أنا والله حتى هذه اللحظة لا أصدق ما حصل، ولا أعلم أية قوة أوتيت لك لتفعل بالوغد ما فعلت، يا أخي حقًّا.. من أنت؟!

***

بعدَ يومين آخرين رأيت بسَّام..

خَرَجَ مِن كهفه بِشَفَتيْن مُتشقِقَتين، ورأسٍ انتصفته ضربة الوعاء، وثعابين وحيَّات أحرقت النيران رؤوسها وذيُولها كما أحرقت امرأته العارية التي ظَلَّت على بَهْجَتِها رغم تفحُّم نصفها السفلي.

اسْتَدْعَاهُ نصار، كما عَلِمْتُ، بزنزانته. حَذَّرهُ مِنْ أَفَاعِيله واستفزازته للآخرين كما حَذَّرَهُ من الاقتراب مني مرةً أخرى، وبأن يَحْمَدَ الله أن أمْرًا كهذا توقَّفَ عند شُهبان عنبر (المخدرات) ولم يَصِلْ لشُهبان عنبر (القتل)، لأنَّ هؤلاء لو بَلَغهم ما حدث لابن عمهم فسيساوون هذا العنبر بمن فيه بالأرض، ولن تحول الحوائل بينهم وبين ما يريدون، ما جعله - بسَّام - يكتفي بأن يتراسل معي طُوالَ الوقت بنظراتِ الغِلِّ والوعيد.

وكنت أراه يتمشَّي في الممر كعادته وكأن شيئا لم يَكُنْ، أو يُحاول أن يبدو وكأنَّ شيئًا لم يَكُنْ، عاد لينالَ من هذا بنكتةٍ ومن ذاك بتلميح، غير أن النكات والتلميحات لسببٍ ما لم تكن كما كانت، بل حتى مِشيتة لم تكن كالمشية، والضحكة لم تكن كالضحكة، بداَ وكأنَّ شيئا غَادَره، أو في طريقهِ إلى أن يُغادِره، شيءٌ يحاول هو التشبثُ بهِ لا يريد إفْلَاته، مُراهنًا على وجوده بعلوِّ الضحك وبإكثار التلميحات، وكأنه بالعلو والإكثار يُثبِت أنه لم يزَلْ بعد بذات الحضور والعنجهية، باثًّا للجميع رسالته: أنا موجود كما أنا ولم أتغير. ولأن أشياءً كتلك لا تُبَثُّ عُنْوَةً، بدا ساذِجًا وهو يُنبِّه الناس لجرحه الذي لم يلتئم.. خَبَا نَجمه، وخَفت صِيته، حتى بدَا للناسِ كطبخةٍ بائته، أو كمُلْهِمٍ غادره مُريدُوه.

في نفس الوقت بدا الأمر يأخذُ بالنسبة لي منحىً آخر، ففي كل نظرةٍ تقتنصني، وفي كل حديثٍ يصلني، أُوقِن أن ما سمعته من سالم وعبد الشكور لم يكن مُبَالَغةً، بدا وكأنَّ كل من في العنبر يتحدث عن شخصٍ آخر فعل ببسَّام ما فعل، أي نعم كانت النظرات التي تمعن في جسدي المحطم آسِفَةً مُشْفِقة،

لكنه أسفٌ مشوَّبٌ بكثيرٍ من الإعجاب، وشفقةٌ يغلفها التقدير، مع الكثيرِ والكثيرِ من نظراتِ التَحَسُّبِ والرهبةِ، لم أعتد هذا ولا أستوعبه ولا أستسيغه، هل أنا لست "أنا" فعلًا؟! هل بي آخر؟! وإن كان! فإلى أي مدى وصلت في هذا الآخر؟ إلى أي مدى تقمَّصته وتقمصني؟! تملَّكته أو تملَّكني؟ وإلى أي مَدى سيُبْحر بي بسنواته الخمس في هذا المكان؟

أَفَقْت من شرودي على عمَّار وهو يُلَمْلِمُ حاجياته التي بُعثِرَت للمرةِ الألف في الممر، حين أنهى طقسه المعتَاد عَادَ إلى الزِنزانة، فبَدَا لي أكثر نُحولًا مما كان عليه قبل أشهر، تتشبث نظارته بالكاد بأنفه، بذراعٍ واحدٍ سليم وعدسةٍ انشرخت طوليًا. دقائق أخرى دخل بعدها سالم ليَهْوَى على الأرض تَعَبًا قبل أن يُشعل سيجارةً ويرتشف شايًا كان ينتظره منذ ساعات، عيناه خامِلتَان كانتا تُتابعان المارين بالممر بنصف ذهن، وكان هذا حين انتزعه سؤالي من لاشيِّئه:

- من هنا يرسم الأوشام يا سالم؟

لفِظَ دُخَّانه سريعًا ونظر إليَّ: نعم!

- أوشام كتلك، من يرسمها هنا؟

أَشَرْتُ برأسي إلى خنجرين كبيرين ينتصفان ذراع أحدِ الواقفين بالممر، فذهب رأس سالم إلى حيث أشير. كانت عيناه هي آخر ما غادرني قبل أن يعود الرأس كله بملامح الاستغراب:

- لا، لا، مالكَ أنت ومال هذا الكلام؟!

- من يا سالم؟

وَضَعَ الشاي والسيجارة جانِبًا، التفَّ إليَّ بكامل جسده، يشتري في اهتمامه وديّ:

- ولِمَ يا زين؟! فيم يفيدك ذلك؟ ابعد عن هذه الأمور وما شابهها[١٥]، وشم وقرف، ما حاجتك أنت للوشم؟

[١٥] في تلك الفترة لم يكن الوشم منتشرًا كما هو الآن، وخصوصًا في الدول العربية، وكان حامله يوصم بالاستهتار واللامبالاة وأحيانًا سوء السمعة.

- مَنْ يا سالم؟
- لا تتمادى فيما لست أنت أهلٌ له، أَعْطِنِي سببًا واحدًا يا أخي.
- دُلَّني أو سأستدل بنفسي.

***

دَقائق وكنت في إحدى الزنازين أصافح ذلك الذي عرَّفني إليه سالم أنَّه راعي أوشام العنبر؛ سلمان، شابٌ ودود، هاديء الطباع، نحيل البنية، كان قد رأى ما حصل بيني وبين بسَّام وأتباعه فسألني مُطْمَئِنًّا على حالي ولم يَزِدْ في الكلام، تَنَحْنَحَ سالم وظلَّ ينظر لي منتظرًا أن أغير رأيي فَأَتَته الإجابة في جفنين زرقاوين لن يقبلا نقاشًا، هكذا غَادَر وتركني برفقة سلمان الذي قادني متلطفًا لركن زنزانته.

بينما نستوي جلوسًا ابتدرني: هل رسمت وشمًا من قبل؟

- تلك هي المرة الأولى.
- إذن هل تَعِي أن ما تَحفره على جسدك سيظل معك لباقي عمرك، سيصبح جزءًا منك ومن شخصيتك، سيُلازمك ولن يمحي؟

أومأت برأسي مُتفهمًا فتابع:

- كلُّ وشمٍ وله دَلاله، سيَصِلُ الرائين شيءٌ من المرسوم أو المكتوب على جسدك، الوشم رسالة ومعنى وليس فقط استعراض، هل في بالك شيءٌ معين؟ رسمةٌ ما.. كلمات.. أو جُمَل معينة..
- أريد وشمًا يفكر من يراه ألف مرَّة قبل أن يقترب مني.
- أيّ؟
- أيّ أريد أن أبدو مجرمًا.
- تبدو مجرمًا!

قالها وضحك فيما رُحت ألعن سذاجتي بأن نطقت بتلك الجملة، فالمجرم هو مُجرم بطبعه، لا ينوي ولا يكون، فكَّر سلمان ثم بدأ يُعَدِّدُ ما يتداعي لخاطره:

- حسنًا، ليس هناك ما هو أكثر من هذا النوع من الأوشام، هناك ثعابين تتلولب بطول الذراع، سلاسل حول الرقبة بها جماجم وأنياب، ألسنةُ لهبٍ تنفذُ من بين قضبانٍ تفترش ظهرك، خناجر تـ.....

- أَلْعَنْها.. اختر لي ألعنها وأشرسها.. أريد شيئًا لا يختلف عليه اثنان، وشمٌ يتفق الكل على أن صاحبه لا ينبغي المزاح معه، وشمٌ يندم من يراه إن عبر فقط من ناحيتي.

أَطْلَقَ تنهيدةً ونظر للممرِ مُفَكرًا:

- أتدري؟ هناك وشمٌ مشهورٌ جدًا، ليس فقط هنا، بل في سجون العالم كلها، في أوروبا وأمريكا حتى، ورسالته واضحة لا تحتمل التأويل.

بدا تساؤلٌ بعيني فتابع:

- شِعار النازية، رمز القسوة والقوة، الصليب المعقوف الذي يلتَّف ليطحن ويُبيد، صاحب هذا الوشم بالذات لا يتفاهم.

- هل الجميع يعرف هذا؟! أقصد هل الكل يعرف رسالة هذا الوشم؟

- الأغلب يعرف.

- إذن ابدأ.

- لنتفق أولًا.

- لا تقلق، سأدفع كما يدفع الباقون.

- ليس المال.

- ماذا إذن؟

- وشمٌ كهذا لن يكون في جلسة واحدة.

- لم؟

- أنا لا أرسم، بل أحفر في الجلد، وهذا الوشم سيأخذ ثُلث مساحة ظهرك تقريبًا، ستنزف كثيرًا ما يجعل التوقف حتميًا بعد ساعةٍ أو أقل، كي لا يلتهب الجلد أكثر من اللازم، ستغتسل بعدها بالماء جيدًا، ثم تترك جسدك ليستريح ثلاثة أو أربعة أيام ثم تأتيني بعدها لنكمل.

- كم جلسة تقريبًا؟

- في كل الأحوال لن يقل الأمر عن ثلاث جلسات، ولن يزيد عن سِتْ، بحسب قوة احتمالك ووضع جلدك.

- إذن أنْهِ الأمرَ كُله الليلة.

- مستحيل.

- لن أغادر زنزانتك إلَّا والوشم كاملًا على جسدي.

- حتى من قُمْت برسم أوشامهم هنا من المتَمرِسين أنهوها على جلستين على الأقل، لم يُنْهِ أحدٌ وشمه في جلسةٍ واحدة أبدًا.

- لأكُن الأول.

- ستنزف كثيرًا.. ستتألم.. سيصطلي جلدك نارًا.

- أَغْلِق الزنزانة.

حاصره تصميمي فنَفِذَتْ تعليلاته، قَامَ ونَشَرَ أشرعةً من الجلاليب حَجَبَت ذلك الركن الذي استوطنه ومُعِدَّاته عن الجميع، جلست القرفصاء فجلس خلفي بعد أن أضاءَ لمبةً بسقف الزنزانة، وفيما راح يقوم بتجهيز أدواته جعلت أنظر من بين الرقع إلى سجناء العنبر.. نعم! لم أكن أريد للأمر كله أن يأخذ أكثر من جلسةٍ واحدة، ولا أريد للأعين أن تعتاد ذهابي ومجيئي لرسم الوشم، أريد أن يَتَفَاجَئوا به موجودًا فحسب.. أمَّا متى؟.. أين؟.. كيف؟.. تلك أسئلةٌ من الأفضل أن تظل عالقةً في أذهانهم بلا إجابات، هذا جزءٌ مما أريد أن أكونه طالما أني سأمضي عُمرًا هُنا، أن تحوم حولي الأسئلة فقط! كما هي الآن بالضبط.

خَلَعْت قميصي فتحسَّسَ سلمان لحم كتفي وظهري ورقبتي، ضَغَطَ الجلد بأصابعه ثم كَمَشَهُ ومَدَّده عدَّة مراتٍ ربما ليفهم طبيعة الجلد الذي سيُوَشِّمُه، أتى بقلمٍ جاف وأحكم مسكته قبل أن يبدأ مُتأنيًّا برسم

صلبانه المعقوفة على رقبتي من الخلف نزولًا إلى الظهر مرورًا بالكتف، رسمٌ عاديٌ جدًا لم يزد عن عشر دقائق قامَ فيه بتحديد البرواز الخارجي للرسمةِ تمهيدًا لحفرها فوق الجلد، فور ما انتهى كانت تنتظره في قِدْرٍ يغلي عشراتٌ من الحلقات المطاطية التي أُذِيبَت لتصبح سائلًا أسود لزج تصاعد بخاره نفاذًا كأنه احتراق عشرات إطارات الكاوتشوك، أتى بإبرة مثبتةٍ إلى قاعدةِ قلمٍ جاف، دسَّها في الموقد وخرج بها سوداء تغلي.

- سأبدأ.

أوْمأت استعدادًا فتمهل قليلًا قبل أن يبدأ بالوخز وخزاتٍ سريعةٍ متتالية، الإبرة تخترق الجلد كرصاصة فتُحدِث ثُقبًا ناريًا يَتَمَخَّض عنه قطرةُ دمٍ واحدة.. عشرات الوخزات.. عشرات الثقوب.. وقنواتٌ رفيعة من الدماء تنسابُ برفقةِ ألمٍ يزداد في كل ضربة، كان يسألني كل ربع الساعة عن حالي، فكنت أجيبه ألَّا تتوقف.. حتى لو صرخت صراخ المُعَذَّبين في جهنَّم لا تتوقف..

بعد ساعتين كان الدم قد أَغْرَقَ نصف بنطالي، وكذلك الفرشة تحتي. رائحة الدماء والنار والمطاط عبَّقت الزنزانة، لكنها بأي حال ليست أسوأ من مذاق أحذية السفلة بفمي، بعد ثلاث ساعاتٍ كنت أشعر بمنشفة سلمان لا تغادر ظهري، تمسحهُ من أقصاه لأقصاه كمساحات سيارةٍ في ليلةٍ غزيرة المطر.

- لمْ أعُدْ أَتَبين الرسمة جيدًا يا زين، كلما مَسْحَت الدماء خرجت غيرها.

- لا تتوقف.

مسح ظهري بمنشفةٍ ثالثة بعد أن هَتَكَ عرض اثنتين قبلها:

- حسنا، أعتقد أني سأعتمد على خيالي شيئًا في الحفر.

بعد خمس ساعاتٍ أَنهى سلمان عمله، وانتهى هو معه، وانتهيت أنا أيضًا معهما، كانت الدِمَاء تُغْرق ثيابه وبنطالي وكأنَّ كِلَيْنَا قد خَرَجَ للتوِ من عملية ذبح، جَذَبَ مرآةً أراني فِيها انعكاسي من الخلف، فبدا وكأنّه تتابعُ عشراتِ السياط على ظهري، أو وكأنّي خرجت للتوّ من عمليةٍ جراحية يائسة، لم أكُن أرى أي رسم، فأخبرني بأن الوشم لن يتضحَ قبل عدة أيام، عندما يلتئم الجلد ويزول الالتهاب تمامًا. عندما التفتُّ

إليه وجدته مغرورقًا في الدماءِ والعرق، فيما أطلَّت من عينيه لمعةٌ غريبةٌ.. مجنونة.. لكنها كانت ممتنةٌ أن كنت سببًا في جعل صاحبها يمرُّ بتجربةٍ كتلك.

- كم؟

ردَّ بابتسامةٍ مُرْهقة: أتعلم؟ لن آخذ منك شيئًا.

- معي نقود.

- انتهى.. لا تُلِّح في ذلك.

***

بعد بضعة أيامٍ خفَّ الالتهابُ تمامًا واتَّضَحَ الوشم بارزًا في الجلد، فخَلَعت قميصي وصِرْت أتحرك في العنبر عاري الجزع. تَتَدلَّى صُلْباني النازية سوداء قاتمةً بشكلٍ مُتشابك من أسفل رقبتي مرورًا بكتفي لتستعمر رُبع ظهري تقريبًا. ورغم أن أعينٌ كثيرة كانت تلفحني نظراتها المتعجبة والمُتسائلة، إلَّا أنيّ كُنْت أتحرك باعتياديةٍ في العنبر دون أن أَرْوِي ظمأ الناظرين بأن أبدو وكأني استجدي رأيهم، أو التمس إعجابهم واهتمامهم، لمْ أَقَعْ في هذا الفخ، فأنا أمشي.. أجلس.. أدخل المسابح.. أجالس البعض.. وأمرُّ من بينِ الجميع وكأن الوشم على جسدي منذ سنوات.

عوَّدت نفسي، يومًا بعد يوم، على الوقوف والمشيّ مَشْدُود القامةِ وكأني أتحرك بأريحيةٍ في الشارع أو بمنزلنا، لا في عنبرٍ أثقلني بالضنك والهَمّ لأشهرٍ طويلة، هكذا بالتَّمَرُس انبسط ظهري المحنيّ، واِشتَدَّ صَدْرِي المنكمش، كتفايّ المرتخيان اعتدلا، لم أَعُدْ ابتسم مُطلقًا، إذ كنت أعتبر الابتسامة مَطِّيَةً لاعتباري خجولًا ليّنًا كما كنت من قبل. استَبْدَلت نظرة العين أيضًا، وهو أكثر ما كلَّفَني مجهودًا نفسيًا قاسيًا، فالعينُ بعدَ أشهرٍ من وهن النفس وتعبها كانت قد انكوَت بتلك الهيئةِ المائية المائعة، فصارَ تَطْويعها في التوِّ واللحظة شديد الصعوبة، لكني مع الوقت كنت أَبُثها قوةً من لاشيء، حتى انْطَبَعَت بتلك النظرة الجامدة، فلم أكن أُشيح برأسي إنْ صَادَتْني أعينٌ مُتَلِصصة، من يمرُّ بي مُتَحديًا كنت أنظر له بتحدٍ أكبر، لا أتنحى إنْ وجدت من يسير قبالتي، أيًّا كان، فردًا أو جماعات، تماديتُ أكثر؛ فصِرْت أذهب إلى زنازين المُشاغبين والمجرمين أنفسهم، أقف أمام سُدَّةِ الباب مختصًّا بنظراتي الضِخام ومن يبدو عليهم التمرس والإجرام،

إن زجرني أحدهم، أَزِدْ خطوتين إلى داخل الزنزانة تحديًا، فإن قام إليَّ، ضَمَمْت قبضتيَّ استعدادًا وتحفزًا، لولا أن يستوقفه رفاقه أن اِجلس اِجلس ولا تعبأ، فهذا الأخرق قد ذهب عقله بغير رجعة..

لَمْ أُبَدِّل قلبي، بل تبدَّل وحده تماشيًا مع ما صِرتُ عليه، فانْطَمَسَت به الرأفة والرحمة، فلم أعد أُشْفق على أحد، أو أهتم بأحد، حتى عمَّار! والذي كنت أقاسمه طعامي وأُعْطِيهِ أحيانًا بعض مالي، لم أعد أَعْبأ بأمره، أو يعنيني شأنه، أغضبُ مُدافعًا عن كل صغيرة في حقي قبل الكبيرة، لا أُفوِّت تعليقًا يمسني إلَّا وأفحمت صاحبه، حتى هجر أغلب من في الزنزانة كلامهم معي، بل حتى سالم نفسه لم يعد يجالسني كما كان، فهو يستيقظ، يخرج ليعمل، ولا يعود إلَّا في نهاية اليوم لينام..

وفوق كل هذا وذاك، انقطعت عن الصلاة تمامًا..

هكذا، ويومًا بعد يوم، صِرْت أُعَزِّزُ قوَّتي بخوف الآخرين، وأغسل تعبي بتعب الآخرين، حتى بمرور الوقتِ بدأ ينمو بداخلي شعورٌ غريبٌ لا أفهم ماهيته، لكني صرت أشتهيه في كل عينٍ تنحسرُ إذ أَنْفُذُ إليها، وفي كل تراجعٍ لواحدٍ مُقْدِمٍ على منازعتي، في احترام البلدية لي يومًا بعد يوم، وفي تفكير الكل قبل أن يتمازح معي أو يوجه لي كلمة، وفي كل الأيادي التي تتسابق لإمدادي بالتليفون عندما أطلب. شعورٌ طاغٍ يكبر مع كل تلك الانتصارات الضمنية البسيطة، وفي الخوف الكامِن بالأعين حولي، فاليوم الذي يمضي دون أن أُشْبِع إلحاحه بقهر أحدهم وهزيمة أعصابه يجعلني وكأني أتقافزُ فوق صفيحٍ ساخن، فيبدو كما لو كان شيئًا ينقصني، أو ينهش جوفي طلبًا ورجاءً، ربما لهذا، وفي ذلك اليوم، وجدتني أطيح ضربًا في ثلاثةٍ من السجناء، لا أعرفهم ولم أصادفهم قبل اليوم، فقط كانوا، مع أربعة آخرين، يتكالبون على نوَّاف وسعد، فوجدتني أنضم لتلك المعركة مُطيحًا بيمناي ويُسْراي فيما طُلته من أجسادهم، فضربت رأس أحدهم في أسياخ الحديد، وهويت بمساحة البلدية على ثانٍ، فيما استقبل كتفي عصًا من ثالث، ولكمةً في بطني من رابع، كنت أضرب صارخًا بقوةٍ وعنف وكأنِّي أنا المعنيُّ بالأمر وليس نوَّاف وسعد، وكان هذا قبل أن يتدخل آخرون لفض الأمر، وحين اعتصرت ذراعي يدٌ صلبة.. نصار!

- ماذا تظن نفسك فاعلًا؟! تعال إلى زنزانتي فورًا.

دفعته في صدره: اذهب بزنزانتك إلى جهنم.

ارتدَّ مذهولًا.. تَناطَح رأْسَينا.. هَمَّ بالرَّد.. لولا أن تمهَّل مُتعقلًا، فيما بدا لي أنه رجَّح كفَّة مَسئوليته على كفَّة كرامته الشخصية، فوضع يده بحذاءِ جسده في تأدبٍ كاظمًا غيظه:

- زين.. تعال.. إلى.. الزنزانة.

***

في الزنزانةِ وقفت كتلميذٍ بليدٍ ينتظر الحساب، قَطَعَ هو طولِي وعَرْضي بناظريه، وكان لوشمي النصيب الأكبر من نظراته.. وأيضًا استغرابه.

- أنا لا يعنيني من أمرك أي شيء، وما أفعله إنما هو لخاطر فهد وأولاد عمك، لا تزج بنفسك بالمشاكل هنا، ولا تَدْخُل في معارك ليست لك.

- ومن قال أنها ليست لي؟ أنا أعرف نوَّاف وسعد.

- أتعرفهما حقًّا؟! إذن فهل تعرف أن حُكم كلٍ منهما خمسة عشر عامًا، وأن حكم من يتعاركون معهما ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين عامًا، وهؤلاء جميعهم لن يضرهم أن تزيد عقوبتهم بضعة أشهر أخرى في قضية شغب.

نَظَرَ إلي يبثني وُدَّه: أنت حكمك خفيف يا زين، فلا تَزِدْه بأمورٍ لا تخصك، لو تعاركت مرَّة كل شهر فلن تخرج من هنا أبدًا، صدقني، أنا أحسب حسابًا لفهد وأولاد عمِّك، ولولاهم لما وجهت لكَ نصحًا ولا إرشادًا، ولم يكن ليعنيني من أمرك أي شيء.

أَنْهى كلامه فَغَادرت زنزانته ولم أزل ألهث من الانفعال، جلست ناحية الباب ورُحت أتأمل أولئك الذين تشاجرت معهم وقد كان بعضهم يتحسس أوجاعًا في جسده، كما كنت بالمثل أتحسس أوجاع جسدي، وكان هذا حين امتلأ مجال بصري بذلك الذي جثا على ركبتيه، سالم!

تأمَّل الوشم على كتفي ورقبتي، وجرحًا سطحيًّا أعلى الرأس، جال بملامحي كلها وكأنه يبحث فيها عن تفاصيل كان يستأنس بها يومًا، بدا وكأنه لا يعرف من أين يبدأ، أو ربما يود الكلام ولكنه لا يعرف بما ستُقابل كلماته.

- ما الذي صار بك؟

أطلَّت النظرة اليائسة من عينيّ مجددًا، لم أنجح بإخفائها أمام سالم: بل قل ما الذي لم يصر بي؟

- وكأنك لم تعد أنت.

- ربما هذا ما أرادوه لي.

- من هم؟!

تهلت هنيهةً: أيًّا كانوا.. من أضاعوا عمري وحياتي.. من أمعنوا في إهانتي يوميًا والتنكيل بي.. لا أعرف.. كل ما أعرفه أني لم أعد أنا.. شيءٌ فِيّ تكسر تمامًا.. شيءٌ تحطم..

- أو شيءٌ اختفى، أين زين؟!

- ليتني أعلم.

دَمَعَت عيناي وأنا أتأمل هيئة من تعاركت معهم:

- كل ما أعرفه أني لست هذا الذي ترى، هذا ليس أنا يا سالم، وأنت تعرف ذلك، لا أعلم ما الذي يحصل لي، وإلى أين سيصل بي، ما تصورت يومًا أن أكون هكذا.

- إذن فقط نجحوا.. نجحوا في أن يأخذوا زينًا منك، زين الطيب الهادىء الرحيم، الذي لم يؤذِ أحدًا عمره ولم يشكُّ منه إنسان، نجحوا في جعلك ما كنت تُقاوم طوال الوقت أن تكونه.. أن تصبح واحدًا منا.

لم أعَقِّب على كلامه، ولم يزد هو في الكلام، فغلفنا سكوتٌ قاسٍ تعابتنا فيه صمتًا، حتى تناهت إلي تجهيزات صلاة العشاء، فقمت على مهلٍ مترفقًا بأوجاع المشاجره، وتركته - سالم - جاثيًا حيث هو، ذهبت إلى الصنابير وتوضأت بالماء والبكاء! عُدت ووقفت على حصير الصلاة بعد طول غياب، نظرت حولي وإلى من توافدوا، قبل أن أُلقي نظرةً أخرى لأجد سالم لم يزل جاثيًا حيث كُنَّا مُطرقًا رأسه في الأرض وكأنه يفكر فيما قيل. كان من حولي يبحثون عن مؤذن العنبر والذي قيل أنه في العيادة أو ربما في مكتب الشرطة لأمرٍ ما، فوجدتني أعدل من وقفتي، وأرفع يديَّ بحذاءِ أذنيَّ قبل أن يعلو صوتي جهرًا أن الله أكبر وأشهد أن لا إله إلَّا الله، فخفتت جلبة العنبر شيئًا، وانحسر الهمس، حتى ساد الصمت تمامًا إلَّا

من صوتي. ما إن انتهيت حتى نظرت خلفي لتُراعني نظرات العشرات الذين كانوا يتطلعون إليّ مشدوهين، حتى سالم أيضًا قام من جَثْوِه وطفق ينظر لي مُستغربًا، وكان هذا حين سمعت بزنزانة مجاورة:

- ما شاء الله، ولا قوة إلّا بالله، من صاحب الصوت الجميل؟!

- هذا هو مجنون العنبر! الذي كان ينام في الممر!

عُدْتُّ إلى الصلاةِ مُجَدَّدا، وزِدْت عليها بقراءة القُرْآن، حتى اِقْتَرَحَ عليَّ سالم مرةً أخرى أن أنضم لبرنامج (التائبين). فطالما أني في كل الحالات أقرأ فلم لا أَسْتَثْمِر الوقتَ في حِفْظِ الأجزاء المقَرَّرة بالبرنامج عَسَى أن يصيبني العفو الملكي فيعفيني من باقي مدة الحبس. هكذا سجَّلت اسمي في البرنامج وعرفت الأجزاء المطلوب حفظها، ولحسن الحظ كنت أحفظ قبلها قسطًا كبيرًا فصار الباقي هيِّنًا.

وكان البرنامج أيضًا يضم ورَشًا لتعليم الكهرباء والنِجارة وغيرهما، وهي ورشٌ حِرَفية تُقيمها إدارة السجن لتعليم السجناء صنعةً يستطيعون العيش من كسبها بعد الإفراج عنهم، لأنه من الصعوبة، إن لم يكن مستحيلًا، أن يلتحق السجناء بعد الإفراج بوظائف حكومية أو حتى خاصة، بينما صحائفهم الجنائية تحمل وصمة السجن.

لم تزلْ نظرات الاستغراب تَطَالُني، لكن هذه المرَّة بأَزْيَدَ مما كانت عليه، لا سيَّما أثناء سَيري بالمصحف في ممرِ العنبر عاري الجزع، بينما يعتمر ظهري وشمٌ سيّء السُمعة، بعضهم يوقن أن إِقْبَالي على القرآن ما هو إلَّا طورٌ جديدٌ من أطوار جنوني، فالبعض يُحَدِّقُ مندهشًا والبعض يدعو مُشفقًا، وعلى أيٍّ لم يكن ليجرؤ أحدٌ أن يُلقي على مسامعي أية كلمة، سخريةً أو تجريحًا. غير أن هذا لم يكن يمنع أن ثَمَّةَ تعليقاتٍ تُقال في الخفاء، لعلَّ أطرفها كان ذلك الذي أُطْلَق عليَّ: النازيُّ التائب.

كان الليل هو وقتي المُفضل للحفظ والناس نيام، وكان النهار لترديد ما حفظته على سالم الذي كان يتطوع لمهمة (التسميع) بعد أن يُنهي طبخه وغسيله، غير أن الغسيل والطبخ لم ينتهيا منه، فيده تُمسك بالمصحف لكن رأسه منشغلٌ بالملابس التي لم يغسلها بعد، أو تلك التي غسلها ولم تجِفْ، أو تلك التي جفَّتْ ولم يُسَلِّمها لأصحابها، كان يسرح حينًا، وكُنت أسرح أحيانًا، والأزمة عندما يسرح كلينا.

- سالم.. انتبه بالله عليك.. فقد اقترب موعد الاختبار.

أقولها فيعتدل في جلسته، ويتشبث أكثر بالمصحف، وكأنه يثبت استعداده للمهمة:

- حسنًا حسنًا والله أنا معك.
- فعلًا!
- أي والله معك.. هيًّا.. ابدأ.. بسم الله.
- من أول ماذا؟
- أين توقفت أنت؟
- هات المصحف يا سالم.
- يا أخي والله معك قلت.
- لا لا هات المصحف.
- مالي أراك نافد الصبر هكذا؟!
- ليس لشيءٍ، كَفَى اليوم.

ناولني المصحف: هل علم أهلك بما جدَّ في موضوعك وموضوع القاضي وما إلى ذلك؟!

- لم أخبر إلَّا عمرو.
- وأمك!
- اتفقت مع عمرو على إخبارها بأن الأمر سيطول قليلًا لتأخر بعض الإجراءات، لم نستطع أن نقول غير ذلك.
- خيرًا خيرًا بإذن الله، طمئنني عمومًا بما يَجِد.

أومأت إيجابًا وامتنانًا، فغادر لإتمام عمله بعد أن ألقى وعدًا بأنه متاحٌ في أي وقتٍ إن أردت أن أكمل التسميع، قمت إلى الزنزانة وتحصَّلت على هاتف وتحدَّثت إلى عمرو، في المكالمة لم يُخفني سرًّا أن صدمة أمي كانت كبيرة جدًا، فقد استاءت وثارت على موضوع الإجراءات هذا، متسائلةً عن ماهيتها ومُدَّتها وطبيعتها، فأجابها عمرو بما طرأ وقتها في خاطره، وحيث لم يُخفِّف من ثورتها - أمي - إلَّا معرفتها بأن عقوبة الهروب قد تم تخفيفها إلى شهرٍ واحدٍ، ووعدًا بأنه سيتم استكمال تلك الإجراءات قريبًا، تمهيدًا للإفراج النهائي عني.

- وباقي أهلنا وإخوتنا يا عمرو.
- كما أخبرتك، يظنون أنك في بعثةٍ تدريبية، وستعود عندما تنتهي مهمتك.

بعد ترددٍ: ألم تعرف بعد شيئا عن عائِشة؟ ألم يتصل بها أحد أو يعرف شيئًا عنها أو عن أهلها؟

لم يرد.. استثقلت صمته.. كررت السؤال.

- رأيتها مرة.

قفز قلبي من مكمنه: رأيتها؟ فعلًا! اصدقني بالله عليك، رأيتها فعلًا؟

- نعم يا زين رأيتها، ما بك؟
- كيف هي؟! ألم تُحدثها؟ ألم تتكلم معها؟! هل رأتك هي؟!
- لم ترني، ولم أتكلم معها، وفيم أتكلم؟! كانت مع والدتها وإخوتها.
- كيف كانت؟!.. أعني كيف بَدَتْ مثلًا؟!.. أثمة ما جدَّ عليها؟
- وما الذي قد يجدُّ عليها؟.. هي كما هي.. كما كانت منذ أشهر.
- أعني.. هل كان حالها طيِّبًا؟!
- حالها طيبٌ يا زين.. وكلهم حالهم طيب.. هي وأمها وإخوتها جميعًا.. يحيون.. ويشربون.. ويأكلون.. وينامون.. ويتجولون.. ويتسوقون.. ويتنعمون بما أحلَّ الله، والحمد لله.
- لم لا تعجبني نبرة صوتك؟!
- لا يا زين والله عادي عادي أردت فقط أن أُطَمْئِنُك على حالهم، أوليس هذا ما سألت؟
- عمرو.. بالله عليك.. أنا لا أحتمل.. بي ما يكفيني.. هل تعرف شيئًا وتخفيه عني؟
- وماذا قد أُخفي؟ كل ما أعرفه أني أودُّ فقط أن تنتبه لحالك، وتهتم بنفسك فقط، من أراد السؤال عنك فليسأل، لن يُعْجِزُه شيء ولن يمنعه شيء.
- هم معذورون يا عمرو. ما حدث لم يكن هيِّنًا عليهم..
- إذن فهم المعذورون كما قلت، وأنت وحدك المُلام.. معك كل الحق يا أخي.

انتهى الاتصال لأشعر بتلك القرصة في صدري، صَبَّ عمرو ملحًا حارقًا على جرحٍ كنت أغض الطرف عنه، فطوال الأشهر الماضية كنت أتحاشي ذلك السؤال؛ لِمَ لا يحاول أحدٌ من أهل عائِشة الوصول إلي؟ أو حتى مجرد الاتصال ببيتنا والسؤال عني؟ أو معرفة إلى أين وصل الوضع بذلك الذي كان بيننا يومًا؟ ولم حتى طوال تلك الأشهر لم أجد خبرًا من رائد؟! وكأني لم أكن أعرفه قبل اليوم! أمعقول أنه لم تشفع لي عنده للحظة سنوات أخوتنا وصداقتنا؟ وساعات ضحكنا وسهرنا وسمرنا! ألم يَرِق قلبه لصاحبه الذي اصطفاه يومًا ليُسِّر إليه بما لم يبح به لأحد غيره؟ فيفكر ولو مرةٍ بزيارته! أو حتى بالسؤال عنه! هو الذي من مركزه ومنصبه يقدر على فعل ما هو أكثر من مجرد السؤال والزيارة!

وجدتني عند المسابح، حيث كان يجلس سالم القرفصاء عائمًا في رغاوي الصابون: أريد أن أشتري تليفونًا.

توقف عن فرك القميص: لم لا تتحدث من تليفون أحدهم كالمُعتاد؟

- لا لا أريد شراء واحدٍ لي.
- أتعلم كم سيكلفك؟
- سأدبر المال، لكن هل تستطيع إدخاله إلى هنا؟

عاد لقميصه من جديد: لا تحمل همًّا.. أخبرني فقط عندما يتجهز لديك المال.

***

بعد بضعة أيامٍ أخرى استطعت الحصول على تليفونٍ مقابل مبلغٍ كان عمرو قد اقترضه لأجلي من أحد أصحابه، شاملًا أتْعَابَ كل من مرَّروُه خِلسةً من بوابة السجن حتى وصلَ إليّ؛ شاشة مشروخة، وأزرارٍ مطموسة، وبلا غطاءٍ للظهر.

في ركن الزنزانة الأقصى تواريت والهاتف، مُسْنِدًا بطاريته بسبابتي لئلَّا يخر ميتًا، ضغطت رقم عائِشة ليستقبلني رنينٌ تزامنت معه دقات قلبي لهفةً.. ووجعًا أيضًا! فبقدر شوقي لسماع صوتها، بقدر رعبي أيضًا، فلا أدري ولا أضمن ما قد يبدر حين أسمعه، أو حين تسمعني، لكن الرنَّات تتابعت برتابة، حتى انقطعت تمامًا، كرَّرْت الاتصال مرتين أخريين لكن بلا جدوى.

بعد ترددٍ لم يدم حسمت أمري، وضغطت رقم رائد وانتظرت، لكن كانت هي النتيجة نفسها!

اتصلت بمنزلها وأيضًا لا رد!

كررت كل تلك الاتصالات لبضع مراتٍ أخرى لكن بلا إجابة، حتى بدا الأمر وكأني أطرق بيتًا هجره أصحابه منذ زمن.

في النهاية اتصلت بعمرو..

- أواثقٌ أن عائِشة وأهلها لم يزلوا في البلاد، ولم يغادروا؟
- وإلى أين قد يغادرون؟! رأيتهم قبل أيامٍ كما قلت لك.
- ألم تزل أرقامهم كما هي؟
- لم أجرب حتى أعرف.
- عمرو.. للمرة الأخيرة أسألك.. هل تُخفي عني شيئًا؟!
- لا شيء لأخفيه كما أخبرتك، قلت لك كل ما حصل بالحرف، وهم موجودون بمكانهم كما كانوا، بل حتى أن سياراتهم لم تزل موجودة في الجراج.

أنهيت الاتصال بعمرو ودخلت إلى الزنزانة يجثم على صدري همٌّ يُثقِلُ أنفاسي، أنظر في الهاتف كل بضع دقائق عسى أن قد يكون قد أتاني اتصالٌ لم أنتبه إليه، لكنه - الهاتف - بدا كما أتى؛ قطعةٌ من الخردة.

هل معقول أن يكونوا جميعهم قد بدَّلوا أرقامهم؟ أم أنهم يتحاشون الأرقام الغريبة عمومًا؟ هل صاروا يُقصرون علاقاتهم ودائرة معارفهم على أشخاصٍ بعينهم؟ هل يفرضون سياجًا حول عائِشة و يمنعونها من الوصول إليَّ؟

أجريت اتصالًا أخيرًا يائسًا أفضى إلى سكوتٍ مُطْبِقٍ، لأدسَّ الهاتف بعدها أسفل فرشتي، وكان هذا عندما لمحت تلك الأوراق تصافحني بأطرافها!

رسائلي لعائِشة!

الرسائل التي كنت لشدةِ الحب أكتبها، وأتوهم لشدة الشوق أني أرسلها، وأتوهم لعِظَمِ اللهفة أنها تقرأها، وأتوهم لسخاءِ الأمل والتعلقِ أن ردًّا قد يأتيني!.. منها!.. بين لحظةٍ وأخرى.

تصفحتها واحدةً تلو الأُخرى، أمر بعينيّ على السطور دامِعًا، ومُستغربًا، ومُشفقًا أن أيُّ مُتَيَّمٍ بالوهمِ ذلك الذي كنته قبل أسابيع، لأحكي وأقص وأصارح، وأبحث وأسأل وأتلهف، وأُعَدِّلُ وأُنَقِّح أوراقًا أعرف أنها أبدًا لن تُقْرَأ، بل ولن تتعدى حتى باب العنبر.

أحدس أن شيئًا ما يحدث خارج تلك الأسوار، وأنه شيءٌ لا يرتاح له قلبي ولا أطمئن له، لكن وعلى أية حال، إن شاء الله غير ما أشاء، فستظلين يا عائِشة، ورغم كل شيء، حبيبتي لنهاية العمر، ولئن حالت الحوائل بيني وبينك، ولم تكوني لي في هذه الدنيا، فستكونين أنتِ طلبي الأول.. والأوحد.. من الله.. حين ألقَاه.

- ٢٢ -

كان وقتُ الطعام هو أحد الأوقات النادرة التي يستطيع فيها عمَّار زَحْزَحَةَ جسده بعيدًا عن الحَمَّام، بعد أن يجلس مؤقتًا في أحد تلك الأماكن التي شَغَرَت من أصحابها الذين يتحلقون بمنتصف الزنزانة حول الصواني والقدور.

في هذا المساء، وبعد أن وُضِعَ الطعام، ناديته، وكان يرتكن إلى أحدِ الجُدرانِ ساكتًا كعادته، فَنَقَلَ بصره بيني وبين رشيد يبثني قلقه، كَرَّرت دعوتي فجرجر جسده مُترددًا والتحم بدائرتنا حول الصواني.

توقف رشيد عن الأكل ونظر إلي كلينا - أنا وعمَّار: خيرًا؟

- خيرًا إن شاء الله. أجبته.

أومأ برأسه ناحية عمَّار دون أن ينظر إليه: ما الذي يفعله هذا هنا؟!

- أنا من دعوته.
- دعوته! أتظنه فندقًا؟ كيف تفعل ذلك وأنت تعلم أنه لا يدفع شيئًا؟
- ولن يدفع..
- زين! لا تمارس فُتـُوَّتك معي، للطعام نظام وللزنزانة نظام، أنتَ أتيت وِفْقَ ذلك.
- لم آتِ وفق شيء وهذا طعام السجن وليس طعامك وتلك زنزانة السجن وليست زنزانتك.
- لكني هنا المسئول، ونظامها هو الذي أُقرُّه. نحن هنا نتشارك بما يجعل هذا الطعام طعامًا، وفي شراء المطهرات لتنظيف الزنزانة، وغير ذلك الكثير، وصاحبك هذا لا يشاركنا في أي شيء. نظر لعمَّار: عُدْ إلى حيث كُنت.

همَّ عمَّار بالقيام، فقبضت على ذراعه مُجْلِسًا، تراسلت عيناي ورشيد برسائل من نار، ألقى في نهايتها مِلْعَقَته غاضِبًا وقام: سالم، أنْهِ طعامك وتَعَال.

***

بعد أن انتهى العَشاء عاونت سالم على إخراج الصواني الفارغة ناحية باب العنبر.

- رشيد لم يخطيء يا زين، للزنزانة نظام ولو أن كلَّ واحدٍ اخترق نظامَها لأجلِ علَّةٍ ما، أيا كانت، فسيتحول الأمر لخربطة.
- والله أبدًا ياسالم ما كنت أظن أن تقول أنت هذا الكلام، وكأنَّك تتكلم بلسانهم لا بلسانك.
- لساني أو لسانهم الغَرَضُ واحد، وهو أن ما فعلته قد يُشَجِّع آخرين على ألَّا يدفعوا المال لنظافه الزنزانة، أو لإعداد الطعام بشكلٍ جيد.
- ما الفارق الذي ستصنعه نقود عمَّار حدَّ إذْلالِه بهذا الشكل؟! هل ستزيد من جودة الطعام أو تقليله؟ هل ستزيد من طَهَارَةِ الزنزانةِ أو وَسَاختها؟
- ليس لتلك الدرجة طبعًا، لكن ما حصل قد يُشَجِّع كثيرين على عدم الدفع أوحتى التخاذل فيه، لأنك دون أن تشعر سَاويت بين من يدفع ومن لا يدفع.
- هُناك فارق بين من لا يدفع حِرمانًا ومن لا يدفع نطاعةً، رشيد ومن معه يفعلون ما يفعلونه بعمَّار انتقامًا وتشفيًا ولا أكثر، ولو لم يكن عمَّار شُرطيًّا لما بالغوا في تطبيق قوانينهم عليه بهذا الإجحاف، لا تُنكر ذلك، قالوا يومًا يا سالم أن غايةَ النبلِ ألَّا تتمنى الألم للذين آلموك.

انْفَرَجَ باب العنبر فدفع سالم الصواني للشرطي الواقف والذي رافقه بعضٌ من أفراد البلدية:

- أتعلم أن رشيد قال لي أن أرد لك نقودك ولتَعُدْ إلى الممر.

دفعت صينية أخرى: وأنا موافق.

توقف سالم عن دفع الصواني والتفت إلي: موافق؟

- والله موافق.
- موافِق على أن تخرج من الزنزانة! وتنام مرة أخرى في الممر؟!
- بل على أن يُعيد لِي نقودي فقط.

ضحكت نِصف ضحكة، فَلَوَى سالم فمه وسكت. كنت أعلم بما يجول بخاطره، وهو أن نقاشاتٍ كثيرة لمْ تَعُدْ تُجْدِي معي نفعًا بعد أن صِرْت عَصِيًّا على طاعةِ أي أمرٍ أو تمرير أيَّ نُصح، هكذا استمررنا في إخراج الصواني صَامِتَيْن، وكان ذلك حين راعتنا تلك الجلبة؛ تحركاتٍ حائرة من أفراد شرطة راحوا يخرجون من مكاتبهم ومن العنابر المفتوحة أبوابها قاصدين نقطة بعينها، وقبل أن يفهم أحدنا ما يحدث، أو يعي ما يُقال، أُغْلِقَ علينا بابُ العنبرِ بقوة، وكذلك فُعِلَ بباقِي العنابر. وكان آخر ما لمحته؛ شُرْطِيان يركضان وهما يحملان سريرًا طِبيًّا.

- "سجينٌ حالته حرجة، بعنبر (٨)".

استقبلنا بها نوَّاف عندما دَلَفت وسالم إلى الزنزانة مُسْرِعيْن..

- من هو ؟!.. هل نعرفه ؟!.. سأل سالم.

عَادَ نوَّاف يحتضن تليفونه بكفِّه مُنْصِتًا للأخبار التي تأتيهِ من الجانب الآخر، فيما كنت وسالم وكل من بالزنزانة نُحاول أنْ نَقْرَأ ما تأتي به ملامحه بفضولٍ كبير، خصوصًا مع جلبة الشرطة قد بدأت تتعالى أكْثر وأكْثر، وكان هذا حين تَغَيَّرت ملامح نوَّاف شيئًا.

- من يا نوَّاف.. من ؟! سألناه.

لم يُجِبْ، بل حملته قَدَمَاهُ ساهيًا إلى خارج الزنزانة، وكان هذا حين وجدنا آخرين يقفون على عتبة زنازينهم، بنفس الوجه المُمتقع، فيما بدا أن نفس الإجابة قد أَتَتْهُم في نفس اللحظة، الإجابة التي جعلتهم ينظرون لتلك الزنزانة بِعيْنِها، والتي جعلت كل من فِي الممرِ يَتنحون جانبًا، مُفْسِحِين لذلك انطلق بسرعة البرق.. عليّ.

مَرَقَ عليّ في الممرِ كالسَّهم قبل أن يصل لباب العنبر حين ذاب تلُّ المساجين الذين كانوا يتابعون ما يحصل بالخارج، صَفَعَ البابَ بكفيّه صارِخًا: "أنتم.. ما به عزيز.. افتحوا الباب.. ما به ؟!.. افتحوا الباب حالًا.. حالًا أقول".

دَخَلَ سعد إلى زِنْزانتنا واحتوانا بهمسه: عزيز.. واقعٌ في زنزانته.. مغْشِيٌ عليه...

- شِجَار؟! سأَل سالم.

- بل مخدرات مغشوشة.

في تلك اللحظة خرج ساجِد من أحدِ المسابحِ بملابسه الداخلية فقط، ليستقبله رفاقه بما اكفهرَّ به وجهه، أخرج تليفونه وضَغَطَ أرقامه مُسْرِعًا، ليستمع بتركيزٍ لما يُنْقَل إليه من العنبر الآخر.

- من أعطاها له؟! سَأَلَ سالم.

- "عُبيّْدة". قالها نوَّاف وكان يقف على عتبة الزنزانة فيما لم تُفَارِقَا عيْنَاه - وأعيننا - ما يحصل: تاجر معروف، كان يُعطي عزيز مجانًا ودونًا عن الكل طلبًا لرضا أخويه، انقلب السحر على الساحِر.

أسرع رفاق علي إليه وتسابقوا لتهدئته وإِبْعَادِهِ عن الباب، لكنه كان ينسلت من بينهم صافعًا الباب من جديد، أمَّا ساجِد فكان يقف ثابتًا بمنتصف العنبر، مُحتفظًا برباطة جأشه، ومُتمركزًا وسط أربعةٍ من العمالقة اقتبسوا منه أناته وصبره، كان لم يزل يستمع لما يحصل في الجانِب الآخر، مُمْلِيًا ما بدا أنها تعليمات وإرشادات للتعامل مع وضع أخيه.

- وأين عُبيّْدة الآن؟! هل قُبِضَ عليه؟! سأل أحدهم.

رَدَّ آخر: قيل أن الشرطة أخفته، لئلَّا ينال منه أحدٌ بالعنبر الآخر.

- أين؟!

- لا أحد يعلم.

- ويلٌ له لو وصلوا إليه، والله لن يطلع عليه نهار.

- يجب أن ينقلوه إلى أيِّ مكانٍ آخر، أيُّ مكانٍ خارج هذا السجنِ كُلِّه.

بنهاية العبارة انقطع الحِسُّ بالخارج فجأة، فسكت الكلُّ في وقتٍ واحد استراقًا للسمع، بتر علي هتافاته وألصَقَ أذنه بالباب، عانقت جبهته الثقوب، مَسَحَتْ عيناه ملهوفتين الطرقة من أقصاها لأقصاها، نادى على أفرادِ الشرطةِ واحدًا واحدًا، راجيًا هذه المرة وليس آمرًا، بأن يخبرونه بوضع بأخيه، أو أن يحملونه إليه، لكن الصمت كان هو إجابة رجاءه وتوسلاته، فتلفَّت حوله عساه يجد ما يشفي القلق والحيرة، وكان

هذا حين التقت عيناه بتلك العينين.. عينا أخيه! ساجِد، ساجِد الذي ارتخى التليفون إلى جواره واحتَّل الخواء عينيه، كما احتَّل ذلك الخبر جنبات العنبر وتناقله الناس همسًا.. وخوفًا..

لقد مات عبد العزيز!

لثوانٍ أُغرِقَ العنبر كله في الصمت، حتى بدا وكأن الزمن نفسه قد تجمَّد، لملم كل من في الممر حاجاتهم على عجل، ودخل كل من في الممر إلى زنازينهم بسرعة.

- زين.. تعال.. تعال فورًا.

قالها سالم وهو يسحبني من ذراعي إلى داخل الزنزانة، وكنا قد تراجعنا بداخلها بالفعل لا إراديًا كالباقين، ولكنه سحبني إلى عُمقها أكثر قبل أن يقوم رشيد من فوره بإغلاقها علينا، وكان هذا حين خرج أفرادٌ من زنازينهم بأجسامٍ طويلةٍ حادةٍ في أيديهم، مرَّروها على القضبان لتحدث جلجلةً وصليلًا أجبر كل من في الزنازين على التقهقر داخلها أكثر وأكثر. خلع علي قميصه وثار ثورته الكبرى على باب العنبر، ضربًا وصراخًا وشتمًا، آمرًا بأن يُؤتى بأخيه حالًا أو أن يُحْمَل إليه، فيما بدا أنه لم يصدق ما أشيع، أو يرفضه! قبل أن يُخْرِج من جيبه جسمًا حادًا دسَّه يائسًا في قفلٍ لم يُرَحب به. ثوانٍ بعدها ثم سُمع الارتطام؛ ساجِد! هوى كجدارٍ مغشيًا عليه، نوبةٌ من النوبات، هرع إليه عليّ وانكبَّ فوقه يلطمه مع رفاقه ويرشون وجهه بالماء، فيما تطوع آخرون للنداء على الشرطة، ولكن يبدو وكأن السجن كله أصبح مهجورًا، لا شرطي ولا ضابط ولا أي شخص في طرقة العنابر، دقيقة كاملة حتى برز شرطيٌ يلهثُ وكأنَّه آتٍ لتوِّه من سفرٍ بعيد، نظر من الثقوب حين راعه التجمهر، فأبى أن يفتح الباب إلَّا إذا ابتعد الكل.

- أكثر! أكثر!.. أكثر أقول.

تراجع الكلُّ مُتَخَبِطِين ببعضهم البعض يتزعمهم علي وهو يفرد ذراعيه عن آخرهما ليحبسهم في النصف الآخر من العنبر، فُتِحَ الباب وانسلَّ شرطيان أراحا ساجِد فوق السريرِ الطبي سريعًا قبل أن ينْفذَا بجلدهما إلى الخارج، لكن حين هَمَّ الشرطي الثالث مُسْرِعًا بإغلاق الباب لم تُواتِه الفرصة؛ ضربة قوية نالها رأسه، لم يَحتَج أكثر منها ليختل توازنه، ولم يَحتَج الشرطيان الآخران أكثر منها ليتسمرا مفاجأةً، ولم يَحتَج الأخ الأصغر - علي - إلَّا مُهلة ثوانيها لينطلق ناحية الباب، فينضم إلى أخيه الذي نال شرف البداية بعد

أن انتفض من فوق السرير في لحظةٍ وكأن شيئًا لم يكن، ليُطيحا كلاهما الضرب في الشرطيان الآخران اللذان تكوَّمَا في لحظةٍ أرضًا بجوار رفيقهما. همَّ أصحاب الأخوين بالخروج لولا أن حبستهم إشارة من يد علي بأن هذا الأمر يعنيهما وحدهما فقط.. هو وأخيه.

في طُرقة العنابر الفارغة، ووسط هتافات السجناء الذين تشاجرت أعناقهم على الأبواب كما لو كانوا يُشاهدون مباراة لمصارعة الثيران، ركض علي وساجِد وهما ينقلان أبصارًا كالرادرات بين الأبواب والممرات والغُرف.

- في العيادة.. في العيادة.

صرخ بها أحدُ المبتغين قَدْرًا أكبر من الإثارة، لينطلق الموتوران إلى مكتب الطبيب الشاب الذي فزَّ مرتعشًا ومُبْدِيًا دهشةً زائفة عن سبب وجودهما، لكنَّ ثباته تبخَّر حين أمسكا بتلابيبه سائلين عن عُبيّدة، فتوسلَّهما أن ليس له شأنٌ بهذا كله، ولا يعرف ما يتكلمان عنه، لكنهما لم يحتاجا لإجاباته، أو حتى له شخصيًا، فقد وشى الجسد المترهل بالتاجر البائس، والذي بَظَا لحمه من تحت سريرٍ ضاق بسمنته، هكذا قذفا بالطبيب إلى خارج الغرفة، ومن أسفل السرير جرَّا اللحم المُكدَّس الذي تَوَسَلَ صاحبه بدموع الدنيا كلها أن ليس له ذنب فيما حصل، وأنه خُدِعَ كما خُدِعَ عبد العزيز، وأنه كان يحبه ويعتبره كأخيه، لكن الأخوان انهالا عليه ضربًا بأيادٍ وأرجلٍ كالمطارق، حتى سُمِعَت توسلاته وصراخه بجنبات الطرقة التي تعارك السجناء على أبوابها تدافع الجماهير على مصارعةٍ للرومان، وكان هذا حين سُمعت تلك التحذيرات؛ شُرطيان ظهرا فجأة في طرقة العنابر يركضان بأقصى سرعة، قبل أن يتسمَّرا حين انعطفا إلى الممر الصغير المُفضي للعيادة، فقد انشقَّ المكان عن أولئك الذين خرجوا لتوهم من العنبر؛ ثلاثة تقافز أقصرهم كقردٍ صغير وهو يلوِّح بموسٍ في يده، متوعدًا الشرطيين إن اقتربا، وإلاَّ ستأتيهما الغدرة من حيث لا يحتسبان.

- لا وقت للضرب.. أنهياه بسرعة... بسرعة..

صرخ بها الثلاثة في الرفيقين اللذين لم يجدا ما يُمكنهما به إنهاء حياة ذلك الذي انْطَمَسَتْ معالم وجهه تحت خيوطٍ متشابكةٍ من الدماء، لتأتيهما الفكرة في لحظة، حملا الجسد المترهل متقابلين، وانقذفا به بطول الغرفة حتى اندكت الرأسُ في الحائط، كرراها ثلاث مرات لتنشح صرخات الرجل وتوسلاته مع كل مرة،

حتى اختفت تمامًا مع أنفاسِه في المرة الرابعة، وكان هذا حين أتى أفرادٌ آخرين من الشرطة وتكالبوا على الثلاثة ضربًا بالعصي والشومِ حتى أوقعوهم وكبَّلوهم، قبل أن يدخلوا الغرفة ويتهيأون للاشتباك مع الأخوين، لكن الأخوان كانا قد أنهيا مهمتهما، فجثوا على ركبتيهما، مُسْتَسلميْن، رافعيْن أيادٍ مُخضبةٍ بالدماء، فيما استقرت أسفلهما جثة التاجر التعس.

***

أتتنا الأخبار بعد ساعاتٍ أخرى! كان أغربها أن عبيدة لم يمت! بل تم إنقاذه في اللحظات الأخيرة بفضل الطبيب الشاب، ليُحمَل بعدها - عُبيْدة - إلى المستشفى مُصَابًا بارتجاجٍ في المخ، وكسورٍ في الجمجمة، فضلًا عن كدمات في أنحاء جسده، قيل أنه قد يفقد النطق تمامًا، لكن المؤكد أنه سيُحْمَلُ إلى سجنٍ آخر، بعيدًا عن جحيم ينتظره إن ظلَّ بنفس المكان.

جثة عبد العزيز سُلِّمت في صباح اليوم التالي إلى ذويه.. أمٌ يائسة.. وزوجةٌ باكية.. وأخٌ أصغرَ سنًّا.. لكن أكثر حظًّا من كل إخوته.

ساجِد وعلي تم وضع كلٍ منهما على حِدَة في حبسٍ انفرادي، استعدادًا لتوجيه تهمة الشروع في القتل إليهما، أما أصحابهما الثلاثة فقد أوسعوا ضربًا وتعليقًا قبل أن يتم وضع كل منهم في حبس انفرادي تمهيدًا لمحاكمتهم بتهمة الشغب ومقاومة الشرطة.

مات عبد العزيز!

مات وحيدًا كما عاش وحيدًا..

لم تنعهِ غير فُرْشَاته وألوانه، ورسوماتٍ لن ترى النور، وحبيبةٌ لن تبعث فيها الروح بعد اليوم لتحادثه ويناغشها، وسجينان كان يتسامر معهما ويمن عليهما بمخدراته، وقد لا يتذكراه بعد جُرعتهما القادمة.

- ٢٣ -

يوم الاخْتِبَار..

أَخْرَجَنِي الشُرْطِيُّ من العنبر برفقة آخرين واقتادَنَا جميعا إلى المسجد. يخفقُ صدري، وتُقَرقرُ بطني، كلما خطوت واقتربت، تمامًا كما كان يحدث أوقات الامتحانات عندما كنت صغيرًا، لكن هذه المرة مَضْروبًا رُبَّما في مائةِ ضِعف.

دَلَفت لألفى شيخًا تَرَاصَّت أمامه بضعةُ صفوفٍ من السجناء، ضَمَّني الشرطي - ومن معي - إليهم، ثم مضى، فرحت أتابع ما يحدث..

كلُّ سجينٍ حين يحين دوره كان يقوم ليجلس بين يدي الشيخ، فيتلو من آيات القرآن ما يُطْلَب منه، البعض يقرأ بطلاقة والبعض يتعثر، والبعض لم يكن يحفظ إلَّا بضع كلماتٍ من بضعةِ آياتٍ ربما كان يجد فيها شَفِيعًا للخلاص، والشيخ في ذلك كله يُنصِتُ باهتمام ويُسَاعد بإخلاص ويُعدِّل برفق، قبل أن يطلب من السجين، في لحظة ما، التوقف عن القراءة، مُثنيًا على مجهوده، وناصحًا بالمواظبةِ على القرآن والالتزام بجانب الله والرفقة الصالحة، فينصرف السجين ليدوِّنَ الشيخ شيئًا في كشفٍ بجواره، يبدو أنه يحمل أسماء المشتركين في البرنامج.

نُودى اسمي فقُمت إلى الشيخ وجلست إلى جوارِه، ففتح مُصْحَفًا وقلَّب صفحاته حتى اصْطَفَته آية، تلا أولى كلماتها وطلب أن أُكْمِل، فأمسكت عليَّ ثباتي وبدأت القرآءة، كنت أتعثر شيئًا في البداية قَلَقًا ورَهْبَةً، فتأرجحت سبابة الشيخِ أن تأنَّ ولا تتعجل، فانضبطت قراءَتي إلَّا من رجفةٍ لم أفلح بإخفائها، خاصةً حين وقعت عيناي على كشفِ المشتركين بجانبه، واسمي مدونٌ إلى جوارِ فراغٍ ينتظر تأشيرته.

بعد دقيقتين: صدق الله العظيم.. فتح الله عليك.. تَفضَّل.

قالها وهو يتناول ورقته، لكني لم أزل عاقِدًا ذراعيَّ أمام صدري مستمرًا في القراءة، فعلا بصوته مرةً أخرى أن (صدق الله العظيم)، فعلوت عليه بصوتي مُزايدًا، فتوقف عن الكتابة وتأملني مندهشًا، فيما تسمَّر السجين التالي في منتصف الطريق وهو ينظر إلى الشيخ الذي ترك ما في يده وطالعني: أقول صدق الله العظيم، ما بك؟!

- أنا أحفظ يا شيخ والله أحفظ كل شيء، سأقرأ كل شيء.. كل شيء.. "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ، فإذَا سَوَّيْتُه ونَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُواْ لَهُ ساجِدين...".
- ومن قال أنك لا تحفظ، لا وقت لقراءة كل شيء، وكيف ستقرأ كل شيء؟! لقد أنهيت اختبارك، تَفَضَّل..
- "فَسَجَدَ الملائِكَةُ كُلُّهُم أجمعُون، إلَّا إبليسَ أبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ الساجِدين، قال يا إبليسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكوُن مَعَ الساجِدين...".

نَظَرَ الشيخ إلى السجناء يُقاسمهم دهشته، قبل أن يعيد الورقة إلى جواره ببطء الدهشة ويستمع، الورقة التي كنت أقرأ وعيناي لا تفارقانها، فقد أدركت أن مصيري وأوجاعي بل الدنيا بأسرها تلخصت في جرَّة قلم من هذا الرجل، جرَّة قلم قد تعني خلاصي من جحيم هذا المكان للأبد.. أو أن اصطلي بناره لعامٍ آخر على الأقل.

- صدق الله العظيم، فتح الله عليك - جذب الورقة من جواره - واظِب على القرآن دومًا، واجعله في صدرك، لا فقط بين يديك، تفضَّل.
- أنا أحفظ الكثير والكثير من السور، حتى من غير المقررة في البرنامج "بِسم الله الرحمن الرحيم.. الحمدُّ لله الذي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الكِتابَ ولَمْ يَجعَلْ لهُ عِوَجًا...".
- من التالي؟
- "قَيِّمًا ليُنذِرَ بأسًا شديدًا من لَدُنْهِ ويُبَشِّر المؤمنين الذينَ يَعْمَلُونَ الصالحتِ أَنَّ لهم أَجْرًا حَسَنًا...".

هَمَّ بالكتابة: التالي يتفضل.

- "مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا، وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا..".

- التالي يتفضل لو سمحتم..

قطعت قرآءَتي فجأة مُطبقًا بكلتيَّ يدي على كفه الممسكة بالقلم: أقسمت عليك بالله يا شيخ، أقسمت عليك بالله.

همَّ بتحرير كفه متفاجِئًا فحبستها أكثر: بحق عائلتك وأهلك! بحق أولادك!

رفع الشيخ بصره إلى السجناء، لكن هذه المرة لم يجد على وجوههم ذات الاندهاش، بل راعه وجومًا يحكي، ربما، ما لم يُروَ على لساني.

- سأتلو عليك القرآن كاملًا لو أردت، أنا أحفظ.. أحفظ والله.. اختبرني يا شيخ أرجوك.. أنا أحفظ كل شيء.. كل شيء..

سحب الشيخ كفه برفق، وضع الورقة جانبًا، خلع نظارته، اعتدل بكامل جسده ناحيتي:

- ما بك يا بني؟!

لم أحتمل، وانهرت باكيًا:

- أريد أن أرى أمي.. أريد أن أعود إلى أمي أرجوك.. لعامٍ كاملٍ لم أرها.. هي التي لم تُفَارقني يومًا ولم أفارقها.. أريد أن أرى إخوتي وأهلي.. أريد أن أعود إلى منزلي.. إلى حياتي.. أرجوك يا شيخ.. لقد تعبت من هذا المكان.. ولم أعد أحتمل.. أخرجني من هنا.. أخرجني.. فأنا..

توقفت عن الكلام حين اختنقت الحروف بدموعي، فوليت وجهي بعيدًا عن السجناء، استعدل هو صدري المنكفيء وربَتَ علي:

- هوِّن على نفسك وترفَّق، صوتك كان جميلًا في القرآءه أتعلم ذلك؟ وترتيلك ينم على أنك لم تكن تحفظ لمجرد الاختبار، ألتمس في كلامك وهيئتك الصلاح والأدب.

- أنا لا أستحق ما يحصل لي، لم أقترف يوما جُرْمًا ولم أتعدَّ على أي قانون، لم يشتكِ أحدٌ أبدًا مني ولم أسيء أبدًا لأي شخصٍ في حياتي، لقد ألقيت هنا جَوْرًا وظُلمًا..

- أتصلي؟

- نعم.

- اِستزد منهما، الصلاة والقرآن، فربما ما أنت فيه ابتلاءٌ يقيس الله به صبرك وطاعتك، فعلي قدر الإيمان تكون البلايا، وتذكر دائمًا أن الله مع المغلوبين والمنكسرة قلوبهم، و إن كنت مظلومًا فسينصرك الله ولو بعد حين، انتبه إلى هذه الكلمة "ولو بعد حين".

- أنا أحفظ والله.. أحفظ الكثير من السور حتى من غير المُقررة بالبرنامج.. وسأقرأ عليك القرآن كاملًا لو أردت.. فقط أخرجني من هنا.

- ومن قال أني لا أسعي لإخراجكم جميعًا، فأنا أرى في الكثيرين ندمًا وتوبة، حتى لو لم يحفظوا جيدًا، فما الحال مع شابٍ يحفظ الكثير ويرتل جيدًا، هوِّن على نفسك وأبشِر خيرًا.

- إذن ستُخرجني يا شيخ! ستُخرجني من هنا أليس كذلك؟!

في تلك اللحظة دخل المسجد فوجٌ آخر من السجناء، ولاحظ الشرطي الواقف على عتبة المسجد ما يحدث، فتقدم ناحيتي بخطىً سريعة لأزداد التصاقًا بالشيخ.

- هل أنهيت اختبارك؟! سألني الشرطي.

- لا لا لا لم ينته بعد، لم ينته.. لم ينته!

توجه الشرطي للشيخ: هل أنهى هذا اختباره؟

جذب الشيخ الورقة من جواره ساكتًا وهَمَّ بالكتابة، فاستوقفت يديه مرةً أخرى: بالله عليك.. لا تخذلني.

راع الشرطي ما فعلت: أجُنِنْت؟!.. ماذا تفعل؟!.. هيا قُمْ.. قُمْ معي..

أَنهضني بعنف قبل أن يشَدَّني إلى الخارج تتخبط خطاي وتتعثر:

- لم يسمعني أحد يا شيخ.. ولم يُنصفني أحد.. كلهم غدروا بي.. فانصفني أنت بالله عليك.. انصفني أنت.

تحاشاني الشيخ وهو ينظر للسجناء: لنتابع، من التالي؟

- لن أسامحك أبدًا.. لن أسامحك.. أتعلم؟!.. هناك لقاءٌ آخر عند الله عزَّ وجل.. هناك لقاءٌ آخر.

***

قذفني الشرطي إلى داخل العنبر بغيظٍ وأغلق الباب، مسحت دموعي وضبطت هيئتي ثم ذهبت إلى الصنابير وغسلت وجهي جيدًا، عدت إلى الزنزانة تتقاذفني الهواجسُ عمَّا حصل: هل قد يشكوني الشيخ لما فعلت؟ هل قد يؤثر ما حصل على نتيجة الاختبار؟ هل قد يكتب هذا الشرطي تقريرًا عمَّا فعلته؟ أو تَلَفظت به؟ هل؟.. هل؟.. هل؟..

بحثت عن سالم فلم أجده، قيل أنه يلف في زنازين العنبر لجمع الملابس، لكني وجدت عبد الشكور وكان يحلق رؤوس أحد السجناء، فأخبرني أن دقائق ويتفرغ لي، لكني لم أَطِقْ صبرًا، فبركت بجواره وحكيت له ما حصل، فضحك وهو يقصُّ الرأسَ هامسًا بأن ما فعلته أمرٌ طبيعي.. طبيعيٌ جدًا.. بل وربما يكون هذا الشيخ وغيره قد مرُّوا بما هو أكثر من ذلك، بل بالعكس تمامًا، قد يكون ما حصل في صالحي..

- في صالحي!
- الكل يعلم جيدًا صعوبة الحفظ والقراءة في هكذا مكان، لذلك فالشيوخ أثناء الاختبار يبحثون فيمن يقرأون، بفِرَاستهم وطرقهم الخاصة، عن صدق الرغبة في التوبة والصلاح، هذا هو الغرض أساسًا من كل شيء.
- وماذا عن الشرطي؟ أليس من المُحتمل أن يُقدم تقريرًا بما فعلته وقلته؟
- لا لا هذا كله طبيعي وعادي وتمرره الشرطة أنت لم تتعد على الرجل أو تسبه مثلًا.

أومأت برأسي وسَهَمْتُ شيئًا، فتوقف هو عن الحلاقة للحظة وتوجه إليّ: أنا أعلم أنك لن تذوق النوم حتى موعد النتيجة، وستتقلب على أجنابك مصطليًا بحرِّ الانتظار، لكن، واسمع مني، لا تُرهق نفسك بالتفكير، وإن هي إلَّا أيام وتأتيك البشارة بإذنِ الله وستقول هكذا قال عبد الشكور، تعال تعال.. تعال أُشَذِّبُ لك هذا الرأس الهائِش..

- ٢٤ -

بعد بضعة أيام دَخَلَ عددٌ من أفرادِ الشرطة إلى العنبر، وتوَزَعُوا بطول الممر، فيما تعالت نِدَاءَاتهم للجميع بجمع حاجياتهم وفَرْشاتهم وتفريغ زنازينهم من كل شيء.

- "إفْراج؟!" قالها أحد السجناء عابِثًا وسط ضحكات من حوله.
- "ترحيل" أجاب الشرطيُّ.
- ترحيل! إلى أين؟
- عنبر (٨).

استقبل الموجودون الخبرَ بوَجلٍ، فتوقف كلٌ عمَّا كان يفعله، تَبَادلوا الهمسات فيما بينهم وتعالت أسئلتهم تستفسر عن السبب، إلَّا أنَّ الشرطة لمْ تُجِبْ على أيٍّ منها، ولم تذكر أيَّة أسباب، فقط قِيلَ على لسانِ نصَّار - وسط ما قيل لمن سألوه - أنها ولا بد صيانة للعنبر، فقد نَشَعت الحوائط بالمياه، وتعطَّلَت المراوح، وتعرَّقت الجدران بعروق المجاري والصرف، فإن لم تكن صيانةٌ فماذا تكون؟!

مِنْ قَلْبِ الزنازينِ رَاحَ السُجناءُ يجمعون أغراضهم وحاجياتهم فيما لم تُخفِ وجوه أكْثرهم هَمَّا باديًا للعيان. فهم لتوّهم سيغادرون مكانًا قد كيَّفوا فيه أوضاعهم لسنوات، ووفَّقَ فيه من يعملون أعمالهم، بل وأكثر؛ أنهم لا يَعْرِفوُن علي أيٍّ وضعٍ سيكونون عليه بالعنبرِ الجديد، فهم أولًا وآخرًا، وإن طَالَت المدة، ضيوفٌ هناك، والضيوفُ لا يختارون مَسَاكِنَهم، فهل ستنتقل كلُّ زنزانةٍ بأفرادها كما هي إلى العنبر الجديد؟ أم سيتم توزيعهم على الزنازين فتنفسخ التجمعات والأصحاب؟ وهل من له عملٌ هنا بالمسح أو الكنس أو الغسيل أو الطبخ يضمن أن ينتظره نفس العمل هناك؟ أم سيفقد عمله؟ بعضه؟ أو كلَّه!

رُبما لهذا كان سالم يُلَمْلِم حاجياته ساهِيًا. يطوِي فرشته فتكاد تقع منه أكْياس المساحيق، يحبس مساحيقه فتنفلت منه الملاعق، بدا تائهًا وكأنه لا يعي من أمرِهِ شيئًا، يضرب عقله أخماسًا في أسداس.

وَقَفَ أفراد الشرطة أمام باب العنبر، بالطُرقة الخارجية، يُشْرِفون على مراحل التهجير الجماعي، أخرجوا أفراد العنبر على هيئة أفواج، بين الفوج والآخر عشر دقائق، وبحيث لا يزيد الفوج في المرة الواحدة عن عشرين فردًا.

عندما جاء دورنا كَبَسْتُ فرشتي إلى صدري، وضعت كيس الحاجيات فوقها ومصحفي، وفي عُمق الجيب استقرت رسائلي لعائِشة. تحركت مع سالم سيرًا وسط عشرين فردًا كان معظمهم من أفراد زانزنتنا. لم أكُن أعرف إن كانت ستؤويني وسالم زنزانةٌ بالعنبر الجديد أم لا؟! وهل إن آوتنا واحدةٌ فهل سأضطر لأن أدفع نقودًا أخرى للاشتراك كما حدث هنا؟ لست مستعدًا لذلك أبدًا، والأهم: هل يعرف سالم أحدًا يأوي كلينا؟! عندما التفتُّ إليه - سالم - بدا من سكوته ووجومِه أنه يفكر فيما هو أكْثر من مجرد الإيواء.

حين دَلَفْنَا العنبر الجديد استقبلتنا جلبة المكان وصخب الموجودين، تداخلٌ وارتباكٌ من محاولات العشرات الذين دخلوا قبلنا لتوفيق أوضاعهم بالزنازين الجديدة. أغطيةٌ تُفرش وأخرى تُطوى، حاجياتٌ توضَعْ وأخرى تُبَعْثَر، صيحةٌ هنا وسبةٌ هناك، ربكةٌ بالمكان كله تقريبًا، وفيما كنا نلتمس الطريق من بين عشرات السائحين بالممر ونمرق بأجسادنا من بين الكتلِ المتلاحمةِ كانت تتأملنا الأعين باهتمام؛ تجول بالوجوه وتفحص الهيئات وتُفرِزُ السحنات، فترتفع الأكُفُّ تلويحًا لمن بدا أنه تربط أصحابها بالبعض صداقة أو ما شابه، فتشدهم إلى الزنزانة ترحيبًا، وكلما تقدَّمنا شبرًا تفتتت زنزانتنا فردًا أو فردين، ومع كل وجهٍ أعرفه ينسلخ عنِّي إلى مُستقرّهِ الجديد يزداد قلقي واضطرابي، قُرب نهاية الممر كانت زنزانتنا قد توزعت بطول الزنازين، ولم يتبق إلَّا أنا وسالم وعمَّار، بدا لي أن سالم وهو يبحث بعينيه زَائغًا أنه لم يكن يعرف أحدًا، وكذلك عمَّار الذي زاد من التصاقه بي وكأنه يبثني خوفه أن لا تنسني، لوهلةٍ شعرت أني أتحمل مسئولية هذين، تحفَّزْت ونظرت حولي لاصطفي أي زنزانة لأدخلها وليكن ما يكون..

"زين".. "سالم".. "عمَّار".. تعالوا.

كان هذا نوَّاف يُنادينا من آخر زنزانةٍ بالعنبر جهة اليمين، هرعنا إليه ودلفنا، ألقينا السلام على الموجودين، وسط التعارف والمصافحات اصطفيت ركنًا وضعت فيه أغراضي وفرشتي، وكذلك فعل سالم وعمَّار.. وكان عمَّار هو أكثرنا سعادة..

***

بِضْعةُ أيَّامٍ أخرى حتى تَمَاهَت الحياةُ بشكلٍ ما في العنبر الجديد كما كانت عليه في العنبر القديم، وَوَفَّقَ الجميع أوضاعهم بالزنازين والأعمال، وعادَ كلٌ إلى ما كان يفعله أو يلتهي فيه. وكان سالم فور استيقاظه يخرج من الزنزانة ليضرب في جنباتِ العنبر، يمرُّ بالزنازين واحدةً تلو الأخرى ليجمع الملابس من زبائنه المعتادين، يُكرِّر ذلك بضعة مراتٍ في اليوم كإجراءٍ احترازيّ كي لا يستبقه أحدٌ إلى زبائنه، أو يُزاحمه أحدٌ في قوته، الأدهى أنه شيئًا فشيئًا، وبطريقةٍ غير متوقعة، انعكس الوضع، فبدأ هو من يجتذبُ إليه زبائن جُدد، ليمنو عمله، ويزداد طُلَّابه، وتكثر كومات الملابس التي يذهب بها من، وإلى، المسابح. حيلته في ذلك كانت تخفيض الثمن وسرعة الإنجاز، وبحيث تُعوِّضه النقود الجديدة عما فقده من كونه لم يعد مسئولًا عن الطبخ في الزنزانة.

وكان بالي، رغمًا عني، لم يزل بعد مشغولًا بما حدث في الاختبار، بحفظي وأدائي وتلاوتي، وعمَّا إذا كان الشيخ قد استشعر في كلامي ولهفتي صِدْق النيَّة في الخروج من المكان أم لا. لم يفارقني المصحف قَطْ، أقرأ حينًا، وأحفظ حينًا، وما بين الحينين تتسرب يداي إلى الصفحات التي تلوتها أمام الشيخ، لأتأمل الآيات محاولًا تذكر الكيفية التي قرأتها بها أمامه، شاحذًا ذهني إن كنت قد نسيت كلمة أو نطقتها بطريقةٍ خاطئة. ذات مساءٍ، وبينما كنت أقرأ، توقف سالم مُجْهدًا عند عتبة الزنزانة، فَضَّ يديه ليهوى تلُّ الملابس على الأرض قطعةً واحدة، وقد جعل ينهجُ مستجديًا نسمات هواءٍ بخل بها المكان على صدره:

- والله ثم والله لن يُورِثُك هذا إلَّا همًّا فوق همك، وستَمُتْ قلقًا إن لم تمت حزنًا، فلا تلحق عفوًا ملكيًّا ولا غيره.. التفكير مُهلك يا زين.. والله مهلك.. وبالذات في مكانٍ كهذا.. رِفقا بحالك يا أخي.

أحني جزعه ليُقسم الملابس إلى مجموعات:

- والانتظار يا زين.. آهٍ من الانتظار لو تعلم! أتعلم أن الانتظار يُمرض القلب والبدن؟ ألم تقرأ عن هذا من قبل؟ ليتك تبحث وتقرأ.. وأنت فيك ما يكفيك.. لا تتأرق، ولاتفكر، وسيأتيك ما يرضيك من حيث لا تحتسب..

أَخَذَ نفسًا عميقًا ورفع الكومة مرةً واحدة كرافعي الأثقال:

-   سبحان الله، الرزق هنا أوفر بكثير، الترحيل أتى لنا بفائدة.

قالها ثم سار مترنحًا إلى المسابح، قبل أن يحتويني المصحف من جديد.

***

ولم تكن الزنزانة الجديدة تختلف الشيء الكثير عن القديمة، نفس الوضع: الفَرْشَات.. الكراتين.. المُطهرات.. الحمام.. إلَّا أنها كانت أكثر اتساعًا، طولًا وعرضًا. بها أحد عشر فردًا، رحَّب بنا بعضهم، فيما استاءَ الأغلبُ من مزاحمتنا إياهم في مساحةٍ لم يسعهم الوقت ليهنَؤوا بها. مسئولها كان أبو محمد، خمسينيّ العمر، نحيفٌ، أصلع، كان من نفس عشيرة نوَّاف وسعد، لهذا دعاهما إلى الزنزانةِ شارِطًا عليهما ألَّا يدعوا إلَّا من يعرفانه فقط معرفةً وثيقة لئلا يُفاجيء وأفراد زنزانته بمن يفرض نفسه عليهم، وبذلك دُعينا أنا وسالم وعمَّار. كان أبو محمد ودُودًا، حلو اللسان، عقوبته ثلاثون عامًا أمضى منها الثلثين تقريبًا، يحمل وجهه حكمةً عشَّشت بالأخاديد عبرَ السنوات الطُوال. في جلساتٍ جانبية ترعاها أكواب الشاي وتحفها أدخنة السجائر كنت أسمعه هامسًا يسأل نوَّاف عن أخبار عنبرنا، وعن سبب الترحيل، ثم عن الناس بالعنبر، ثم عن أسماءٍ بعينها كانت في عنبرنا، و"أين وصل الحال بعمَّار!"، ثم "من سالم هذا؟"، ثم أخيرًا: عن ذلك الذي يحمل جسده صُلْبَانًا يعرفون معناها جيدًا، كيف يُؤتى بمثله إلى الزنزانة؟! وماله شاردٌ سابحٌ هكذا في ملكوتٍ آخر؟! وماذا يفعل هذا المصحف في حوزته؟!

في كلماتٍ لم تَزِدْ عن "هذا والله حاله حال".. "حبسوه ظُلمًا".. "أخذوه من الشارع إلى هنا".. أوضح له نوَّاف حقيقة وضعي وكيف آل بي الحال إلى ما صار عليه، وكان أبو محمد قد سمع الكثير من القصص والحكايات، ورأى الأعجب والأغرب، وكل القصص التي سمعها أو رآها - كما سمعته يقول مرة - على قسوتها أو بساطتها، عِظَمِها أو صِغَرِها، أصحابها بشكلٍ أو بآخر مُذنبون، أتوا بفعلة ما أَوْدت بهم إلى هنا، والذين ظُلموا إنما هو فقط في تقدير مدة الحبس، والتي ربما تكون قد زادت فوق ما يستحقون قدرًا ما. لكن لا أبرياء هنا بالشكل المُطلق المتعارف عليه.

لهذا لم تَشْفِ كلمات نوَّاف الموجزة فضولَ سنواتِ أبو محمد العشرين، فتتابعت أسئلة الأخير فضولًا واسْتِفْسَارًا، لتسأل نوَّاف في تفاصيل القصة وأصل الحكاية، فحكي نوَّاف ما يعرفه عن أمري، بدءًا من

القبض عليّ، وانتهاءً باختبار التائبين، مرورًا بزفافي الذي راح، ونومتي في الممر، وهذياني وتعبي، وتعليقي من مِعْصَمي في طرقة العنابر، ووقوفي أمام القاضي، وأيضًا عن المشاجرات والمشاحنات. كان نوَّاف يَحكي فيما تجول عينا أبو محمد تزامنًا ما مع يُحكى، من الوجه إلى المعصم، ومن المعصم إلى الحروق، ومن الحروق إلى الوشم، ومن الوشم إلى المصحف، ولتتحول الكلمات التي بدأت موجزة إلى جملٍ مستفيضة، والجمل لما استفَاضَت صنعت حكاية، والحكاية أثارت اهتمامًا، والاهتمام زَادَ أكثر وأكثر عندما انزلق الكلام بينهما إلى مشاجرتي مع بسَّام، هنا تحوَّلت جلستهما الثنائية إلى ثلاثية ورباعية وخماسية، دحرج فيها البعض أجسادهم إلى حيث يجلسان فيما شارك آخرون من مواقعهم بالأعين والأذان، فقد اتضح أن معظم من في العنبر كانوا قد سمعوا عن المشاجرة قبلًا، ووصل لعنبرهم ما حصل في عنبرنا، لكن التفاصيل هي ما كانت تنقصهم، هكذا وجد نوَّاف نفسه مُحاطًا بمن يطالبونه بسد ثغرات الحكاية ليضمونها إلى أرشيف حواديتهم، فيستدعونها وقت الحاجة في مكانٍ يعتاشُ أفراده على الحكي والقَّصِّ قتلًا للوقت، وقد لَمَس ذلك في نوَّاف وتر الحكَّاء الذي لا يستطيع مقاومته، فجعل يسخو في الوصف ويغلو في الكلام، شَدًّا للآذان ولفتًا للأعين، وجذبًا لأجسادٍ أخرى قد تتسع بها رقعة السامعين، فكان ينفعل، ويتشنج، ويلوّح، ويصيح، وكأنه هو الذي تشاجر: "ثم أن زينًا قام" يعلو بها صوته فتنتبه الأعين.. "فطار إلى وعاء الزيت" فتتحفز الوجوه.. "ثم قفز إلى أعلى نقطة في الفضاء" فتشرأب الأعناق.. "لينزل بالطاسة على هذا الملعون" فتهبط الجزوع المشدودة مع نزول يديه مرةً واحدة حين يكمل: "ليهشم رأسه ورأس إمرأته المفضوحه على كتفه، والله إني أشتاقها". يقولها بشبق المحروم فيضحكون قبل أن يُتابع في حماسٍ: " لا لا لا أنتم لم تروًّا زين، لا تخدعنكم طيبته، ولا يغرنكم سكوته، اسألوني عنه.. زين!.. لا لا.. كفاكم الله شرَّه".

بعد بضعة أيام، وبشكلٍ أو بآخر، كان كل من في الزنزانة يعرف شيئًا أو أكثر عني، وعلى اختلافِ قناعاتهم بصدقي أو كذبي، براءَتي أو جُرْمي، فقد اتفق الكلُّ على شيءٍ واحدٍ لم يقولوه علانيةً، وإنما أفصحَ عنه مزاحهم الذي انحسرَ ناحيتي، وكلامهم الذي لم يَطَلْني إلَّا هَمْسًا، واِسْتِئْذَانهم مني في أبسطِ الأشياء: "رجلُ الزيتِ هذا سريع الاشتعال؛ فلا تقتربوا منه.."

***

من بين من لفتت حكايتي انتباههم - وبالأخص الجزء الخاص ببسَّام - شابٌ لم يتعدَّ العشرين عامًا يُدْعى فارس.

وفارس كان صَبِيًّا يافعًا، وجهه أبيضٌ رائقٌ صافٍ كالحليب، عيناه عسليتان واسعتان، شعره أسودٌ فاحمٌ ناعمٌ مسترسلٌ على جبينه. لم يكن بزنزانتنا وإنما بأخرى مجاوره. لم أكن لأصدق - عندما وقعت عليه عيناي لأول مرَّة - أن مثله قد يكون في مثل هذا المكان، فقد بدا لي بجسده الغض، وبياضه المُلفت، وشعره الناعم، ووجنتيه المكتنزتين احمرارًا، كطفلٍ وسط عشرات الغيلان، أو كتائةٍ في غابةٍ للديناصورات، أحدهم نسي هذا المُدَلَّلْ هنا ومضى. كان يمشي معظم الوقت بالممر جائلًا بعينين ملولتين بحثا عمَّا قد يشغله، يمر على بعض الزنازين فيدلف ويغيب لدقائق ثم يخرج، يتنقل بخفَّةٍ بين الجالسين والواقفين بالممر، وانضمامه لكل مجموعةٍ لا يزيد عن بضع دقائق، ينسلُّ بعدها ذهابًا للتي تليها، وكأنَّ كلُّ من حولهِ ضيوفٌ في حفلٍ يتقافز بينهم ترحيبًا.

عندما وصله ما حصل بيني وبين بسَّام تتبَّع خيط الحكاية حتى وصل لنوَّاف وسعد، ومنهما وصل إليّ، عندما رآني للوهلة الأولى لمحت انبهارًا طفوليًا في عينيه، مبعثه هذا الكم الهائل من المبالغات التي زادت بإزدياد الألسن التي أنهكت الحكاية مطًّا وتطويلًا، فبدوت له في النهاية مِغوارًا فعل الأفاعيل، وبطلًا أسطوريًا يُشَدُّ إليه الرِحال، كان يبحث عن جمعنا في الممر - أنا ونوَّاف وسعد وسالم - لينضم إلى جلساتنا، ويُشَارِكنا الحديث، أو يتظاهر بأنه يشاركنا الحديث، فتعليقاته على كل ما يُقال واهية، ومبالغاته في الضحك ليست بقدرِ طَرَافَةِ ما يُحكى، لأنه لم يكن يُعمل التركيز فيما يُقَال، وإنما يتحين الفرصة وسط كل هذا للفتِ انتباهي، أو التعليق على ما أقول، أو - وهو هدفه الأسمى - التحدثُ إليَّ مباشرةً، فكان كثيرًا ما يصطنع أحاديثًا باهتة بسؤالي عن عنبرنا، وسجناء عنبرنا، وكيف أني لا أعرف فلَّان أو عِلَّان، قبل أن ينطلق مُتَحَمِّسًا في حكي القصص والحكايات عن هذا الفلان وذلك العلان، ولا يفوته أن يسألني في كل جلسةٍ عن مشاجرتي مع بسَّام، وموضوع الطاسة والزيت والضرب، وعن باقي معاركي ومُشاحناتي، فأحكي له ما حصل باقتضابٍ واختصار، فلم أعد مفتخرًا بما فعلت، ولم أعد سعيدًا بما يُنسج عني من كلام، وكان هو يُنْصِتُ سائلًا عن المزيد، ومع كل مزيدٍ ينسلخ أكثر وأكثر عن مجموعاته، ليطيل الوقت مع مجموعتنا، باحثًا في كل هذا عمَّا يجعله على اتصالٍ دائمٍ ببطله الأسطوري.

***

العنبر كان من دورين، يصل بينهما سلمٌ حديديّ يحفه سِيَاجان معدنيان. والدوّران ينفذ كلاهما إلى الآخر، لا يفصل بينهما بابٌ أو حائلٌ ما، ولا ميزة للدوري العلوي عن السفلي أو العكس. الكل يتحرك ويتنقل بين الدورين بلا عوائق أو تمييز.

وكنت في أغلب الأوقات أجلس على إحدى درجات ذلك السلم الحديدي، فهو أقل الأماكن حركةً وضجة، علاوةً على أني من هذا الارتفاع كنت أكشف باب العنبر نفسه، فقد مرَّت عشرة أيام على الاختبار، ولم تأتِ أيةُ أنباءٍ عن النتيجة من قبول أو رفض، وكان هاجسي أن تدخل الشرطة بالنتيجة فلا انتبه، أو تخبر المقبولين وأكون مرفوضًا فأعيش على أملٍ لا يجيء، هكذا كنت أجلس دومًا بذلك الارتفاع، في وضع المراقبة والاستعداد.

- "ليس قبل أسبوعين آخرين يا زين".

يقولها أبو محمد بينما نجلس إلى قصعة الطعام بالزنزانة، وكانت تلك أول مرة يتحدث فيها إليّ مباشرةً، حولي كان نوَّاف وسعد وسالم وآخرين، تابع هو بعد أن بلع لقمته:

- نتيجة اختبار التائبين بعد أسبوعين أو أكثر قليلًا، رأيتك تسأل الشرطة عدة مرات.

كنت قد سمعت هذا الكلام قبلًا من بعض المشتركين في البرنامج ممن هم على تواصلٍ ببعض أفراد الشرطة، لكن لهفتي لم تترك للصبرِ شيئًا. شكرت أبو محمد مُمتنًّا وعدت للطعام، فابتدرني سالم:

- ألا يوجد جديد يا زين؟

- جديد في ماذا؟

- أعني لدي المحامي في قضية المخدرات والاستئناف وما إلى ذلك.

- لم يزل يبحث عن ثغرة قانونية لينفذ منها كما يقول، ولكن أية ثغرة تلك وقد فاتت مراحل التقاضي، مجرد كلام.

كان سالم يعرف إجابتي مُسبقًا، فأنا أحكي له كل شيءٍ أولًا بأول، ولكنه انتهز فرصة كلام أبو محمد عن الاختبار، وأنَّه كان قد أبدى اهتمامًا بحكايتي فيما سبق، فلم إذن لا تتم الاستفادة من خبرات الرجل!

التقط أبو محمد الطُعم: من أي مكتب هذا المحامي يا زين؟

- من مكتب الأستاذ (....)، قيل لي أنه أكبر مكتب في البلاد.
- أهذا الذي يقع في الضاحية الجنوبية من العاصمة؟
- نعم بالضبط هو.
- أعرفه، هو فعلا أكبرهم شأنًا وأعلاهم أجرًا، ولكنه صار لأسبابٍ لا أفهمها أقلهم تحركا وسعيًا، شكوى الكثيرين منه زادت في الفترات الأخيرة.
- لهذا لم يعد لي سوى ترقب نتيجة هذا الاختبار.
- اجتياز الاختبار سيفيدك كثيرًا، ولكن ليس بالقدر الذي قد يُرضيك، فالفارق أنك فقط ستمضي باقي فترة عقوبتك في حبسٍ مُخَفَّف، تذهب إليه صباحًا وتعود إلى منزلك عصرًا، لكنك بعد لم تزل سجينًا وستُعامل كسجين.
- وأنا لا أطمح في أكثر من ذلك، أعني على الأقل بتلك الفترة، همي كله هو الخروج من هذا المكان.
- ولم لا تطمح فيما هو أكثر من ذلك؟ هذا حقك بل فرضٌ عليك في موقفك هذا، فبدلًا من أن يُفتش محاميك هذا بين ثنايا القوانين لمحاولة رفع قضية جديدة، أو لاستئناف قضيةٍ سابقة، فليجتهد أن يجد ثغرة في موضوعك نفسه، ومن تلك الثغرة ينفذ عساه يعثر على بصيصِ ضوءٍ في لغزك المُحيِّر.

توقفت عن الأكل، وانتبهنا جميعًا، في حين تابع أبو محمد:

- أعني أن هذا المحامي كان يهتم برفع القضايا وكأنها قضاياك أنت، يتعامل وكأنك المتهم الحقيقي، يبحث عن منافذ قانونية ليطعن ويستشكل ويستأنف أو حتى يقلل مدتك كما فعل في قضية الهروب بينما القضايا كلها أصلًا لا تخصك، ولست أنت المعني بها، استبدله يا زين، قم بتوكيل واحدٍ أكفأ ليغوص أكثر وأكثر، ويبحث أكثر وأكثر، فيخرج بدليلٍ أن كل هذه الأمور لا تعنيك من الأصل، وأن آخر، أو ربما آخرين، هم من ارتكبوا تلك الجرائم.. أو على الأقل ورطوك فيها بشكلٍ ما.

قال نوَّاف: وربما أنه لا وجود أصلًا لتلك الجرائم، أي أنه لا مخدرات ولا هروب ولا أي شيء. أحدهم اختلق كل هذا وألصقه بزين جوْرًا وكيدًا.

تابع أبو محمد: لا لا.. ليس وهمًا ولا اختلاقًا، فهناك أدلة ملموسة على تلك الجرائم، كتحقيقات النيابة، والملف الذي كان أمام القاضي الذي تجاهل سماع زين، كما أن هناك أشخاص آخرين، كانوا ضالعين في هذه القصة، أحياءٌ يرزقون، كبلقيس تلك التي قالت أنها تعرف زين جيدًا، وأخواها اللذان قالا أنهما أوسعاه ضربًا ثم نقُل بعدها للمستشفى، هناك شخصٌ تم استبداله بزين.

قال نوَّاف: أتقصد أن الموضوع كيدي؟! أحدهم عبث بسجلات الكمبيوتر وبدَّل الأسماء مثلًا وبدل الصور وبطاقات الهوية.

قال أبو محمد: لا ليس بتلك الطريقة، إن فعل هذه الأمور ليست بتلك السهولة أبدًا، ولكن.. مثلًا؛ ما اسم هذه المستشفى يا زين التي يقولون أنك هربت منها؟

- لا يسعني ذكرها الآن لكن بإمكاني أن أعرف بسهولة.
- ستكون تلك نقطة بداية جيدة، إذا كان هناك شخص نُقل لتلك المستشفى بعد ضربه ثم هرب، وهو نفس الشخص الذي أُجريت معه التحقيقات، فهذا يعني أن هناك سجلات، وصور، وكاميرات، يمكنك أن تتحرك من هناك ولا تنتظر محاميك أو غيره.
- أنا! أتحرك!
- كما قلت لك؛ إذا ما حظيت بالعفو الملكي، فأنت تقريبًا حرٌ معظم الوقت، صباحًا أنت في الحبس المخفف وباقي اليوم بمنزلك، اذهب إلى كل الأماكن التي وطأها هذا المجرم.. المخفر.. تنفيذ الأحكام.. المستشفى.. أو حتى اعثر على بلقيس تلك، انبش في كل ما تصله يداك، فبالتأكيد ستجد مفتاحًا يقودك إلى حلِّ هذا اللغز.

بعد الغداء تجالسنا، أنا وسالم وسعد ونوَّاف وأبو محمد، وانزلق بنا الكلامُ إلى أحاديث كثيرة لم يكن أبو محمد بالذات مُنتبهًا لها بقدر ما كان مُنتبها بموضوعي، وكأنَّ لغزي صار شغله الشاغل، فكان يقطع الحديث فجأة ليسألني عن أمرٍ في القضية، أو تفاصيل في القصة، أو عن مكان وجودي وقتما حدث كذا وكذا،

حتى توقفت أسئِلته تمامًا وغاب معها رأسه وخَبَا ذِهنه، ليبدو من وجومه أن ذاكرته التي كانت تحمل الكثير والكثير من الحكايات لم تكن تحمل أيًّا ما هو مماثلٌ لحكايتي.

في نهاية الجلسة تفرَّقنا جميعًا كلٌ إلى ما يَشْغَله. ذهب سالم إلى حيث يقوم بتجفيف الملابس، فلحقت به وسألته عمن قد يكون لديه تليفون لأحدِّثَ منه أهلي الذي لم أهاتفهم منذ انتقلت إلى العنبر الجديد، فقد وقع تليفوني في يد الشرطة أثناء إحدى حملات التفتيش الكيدية.

- للأسف معظم من لديهم تليفونات تركوها في عنبرنا القديم، فقد خشوًّا أثناء إخراجها[١٦] أن تنتبه الشرطة التي انتشرت في العنبر فجأة، إيجاد تليفون صَارَ الآن أزمة، ولكن على كلٍ سأحاول.
- لقد سألت نوَّاف عمَّن يمكن أن أستعمل هاتفه فأخبرني أنه لا أحد بزنزانتنا لديه تليفون في الوقت الحالي. حتى أبو محمد تلف هاتفه منذ أسابيع.
- "زين"!

كان هذا فارس، ظهر خلفنا - أنا وسالم - من العدم: بحثت عنك في كل مكان، أين كنت؟

تبادلت وسالم النظرات حين انتبه فارس إلى حماسه الزائد: حسنًا أقصد، سألت عنك للتو.

- هل هناك أمرٌ ما؟! سألت مُستغربًا!
- لا.. لا.. خيرًا.. فقط كنت أريد أن نجلس ونتكلم..
- في أمرٍ ما؟ هل كل شيء على ما يُرام؟!
- كل شيء على ما يرام.. فقط مضى وقتٌ منذ آخر جلسةٍ كانت لنا سويًّا.. حسنًا حسنًا.. هل أنت بخير؟
- نعم، وأنت؟

---

[١٦] خوفًا من التفتيشات المُفاجئة لم يكن كثيرٌ من السجناء يُخفون تليفوناتهم -كما هو معتاد - بملابسهم أو فرشاتهم بل يدسونها في تجويفات عميقة بحائط الزنزانة، ثم يقومون بلصق قطعة كرتونية على الحائط بقدر التجويف، ولأن لون الحائط كان مائلًا للاصفرار، كان السجناء يقومون بحك تلك القطعة الكرتونية بقشر البرتقال لتكتسب نفس لون الحائط فلا يمكن كشفها بسهولة.

- نعم نعم بخير، كنت أجلس مع البعض في زنزانة أبي ريَّان - قالها وأشار إلى زنزانةٍ ما - ثم استحممت وجففت ملابسي وأكلت، ثم خرجت بحثًا عنك.

انتفض والتمعت عيناه ببريق: بالمناسبة عرفت أنك كنت تبحث عن تليفون، لماذا لم تقل لي؟

- هل تستطيع أن تأتيني بواحد؟

اشتعل حماسه: قبل أن تغض طرفك.

- متى؟

- حالًا أقول.

ابتهجت: يا ليت، سأكون شاكرًا إن فعلت.

هممت بإخراج النقود، فاستوقفني:

- لا لا.. بلا أية نقود.. وستتكلم منه كما تشاء.

طار فارس في العنبر مُتَحَمِّسًا بعد أن وجد ما يشحذ به امتناني واهتمامًا ربما خاف أن يفتر، تابعته حتى غاب والتحم بالأجساد، عندما نظرت لسالم وجدته ساكتًا، تتدلى الملابس من بين يديه المرتخيتين، فيما ترمقني عيناه في شرود.

- ٢٥ -

ثمَّة علامات استفهامٍ كانت تكبر بداخلي كل يومٍ بخصوص فارس وتَسَاؤلاتٍ لم أجد لها إجابات..

هل وِحْدته إجْبَارية أم باختياره وإِرَادته؟ هل يُعْرِض عنه الجميع أم هو الذي يُعْرِض عنهم؟ هل يتجاهلونه أم هو الذي يترفَّع عن الانضمامِ إليهم؟ ماذا عن تلاطف الشرطة معه واحترام السجناء، حتى الخَطِرين منهم! بل والأغرب؛ كيف لهذا المُدلَّل بجسده الغض وبياضه اللافت ووجهه البريء أن يمشي بهذه الأريحية والثقة وسط الأجساد المعروقة بالقسوة؟ والمعجونة بعشقها للاستفزاز وإثارة المشاكل؟ كيف يصمد وسط كل هؤلاء الذئاب؟ ولِمَ لمْ أجده يوما يتصارع على طعام أو شراب؟ أو حتى واقعٌ في أي مشكلة!

- ألم تعرف بعد؟!

ضحك سعد وهو يتكيء على كتفي ليجلس بجانبي على السلم، وكنت أنظر ساهمًا لفارس الذي كان يسيح هائمًا في العنبر كعادته وكأنه في متحفٍ أثري.

- أعرف ماذا؟

- فارس!

قالها ونظر في عينيَّ ليتأكد من صدق حيرتي..

- ماذا تقصد، ما به؟

ارتفع اصبعه بإشارةٍ بذيئة، فاتسعت عيناي ذهولًا: ماذا تقول؟

- ظننتك تعرف.

التفتُّ في حِدَّةٍ إلى فارس، أنقل عيناي بين مشيته المتغندرة وحركاته الميَّاسة وبين ابتسامة سعد:

- تاكسي ؟! [١٧]

نطقت بها مدهوشًا، فيما تداعت على ذهني اشمئزازًا كل تلك اللحظات التي جالسني فيها - فارس - أو صافحني بل والأسوأ؛ تلك المرَّات التي كان يسأل فيها عني الآخرين خصيصًا.

- وليس فارس وحده بالمناسبة بل هناك آخرين وكثيرين في هذا العنبر وفي العنابر الأخرى.

قلت ولم أزل أحاول استيعاب الأمر:

- حكى لي سالم عنهم قبلًا ورأيتهم بعضهم فعلًا ولكن.. أعني.. لم أخمن أن فارس قد يكون منهم، فهو لا يُشبههم مُطلقًا كما أني لم أجده يومًا يعرض نفسه على أحد، أو يتمايع ويتدلل لأجل المال، يتلاطف معه الجميع، ولا يضايقونه بعكس ما يحدث مع الآخرين[١٨].

- وهل يجرؤ أحدهم أن يُضَايقَ مدام علي؟!

- مدام علي!

- فارس خاص بعلي فقط بل ويُعامله كزوجته.

- ما هذا القرف!

تابع سعد: بل ويغار عليه غيرةً عمياء، غيرة غير عادية، لهذا لا يجرؤ أحدهم أن يضايق فارس بكلمة، أو بنظرة، كما يُفعل بالآخرين طول الوقت، اتقاءً لشر علي.

صمتت شيئا حين ألحَّ علي السؤال: ألم يكن علي طوال الوقت بعنبرنا، عنبر (٩)؟

- لقد أمضى علي في السجن ما يزيد عن عشر سنوات، تنقَّل بين عنابر عِدَّة، وفي أثناء وجوده في هذا العنبر، عنبر (٨)، دخل فارس كإيرادٍ جديدٍ، فنال منه علي، ومن حينها أصبح فارس خاص به فقط دون غيره، علي يحبه كثيرًا ويغار عليه فعلًا ولو كان هنا ما تنقل فارس بهذه الأريحية وتكلم مع الناس بهذا الانطلاق.

---

[١٧] تاكسي: اللفظة الشائعة في السجن لكلمة شاذ.

[١٨] الشواذ في العنبر يكونون دائمًا قبيحي الوجه، قذري الملبس والرائحة، وهم طوال الوقت يُعانون الشماتة والضرب والاستهزاء من الكل، حتى أنه نادرًا ما لا تجد أحدهم مصابًا بجروحٍ وكدماتٍ في الوجه والجسد.

- لهذا أراه دائمًا يتجول في العنبر وكأنه يراه لأول مرَّة.

- بالضبط، وعندما كان علي ينتقل لعنبرٍ آخر كان يتصل بفارس يوميًا ليطمئن عليه، ويوصي رفاقه بأن ينفذوا طلباته، وأن يوفروا له الحماية من أطماع الآخرين، وأن يجلبوا له الأَكل والشرب والدُخَّان فلا يضطر لأن يتصارع على أيّهم.

دقائقٌ أخرى أمضاها معي سعد ثم استأذن وانصرف، ليتركني مع كثيرٍ من الدهشة والاستغراب وأعذارٍ سأبدأ بسبكها لتسلتني من أية محاولات مستقبلية تجمعني بفارس.

بعد ساعات أخرى، وفي مساءِ نفس اليوم، انفرج باب العنبر عن هذين.. علي وساجِد! بعد أن أتمَّا أسبوعين أو أكثر قليلًا بالحبس الانفراديّ، واستعدادًا لمحاكمتهما بتهمة الشروع في قتل عُبيِّدة، ليُقتادا وسط العشرات من الأحضان والقبلات إلى زنزانةٍ توسطتها مائدة عشاءٍ جُهِّزت خِصيصًا لهذا الاستقبال، نصف ساعة من الحكي والضحك حتى انبثق هذا من لامكان، فارس! والذي دلف الزنزانة واجمًا يجر قدميه عزاءً للحظات كان يُعربد فيها حُرًّا دون قيدٍ أو شرط. ما أن رآه علي حتى قطع طعامه، وخَبَتَ ضحكاته، بعد أن التمعت عيناه بشبق الأيام الخوالي، فهبَّ واقفًا بعد أن استأذن رفاقه مقتادًا لَذَّته فوق رؤوس المُتطلعين والمُترقبين، إلى أن توارى وفتاه خلف ملاءةِ الحمام، وسط سخسخات كل من في الزنزانة وضحكاتهم.

***

- لا أظن أنَّ أحدًا استطاعَ الهُرُوب من هذا السجن من قبل.

قالها نوَّاف حين سألته، وكنا نجلس بالزنزانة، تابع ضاحكًا: لماذا؟ هل عَقَدْت العزم!

- لا، فقط أسأل.

- ألم تجتزْ الاختبار؟

- لم تظهر النتيجة بعد.

- إذن أنت تأخذ احتياطاتك هههههههه خطة بديلة.. لا بأس هذا حقك.. وحق كل مسجون بالمناسبة.. لكن.. لا أعتقد أن أحدًا استطاع النفاذ من هذه الأسوار.. على الأقل منذ جئت.

- ماذا عن عطا الله؟

ضحك متفاجئًا: آآآه.. عطا الله!... يا الله.. أين سمعت به؟ حقًّا أين سمعت به؟!

- في جلسةٍ ما.. كانوا يتكلمون بشأنه.. عرفت أنه استطاع الهرب.. لكني لم أفهم كيف!.. كان صوت الضحك يغلب الكلام... سألت سالم فأخبرني أنه لا يعرف كل القصة.. فقلت ربما أجد لديك الإفادة.

- عطا الله.. كيف نسيت!!.. حسنًا.. هي قصةٌ غريبة.. وعجيبة.. ولكنه أولًا وآخرًا ليس هروبًا كما تظن!

- أولم يَفْلح في الخروج من هنا؟

- بلى، لكنه ليس هروبا تكتيكيًا خطَّطَ هو له مثلًا بالأيام والأسابيع كما في أفلام السينما، فلم يتخف بسترةِ ضابط، أويحفر مثلا نفقًا تحت الأرض. لقد جاء الأمر صدفة، عطا هذا مسكين جدًا ومغلوب على أمره، لهذا كان الأمر أشبه بالنكتة.. حسنًا.. رأيت أنت صالة الزيارات! لقد أتتك زيارات حسبما أظن؟!

أومأت إيجابًا فتابع: قبل بضعة سنوات لم تكن صالة الزيارات كما هي الآن، أعني لم يكن هناك ذلك الزجاج الفاصل بين الزائرين والمساجين، ولم تكن الحراسة مُشَدَّدَةٌ بها كما هي الآن، كانت أرْضَا بَرَاح، يُجالس فيها الأهالي ذَوِيهم من المساجين على فرشاتٍ وملاءات لتكون الصالة كلها عبارة عن حلقاتٍ صغيرة، كل حلقة بها سجين وحوله بعضٌ من أهله، ثم في نهايةِ الزيارةِ ينصرف الأهل ويعود السجناء لعنابرهم، وعطا كانت زياراته كثيرة العدد، تصل أحيانًا إلى عشرة أفراد أو أكثر قليلًا، وكان لديه كالبعض هنا هاتفٌ جوَّال، لكنه تلف، لذلك عرض عليه أخوه الأصغر في إحدى الزيارات أن يأخذه منه ليقوم بإصلاحه، فخشي عطا أن يعطي الهاتف لأخيه لئلَّا يُضْبَط به عند الخروج، فالهواتف كما تعرف ممنوعة، فأخبره الأخ ألَّا يقلق لأن الحراس لا يقومون بتفتيشهم عند الخروج، بل حتى لا ينظرون إليهم، فتعجب عطا وتساءل، فأخبروه بأنه فعلًا لا يوجد تفتيش إلَّا عند الدخول فقط، لأن الداخل قد يدسُّ بثيابه سلاحًا، أو مخدرات، أو أيَّة ممنوعات، لكن الخارج بم قد يخرج من هنا؟! لا شيء.

أكمل نوَّاف ضاحكًا: وهنا تفتقت رأس عطا عن الفكرة، فتوجه لأخيه آمِرًا: اخلع هذه الطاقية، وتوجه إلى خاله: اخلع هذه الكوفية، وتوجه إلى ابن أخته: اخلع هذا الجاكيت، ثم أخذ كل هذه الأشياء وارتداها خِلسةً فوق زي السجن ثم هب واقفًا: هيا بنا.

دُهشت فتابع نوَّاف ضاحكًا: والله هههههههههه.. قاموا جميعًا معه لا يصدقون ما يفعله.. وسار هو وسطهم في طرقات السجن يضحك ويهزر.. حتى خرج من السجن كله.

- أمام أعين الضباط والعساكر!
- ودون أن يشك به مخلوق.
- ما كنت لأصدق!
- وربِّ هذا ما حصل، لكنه لم يهنأ بهروبه، فقد أمسكوا به بعدها بأسبوعٍ واحد، وزادت مُدَّته عامًا بتهمة الهرب.
- لهذا كانوا يضحكون طوال جلستهم، أعني من سمعتهم يتكلمون بشأنه.
- كلنا لا نتمالك أنفسنا من الضحك عندما نتذكر.
- ومن حينها لم يفعلها أحد؟!
- نسمع أن هناك من يحاول، خصوصًا ذوو العقوبات الكبيرة، لكن أيضا يُقبض عليهم وتزيد مدتهم، لقد كان هروب عطا فضيحة كبيرة، أُقيلَ على إثرها البعض ووُقِّعَت العقوبات والجزاءات على البعض الآخر، وبسببها طرأت تعديلات كثيرة على نظام الزيارات في السجن، فتعزَّزَت الحراسات وَوُضعت كاميرات مراقبة وأجهزة الإنذار، نحن في مبنى داخل مبنى داخل مبنى، أي أن السجن عبارة عن ثلاث بنايات داخل بعضها البعض، أبواب وراء أبواب، طرقات كثيرة، تيهٌ كبير، لم ينج أحدٌ من هنا أبدًا.

سكتت ولم أُعَلِّق، وبقيت شَارِدًا لبعضِ الوقت حتى لم أشعر باختفاءِ نوَّاف من جانبي، وأنه انكفأ على أبو محمد يقتاتان الكلام وسِيَرَ الناس، دقائق أخرى حتى فوجئت بسالم وعبد الشكور كليهما عند باب الزنزانة، أشرت لهما بالدخول، فأشار سالم لي بالخروج، خرجت فمد لي يده بتليفون: "وجدته لدي أحدهم،

قُلت ربَّما تحب أن تهاتف أهلك"، تناولته منه شاكرًا وضغطت أرقام المنزل: "فيم وقوفكما في الخارج لِمَ لَمْ تدخلا ؟".

تبادل سالم وعبد الشكور نظرات تُنبيء بأن هناك خطبٌ ما، قال سالم:

- زين أعلم أن بك ما يكفيك، ولكن هناك شيء أريد أن ألفت نظرك بشأنه.
- بخصوص ؟
- فارس.
- ما به ؟
- أعرف أنه راغٍ ولحوح، لكن قلِّل تواجدك معه قدر المستطاع، في الواقع لا تجلس معه مطلقًا، لا أعلم إن كنت تعرف بشأنه أم لا.
- عرفت مؤخرًا ولم أعد أجلس معه، هو الذي يتحين الفرصة لمجالستي أو مجالسة المجموعات التي أكون بها.
- إن جالسك أو جالس مجموعاتك فانسحب وغيِّر مكانك، تصنَّع أنك ستدخل المسابح، أو ستأكل، أو ستصلي.

توقفت عن ضغط الأرقام: أنا لا أغير مكاني لأجل أحد يا سالم، ولا أتصنَّع شيئا لأجل أحد، فليغير هو مكانه. وعمومًا أنا لم أعد أجالسه ولا أتكلم معه.

- كنت أعلم أن هذا سيكون ردك! قالها بخيبة أمل.

التقط عبد الشكور خط المفاوضة: زين! أنت تعرف أني أحبك، وأني أبدًا لم أتدخل في قراراتك ولا وضعك هنا، ولكن لغلَائِك في قلبي أنصحك بألَّا تتعامل مع الأمور بتلك الحِدَّة، ولا تعتبر أن كرامتك مثلا أُهينت إن تنازلت عن حقٍ من حقوقك ككلامك مع هذا أو ذاك.

- ما الأمر بالضبط ؟

نظر سالم لعبد الشكور وكأنه يستحثه على الكلام، فتابع الأخير:

- علي منذ دخوله العنبر وهو يسأل عن أخبار الناس وعمَّا حدث في غيابه وما إلى ذلك، وكنت البارحة في زنزانته أحلق رأس أحد رفاقه، فسمعته يسأل مَنْ حَوْلَه عما فعل فارس في الأيامِ الماضية، وهل التزم بزنزانته أم خرج منها، فأخبروه بأن فارس كان يُعَرْبد في الممر والزنازين، ويتكلم مع الكل بلا حساب، بل وأنه قد اتَّخذ صديقا جديدًا وتقريبا كانوا يقصدونك أنت.

- لست صديقه.

- أنا أخبرك بما قيل.

- ثمَّ؟!

- ثم أن علي بدا مستاءً جدًا، وبدأ يستجوب فارس ويسأل الناس عنك.

- ثمَّ؟!

انفعل سالم شيئًا: ما هو الـ ثمَّ؟!.. ثمَّ!.. ثم ابتعد عنه.. ثم دَعْكَ منه.. ثم إن رأيته الْزَم زنزانتك.

- وهل يخشى أن أسرق منه غلامه مثلًا؟!

نظر لي سالم بغيظ: زين! أنت تفهم جيدًا وتعي ما أعنيه.

تودَّد عبد الشكور: هذه الأمور لا مزاح فيها إطلاقًا، علي صار يتصيد الهَفَوات والزلَّات لأي شخصٍ، فَقَدَ عقله تمامًا بعد موت أخيه، وإن كان قبلًا يعمل حساب للشرطة فهو الآن لا يعمل حساب لأي مخلوق، لأنه يُجابه حُكْمًا بالمؤبد بعد الشروع في قتل عُبيِّدة، ولهذا لن يضرُّه أن يفعل أي شيءٍ بأي شخص، لا تتقاطع معه مطلقًا في أي شيء، ولا تُعرِّض نفسك للأذى، لقد مرَّ موضوع بسَّام بسلام، لكن علي لا تمر مواضيعه بسلامٍ أبدًا.

سكت عبد الشكور، وكان سالم لم يزل ينظر لي غيظًا، بدا أنهما ينتظران إجابتي، ناولتهما الهاتف:

- لم أتلق ردًّا..

- ٢٦ -

كنت مُسْتَاءً من الطريقة التي تحدَّثتُ بها إلى سالم وعبد الشكور، هما اللَّذان ما أرادا إلَّا تنبيهي - بدافع محبتهما وإخلاصهما - مما قد يُسَبِّبُ لي مشكلاتٍ جسيمة أو قد يمثلُّ خَطَرًا عليّ. ولكن يبدو أني لم أعُدْ أحتمل أيَّ تهديدٍ أو تلميحٍ بمحاولةِ إثارة خوفي أو رهبتي من أيِّ شيءٍ أو أيِّ شخص. ولم أعُدْ أتقبَّلُ أيَّ كلامٍ يحوم حول: لا تقترب من فلان.. انتبه من علان.. ابتعد عن هذا.. خُذْ حذرك من ذاك.. ورغم أنه كان بإمكانهما قولها مباشرة: "ابتعد عن فارس وإلا ستَتَصَادم بعلي" وسيكونان قد قامَا بواجبهما على أكملِ وَجه، إلَّا أنَّهما رَاعَيَا التلميح لا التصريح، لكني رَدَدتُّ صَنِيعَهُما بفظاظتي، وهو ما زادني لَوَّمًا وعِتابًا لنفسي.

كنت أعلم أني قد صرت ضَيِّق الخُلُق ودائمُ التحفز، أنفعل وأتعصَّبُ لأهونِ الأمور، وخاصةً بتوالي الأيام واقترابِ موعد النتيجة.

ولكن الموعد قد فات منذ يومين ولم تَظهر أية نتائج بعد، ولم تُجِبْ الشرطة على أيةِ تساؤلاتٍ أو إلحاحاتٍ من مشتركي البرنامج إلَّا بمُقْتَضبِ الكلام: "لم يظهر شيءٌ بعد".. "ليس لدينا علمٌ بعد".. "ربما قَريبًا بإذن الله". وطوال هذين اليومين لم أكن أغادر سلم العنبر تقريبًا، ولم تبرح عيناي بابه إلَّا قليلًا، فما أن ينفرج الباب حتى أتمعن في الشرطي الداخل للمكان، أهو خالي الوِفَاض أم بيده كشوفات وأوراق؟ وإن كانت بيده كشوفات فهل هي خاصة بالبرنامج ومشتركيه أم غير ذلك كاستدعاءات المحكمة وزيارات السجناء ومواعيد المستشفى؟ وهل من يتجه ناحيته - الشرطي - سجينٌ واحد أم مجموعة من السجناء؟ وهل أفراد تلك المجموعة ممن ألِفْتهم في البرنامج أم لا؟ في بعض الأحيان كنت أتصيَّدُ الوجوه التي اعتدتها في البرنامج لأسأل أصحابها عن أيِّ جديدٍ بهذا الخصوص، فيجيبون أنهم بدورهم لا يعرفون أي شيء، ولا يملكون مثلي سوى الانتظار.

اِشْتَقْتُّ لأمي، وما أوجعني أن آخر صورة لها في ذهني كانت منذ أشهرٍ طويلة وهي تبكي على حالي في أول زيارةٍ بالسجن، مشهدها وهي تترنح محاولةً أن تتمالك نفسها ثَبَاتًا، وداعها لي تلويحًا دون أن تقدِرَ

على النُطق، من حينها، وفي كل مكالماتي مع عمرو، كنت أعرف أحوالها مُغالِبًا اشتياقي ووحشتي ومُتَجنّبا قَدْرَ ما استطعت التحدث إليها في كثيرٍ من الأحيان، لِئَّلا ينهار ثباتي فينهار كلانا بُكاءً، ماذا لو لم أجتز هذا الاختبار؟ سيكون هناك عامٌ آخر حتى موعد الاختبار القادم، والعامُ لي مائة ولأمي أضعافًا، والمائة قد تصير مائتان وثلاثة وربما أكثر، ما كُلْفة كل هذا من روحي وتعبي وصبري؟ وأيضًا من تعبِ أمي وصِحَّتها ومن استمرارها مع أخي في مواراةِ الحقيقةِ عن إخوتي وأهلي والناس بأن زين في سفرٍ عاجل وآتٍ عمَّا قريب! وعائِشة! والتي صِرْتُ أكتمُ لهفتي وشوقي وتعبي بِشأْنِها، مُتحَاشِيًا السؤال عنها لِئَلّا أثيرَ ضيقَ وغضبَ عمرو بتغاضي أهلها عمَّا يحدث لي، ماذا عنها وكيف هي الآن؟ والسؤال الذي لن يتغيَّر: ما ظنها فيِّ بعد كل هذا؟!

ساورني هاجِسٌ عجيب بأنَّ أحدًا لم ينجح في هذا الاختبار، وأن إدارة السجن إمَّا تتحاشى إعلانَ ذلك تجنُّبًا لثورة البعض، أو أنَّها تتلكَّأ حتى ينسى الناس الأمر برُمَّته! ولا أعلم كيف قد يدور في هاجسِ بعضهم أنَّ أحدًا قد ينسى أمله الأخير في الخروج من هذا المكان!

- أولَمْ ينْته اختبارُ الحفظِ بعد؟

أَفَقْتُ من شرودي وهو يهمُّ بالجلوس بجانبي على السلم - فارس!

- بلى، انتهى.
- إذن فيم قرائتك؟

أَغْلَقت المصحف ووضعته في جيبي: أقرأ لنفسي.

- لمحت سالم يجول في العنبر منذ أيام بَحْثًا عن تليفون لك، لِمَ لَمْ تُخبرني؟
- لقد تصرَّف سالم.
- ستتحدث كما تشاء.. وبلا مُقابل.. كما قُلت لك.
- لقد تَصرَّف سالم.
- أستطيع أيضًا أن أقوم بإدخال تليفون خاص لك وحدك، لن تَدْفَع شيئًا!

التفتُّ إليه: ولِمَ؟!

زهَتْ عيناه حين شعر بأنه التقط اهتمامي: نحن أصدقاء يا زين، أكثر من إخوة، أليس كذلك؟

- لا أقصد، أعني أن للتليفون ثمن ولتمريره تكلفة، فلِمَ قدْ يصلُ إليَّ بلا مُقَابِل؟

- تربطني بالبعض صداقات.

- صداقات!

شقَّته نظرتي فزَاغَت عَيْناهُ شَيَّئًا وأشَاحَ بِوَجهه، لم يعدْ بِي شكٌ في أنَّه قد فَطِنَ أنيّ قد عرفت شيئًا ما عنه، من نظراتي وكلامي المقْتَضَبْ، ومن إعْرَاضي عنه في أغلب الجلسات، تَلَفَّت حوله بَحثًا عمَّا يُبْقِهِ دقائقَ أُخرى، أتته النجدةُ حين عبر أسفلنا بسَّام مع بعض رفاقهِ فاستعارَ الضحكة:

- والله كلما تذكرت تلك المشاجرة مع ذَاكَ الغبي المُسْتَفْحِل بنفسه لا أتمالك نفسي من الضحك، كَسَّرته أنت ودششته ودفنت غروره في التراب، أتعلم أنه من حينها قَلَّت كثيرًا استفزازاته للآخرين، هو يستحق، أنت لا تعرف كم سفاهته وتفاهته واعتزازه الزائف بذاته، وكأنَّ القَدَرَ ألْقَى بك مكرًا في طريقه، تُرى كم واحدًا هنا ينتظر من هم مثلك ليعرف قَدْرَه جيدًا؟!

بدا وكأنه ينتظر تعليقي، لكني لم أُجِبْه، فقد كانت عيناي مُسَلَّطَتينِ على الباب الذي انفتح للتوِّ، فجال هو بناظريه منكسفًا في العنبر من جديد بحثًا عن صُدْفَةٍ أخرى، قبل أن تنتهي رحلته عند كتفي:

- من رسم لك هذا الوشم؟

- شابٌ يُدْعى سلمان.

- آه.. أعرفه، ذلك النحيلُ الضئيل بعنبركم، ولكنه ليس الأمهر، هنا من هُم أكثر مهارةً منه بكثير، ألَا تفكر في وشمٍ آخَر جديد.

- كلا، لم أعد أفكر في هذه الأمور.

- ولِمَ لا؟ هناك أشكالٌ لم تخطر لك على بال، بل هناك ما هو أفضل وأكثر تميُّزا، فمثلًا... "فارس".

كان هذا شابًا، أصلع، نحيل، يقف عند أسفل السلم.

- ماذا هناك؟ رَدَّ فارس.

- علي يريدك.

رَمَاني فارس بطرف عينيه ليرى وقع الكلمة عليّ: قل له أن ينتظر.

- أقل له ماذا؟!

- ينتظر.

- ينتظر!

- ينتظر.. ينتظر.. ينتظر.. هل أصابك الصمم؟

ذُهِلَ هذا من كلام فارس الذي بالغ في غضبته: لا تقف هكذا، هيَّا تحرك.

تميَّزَ الشابُ غيظًا قبل أن ينصرف وهو يتمتمُ بسبابٍ شعرت معه أنه كان يتمنى في نفسه لو لم يكن تمتُّه - فارس - بعلي صِلَة، حينها لفعل به الأفاعيل.

انقلب فارس لطفوليته المعتادة: ليست الأوشام هنا عادية، بل أكثر تميزًا وقوة، تُضْفي الألَقَ والهيبةَ على حامِلِيهَا، دعني أقدمك لبعض الرسامين هنا ولتختار مَنْ تشاء.

بالغ في حماسه تَرْغيبًا: فهناك مثلًا أشكالٌ ثلاثية الأبعاد، مُلَوَّنة، هل سمعت عنها أو رأيتها من قبل؟! أتعرف من يحملها؟ قليلون جدًا، ولا أقصد قليلين في هذا العنبر فقط، بل في السجن كله عمومًا، لأنها صعبةٌ في التنفيذ وتكلفتها كبيرة جدًا، ستكون مُمَيَّزًا بها عمَّن سواك وستصل بشهرتك وصيتك للعنابر كلها..

- "فارس!"

علي! عاري الجزع، مُتجَهِّم الوجه، فيما يبدو أنه قام من جلسته على غير رغبته، على ذراعه الأيسر وشمٌ لم يكتمل يحمل اسم: عبد العزيز.

- أولم أُرْسِل في طلبك؟!

امتقعَ وجه فارس واصفرَّ لونه: كنت سأقوم للتوِّ.

- ماذا تفعل عندك؟

- كنت سأقوم للتوِّ.

- أقول ماذا تفعل عندك؟

- كنت أسأل عن اختبار الحفظ.

- حِفظ! أيُّ حفظ؟ وما شأنك أنتَ بالحفظ؟! تعال.. تعال.. انزل هنا.

تَسَمَّر فارس، فكرر علي: تعال يا حبيبي.. ألم أقل تعال؟!.. متى صرت تخافني هكذا؟!

قام فارس وزَحْزَحَ قَدَمَاهُ ليبدأ بنزولِ عشرِ درجاتٍ بَدَتْ على قِصَرِها أنها ستكون أشقى رحلةٍ في تاريخه، تختبرُ عيناه مع كلِّ درجةٍ ما تبقى من صبرِ ذلك الذي يشتعل نارًا بالأسفل، ما أنْ وَصلَ للدرجةِ الأخيرةِ حتَّى تلقفتهُ اليدُ الغاضبةُ جَلْبًا، لتحتفل بوصوله سالمًا صفعةٌ اِشْتَعَلَ لها بياضه لهيبًا: "كم مرة قلت لك يا حبيبي.. ها!! ألَّا تخرج من الزنزانة.. كم مرَّة.. ها.. أجبني!!".

كَبَسَ فارس رأسه بكلتا كفيه حين هَوَت عليه المطَارَق: وألاَّ تجالس أحدًا يا ابن الـ... وألاَّ تتكلم مع أحد يا ابن الـ... ها..... كم مرة؟!.. كم مرة؟!.. رُد.. رُد.. رُد يا ابن الـ.. يا ابن الـ....

ثم صفعات مُتفرقة في كل أنحاء رأسه وكتفيه. خُتِمَت برَكْلَةٍ قوية: هيَّا.. غُرْ.

بأختامٍ حمراء ملتهبة جرى فارس إلى زنزانته مُنْتَحِبًا، يتخبط بمن في الممر تُشيعُه نظرات علي غضبًا، حين ابتلعته الزنزانة، وارتاح هذا أن صبيه قد لاذ بمكمنه، التفت إليَّ شَذَرًا:

"وأنت!.. من تكون؟!.. وما شأنك به يا ابن القحبة؟!".

لثوانٍ لم تعبرْ الكلمة فيها قشرة المخ.. ولم يستوعبها العقل.. وكأنَّ كليِّ قد تجمَّدَ للحظات.

أَمَا قيلَ كانَ لِي أنا؟!

حين وَعَيت!.. وأدركت!.. مَرَقَ سيخٌ حامٍ من رأسي إلى قدميّ، ولفَّ دُوارٌ برأسي لثانيتين، وفي رحلتي تلك: من الجمود.. إلى الاستيعاب.. إلى الدهشة.. لم أعِ أن السلالم ترتج من تحتى! وأنَّ السياج يتخلخلُ من حولي! وأنَّ الحديد يُجلجل بجنون!

علي يصعدُ إليَّ!

حين وَعَيْتُ صُعُودَهُ، بعد أن قَطَعَ خمس سلماتٍ هرولةً، ولم تتبقَ له إلَّا خَمْسٌ أُخَر، تبَدَّل ذهولي في لحظةٍ إلى تحفزٍ شديد، تحفز لم يترك لي حتى فرصة للشعور بالغضبِ أو الضيق، تحفزٌ عزَّزته لطماتُ صدري ولقطات راحت تتصارع في تلك اللحظة بالذات على عقلي، لمْ أَسْتَدْعِها وإنَّما ارتفع أوَارها بآليةٍ بجنونٍ رَغْمًا عنيّ، لعراكي السابق مع بسَّام وجماعته، ركضي إلى طاسةِ الزَّيت.. قفزيّ فوقه.. لكماتي تضرب البلاط.. طَحْنيّ على الأرض.. دَمِي السائحُ بين الأقدام.. لحمي المحترق.. لقطات لمْ تفعل سوى أن تُقارن بين ما كان مع مُدَّعٍ كبسَّام، وما سيكون مع مجرمٍ كعلي!! فتهُيُّء للعقلِ ربَّما أَنْ يأخذ اسْتِعْدَادَه الملائم..

فيمَ ورطت نفسك يا زين؟! هل كُنت مُتهاونًا إذ لم تستمع لتحذيرات سالم وعبد الشكور!! هل كان يجب أن تكون أكثَر حكمةً وإنْصَاتًا لا أكثر اندفاعًا وإعْرَاضًا؟

لم تتبقَ سوى درجتين.. تفصلانني عمَّن لم أكن أتصور في أسوأ كوابيسي أن يجمعني به مكان، عن واحدٍ مِنْ ألعن مَنْ لفظتهم الحياة وأقذر من آواهم رحمُ السجن، عن عشر سنواتٍ من الإجرام وسُمعة تُبَجِّلها أبالسة جهنم، وعن ميتٍ حاضرٍ في التهابٍ لم يلتئم بعد على ذراعه. وهما أيضًا الدرجتان اللَّتانِ تفصِلانه عن سجينٍ من بين مئاتٍ لا يعمل لأيِّهم حِسَابًا.. ولا يراهُم أصلا، عدمٌ من بين العدمِ حوله، وهواءٌ يزاحم فراغه، صفرٌ على الشمال إن لم يكن أقل. المعادلة إذن بالنسبة لي في كل الأحوالِ وبكل المقاييسِ خاسِرة، وفي حسبةٍ كتلك تكون الحَذَاقَة ألَّا أخسر كثيرًا، وأقل الخسارات سيكون بالسكوت، أن أبتلع الإهانة وكأنها لم تكنْ، وسينالني هو بسبةٍ أو اثنتين، بلطمةٍ أو اثنتين، وينتهي الموضوع، لكن المقاوحة قد تعلو بالخسارة، فقد يصل إن كابرته أو عاندته أن يكلفني ذلك ما هو أكثر! هذا علي يا زين! علي! السجن كله يعمل له حساب، عصابته بالعشرات في كل العنابر، لم يعد هناك ما يخسره، أمَّا أنت؛ فعلى بؤسك لم تخسر بعد كل شيء.

في الدرجة الوحيدة التي تبَقَّت، وقبل أن يلمسني بشبرٍ واحد، وما بين حذر العقل وإلحاح العاطفة، كان القرار..

تراجعت في سرعةٍ للوراء، فمدَّ هو في صعوده لِئَلَّا أُفْلِت منه، لكني في تراجعيِ هَذَا كنت قد ظفرت بدرجتين أُخريين كان سيقطعهما في ثانيةٍ واحدة، لولا أن مَنَحَاني في تلكَ الثانيةِ مَسَافةً كافية لأتَّكيء بكلتَا يداي على السياج الحديدي، وليتراجع جزعي للخلف كتراجعِ السَّهمِ في القوس، لتمرق قدمي بكل قوتها.. كرُمحٍ.. قاسٍ.. متينٍ.. ارتشق بصدره كالعاصفة، ليتدأَج هو للوراءِ مُعانِقًا درجات السلم سقوطًا، مُرْتطمًا عدة مرات بالسياج الحديديّ، قبل أن يستقر بالأسفل مُنْبَطِحًا على ظهره.. صارخًا.. متألمًا.

قبل أن يعي ما حصل، وقبل حتى أن يتحسس أوجاعه، قفزت من فوق الدرجات العشر لأهوى على أمعائِه سَحْقًا بركبتيّ، ليتَقَوَّس جَسَدُهُ ألمًا، ويبْصق لُعَابَهُ.

- ليس أنت فقط يا علي، قسمًا بالله ليس أنت فقط، بل جُدْران هذا العنبر، وقضبان تلك الزنازين، وحديد هذا السُلَّم، كلُّ جمادٍ وحيٍّ في هذا المكان سمع لفظتك تلك.. سيشهد على ما سأفعله بك.

مُنْبَطِحًا فوقه، وبجنونِ الدنيا كلها، رُحْتُ أَضرِبهُ في أنحاءِ وجههِ لكماتٍ تَلَاحَقَت كرَشَّاشِ مِدفع.. قوية ومُرَكَّزة.. في العين.. في الأنف.. في الجبهة.. في العينِ مرةً أخرى.. لكماتٍ لقِصَرِها وسُرعتِهَا عَزَّزت المفاجأةَ التي لمْ يَفِقْ منها بعد، فلم تترك له حتى فرصة للتملُّصِ أو الصراخ، عَيناه فقط وسط كلِّ هذا جاحظتان، دَهْشَةً لا ألمًا: أن ماذا يحدث؟! وكيف يُفعل به ما يُفعل؟! رأسه كان يترجرجُ من تلاحقِ الضربات مُتأرجحًا بين البلاطِ ويدي ذَهَابًا وإِيابًا كرَقَّاصِ السَّاعة، فكلما فَتَحَ فمه بالكلامِ أَخْرَسَتْهُ لكمة، وكلما جحظت عيناه أعْمَتها لكمة، وكلما ارتفعت جبهته ينوي القيام ردَّتها لكمة، وكلما تملَّص جَسَدُهُ طوَّقته بجسدي أكثر وأكثر. كنت أعلم أنَّ نِصف قوَّته قد خَارَتْ بعد السقطةِ التي حطَّمَت عظامه، وبعد أمْعَائِه التي سحقتها رُكبتاي، وأنَّ عامِلَ المفاجأةِ بالنسبةِ لي كان له الدور الأكبر. هجم بيَدِيهِ مُعَانِدًا يحاولُ خَنْقي، فغرزتُ بالمثلِ أصابعي في عنقهِ، فيما كانت عينانا تبثُّ رهانًا أن أيّنا أكثر صمودًا واحتمالًا، للحظةٍ بدا وكأنَّ انفجار عينيه يسألني: "ألَمْ تفكر فيما تفعل؟! ألم تفكر في أنك هكذا في عدادِ الأموات؟! ألَا تعرف أنك هكذا انتهيت،

أنت ميت! حتمًا ميت". لكني لم أكن أعْبَأُ سوى بأن أفرغ فيه سمَّ غضبي وغليِّ حتى ينتهي، أو أنتهي، أو ينتهي كلينا، وكان هذا حين انطلقت من نقاطٍ مختلفةٍ هتافات تناقلتها عشرات الحناجر:

- " عراكٌ مع علي".."هناك من يتعارك مع علي"!!.. " عراكٌ مع علي"..

ثانيتان ومن بعدهما رُجَّتُ الأرضُ من تحتي رَجًا، زُلزِلَ السلم من فوقي حتى خِلْتُ للحظةٍ أنه سيهوى بالأطنان التي راحت تتابع عليه نزولًا. العشرات يهرولون من الدورين العلوي والسفلي، ومن الزنازين، ومن المسابح.

عندما أَحَاطَت بِي الأفواج، وكنت لم أزل مُنْبَطِحًا فوقه - علي، تقَاطَعت ضرباتُ الأيادي والأقدام فوق ظهري رَكْلًا وصَفْعًا، رفاقُ علي! يُحاولون دفعي من فوقه وهم ينالونني بكلِّ ما عزَّزوا به قاموس البذاءاتِ من سبٍ وشتم. أنا ميتٌ.. أعلم أني ميت.. وأن أمرى قد انتهى.. لقد كان الموتُ هو أمنيتي الوحيدة في هذا المكان.. ودُعَائِي في كل وقت.. ليكونَ هو نهايةَ عذابي وألمي.. لذا فهي رحمةٌ من الله أن أرسل لي هذا لأفرغ فيه غضبي ومقتي، ثم لأُقْتَل بعدها.. أو يكن ما يكون.

وسطَ طُوفانِ الضربات الذي سَلَخَ ظهري بلاَ انْقطاع، أَطْبَقتُ أسناني على حنجرةِ علي، وضَغَطت! فعوى عواءً يائسًا سرعان ما انقلبَ لفحيحٍ عندما صَدَّت أسناني تلك الغضروفة البارزة بالحلق، شددتها لاقتلعها فنزَّت دَمًا في فمي. عَلا صراخه ويَئِسَ رِفَاقُه من فك التحامي به، فأتواْ بالحلِ الأخير، نشبوا أياديهم في وقتٍ واحد كالكلاليب في ذراعيّ وقدميّ، طوَّقوا وَسَطِي، فوجدت جسدي يرتفع لنصف مترٍ في الهواء، تمامًا كما حدثَ من قبل مع بسَّام، لكن ليس بالضبط، لأنهم حينَ ظَنُوا أن صاحبهم سيكون في انتظارهم بالأسفل، فوجئوا بأنه غير موجود، كان بحوزتي! كِلينا معلقٌ في الفضاء، أطوِّقُه مُلْتفًّا بأطرافي حوله كالشرنقة، قدماي مُغْلَقَتَان عليه كالمقص، وعشرات الأيادي ترفعنا كالخطاطيف، رأسه التي تَورَّمَت كانت بائتةً في حضني، أكْسَحُهَا ضَرْبًا بينما هو يعض صدري ويخمش بأظافره ما استطاع وجهي.

"للوراء.. الكل يتراجع للوراء"..

صاح بها أحدهم فتوترت الأقدام من حولي.

"لا أحد يتدخل.. هما رجلان.. ليتعاركا حتى النهاية".

في لحظةٍ أُلْقِيَ كلينا على الأرض بعد أن ابتعدت عنَّا الأقدام، ما جعل الضربُ ينحسرُ عنيِّ قبل أن يختفي تمامًا، فانفردتُّ بعلي مرةً أخرى، ليضرب كلانا الآخر بكل ما تبقى له من قوة، حتى بَدَوْنَا ونحن نتقلب مُتمرغين على الأرض بدمائنا ووسط المتحلقين حَوْلَنَا كَوَحْشَيْنِ يائسين، يحاول أن يُفني أحدهما الآخر. دقيقةٌ أخرى، بَعْدَ عشرِ دقائق قَدْ مَضَتْ، حتى انتهى علي تمامًا، وانتهيت معه، كان مُمَدَّدَا على ظهره بلا أية مقاومة، ذراعه مفرودتان عن آخرهما وأنا راكبٌ فوقه كالطَّودِ، نَفِدَتْ طاقتي فماعت لكماتي، فأفلتته كثيرُها ولم يُصِبْهُ إلَّا القليل، وبين اللكمةِ والأخرى كنت أتمهل لثوانٍ ألتقطُ فيها أنفاسي قبل أن أضربه كالسكير في وجهِ بمشقةٍ عظيمة، حتى انقطعت أنفاسي تمامًا فبركت بجسدي فوق جسده لينسلخ كِلانا بعرقِ ودماءِ الآخر، كان وجهه منتفخٌ كجمرةٍ من لهب، توَّرم جَفْنَاهُ وغامَت إحدى عينيه، عنقه تنضحُ دَمًا وكذلك أنفه، اِنقَلَبتُ من فوقه لاستلقي على ظهري، فتمطَّعت ألمًا حين انسخلت جروحي بملحِ البلاط، تأنَّيتُ في استلقائي ليراعني سقف العنبر بطلاءه المتشقق ومراوحه المتكسرة وبغابةٍ من رؤوسٍ مُطِلَّه ونظرات لا يُصَدِقُ أصحابها أنَّ ما حدثَ قدْ حَدَثْ.

تحاملت على نفسي ووقفت، يتأرجح كل طرفٍ من أطرافي إعياءً، وكَأَنَّ خُيُوطَا تحرك ذراعيَّ وقدميَّ كالعرائس الخشبية، تمالكت نفسي، رفعت عينيَّ، حِينَ هَالَني المنظر.

كنت مَرْكَزَ دائرةٍ من عشرين شخصًا يطوقونني، أحجامهم مُتفاوتة، أجسادهم شديدة البأس، جلودهم كانت مَعْرَضًا لأوشامٍ تسبُّ وتلعنُ كلَّ شيءٍ في الحياة.. جزوعهم عارية وسواعدهم معروقة وأيديهم تعتصرُ في تحفزٍ عشراتٍ من أشياءٍ حادة غير محددة المعالم، في عيونهم غضبٌ لو خَرَجَ وحده من أجْسَادِهم لأرداني قتيلًا، ينقلون بصرهم بيني وبين عظيمهم الممدد على الأرض بلا حراك، بَدَوًا في تحفزهم وكأنهم وحوشٌ مربوطة تنتظرُ الفكاك، أما وَسَطَهُم، تأملني واثقًا.. هادئًا.. ذلك الذي أَمَرَهُم بالتراجع.. آخر من كنت أتخيل أن يفعل ذلك.. ساجِد!

فور أن أبصرته، وبعزمٍ منتهٍ، لوَّحت بقبضتيَّ تحديًا أن تعال!.. تعال يا ساجِد!.. تعال أنت الآخر فمصير أخيك ينتظرك!.. وكان العنبر كله، بدوريه، يتفرج واجمًا وكأن على رؤوسهم الطير، لا كلام ولا حتى

همس، ينقلون عَجَبَ أبصارهم بيني وبين علي.. وبين ساجِد.. والذي بدا أن الكل ينتظر ما سيقوله أو ما سيفعله، لكنه - ساجِد - في كل ذلك كان مُثيرًا لدهشة الكُل، بسكوته وأنَاتِه وعينين فاحِصَتَين من وراء شعرهِ المُتشابك، تسرحان في هيئتي وكأن أمامهما الدهر كله، تتجولان من شعري الهائش إلى صدري الدامي إلى قميصي الممزق، ثمَّ إلى دمائي التي تقاطرت على الأرض، لم يغادرني طرفه، بل حتى لم ينظر لأخيه، ولا لرفاقه الذين ينتظرون فكَّ لجامهم ويجدون في صمته دهورًا لا يصبرون عليها.

- ساجِد!.. ما بك؟!.. فيم انتظارك؟.. ألن تفعل شيئًا؟!

هتف بها أحدهم وهو يلوِّحُ بحديدته استعدادًا.

- كلَّا.

قالها ساجِد قبل يعْقِد ساعديه أمام صدره ويبتسم: فأنا أحب هذا الرجل.

- وأَخَاك! سأل أحدهم.

نظر ساجِد للمرة الأولى إلى أخيه الذي بدأ يحرك أطرافه ويئن ألمًا: "أخي وسخ".

في تلك اللحظةِ اشتعل العنبر هياجًا، ثار رفاق علي وسبوا ولعنوا، انطلق بعضهم ناحيتي يريدون النيل مني، فطوَّقني في لحظةٍ رفاق ساجِد يمنعونهم عني بعد أن أحاطوني في دائرةٍ أكثر ضيقًا. ارتفعت أسلحة رفاق علي تهديدًا فارتفعت أمامها أسلحة رفاق ساجِد وعيدًا، وفي وسط كل ذلك هَوَيت من شدة التعب والإعياء، حتى وجدت جسدي فجأة ينسلت جرًا للوراء، فاستجبت بلا أدنى مقاومة! سالم وسعد يسحباني بعيدًا عن نطاقِ الحفل كُلِّه.

"أفسحوا.. أفسحوا بسرعة.. بسرعة".

أُدْخلاني كلاهما إلى الزنزانة، أجلساني بحرصٍ مسنودًا إلى الحائط، ثم جعلا يمسحان وجهي من العرق والدماء.

- زين.. زين.. تكلَّم.. تكلَّم معي!.. أأنت بخير؟!

هتف بها سالم فحَرَّكت رأسي إيجابًا دون أن أنطق.

من ورائهما برز نوَّاف وأبو محمد وعمَّار، على وجوههم علامات الدهشة وعدم التصديق، توقف عبد الشكور عند عتبة الزنزانة، ليُراقب الوضع بالخارج، ويُفرز القادمين.

- سنذهب بك للطبيب، أفسحوا الطريق.

قالها سالم وهمَّ بحملي مع آخرين لولا أن استوقفهم أبو محمد: لا يجب أن يخرج الآن، المرُ مُشتعلٌ بالخارج وقد ينال منه رفاقُ علي غدرًا.

ازدحمت الزنزانة بالناس، لكن سالم وسعد كانا يقومان بحجزهم عني لألتقط أنفاسي، كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أجد فيها سالم بذلك الحزم والفصلِ مع الآخرين، وكان الشجارُ بالخارجِ لم يزل بعدُ على أَوْجهِ وشِدَّتِهِ، أقعى نوَّاف أمامي:

- ماذا فعلت يا زين؟! ماذا جلبت لنفسك؟! كيف تفتح على نفسك هكذا أبواب جهنم؟!

وبَّخه أبو محمد: اسكت يا نوَّاف، إن لم يكن لديك شيء فلا تتكلم الآن.

هتف عبد الشكور وهو ينظر إلينا بتوتر: ساجِد قادم!

فور أن ظهر ساجِد على باب الزنزانة انتبه الكل، ترددوا في الإفساح لولا عيناه اللتان حسمتا الأمر فشُقَّ له مُنعرجًا من بين بالأجساد، كنت مُوُقِنًا أنه لن يقوم بأي فعلٍ يشوبه الغدر، وأنه لو أراد فِعْلَ شيءٍ لفعله بالخارج، تقدم إليّ قبل أن يتزن على ركبتيه إزائي، جعل يتأملني بذات الطريقة وبنفس الابتسامة التي اتَّسعت أكثر هذه المرة وكأنيِّ وليٌ صالح حظى هو للتوِ بفرصةِ الجلوسِ بين يديه، ترتحلان عيناه مُفعَّمَتَان بالتقدير من وجهي الدامي إلى قميصي المنتهك ثم إلى صدري المخموش عَضًّا وضَرْبًا.

- هل أخذت حقك؟

استثقل صمتي، فكرَّرَ سؤاله، فأومأت برأسي أن نعم، فتابع:

- لا أعلم أي جرأةٍ تِلْك التي أتتك، ولا إن كان ما فعلته شجاعة أم حُمق! كل ما أعرفه أنك أتيت بفعلٍ لو أتاهُ غيركَ لكانَ الآن في عدادِ الأموات، مدهشٌ أنك بوقتٍ قصيرٍ صارت لك تلك الجرأة! وتلك

السُمعة! سمعةٌ لا يحصل عليها إلَّا القليلين، وبعد سنوات طوال، والأهم أنك قد فعلت كل هذا وحدك، ودُونَ مُسَانَدَةٍ من أحد.

سَكَتَ شيئًا يتأمل وقع كلامه عليّ قبل أن يُتَابع:

- ادع ربَّك أن تخرج في أقربِ وقت، لأنك لو استمررت في هذا المكان بجرأتك تلك سيكون لك أحد مصيرين لا ثالث لهما، إمَّا أن تكون واحدا منَّا، أو أن يتم تصفيتك.. والثانية هي الأقرب.

لم يتمالك نوَّاف نفسه: ولكن أخوك ورفاقه لن يتركوه.

التفت إليه ساجِد: دَعْ أحدًا يقترب منه وسترى ما سيحصل له، من اليومِ من يتعرض لزين وكأنَّما يتعرض لي.

عادت إليَّ عيناه وديعتان: ألا يزال بصدرك شيء؟!

أومأت نفيًا، فربت على كتفي مُستحسنًا وقام ليُفسح له الطريق، عند عتبة الزنزانة تمهل شيئًا لينظر إلى العشرات ممن لم يسعهم المكان بالداخل فالتمسوا الرؤية من خلال القُضبان، قبل أن يلتفت إليَّ ضَاحكًا:

- ثُمَّ لك أن تفرح، فها قد صارت لك جماهير.

- ٢٧ -

لَمْ تَتْرك لِي أَفْوَاجُ السُجْناءِ طوال اليومِ بُرْهَةً للراحةِ أو حتى لاستيعابِ ما حَصَل، فالزنزانةُ لآخرِ اللَّيلِ كما لو كانت مَزَارًا تتتابع عليه التجمعات والوفود من مختلف الزنازين، تبركًا وتيمنًا وفضولًا في الأساس. فكلُّ عشرِ دقائق يَفِدُ إلى الزنزانةِ جمعٌ من خمسةِ أو ستَّةِ أفراد، لا أعرفهم ولم أَرَ أحدًا فيهم قبل اللحظة، يجالسونني وسعد ونوَّاف وسالم وعبد الشكور وأبو محمد، يتحدَّثون معي ومعهم مستفهمين منهم ومني عما حصل، قائلينَ كلامًا - لشدَّةِ إنْهاكِي - تَاهَ عنيّ معظمه. خارجَ الزنزانة اِزْدَحَمَ الممرُّ بأقوامٍ أُخَر؛ لم يدخلوا، ربما لأنه لم يشفِ فضولهم أن يتواجدوا في مكانٍ واحد طول الوقت، فتقافزوا في العنبر يجمعون أواصرَ حكايةٍ تمزَّقَتْ بين الأفواه وأنهكتها التخمينات، لا يتقابلون إلَّا بجملٍ مُقتضبة، ولا ينفضون إلَّا بأسئلةٍ تعوزها إجابات: ماذا حصل؟ من الباديء؟ كيف انهارَ علي في لحظات! أيُصَدَّق ما فعله ساجِد؟ يتناقلون سِرَاعًا بين الزنازين التماسًا لنبأٍ أو كلمة، وأنا في ذلك كله منهكٌ كأشد ما يكون الإِنْهاك، مُتْعَبٌ كأشدُّ ما يكون التعب، لكن تحفزي لم يفتر للحظة، عيناي كانتا تقطعان الممر من أوله لآخره، اِسْتِعْدَادًا لأية مُفَاجأة.

وكان علي قد حُمِلَ إلى العيادةِ لتضميدِ جِراحة حين كان للشرطة هنا نصيبٌ من الدهشة. عندما طالعهم وجهه المنتفخ، وعيناه المتورمتان، وعنقه المشقوق، لم يصدقوا أنه هو "من فعلوا به ذلك؟!" سألوا؛ لتأتيهم صدمةُ عمرهم: "ليس فعلوا.. بل فعل"، هذا هو المجنون؛ الذي كان يصرخ ويهذي وينام عند باب العنبر.

حين عَادَ علي من العيادة مَسْنُودًا على رفاقه، وفيما كان راقدًا بزنزانته محاطًا بالعشرات من عصابته التي راح أفرادها يخططون ويدبرون للخروج من قيد ساجِد، فوجيء جَمْعُهم بدخول الأخير إلى الزنزانة، مُجرجرًا وراءه نصف العنبر الذي وقف بالخارج يترقب ما سيحدث، كان ساجِد وحده هو من دخل وَكْر الضِبَاعِ بعدما أمر رفاقه أن ينتظروا بالخارج، ألقى نظرةً على أخيه الراقد، ثم تأمل الوجوه المحمومةِ واحدًا واحدًا، قبل أن يرْفَعَ سبابته مُنَبِّهًا ومُؤكدًا ومُحذِّرًا بأن الأمر قد انتهى.. انتهى أيّ انتهى.. وأن

الكل خارج الموضوع، وأن الأمر فقط بينه وبين أخيه، ولا يحق لأحدٍ التصرف نيابةً عنه أو عن أخيه، وأنه لو تَدَخَّلَ أيُّ شخصٍ وتعرض لزين بالقول أو الفعل، فسيكون هذا بمثابةِ التعرض لساجِد نفسه، وأن من يفعل غير ذلك لن يلقى إلَّاه - ساجِد - في وجهه.

ثَارَ رفاق علي وارتجت قضبان الزنزانة بضرباتهم وهم يتوعدون ويحذِّرُون بأنهم لن يسكتوا عمَّا حصل لرفيقهم، وليسوا رجالًا إن لم يقتلوا ابن الـ (...) الذي فعل بصاحبهم ما فعل، هنا ما كان من رفاق ساجِد إلَّا أن عبَّؤوا الزنزانة في لحظة، صنعوا حائط صدٍ بين ساجِد ورفاق علي، تعاشقت أيديهم مع أيدي الموتورين غيظًا ليُمسك كلا الفريقين بتلابيب الآخر، بدا أن معركة جديدة على وشكِ الاشتعالِ في تلك الرقعة الصغيرة لولا أن سُمِعَتْ بالزنزانةِ أنَّاتٍ مُرْهَقَة، علي! يلوِّحُ بكفه ويوميء برأسه قدر استطاعته ما فهم منه الجميع أنه يؤيد كلام أخيه، وأن يَسمع الكل لما يقوله، هنا تراجع رفاق علي في حال أقرب للذهول منها للغضب، صمتوا لكن عقولهم لم تصمت، سكتوا لكن صدورهم لم تسكت، بل ظلَّتْ تغلي كمراجل من نار وهم ينقلون بصرهم بين ساجِد وصاحبهم الذي لم يكونوا يتصورون يومًا في أبشع كوابيسهم أن يرقد جسده مُفَكَّكًا في ركن الزنزانةِ الفقير بعد أن كانت جنبات السجن ترجُّ يومًا لذكرِ اسمه.

انْتَصَفَ ليلُ هذا اليوم، ولم يتبق مما حصل إلَّا هسيسٌ يتبادلهُ أفرادُ البلديةِ وهم يمسحون، وضحكٌ بين المخضرمين، وتسالٍ للبسطاء، وهمسٌ بين النائمين. نَامَ الكلُّ ولم أنم، عاندتُ لأظل مُسْتَيقظًا.. منتبهًا.. حَذِرًا.. مُسْترِقًا السمعَ لأيِّ خطواتٍ تقترب، مستريبًا من أي جلبةٍ قد أشعر بها قُربَ الزنزانة، غير أنه بين لحظة وأخرى كانت تغفلُ عيناي فتسقط رأسي تعبًا على صدري، لكني أنتفضُ بعدها بثوانٍ وكأنَّما صعقني تيارٌ كهربي، فأمسحُ بعينين منتهيتين زنازين العنبر وجنباته وأركانه، أفرز وجوه الساهرين والمتجولين والمستلقين حولي نومًا. كانت الزنزانة في نهاية اليوم قَدْ فَرَغَت إلَّا من ثلثها تقريبًا، غادرها أولئك الذين أتعبهم التوسل إلى أبو محمد بأن يطلب مني الخروج ولو لتلك الليلة على الأقل، لأن وجودي بينهم قنبلة موقوتة، فهم يعلمون أن الأمر لن يقف عند ذلك الحد، يحدسون أنه حين يفيق علي في غضونِ ساعات ستصطلي الزنزانة نارًا بعد أن يدخلها مع العشرات عِميانًا موتورين لا يُفَرِّقون بين مُذنبٍ وغير مُذنب، كما لن تفرق أشيائهم الحادة بين جسدٍ وآخر، بالعكس؛ سيكون همهم الأكبر أن يُحْدِثُوا أكبر قدرٍ من الإصابات فداءً لما حصل لصاحبهم وعبرةً لمن لا يعتبر. لكن أبو محمد لم يستجب لهم! أحسَّها ربما

إهانة، فملامحه الراسخة والشيخوخة الزاحفة على وجهه وسنوات سجنه تحوَّلوا جميعًا لحائط صد فلم يقبلوا أن يخرج لائذٍ من كنفه. "الخائف يمشي"! قالها فغادر البعض إلى الممر وإلى زنازين أخرى، فيما زحزح الباقون فَرْشَاتِهم لأبعدِ نُقْطةٍ ممكنة، يقينًا بأن الضربة التي ستنتصفني في أيةِ لحظة.. لَنْ تنالني وحدي.

فجرًا كانت قَدْ أُنْهِكتْ كل قواي وأعصابي، فغفوتُ بعد أن صارت زِنَةُ جفوني عدة أرطال، لكنَّ الغفوة لم تستمر سوى لعشر دقائق، انتفضت بعدها وأنا أمسح محيطي شَهِقًا وكان ذلك حين احتوتني الربتات، سالم! الذي استيقظ لتوِّه مُسْتَقْبِلًا عينيَّ الحمرواين بضغط متتابعٍ على كتفي، ومسحٍ رفيقٍ على صدري ألَّا تقلق وارتح قليلًا، فأنا هاهُنا منتبهٌ مُتيقظ.. لكنه غَفَا.. وغفوت.. فبرك كلانا فوق الآخر في الخامسة صباحًا.

***

عندما دخل الإفطار في الثامنة قُمْتُ بصعوبةٍ مُتَحَامِلًا على نفسي، اعتدلت ثم تمهلت حين وجدت الكفَّ تمتدُّ إلي! أبو محمد، اتزنت على كفه وجَرْجَرْتُّ جسدي إلى صينية الطعام ولم يتركني حتى اطمئن أني استويت جلوسًا بلا وجع.

- بخير؟

سألني فهززت رأسي أن نعم.

- أتذهب للعيادة؟

- كلاَّ.. شُكرًا.. لا داعي.

كان سالم يجلس قُرْبَ بابِ الزنْزانةِ ناعِسًا، تَنْفَرِجُ عَيناهُ بين لحظةٍ وأخرى ينظر فيها للخارج قبلَ أنْ تَنْغَلِق العينان ثِقَلًا من جديد، دَعاهُ أبو محمد إلى الطعام وألاَّ يقلق فالأمرُ مُنْتَهٍ، فَتَقَدَّم سالم من الصواني واستوى، وكان هذا الإفطار هو أول جلسةٍ لنا نحن الخمسة وحدنا، أنا ونوَّاف وسعد وأبو ومحمد وسالم، من بين الجلسات الكثيرة التي جالسنا فيها آخرين منذ الأمس، صواني الطعام التي كانت تنتصفنا تشهد على صمتٍ يحكي الكثير، والمُقَلُ الحمراء تشي بأن تلك الليلة كانت من أطول الليالي على الإطلاق. دَقَائِق

ودَلَف عبد الشكور يحمل طبقه قبل أن يستوي جلوسًا ويتفرَّس في كياني، وكأنَّه يتأكد أني كما تركني بالأمس، ولمْ أنقص عُضْوًا. سألني عن حالي فطمأنته، وبثثته امتناني على مُؤَازَرَتِهِ ومساعدته لي بالأمس.

- الناس بالخارج منذ البارحة ليس لها سيرة إلَّا ما حصل، والله لو كانت تلك مباراةً في كأس العالم ما كان الرُغاء بتلك الكثرة والكثافة.

ورغم التماسنا لراحة الأعصاب شيئًا إلَّا أن الفضول غلبنا فسألناه..

أَجاب: يتحاكون عمومًا بما حصل، كلٌ يحكي ما رآه وما سمعه، يُدهشهم للغاية ما فوجئوا به من زين، ويُدهشهم أكثر ما حصل لعلي، ولا يصدقون رد فعل ساجِد، لا أحد يستوعب حتى هذه اللحظة ما جرى، وكأنه فيلمٌ سينمائي، الحكاية نفسها تناقلتها عشراتُ الأفواه باختلاف التفسيرات والتخمينات والإضافات، لكن الثابت المشترك في كل هذا "زين الذي حطم علي تحطيمًا".. "زين الذي مزق علي تمزيقًا".. وكأنما هو أسدٌ تركوه على فأر.. والله سمعتها أكثر من مرَّة.. أسدٌ تركوه على فأر.

- وكيف علي الآن؟ سألت.

- لم يَزَلْ في زنزانته، غَادَرَهَا فقط صباحًا ليستحم ثم عاد، عرفت أيضًا أن ساجِد كان وحده بجواره طوال الليل، أعتقد أنه كان يقوم بإنهاء الموضوع بطريقته، ويستنطق أخيه وعْدًا بألَّا يتعرَّض لك هو أو رفاقه، فلا أحد يعرف ماذا يُضْمِرُ علي، وماذا سيكون رد فعله حين يفيق، كما أن رفاقه لم يزلوا بعدُ ثائِرين ويتلظون غيظًا من ساجِد، فما حصل بينك وبين علي لم يكن هيِّنًا.

رفع نوَّاف ملعقته في وجه عبد الشكور مُحَذِّرًا: أتقول "بينك وبين علي؟!"، لا أريد أن أسمع كلمة (بين) هذه، كانت مباراةً من طرفٍ واحد، قُلْ: الهرس الذي انهرسه علي، الطحن الذي انطحنه علي، البعزقة التي تبعزقها علي.

ضحكنا جميعًا لكنها ضحكات قصيرة بترها التعب والإرهاق، أردف نوَّاف:

- أقسم بالله لولا أن رأيت البارحة بعيني ما حصل ما صدَّقت، والله ما صدَّقت.

في تلك اللحظة دخل نصّار إلى الزنزانة، همّ الموجودون بالقيام للترحيب به فأوقفهم بإشارةٍ من يده، توجه ناحيتي ثم أحنى جزعه هامسًا:

- بخير؟

- الحمد لله.

- هل تريد شيئًا؟ أينقصك أيَّ شيء؟

- لا شكرًا.. ممتنٌ لك.

قبَّل رأسي: فهد يرسل لك تحياته!

غادر نصَّار بعد أن سلَّم رسالته، نظرت إلى من حولي مُسْتغربًا: هل وصل الأمر لعنبر القتل؟

توقف نوَّاف عن الأَكل وحدَّق بي: عنبر القتل فقط! أتمزح؟! السجن كله منذ الأمس بعنابره وسجناءه وشرطته وموظفيه لم يكن له حديثٌ إلَّا ما حصل البارحة، الحكايات هنا تخترق الجدران بسرعة البرق، الشرطة كانت تتحسب لأنها تعلم أنَّ قِتالا كبيرًا قد يحدث في العنبر، أنت لا تعرف ماذا فعلت! أقسم بالله أني لا أعرف كيف أنك حيٌ حتى هذه اللحظة.

قال سالم وهو يأكل بمشقةٍ دون أن ترتفع عيناه عن طعامه:

- فهد كان يريد القدوم بالأمس، وأبلغ الشرطة بذلك، لكنهم منعوه، قال لهم أنا لا أستأذن منكم، أنا فقط أردت إعلامكم بأنكم إن لم تجدوني بعنبري فهذا يعني أني في عنبر (٨).

ضحكوا هذه المرَّةِ طويلًا، قطع سعد ضحكته:

- لكن أتعلمون؟ أنا لا يُدهشني في كل هذا إلَّا رد فعل ساجِد بالذات، لا أجد له تفسيرًا منطقيًا، فما هذا الذي أتى به؟ يموت أخيه الأَكبر منذ أيام، ويُمَزَّق أخيه الأوسط أمام عينيه، وحين ظنَّ الجميع أنه سينتهي من زين بعد ما فعله بأخيه، يقف ساكتًا مُعْلِنًا عن إعجابه به وكأنه كان يشاهد عرضًا بالتلفاز.

ضرب نوَّاف كفًا بكف: فعلًا أمره أعجب من العجب، لم أشهد شيئًا كهذا منذ جئت.

سأل سالم: ولكن ما أدراكم أنه صادق؟!

- ماذا تعني؟! سأل نوَّاف.

تابع سالم: أعني، ما أدراكم أن تلك ليست لعبة كي يقتنص اللحظة المناسبة فيغدر بزين؟! كما غدر بالأصهب في المسبح.

قال أبو محمد - وكان ساكتًا طوال الوقت: أمثال ساجِد لا ينتظرون اللحظة المناسبة، فكل اللحظات لهم مناسبة، وكل السجناء بالنسبة لساجِد واحد، ولو كانت هناك لحظة مناسبة فلن تكون أفضل من سجينٍ يترنحُ يمينًا وشمالًا ولا يحتاج للإجهاز عليه أكثر من بضعة دقائق، اطمئنوا، لقد انتهى الأمر.

***

يومان مرَّا بسلامٍ اعتصرني فيهما القلق اِعْتِصَارًا وفعلت فيهما سيناريوهات الانتقام برأسي الأفاعيل.

وكنت قد عرفت أيضًا أن ساجِد قد طلب من علي أن يغير مكانه إلى زنزانةٍ أخرى بالدور العلويّ فامتثل، لئلَّا نتقابل أنا وهو - علي - صُدفةً في الممر فتتأجَّجُ النار من جديد.

في اليومِ الثالثِ خرجت من الزنزانة متوجهًا إلى المسابح، أقاوم بقايا آلامٍ في ظهري، ووَجَعًا أعلى البطن، خَافِيًا في خروجي للمرةِ الأُولى منذُ المشاجرةِ قلقًا بالغًا، وكاسِيًا أعصابي بثباتٍ مُفتعل، تحوَّلَتْ كلُّ خلاياي لقرون استشعار تفرز الأصوات من حولي، فوسط هذا الصخب كنت أشعر بأن شيئًا سيأتيني من حيث لا أحتسب! ضربةٌ ستقصم ظهري، مقذوفٌ سيرتشق برأسي، هذا إن لم ينغمد بكبدي سكينٌ غاضب. حاولت أن أسير على سجيتي كما أسير كل يوم، وأن أطالع الموجودات حولي كما أطالعها كل يوم، غير أن من حولي لم يقابلوني بالمثل، فالأبصار كانت تتبعني، والأفواه تتهامس بشأني، يتأملونني وكأنني سائح أجنبي أو نجم سينمائي أو فاتح من الفاتحين، فبمروري يتوقف الكل لبرهةٍ عمَّا يفعله، الضاحكون يقطعون ضحكهم، المتحدثون يسكت كلامهم، يقف الجالسون، ينتبه الواقفون، المستلقي نومًا يشرأب برأسه، المتكئ يعتدل جلوسًا، تلتفُّ أعناق من ولوني ظهورهم لتنظر وتمعن، فيما تصافحني تعليقاتٌ عنوانها بأن الموازين كلها، منذ اللحظة، ستنقلب تمامًا.

حين وصلت إلى المسابح وجدت سالم يجلس مُقَرْفَصًا يغسل الملابس في الطِسْت، وبجواره يقف سعد ونوَّاف، واللذَّان ما أن رأياني حتى تلقفاني بمزاحٍ وضحكٍ حولَ حكايتي التي صارت على كل لسان،

وشُهرتي التي صار يتحاكى بها الناس، وأنَّها ذاتها منذ اللحظة سيحسبان حساب كُلَّ كلمةٍ يتفوهان بها معي، جاريتها في هذا كله ضَحِكًا وتعليقًا، حتى استأذنا وانصرفا بعد دقائق ليتركاني وحدي مع سالم الذي كان صامِتًا طوال الوقت.

قام سالم عن طِسته واتجه بآليةٍ إلى حيث ينشر الملابس، ثم عاد بقميصي البنجابي نظيفًا بعد أن كان مُمَزَّقًا وملوَّثًا بالدم، فَرَدَهُ أمامي:

- قميصك نظيفٌ وكأنه جديد، هناك قطعات أوكلت أحدهم لرتقها.

تناولت القميص: هل دفعت شيئًا؟

- لا تشغل بالك.

دسست نقودًا بجيبه..

- لم تكن هناك حاجةٌ لذلك.

- أدخرك للمشاجرة القادمة.

لم تعجبه الكلمة، فأقعى إلى غسيله من جديد: وكأنَّ المعارك قد صارت شغلك الشاغل.

- أو هو قَدَري الذي أُسَاقُ إليه.

- وكأني لم أُنبهك قبلها بأيام، ووجهت وعبد الشكور لك النُصْحَ والتحذير، ولكن يبدو أنك في النهاية، ككلِّ مرة، تُنَفِذُ ما تراه وما تُريده فقط دون أن تحسب عاقبة أي شيء.

كنت أعلم أن سالم قد بدأ يُفْرِغُ كَبْتَ يومين من السكوت، بعضُ الكبتِ نفثته الكلمات، والبعض استقبلته القمصان والبناطيل التي راح يمرشها في الطست بعصبية، يُخرجها.. يعزقها.. ثمَّ يُغرِقها من جديد.

أكمل مُتحاشيًا النظر إلي: إذن فهل إن حكيت لك عن اليومين الماضيين ستَسْمَع؟ هل سَتَشْعُرْ وتُقدِّرْ؟ أنا لم أنمْ يا زين، أتفهم ذلك؟ أنا الذي أنامُ دومًا ملء جفوني لأن النوم هو راحتي وملاذي بعد شقاء الساعات الطوال لم أغفُ هذه المرة حتى للحظةٍ واحدة، قلبي كان ينخلع مع كلِّ حركةٍ أشعر بها خارج الزنزانة ومع كل قدمٍ تقترب، رَدَّدْتُّ الشهادتين طوال الوقت، واستغفرت الله على ما تذكرته وما لم أتذكره،

بكيت لأجل الصلوات التي تركتها وكنت أسأل: هل ستكون هذه ليلتي الأخيرة إذن؟ أتلك هي النهاية؟ كنت أنظر إليك وأنت بين الوعي واللاوعي، حانقٌ ومُغْتَاظٌ منك لكني مشفقٌ عليك، مترددٌ بين أن أتركك أو لا، وإن انتظرت وحصل ما أخشاه! وامتلأت الزنزانة بهؤلاء المُجرمين! فكيف سأتصرف؟ كيف سأحمي نفسي أو أحميك أنا الذي ما دخلت شجارًا من قبل؟ بل حتى ما علا صوتي على أحدٍ هنا! هل سيدافع عنَّا أحد؟ بل حتى هل سيتسنى لنا الخروج وطلب النجدة؟ أنت لا تعلم أي ليلة مضت علي في ذلك اليوم! والله إنك لا تعلم!..

جثوت أمامه واحتويت جبهته بين كفيّ وقبَّلتها:

- ليس لدي كلام يفي حجم خوفك وحزنك هذا، كما أنه ليس لدي عمومًا كلام يفي حبي لك وامتناني لوقوفك بجانبي طوال الوقت، أُقَدِّرُ ما عانيته ذلك اليوم وما قاسيته، ولكني، وأصدقك القول، كنت مُسيَّرًا في كل هذا، فما كنت أنوي لحظةً فعل كل ما فعلته ولم أكن أقصده أو أَسْعى إليه، بل ما كنت أظن يومًا أني قد أتسبب بتعبك لهذه الدرجة.
- لم تكن تظن؟ إذن ما الذي ظننته!.. أن تفعل ما فعلت بعلي!.. علي يا زين!.. ويمر الأمر مرور الكرام.
- لم أكن أظن أنه سيمر مرورُ الكرام، بل لم أكن أظن أنه سيمرُّ أصْلا، كنت أعرف أن رفاقه في النهاية سيُجْهِزُون عليّ، كنت موقنًا بأنها نهايتي يا سالم وكنت راضيًا، راضيًا والله، قلت لنفسي تلك موتةٌ أتتنى حتى عندي ولم أسع لها، ما أكرم الله وألطف قدره، وكأنَّه اسْتَجَابَ لدعوتي بميتةٍ لا ألقاهُ بِهَا كافِرًا، يعلم الله أني قد استنفدت طاقتي كلها ولم أعد أحتمل، فبَعَثَ لي شيطانًا أُفرغ فيه غضبي ويفرغ في غضبه، فيُنهي كلانا على الآخر.
- لا أعرف ماذا أقول لك في كلامك هذا، حقًّا لا أعرف، إن كان هذا مُبَرّرًا لما تفعل وستفعل، فسنقاسي الويلات طوال وجودك هنا.
- والله يا سالم أني لم أكن أتخيل أن أعيش لتلك اللحظة.
- لكنك عِشْت.

مُداعبًا: لُمْ ساجِد على ذلك.

لم تعجبه الكلمة للمرة الثانية، فَعَادَ مرةً أُخرى لعزق ملابسه من جديد، وقفت ودخلت المسبح ثم بدأت بخلع ملابسي:

- ثم أنه كونك بقيت في الزنزانة مع من بقوا في تلك الليلة هو أشجع الخيارات، أنت تتغير يا سالم.

- أنا كما أنا، لا أتغير ولن أتغير، ولو تغيَّرت ما عِشْت حتى هذه اللحظة، ولا تَغْتَر بمن بقوا في الزنزانة، ليسوا شجعانًا بقدر ماهم مضطرين، ناموا نصف نومٍ وهم يلعنونك في سرِّهِم ويلعنون أبو محمد الذي أبقاك في الزنزانة، عَارَضَهُم جميعا لأجلك.

فتحت الدُش ضاحكًا: ممتنٌ له.

- اليوم أنت ممتنٌ لمسئول الزنزانة، أعجبك قرار مسئول الزنزانة هذه المرة.. ها؟!

- وقد تكون تلك هي المرة الوحيدة التي أبارك فيها موضوع "مسئول الزنزانة" هذا.

- لا تتوقع أن يُكَرِّر ذلك في كل مرةٍ تتشاجر فيها.

- لن أتشاجر مرَّة أخرى يا سالم، أعدك بذلك، وكما تمنيت أنت قبلًا.. ستمضي سنواتي في سلام.

- أو رُبَّما أيامك.

لم تُرحني الكلمة، فتوقفت عن دعك جسدي واسترقت السمع حين شعرت بتلك الجلبة في العنبر، واريت جلباب المسبح مُستكشفًا المُحيط: سالم! ماذا هناك؟!

- أخرج حالًا يا زين.. حالًا.

وكان هذا حين اقترب الصوت وسمعت النداء.

اثنان من الشرطة يُتمشيَّان بطول الممر:

- المشتركون في برنامج التائبين يتجمعون حالًا عند الباب، المشتركون في برنامج التائبين يتجمعون عند الباب.

ألقيت بالليف والصابون بسرعة، تركت الدش مفتوحًا وانحشرت في البنطال، استمهلني سالم بأنه آتٍ معي لكنني تجاوزته متقافزًا كالبهلوان بين المتزاحمين والمتلاحمين بالممر، حين وصلت إلى باب العنبر وجدت شرطيين، يُمسك أحدهما بورقةٍ مطويةٍ ويُحصي القادِمِين.

- أنا زين الدين أحمد، هل اجتزت الاختبار؟ أخبرني من فضلك!
- ارجع للخلف، سننادي الأسماء كلها مرة واحدة.
- لأجلي ألقِ فقط نظرةً واحدة على الكشف.. أخبرني إن كان اسمي موجودًا أم لا..

دَفَعَني الشرطيُّ خارج مِسَاحته، إذ لم أزل مُغرورقًا بالماء، فاضطررت للتراجع مُنْضَمًّا إلى الجمعِ المتزايدِ.

راح الشرطي يراقبُ المتوافدين إليه من كلا الدورين، حتى انحسرت الأعدادُ شيئًا فشيئًا فأمرنا بالجلوس، فكَّ الورقة وبسطها بين اصبعين فرُحتُّ بشغفٍ أتفحص انعكاس الأسماء ناحيتي، مُدَقِقًا النظر ومُمِيلًا رأسي يمنةً ويُسرةً مستكشفًا إن كان اسمي من بينها أم لا.

وزَّع الشرطيُّ انتباهه على الوجوه الجالسة:

- تلك الأسماء التي سننَادِي عليها هي فقط التي اجتازت الاختبار، وأصحابها هم الذين سيحظوْن بالعفوي الملكي، من لم يسمع اسمه فهو بالتالي لم يجتز الاختبار، لكن يمكنه التقدم للاختبار في العام القادم، وللتذْكِرة: اجتياز الاختبار لا يعني الإفراج النهائي، أكرر: اجتياز الاختبار لا يعني الإفراج النهائي، لا إفراج قبل قضاء مدة العقوبة كاملة، الفارق فقط أنك لباقي مُدَّتِك ستكون في سجنٍ آخر مُخَفَّف. تُسَلِّم فيه نفسك من الثامنة صباحًا وحتى الثالثة عصرًا وباقي اليوم أنت في منزلك، حرٌّ لتفعل ما تشاء ما عدا السفر والعمل، أنتم لا زلتم سجناء، لا يحق لكم العمل أو الخروج من البلاد، وغياب يوم واحد عن الحضور أو التأخر في مواعيد الحضور يعني العودة إلى هُنَا مَرَّةً أخرى.

أمسك الشرطي بالورقةِ وتَمَهَّل شيئًا وهو ينظر للعنبر بكلا دوريه رُبَّما ليتأكد أنه لا أحد آخر قادم ثم بدأ بنداء الأسماء. ناداها كالقطار يَلْصِمها ببعضها البعض كعادةِ كل النداءات، ما جَعَلَ صرخات الفرحة تنبعثُ من حولي كفرقعاتٍ مفاجئة، وتتداخل الهتافات والصياحات وينخرطُ البعضُ مع ذويهم بالكلام

والوعود. زادت البلبلة فقَطَعَ الشرطي قراءته سريعًا مُنبِّهًا على التزام النظام كي تُسْمع الأسماء بوضوح، ثم عاد للنداء سريعا من جديد.

مع كلِّ اسمٍ اسمعه كانت تزداد ارتجافتي، وينقبض قلبي مع نزول عيني الشرطي أكثر فأكثر في الورقة، هكذا اسمٌ فانقباض! اسمٌ فانقباض! حتى في لحظة ما توقف عن النداء.. طَوَى الورقة.. وهمَّ ليُغادِر.

قفزت ناحيته بقلبٍ مخلوع وسط اعتراضات من لم تُـنَادَ أسمائهم مثلي..

- انتظر.. انتظر.. ماذا يعني هذا؟!.. أين اسمي؟!.. زين الدين أحمد الشُهيبي.
- عُدْ مكانك.
- أين اسمي؟! أنت لم تنادِهِ! لقد اشتركت في البرنامج وأثنى الشيخ على قرائتي، أين اسمى؟!

أمسك الشرطي بكفي القابض على ذراعه وأعادها لي بقرف، ولم أكن أنتبه أني ممسكٌ على ذِراعه بقوَّة، ولا أعرف كيف جرؤت، أكمل هو طريقه للخارج، لكنه لم يبتعد سوى بضع خطوات ليلتقط ورقةً أخرى من زميله الواقف خلفه.. كشفٌ آخر..

أُحييت من جديد: إذن انظر فيه إن كان اسمي موجودًا أم لا.. زين الدين أحمد الشُهيبي.

لم يتكلم بل أمعن فيِّ النظر تحديًا، فعدت إلى مكاني بين الجالسين، وكنت قد بدأت أشعر بالضرب يزداد في صدري، وصداع بدأ يُداهم رأسي وينقر في أنحائها، فيما بدا أنها فرصة لن تتكرر للضغطِ كي يسخو في أدائه، بَدَأَ الشرطيُّ بنداء الأسماء مرةً أخرى لتنبعث صيحاتُ من اِبتُعِثَ فيهم الأمل من جديد، يفوُقها عُلوًّا زفرات المحترقين انتظارًا، ويفوق الاثنين ذلِكَ الغليانُ بداخلي، عينا الشرطي تنزلان أكثر وأكثر في الورقة التي لم تكن ملأى لآخرها بالأسامي كسابقتها، وإنما لمنتصفها فقط، لاحظت ذلك من انعكاس الأسماء على الناحية المواجهة لي..

زين الدين أحمد الشُهيبي..

لدهشتي ولشؤمٍ لم ينفك عني لم أقفز فَرَحًا كالآخرين، بل وجدتني اتلفت حولي كالمبهوت، لعلَّ أحد الجالسين بجواري له نفس الاسم! اتلفت عن يميني، وعن يساري، وخلفي، ثم عن يميني مرةً أخرى..

- اسمي! هذا اسمي.. أنت ناديت اسمي!.. ناديته أليس كذلك؟

سألت الشرطي وأنا أعبرُ إليه أدهس أبدانًا لمزني أصحابها.

- ما أمرك؟ أأصمٌ أنت؟!

- لقد نجحت في الاختبار أليس كذلك؟!

- عُد مكانك.

- اِقْسِمْ لي فقط أن اسمي موجود لديك.

أراني الكشف: ها هو، لا حاجة للقسم.

مادت بي الدنيا وشعرت وكأني على وشك فقدان الوعي، تمالكت نفسي وسعيت إلى الزنزانة أجر قدماي ذاهِلًا، دلفتها ورُحت أجمع حاجياتي بسرعة، أدويتي ومصحفي ورسائلي لعائِشة.

- زين!

كان سالم، التفت واحتضنته بقوة: سأخرج.. سأخرج يا سالم.. سأخرج.

- نعم نعم لقد عرفت.. أخيرًا.. ألم أقل لك؟! هنيئًا ومُبارك لك.

- لن أنساك ياسالم.. والله لن أنساك ما حييت، انتظر لا تمشِ يا سالم، سأجمع فقط حاجياتي.

- تمهل تمهل ليس الآن.

- لا لا والله لقد نادى اسمي، أنا سمعته، ناداه فعلًا، ولكن اسمي كان في الكشف الثاني، كان هناك كشفان يا سالم، كان هناك كشفان.. أنا كنت في الكشف الثاني.

- اهدأ قليلًا.. زين.. إنك ترتجف وتتعرق بشدة.. زين!

أشرت إلى من نوديت أسماؤهم: ونادى هؤلاء.. كانوا معي.. أنا كنت في الكشف الثاني.. نادى عليهم وعليّ.. وسنخرج.. هو قال ذلك.. ولكنه ليس إفراجًا نهائيًا أنا أعلم ما تقصده يا سالم.. أعلم ما تقصده جيدًا.. ولكن....

ولكني سكتت، وتسمرَّ اصبعي مكانه حين فوجئت بمن أشير إليهم يتمشون الهوينى في الممر، أو مُستلقين بزنازينهم، أو آتين بما لا يدل على أنهم يغادرون، نظرت إلى الباب فوجدته مُغلقًا والشرطيُّ نفسه قد غادر.

ضحك سالم وهو يحتضنني مُحتويًا ذهولي: متلهفٌ أنت على الخروج.. ها؟ والله أحسب أنك لن تعرفنا بعد اليوم.. بعد عشرة أيام يا بطل.. هَانَتْ.. تعال نشرب الشاي.

- ٢٨ -

نعم تَمَنَيّْتُ الموتَ، تمنيته ودعوت الله به في صلواتي وخلواتي، ووقت نومي وصحوي، وحين أيقنتُّ أني عالقٌ حيث يتوقف بي الزمان ويضيق بي المكان، وتعتصرني الأقدار نَوائِبُها يومًا بعد يوم. تمنيته حين أيقنت ضياعي ويأسي من أيِّ حل، وعندما تفحش الوجع بالجسد والروح، تمنيته في كل التفاصيل اليومية التي تبدو بسيطة الشكل لكنها ممتدة التأثير، موغِلةَ الألم، تنخرُ كالمسامير في جسدي حتى أوهنته وفي عزيمتي حتى دكَّتها. تمنيته بعد أن أيقنت بأنه سيكون رَحْمَةً بي وبغيري، فبرحيلي ستقلُّ دموع الباكين علي حالي يومًا بعد يوم، لأغدو مع الوقت، ككل الأموات للأحياء، ذكرى وصورةً تتشوش شيئًا فشيئًا حتى تُعشِّشُ واهنةً في القلب. ولكن بشارة الخروج تلك التي فاجئتني أحيتني من جديد، كقطراتِ ماءٍ صُبَّت فوق أرضٍ أحرقها صهد العطش، وكماءٍ فاترٍ سَرى خفيفًا بين أخاديد القلب اليابس، ليوقظ كل خلية، ويحييها من جديد، وليتأكد لي أن هناك أمل.. هناك أملٌ يا زين، فتمسَّك به ولا تُفْلته.

وبرغم تأكيدات وطمأنة كلِّ من حولي بأنَّ الأمور قَدْ هَدَأت تمامًا وأنَّهُ لا نيِّة لأحدٍ لافتعال أي مشاكلٍ معي، إلَّا أني ظللت على حذري وتربصي، فلم أكن أعرف كيف ستمضى علي الأيام العشر! والتي بَدَتْ أنَّها على قِلَّتها ستكون أطول من الشهور التي مكثت. لم أكن أنام إلَّا لأقل الساعات، وبنصف عين وبنصف وعي، سالم وأنا يحرس كلانا الآخر دون اتفاقٍ شفهي، ودُونَ ترتيبٍ مسبق، لم أكن استحم إلَّا في آخرِ الليل، حين يكون رفاق علي بزنازينهم وفي سباتهم التام، لئلا ينالني أحدهم أثناء استحمامي غدرًا، كما يفعلون دومًا.

في الليلة الخامسة، وبينما كنت أجلس قُرْبَ باب الزنزانة، وكانت قلَّةُ النوم قد أنهكت عافيتي، أتاني الهمس:

- "بجوارك يا زين.. بجوارك بالضبط.. كان يختبئ عُبيِّدة".

كان أبو محمد نائِمًا على جنبه، مُريحا خَدُّهُ فوق كفه فيما بدا لي أنه كان يتأملني على ضجعته تلك لوقتٍ ليس بقليل. أَرْدَفَ بنفس الصوت الخفيض:

- دَخَلَ مُتَعَلِّلًا بأنَّ حمام زنزانته مشغولٌ ولا يطيقُ الانتظار ثم توارى خلف هذا الستار، وكان ذلك في نفس الوقت الذي تناهى لي الصخبُ بالخارج، قيل أن عبد العزيز يحتضر وأنَّ هناك مخدراتٍ مغشوشة وذُكر من بين الخربطة اسم عُبيِّدة، عرفت حينها أنه - أي عُبيِّدة - قد جاء ليختبئ من فعلته، حتى دخلت الشرطة وأنقذته، أنقذته من الناس الهائجة ومن رفاق ساجِد وعلي، ليُصبح، وللغرابة، في قبضة علي وساجِد نفسهما.

سكت أبو محمد شيئًا وكأنه يبحث عن كلماتٍ بعينها:

- أنت لست معروفًا لأحدٍ يا زين، لذا عندما قالوا أن علي يتشاجر مع "شخص" لم أصدق!.. علي!.. علي بنفسه يتشاجر مع شخص؟! شخص واحد! وكيف وصل إليه هذا الشخص؟! وكيف جَرُؤَ أن يتشاجر مع واحدٍ كعلي؟! حين اقتربت لم أصدق عينَّي أنه أنت! قلت لنفسي: يا الله! لِمَ فعل زين بنفسه هكذا؟! رَاحَ الولد! كان طيِّبًا والله، وعندما أتى رِفاق علي وانقضوا عليك عرفت أن لحظتك قد حانت وأنَّ أمرك قد انتهى، ولكني فوجئت، كما فوجيء الجميع، بما فعله ساجِد وأنه قد منع عنك الكل، وهددَّ من يتعرض لك، بل حتى أنه هَدَّدَ أخيه نفسه، أنا الذي أمضيت عُمرًا هُنا لم أعِ ما حصل، ولم يعِهِ أحدٌ حتى هذه اللحظة، إذن فهل فهمت ما أريد أن أقوله يا زين؟، عندما كان عُبيِّدة يحاول أن يهرب من الموت ذهب إليه بنفسه دون أن يدري، ولكن أنت.. لم تتمن فقط الموت.. بل سعيت إليه.. وعندما وقف فوق رأسك ابتعد عنك زاهدًا، لهذا أقول لك ارتح يا زين.. ارتح ونَم.. فلم يحن موعدك بعد.

***

في الأيام التالية رأيت ساجِد عِدَّة مرات، كنت أتأمله وهو يتوسطُّ جالسًا دُرَف الباب من عصابته، مُحاولًا أن أعثر فيه عن السرِّ الذي لم أفهمه ولم يفهمه أحدٌ في العنبر، أن كيف أوضع أنا في حسبةٍ تفضيليةٍ مع أخيه، وهل إن كان شخصًا آخر غيري هو الذي تشاجر مع أخيه فهل كان سينتصف له - ساجِد - كما اِنْتَصَفَ لي! قال لي البعض أن هذا ليس ساجِد، بل شخصٌ آخر مُغيَّب ومُسيَّرٌ حتى هذه اللحظة بإرادةٍ إلهية، على عينيه وقلبه غشاوة عنوانها -كما قال أبو محمد - أنْ لمْ يحن موعدك بعد يا زين،

وقد لا يفيق - ساجِد - من غيبوبته إلَّا بعد خروجي، فينتبه حينها إلى فعلته الرعناء، حين كان ينتبه إلى مراقبتي له يقطع سبابه وبذاءاته فجأة، لتكسو ملامحه مسحةٌ من الرفق، وكأنه يخشى أن يتلوث صفوي بما أسمعه، وحين كان يعبر بي في الممر أو المسابح يلطمني على كتفي لطماتٍ متتابعة، قويةٍ، مستحسنة، وكأني طفله الأثير الذي يُفاخر به الناس.

رأيت أيضًا علي، وكان ذلك في الليلة السادسة، وكانت تلك هي المرَّة الأولى التي أراه فيها منذ المُشاجرة، كانت كل جروحه تقريبًا قُدْ شُفِيَت، يمشي إلَّا من عرجٍ خفيف، ولكن كان يبدو وكأنه لم يكن هو! كان كل ما فيه يبدو سَاكتًا هادئًا.. ملامحه.. حركاته وأفعاله.. حتى نظراته، لكنه ليس سكوت الضعف والانهزام، وإنما بدا وكأنَّ رُوحًا أخرى تلبَّسته، فأوعزت في نفسه حكمةً وبثَّت في وجهه سكونًا وفي قلبه اطمئنانًا عجيبًا، فبدا زاهدًا في كل ما حوله، يسمع أكثر مما يتكلم، ولا يتشارك إلَّا بأقل الأحاديث، وإن شارك فبأقل الكلمات، لم يعد يشارك أصحابه جلساتهم إلَّا نادرًا، كنت ألمحه في معظم الوقت يجلس مقرفصًا في زنزانته، يحوي رأسه بين كفيه، وكأنَّه يتناجى في تلك الفجوة بين فخذيه مع شخصٍ لا يراه غيره، مؤتنسًا معظم الوقتِ بوحدته، وبأخيه الأكبر عبد العزيز على ذراعه وكتفه.

***

- فليُقَدِّر لك الله الخير يا زين، لا تَنْسَنا.

قالها عبد الشكور وهو يُنْهي حِلاقته لشعري وذقني قبل أن استوي أمامه جلوسًا، وإلى جِوارِنا كان يجلس سعد ونوَّاف وسالم.

كان هذا هو اليوم العاشر، الساعة الثامنة صباحًا، وكنت قد استحممت واغتسلت جيدًا، أمامي استقرت فرشتي التي من المفترض أن أقوم بتسليمها مع زي السجنِ في الأمانات، وحولي افترش العنبر بمجموعاتٍ جالسة يتوسطها أولئك الذين ينتظرون الخروج بعد دقائق.

- والله لن أنساكم ما حييت، ولن أنسى ما فعلتموه لأجلي.

مال عليَّ سعد: ستنام على فراشك يا زين وستأكل طعامًا كباقي الخلق.

لكزني نوَّاف: وستنظر كما يحلو لك للنساء.

ضحكنا جميعًا ولكن ضحكتي لم تدم إلَّا لكسرٍ من الثانية، فبرغم فرحتي بالخروج إلَّا أن المحطة القادمة كانت هي أكثرُ ما يُعييني همًّا، محطة تحمل لافتتها: ترى ماذا يحدث الآن في الخارج؟ وكيف سأقابله ويُقابلني.

- هل هاتفت أهلك؟ سألني عبد الشكور.
- لَنْ أُهَاتِفَهُم إلَّا عندما أتيقن أني خارج السجن تمامًا، فلم أعد أتفاءَل بأيِّ شيءٍ هنا.

خبط نوَّاف كتفي: ما بك؟ لِمَ لا أراك فَرِحًا؟

- ربما تكون الفرحة قاسية حين يكون القلب قد اعْتَادَ اليأس.

قال سعد: لا يتملكنك اليأس بعدَ اليوم، فكما قال أبو محمد أنت تقريبا حر، اسع وتحرك ولف وتحر، اجلس مع محاميك هذا أو استبدله، دُرْ على المعنيين لتفهم الأمر، أوجد حلَّ اللغز إن كان التباسًا أو كيدًا أو غير ذلك، لا تستسلم لفترة الحبس تلك، إن لم تفعل فلتستحق ما أنتَ فيه.

أومأت برأسي: سأفعل.. سأفعل كل هذا وأكثر.

دقائق أخرى أمضياها معي - سعد ونوَّاف - قبل أن يستأذنا كلاهما، ويوَدَّعاني بعناقٍ حار، مُتَمَنِيَّيْن لي التوفيق، وراجييِّن أن يُفَرِّج الله عني تلك الأزمة عاجلًا غير آجل، فشكرتهما ووعدتهما وعدًا صادقًا بالسؤال.

جلست مرةً أخرى إلى سالم وعبد الشكور، وكان سالم ساكتًا منذ جلسنا، مُطْرِقًا رأسه في الأرض، يرسم بأصابعه أشكاله العشوائية التي لم أفهمها يومًا على البلاط، قلت استحثه على الكلام.

- تَصَوَّر يا سالم.

اِرْتَفَعَ رأسه المنكس شيئًا: أَتَصَوَّر ماذا؟

- تصور أنه في حَكْيِّك لي عن كل ما حصل في العنبر من قصصٍ وحكايات قد نسيت شيئًا هامًّا!
- ما هو؟

- حتى هذه اللحظة لا أعرف لمَ قُبِضَ عليك؟!

أطلق عبد الشكور ضحكةً عالية مُجلجلة، حتى أنها جذبت إلينا بعض الأنظار، ضرب كفًّا بكف:

- معقول! لا أصدق.. والله لا أصدق.. لوهلةٍ كنت أظن أنه قد قُبِضَ عليكما معًا.

قال سالم: لا أعلم كيف فاتني ذلك، ربما لأن القصة تقليدية جدًا حَدَّ أنها قد لا تُذكر.

سكت شيئًا ثُمَّ تابع: كنت موظفًا هنا في البلاد، كما قلت لك قبلًا، أُمضي الصباح في العمل وليلًا أسهر مع بعض الرفاق وكانوا يشربون الحشيش كالعادة، ثم بطريقة عاديةٍ ونمطية، وكما يحدث للجميع، بدأت أَشرب معهم، لكني لم أُطِل في هذا الأمر، فبعد أسبوعٍ واحد اتصل بي أحدهم وقال لي أنه يريد حشيش، فقلت له أنه لم يتبق براتبي ما يكفي للشراء، فقال: اشترِ لي ما بما تيسَّر لديك من المال وسأعطيك قطعة بلا مقابل، استطعت التصرف وذهبت إليه بما يريد، لكن عندما قابلته حاوطتنا الشرطة من كل جانب.

اندهشت: أوقع بك!

- عندما اتصل بي كان مقبوضًا عليه أصلًا، وعرضت عليه الشرطة أن يوقع بشخصٍ آخر كي يُخفَّف عليه الحكم ربما.

تابع سالم: وهكذا عوقبت بخمسةَ عشرَ عامًا، لأن الحشيش لم يكن لي، عاملوني وكأنني مُروِّج أو موزع.

التفتت لعبد الشكور، فاعتدل فجأة وقال في حماسٍ عجيبٍ كأنه أمرٌ يفخر به:

- أما أنا فأشرب منذ فترة طويلة، ولديّ محل حلاقة صغير على أطراف العاصمة، ذات يوم جاءَني أحدهم وعرض عليّ أن يخبيء قِطعًا من الحشيش عندي بالمحل، على أن أعطي منها للراغبين، الذين أثق بهم فقط، هذا بالإضافة لمن سيرسلهم هو إليّ، وسيكون لي نسبة في كل ما يُباع، فوافقت واستمر الأمر بشكلٍ جيد لأسبوعين، حتى وشى بي أحدهم فقُبض عليّ وعوقبت بخمسة عشر عامًا أيضًا.

- وكم أمضيت منها؟

ضاقت عيناه في تفكير وهو يرتشف الشاي: تقريبًا إحدى عشرة سنة أو اثنتي عشرة..

- ألا تعرف إن كانت إحدى عشرة أم اثنتي عشرة؟! عبد الشكور! لقد كنت أعدُّ الأيام ها هنا.. بل الساعات والدقائق.

- لا.. لا.. اثنتي عشرة.. تذكرت.. يا زين أنا لست ملهوفًا على الخروج كما تظن.

- أحقًا؟! وكيف هذا؟ أولم تشتَّق لأهلك وأسرتك، لبيتك، لبلدك، وهل يطيق أحدٌ المكوث في هذا المكان؟

- هذا المكان الذي لا يعجبك هو جَنَّتي، الوضع هنا أفضل لي من الخارج مليون مرة، تخيَّل أنتَ، محل الحلاقة الذي كنت أديره كان يأتيني بخمسة عشر رأسًا يوميًا، وفي الأعياد عشرين، لكن هنا، انظر حولك، مائتي رأس وأكثر في هذا العنبر لي أنا فقط، كلها رهائن لمقصّات وأمواس عبد الشكور، ترتاحُ وتستكين تحت يدي عبد الشكور، ولا تُنادي إلَّا عبد الشكور، يا زين أنا هنا ملك.

وضع كوب الشاي مُضْفِيًا الأهمية على ما يقول:

- لا يستطيع أي سجين أَنْ يخرج لزيارةٍ، أو يذهب للمستشفى، دون أن يحلق رأسه كاملًا، فمن سيحلق له إن لم يكن أنا؟ وليس فقط في الزيارات والمستشفى، بل حتى في الأيام العادية يحلق الناس عمومًا، هذا يحلق ذقن وهذا شعر، هذا يُشَذِّبُ شَارِب وهذا يحفُّ لحية، بل إن هناك مِنْ أصحاب المزاج الرائق مَنْ يطلبون تشذيب ذقونهم وشعورهم بطرقٍ مُبتكرة، طمعًا في مظهرٍ أفضل، وأحيانا أغرب، وطبعا كل هذا بـ..

فرك سبابته وإبهامه معًا إشارةً للنقود..

- وكانت هذه قصة بيع عبد الشكور لحريته مقابل رؤوس الناس ولِحاها.

قلتها مُمازحًا فغمز بعينه: بل استبدلتها بما هو أثمن.

اقترب مني يبثني سِرَّه: عِمارة في لاهور عشرة طوابق، وسيارة مرسيدس موديل العام، وقريبًا محل حلاقة كبير بوسط العاصمة، حصاد سنوات من المكوث فيما يعتبره الكثيرون عفن، والله لم أقل لأحدٍ هذا من قبل، أربعون يوميًا.. نقدًا وعدًّا.. بل وأحيانًا خمسون، اِحسِبْهَا أنت.

تراجع للوراء وارتشف شايه في فخر: تستطيع أن تقول أني والحمد لله أَمَّنت حياتي ومستقبلي، أما الآن فأنا مسجون لأجل عيالي.

ضحكت عاليًا، وضحك عبد الشكور أيضًا، وكان ذلك حين انفرج باب العنبر، ودخل الشرطي ليُنادي على السجناء المُفرج عنهم، فبدأ بعضهم ينهض من فوره، لتنفض حلقات الوداع وتتلاطم الصدور عِناقًا وتقبيلًا.

وقفنا ثلاثتنا، أنا وسالم وعبد الشكور، احتضنت عبد الشكور وقبّلته، تأملني بحُب:

- انتبه لنفسك يا زين.. انتبه لنفسك يا أخي.
- وأنت أيضًا.. أَلْقَاك في الخارج على خير إن شاء الله.
- في الخارج ؟! هكذا أنت تدعو عليّ.

قالها وضحكنا مرةً أخرى، قبل أن يمضي لعمله مُلَبيًّا نداءات زبائنه، دَسَسْتُ في جيبي رسائلي لعائِشة ودواء الضغط الذي أعطاه لي الطبيب قبل أسابيع، بينما عاوَنني سالم على كبس الفرشة والأغطية التي سأقوم بتسليمها بالخارج.

- والله لن أنساك يا سالم، ولن أنسى ما فعلته لأجلي، سآتي لزيارتك.
- لا.. لا تأتِ إلى هنا مرةً أخرى.
- بل سآتي رغمًا عنك.
- ليس هذا مكانك كما كنت تقول دومًا.

تمشى معي حتى الباب ساكتًا، مُخْفِضًا رأسه أكثر كلما نظرت إليه، خَافِيًا مشروع دمعةٍ بَدَأَت تتجمع في عينيه، نودي اسمي، فالتفتُّ إليه، اخترقت وهنه وشددته إلي، عانقته عناقًا أودعته فيه كل فرحتي، فأودعني فيه كل وِحدته.

- اِعْتَنِ بنفسك يا سالم.

انسحب عني برفق، قبّلت رأسه: أوصل تحياتي لنصار وأبو محمد وعمّار، وإن رأيت فهد وجماعته أَقْرِأهُم مني السلام وأبشرهم بخروجي.

أومأ برأسه دون أن يتكلم، فخرجت مع الشرطي الذي قام بإغلاق الباب مرةً أخرى، فيما راح شرطيان آخران يقومان بتقييدي، ومن معي، بنفس الكيفية التي قُيِّدت بها يوم المحكمة، مشيت مع جمع الخارجين صفًا واحدًا وكان سالم لم يزل متشبثًا بالباب، تتابعني عيناه من خلال الثقوب الصغيرة.

أَمْضَيْتُ ليلةً أخرى كاملةً في سجنٍ آخر يبعدُ بِضْعَة كيلومترات عن السجنِ المركزيّ يُسَمّي سجن العَبَادِلة، مدرسةٌ قديمة أصبحت تحت إشراف وإدارةِ وزارة الداخلية منذ سنوات، قبل أن تطُوَّق مبانيها، وتُعلي أسوارها، وتُمَدُّ أسيجةٌ من حديد لتُغْلِقَ منافذ الأدوار والسلالم والفصول فتبدو للناظر من بعيد وكأنها صندوقٌ كبيرٌ مُصَفَّح.

لَمْ يحدُثْ في تلك الليلة شيءٌ ذو بال، إلَّا أنه فقط سُمِحَ لكل سجينٍ وقت المساء بإجراءِ اتصالٍ هاتفي يستقدم فيه، إن شاء، أحدًا من ذويه ساعة الإفراج.

حين اتَّصلت بعمرو وأبلغته الخبر سمعت سكوت صدمته، غَابَتْ حروفه بين أنفاسٍ مُتلاحقةٍ تستنطقني الخبر تيقنًا، بجوارهِ سمعت بكاء أمي وهي تحاول خطف السمَّاعة منه، لم أفهم إلَّا قليلًا من كلامها الذي وصلني مبتورًا من نشيجٍ لم يَكِلْ، وسط الخربطة أمليتها عنوان السجن وموعد الخروج، وكان هذا قبل أن تنتهي الدقائق المسموح لي بها ليأخذ الشرطي مني سماعة التليفون ويُناولها لمن بعدي.

في صباحِ اليوم التالي تجمَّعَ السجناءُ كلهم في حَوْش السجن، وكُنَّا تقريبًا مائة، اصطففنا في عدَّةِ صُفُوفٍ مُتوازية ثم نُودي على أسمائنا واحدًا واحد. قال لي العسكري وهو يناولني بطاقةً مكتوبٌ فيها اسمي ورقمي المدني ومُعَنْوَنة باسم (الرعاية اللاحقة):

- زين الدين أحمد الشُهيبي، أنت لم تزل بعدُ سجينًا، تَبَقَّتْ لكَ أربع سنوات حتى تنتهي عقوبتك، لديك ثلاثة أيام تبيت فيها بمنزلك، تبدأ من الآن، أما في اليوم الرابع الساعة الثامنة صباحًا بالضبط ستقوم بتسليم نفسك إلى (إدارة شؤون السجناء – "الرعاية اللاحقة")، وعنوانها (....)، وتظل على هذا الحال حتى ينتهي حُكمك، إنْ تَخلَّفت يومًا واحدًا ستعود لتمضي بقية عقوبتك في السجن، وإن حاولت الهرب ستزيد مُدَّةُ عقوبتك وستعود بعدها أيضًا للسجن، لا غياب.. لا تأخير.. لا أعذار.. مفهوم ؟!

تناولت البطاقة بفرحةٍ مخذولة: حاضر.. حاضر.. كل ما تريدونه سأفعله.

حِينَ فُتِحَ بابُ المدرسةِ خَرَجَ السجناءُ جَرْيًا إلى الأهالي المُتلهفين بالخارج، يتخاطَفُونهم بالأحضانِ والقُبلات وبصيحات الفرح التي كانت تُدويّ كفرقعاتٍ مُفاجِئَةٌ. وسط المعمعةِ جَرَفَني التيارُ المندفعُ الذيّ اِنْفَصَمَتْ أجزاؤه وَاحِدًا تلو آخَرْ لاتجاهٍ واحد أبحث فيه بعينيّ عن عمرو، لمحته فانتضفت هاتفًا باسمه ولكن صَوْتِي ضَاعَ وَسْطَ صراخ وبكاء من حولي، وكان هو قد لمحني عدَّةَ مراتٍ ولكنه لم يتوقف عندي وظلَّ يبحثُ في لهفة، فعرفت إلى أي مدى تبدل شكلي وتغيَّرت ملامحي، شببت من بين الأجساد المتلاحمة مُلَوِّحًا بذراعيّ ومُعْليًا صوتي، حين انتبه دَقَّق فِيّ لوهلةٍ، قبل أن ينفكَّ تقطيبُ حاجبيه وتهلل أساريره وهو يخترق من فوره الجموع التي اخترقتها بدوري، حتى التقى صدرينا عناقًا.

- زين.. زين.. حمدًا لله على سلامتك.. حمدًا لله على سلامتك..

ضممته أكثر: أوحشتني كثيرًا يا عمرو.. أوحشتموني كلكم.

- والله لم أكن أصدق حين هاتفتنا.. لم أصدق حتى وأنا أبحث عنك.. ستأتي معي للمنزل أليس كذلك؟.. لن تعود للداخل.

- لا لا لن أعود، أنا معك إلى المنزل.. أين أمي؟

- بالمنزل.. تنتظرك.

- لِمَ لَمْ تأتِ معك إذن؟.. اصدُقني القول.. أهي بخير؟

- والله بخير.. ستراها الآن.. لكنها طَبَعًا لم تنم منذ البارحة.. تعال تعال.. هي في انتظارك.

جذبني وتَمَشَيْنا قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ نستوقف سيارةَ أُجرة، استقليناها وركبتُ بالخلف بينما رَكِبَ هو بجوار السائق الذي أبعدنا عن المكان كُليًا.

في مرآةِ السيارةِ الجانبيةِ جَعَلَ عمرو ينظرُ لي نَظَراتٍ شُبِّعت بالحنين والشوق وإِنْ لَمْ تَفْلَحْ في إِخْفَاءِ كثيرٍ مِنْ الوَجَعِ والتأثر بشكلي وهيئتي، يُحملق فِيّ خلسةً وكأنَّه يتفحص غريبًا عنه، وعندما اقْتَنِصُه تَسْرقُني ابتسامته، كنت أعلم أنه يودُّ لو يتكلم ويحكي، لولا أن قيَّده المكان ووجود السائق، فاسْتَعَاضَ

عن ذلك بأن كان يسألني كل بضع دقائق إن كنت بخير، وأجلس مرتاحًا بلا ضيق، فأُطمئنه وأسأله مرةً أخرى عن أحواله ودراسته وحياته، أسأله في العموم، فيردُّ بالعموم، ولا نملك خصوصيةً أكثر من العموم، حتى تدَخَّل السائق فانتشل عمرو إلى شأنٍ بدا أن الناس تتحاكي بهِ هذه الأيام.

ويبدو أن رُوُحَ السجن كانت تتلبسني في الدقائق الأولى، إذ وجدتني أجْلِسُ في مُنتصفِ المقعد تمامًا، مُشِيحًا بوجهي إذا ما بالغت إحدى السيارات في الاقتراب، حين قَنعتُ بأني لست بملابس السجن، وبلا قيود، وأنني في سيارةِ أُجْرة وليست شرطة، جَرْجَرْتُ جسدي مَلْهُوفًا بطولِ المقعد وفتحت الشباك إلى آخره، قَبْلَ أنْ أمُدَّ عُنقى للخارجِ جَاعِلًا هَواءَ الشارعِ المقذوف يَخْبِطُ رأسي ليبعجَ وجنتيَّ وأذنيَّ في تلذُّذِ طفلٍ سَمَح له أبواه أن يطل من الشباك بعدَ عِنَاد، وفيما انْزَلَقَ عمرو لحديثهِ مع السائق، رُحتُ أَنْهَلُ من المشاهد التي تمر بها السيارة نهلًا، الأبنية، الأرصفة، الشوارع المترامية بسخاء، السماء والسُحب الهادئة، وكان أكثر ما أوحشني فجعلت أنظرُ وأُمْلي عيناي منه - وهو ما أدهشني - هم الناس أنفسهم؛ الآدميون بملامحهم الطيبة المُسالمة، الوُجُوه الحُرَّة التي لا تحمل انكسارًا أو افتراءً، والأعينُ التي لم يخبرها الجرمُ ولا البؤسُ ولا الشَقَاء، الأجساد العادية؛ لا تلك التي بالغة الفتوة ولا التي دَكَّها الهزال، أنظر للضاحكين فابتسم عفوًا وإن لم أكن أعرف علام يضحكون، وكأني وجدت ضحكةً كانت تشبهني يومًا، أو روحًا تألفها الروح، أنظر للأُسر، للأطفال، للسيدات، للمتاجر، لمحلات الحلوى والآيس كريم، مُتَأَمِّلًا كل ذلك بشبقِ الذي خرج لتوِّهِ من الغابة إلى الحَضَر، أو من كهفٍ جبليٍّ بعيد إلى مدينةٍ شديدة الحداثة، تتسارعُ عيناي في ذلك كله شغفًا ولهفةً وكأني لا أريد لأي مشهدٍ أن يمر دون أن ألتقط مفرداته، ألمح انعكاسي على المرآة فيصافحني وجهي مُبتسمًا ابتسامةَ طفلٍ ألقوه في متجرٍ للألعاب، أو جائعٍ أُولِم وليمة العُمر.

"وما هو رأيك يا أستاذ، شاركنا، هل تؤيدني أم تؤيد أخيك؟!".

قالها السائق وهو يتربص بي في مرآته الداخلية مُنتظرًا ردي الذي ربما كان سيحسم جدلًا بدأه مع عمرو الذي ضحك بدبلوماسية وامتصَّ السؤال بإجابةٍ لم أفهم منها شيئًا، ولكنها أراحت السائق الذي أحسَّ بنشوةِ الانتصار.

وصلنا. ناول عمرو السائق أجرته مُثنيًا على ثقافة وإطلاعه، ثمَّ ترجلنا..

عند الباب أخرج عمرو المفتاح ودسَّه بالقفل، فقبضت على كفِّه هامِسًا: لم يعرف أحدٌ بأيِّ شيء، أليس كذلك؟!

- أبدًا يا زين.. أبدًا.. ولا أي مخلوق.. أنت كنت في سفر.. اِطْمئن.

دخل قبلي وغَابَ لِثَوَانٍ قبلَ أنْ يعود مُشِيرًا لِي بالدخول، دَلَفتُ خطوتين ثم أغلقتُ البابَ خلفي بهدوء، تسمَّرت حين طالعتني الصالة بأرائِكها وطاولاتها وجَنَبَاتِها بفضولِ الغياب، فصافحتها مَكْلُومًا بشوقِ الوَحْشة. تمشيت مأخوذًا وأنا أتحسس الحوائط وأفرك نتوءاتِها، أقبضُ على الكراسي والأرائِك وأُدَاعِبُ عروقها وانْبعاجاتِها وكأنِّي بخفيِّ التفاصيلِ أتأكَّدُ أني فعلا بمنزلي ولا أحلم. دَاهمَتْني دوخةٌ جعلت رأسي يلفُّ شيئًا، حتى بدا للحظةٍ وكأنِّي في حُلمٍ ضَبَابي، يدُّ عمرو لم تتوقف عن الإشارةِ لي وهو يتجه ناحيةَ السُلَّم المُفْضي إلى الدَوْرَين العلويين، فتبعته مَسْحُورًا يسبقنى إلى أعلى، اِقتادني في الطرقةِ بحذرٍ قبل أن يتوقف أمام غُرفةِ الجلوس، ثم وكأنه أمام أمرٍ جلل، استجمع أنفاسه وتمَهل لثوانٍ، قبل أن يفتح لي قَدْرًا يسيرًا من الباب حين أَبْصَرْتُ قدمين! قَدَمَا أمي! تتَكِئَان على وساداتٍ اسفنجية، مَنَحتها علوًا ما، التفتُّ إلى عمرو مُتَسَائِلًا فأجابتني دمعةٌ تلألأت بعينيه، تَمهلتُّ شيئًا قبل أن أُزيحَ البابَ أكثر لأرى باقي جسدها - أمي - مُمَدَّدًا على الأريكة، راكِزةً ظهرها بالوسائد والحشايا، ما بدا أنَّه صَارَ لَهَا وضعُ جلوسٍ لا يقبل التفاوض، حين أبصرتني سَرَت بجسدِها رعدة، بدا وكأنَّها كانت ستجهشُ بالبكاء، بدا وكأنها ستبدأُ بالصراخ، بدا وكأنَّها كانت ستهبُّ مُفْرِغَةً شحناتِ الوحشةِ والشوق، ولكن حِينَ راعتها هيئتي تلبستها صدمةٌ حَبَسَتْ كُلَّ المشاعر، هكذا تجَمَّعَت الدموع في عينيها دونَ أنْ تَسْقُط، عَضَّت على شفتيها أَسَفًا دُونَ أنْ تَصْرُخ، أجرت في هيئتي طُولًا وعرضًا فيما اختلجت ملامحها في حزنٍ وانكسار أن ماذا فعلتم بولدي؟ ما بال ظهره محنيٌّ تعبًا ووجنتيه شاحبتين ذبولًا؟ ما بال عينيه غائرتين هكذا؟ وما بال الدموع قد خطَّت زوائِدها على وجهه؟ وكيف نحلَ عوده حتَّى أمْسى جِلدُه لحاءً لعظمه؟!

جَرَيتُ لأهوى مُنْكفيًا في حُضْنِها فانغلَقَ عليَّ ذراعيها اعتصارًا، ضمتني فضممتها أكثر، طَوَّقتني فطوقتها أكثر وأكثر، اِلْتحَمَ صدري بصدرها حتى دقَّ قلبها في قلبي فبدا قَلْبَانَا باضطرابها وكأنَّها يحكيان بالخَفْقِ

ما فَاتَهُا من غيابِ عامٍ خَلا أو يزيد، تَأَوَّهَتْ في حُرْقَةٍ لتُفرز عيناها قطارين من الدموعِ وهي تتحسس ظهري بحرقةٍ أن آهٍ يا زين.. زين.. زين.. الحمد لله.. شكرًا لك يا رب.. حمدًا لك يا رب، فجعلت أُهَدْهِدُ ظهرها أن اهدئي واطمئني، فلقد انتهى كل شيء، وها أنا ذا بين يديك. جثوت على ركبتيَّ مُقبِّلًا كَفَّيْهَا فقبَّلت هي رأسِي المُترَّس بالمسامير، رَفَعت وجهي لترى كيف سَلَبَني السجنُ عَامًا فتأملتُ قَسَمَاتِها لأرى كيف زادها عشرين، أخاديدَ كثيرة في وجهها لم تكن، وشعرٌ راح يناكف بياضه سواده، وعينان مَائِيَّتَان من كثرة البكاء زادهما كِيسان دُهنيان تجمعا أسفلهما ارتخاءً وذبولًا..

من ورائنا كان عمرو يحاول حبس دموعه، وهو ينظر لخارج الغرفة كل عدة ثوانٍ ليتأكد أنه لا أحد قادم أو يسمعنا.

انكبَّت أمي على الأرض سجودًا وانبرت تشكر حتى تحشرج صوتها فساعدتها وعمرو على القيام وأرحناها إلى الأريكة مرةً أخرى.

- لقد وعدتِني بألَّا تبكي. قالها عمرو وهو يعيد قدميها إلى وضعهما فوق الوسائد.
- وهل بكيت بعد؟! وهل بكيت؟

رُحت أمسح سيل عينيها: ها أنا معك يا أمي.. لن أذهب إلى أي مكان.. أنا معك.

احْتَدَّت: لن يأخذوك.. أتفهم؟!.. لن يأخذوك مرةً أخرى.. وإن اقترب أحدٌ من هنا فسأقف له بالمرصاد.. أنا من سأقف لهؤلاء.. وشأنهم سيكون معي من تلك اللحظة.

ابتسمت مُراضِيًا: لن يفعلوا.. ولن يقتربوا.

- لن تخرج من المنزل، أتفهم؟! ولن تذهب إلى أيِّ مكانٍ دوني.
- حسنا سأفعل.

احتضنتني مرةً أخرى ثُمَّ انسحبت لتتأمل عينيَّ لثوانٍ، احتضنتني ثانيةً ثُمَّ تأملت جبهتي ووجنتيّ، كررتها عدة مراتٍ وكأنَّها تَفي كلَّ قَسَمةٍ قَدْرَها من الوحشة والشوق، في المرة الأخيرة تَوَقَفَتْ، دقَّقت أكثر في جفنيّ السوداوين وكتفيّ المدببيّن وعظم وجهي البارز، بتركيزٍ هذه المرةِ وبأعينٍ رائقةٍ بلا دموع.

- زين!
- ماذا يا حبيبتي؟
- ألم تكن تأكل هناك؟!

ضحك عمرو، وضحكت من بين دموعي.

***

بالدورِ السفليّ جلستُ إلى مائدة الطعام وجلستْ أمي بجواري بعد أن وضعت بين يديّ طبقًا قد أعدته قبيل قدومي من الأرز واللحم والخضار، حجمه يكاد يكون ضعف الحجم الطبيعي الذي تَعَوَّدتُّ عليه قبل أشهر طويلةٍ من اليوم، بجواره أطباق أخرى من المشوي والمقلي والمحمَّر. كانت أمي مُلْتصقةً بي متأهبةً لأي طلبٍ أطلبه، تنتفض مع كل التفاتةٍ ألتفتها محاولةً التنبؤ بما قد أريده حتى لو كانت التفاتتي عفوية لا أكثر: "ها!.. ماء يا زين.. تريد ماء".. كوبٌ من الماء يُوضَع أمامي في لحظة بعد أن عبَّأته من زجاجة.. "ها؟ خبز!.. ذُق هذا الخبز.. إنه خبز اليوم الطازج، كل برويّة، لا شيء وراءَنا"، تقولها وهي تحاصرني بسلة الخبز وأطباق السلطات والمُقبِّلات، ثم عندما هُيِءَ لها أنه ليس هناك ما تُقدمه مكثت تتأملني وتُبحِرُ في كل شبرٍ فيّ، تجدُ في مراقبة تلك الرحلة القصيرة للملعقة بين الطبقِ وفمي متعةً لا تضاهيها متعة، الطعام الساخن يمرق من فمي إلى معدتي ليُدَغدغ في رحلته جهازي الهضمي الذي تحول بطعام السجن إلى مَقْلَب قمامة، أربت على يديها - أمي - وأُقَبِلُهُما فَتُقَبلُ كتفي ورأسي. دقائق واختفت من جواري، غطست في الأرض ساجِدةً، فتركت الطعام وانكببت فوق جسدها محتضنًا، محتويًا بكاءها ومقاومًا بكائي، أعنتها على الجلوس، كَفْكَفْتُ دموعها، فيما استسلمت عيناها لجنباتِ المنزل تستجلبُ الذكرى:

- في كلِّ صباحٍ يا زين.. والله في كل صباح.. قبل أن أصلي وقبل حتى أن أغسل وجهي، كنت أُسْرِعِ لغرفتك يتواثب قلبي، أقول ربما! ربما يكون قد جاء وأنا نائمةٌ مثلًا، أهمسُ لعمرو: ألم يأتِ زين بعد؟ هل ربما يكون قد جَاءَ مثلًا وخَرَجَ؟ أقطعُ الأدوار كلها في اليوم عِدَّة مرات، خافيةً لوعتي وتعبي عن الكُل، أقف في الشرفةِ بالساعات وعيناي لا تُفارقان مدخل شارع، وما أن أسمع وسوسة المفتاح في الباب حتى أنْتَبه وأقول ربما.. يا رب.. يا رب..

احتضنتها أكثر، واِحْتَويت رأسها، أَرْدَفَتْ:

- أكثر ما استغربته أنه طوال كل تلك الأشهر لم يكن في ذهني سوى صورتك وأنت ذا أربع وخمس سنوات، تحاول المشي وتتعثر وتُثأثِيء في الكلام، وليس وأنت شابٌ فتيٌ قوي، ولو كنت شابًا لقلت يستطيع الاعتماد على نفسه، لكنهم سرقوك مني في لحظة، سرقوا طفلي، وحتى الآن لم أجد تفسيرًا لهذا الأمر بالذات..

سَكَتَتْ ويبدو أنه قد ساءَها أن حَكَتْ وأني قد توقفت عن الأكل، فتسلل ذراعها خِلسةً ليجذب طبق الأرز ناحيتي، فَأَوقفت الطبق في منتصف المسافة بيدي، أعدت ذراعها إلى مكانه ثم ضغطت على رأسها ليبيت في جوف حضني أكثر وأكثر.

***

أمضيت رُبَّما ساعة أو أكثر أسفل الدُش، أفرك جلدي وأهرس لحمي وأعزق كل أجزاء وحقوق وتجاويف جسدي بالليف والصابون، وكأني بالفركِ والهرسِ استبدل بجلدي جلدًا آخر، ناسِفًا كُلَّ تلك الأنسجةِ التي تَسَمَّمَت في السجنِ باللمسِ والشمِّ والتذوق، حين كستني رغوة الصابون وحجبتني عن نفسي، فأغمضت عينيَّ واستسلمت لرذاذِ الدُش الصاروخي الذي اخترق الجلد والمسام، ليبث الحياة في كل خليةٍ من جديد.

ساعات أخرى من الدَّعَةِ والخمول أَمضيتها بعد الاستحمامِ تَتَالَت عليّ فيها المخبوزاتُ والفطائرُ وفاكهةٌ زيَّنت شرائحُها الأطباق بطريقة لن يُقْبَلُ معها رفضٌ أو إعراض والمطلوب: "أنهِ كل هذا بأسرع وقتٍ ليأتيك غيره"، رحلات مكوكية لأمي من الصالة للمطبخ والعكس، تذهب بأطباقٍ لتعود بأخرى، لم تفلح محاولاتي لجعلها ترتاح، سألتها عن الخادمتين، فقالت أن واحدةً عادت لبلدها لتزويج ابنتها، والثانية كبرت في السن ولم تعد تقدر على العمل وستحل محلها أخرى بعد أيام. أمَّا عمرو فقد نزل وصعد في تلك الساعات عِدَّةَ مراتٍ لجلب مُسْتَلْزَمَاتِ دلال الأيام القادمة، حتى أنه مازح أمي في إحدى المرات أن هل كان يجب أن يغيبَ عنها عامًا لينالَ ما نِلتُهُ أنا من الدلال! فكانت تلطمه مُدَاعِبة أن بُعْدًا للشر وكُفَّ لسانك عن هذا الكلام.

عندما حَلَّ المساءُ تجاذبتُ أطرافَ الحديثِ مع أمي، سألتها فيه عن حال البيت وإخوتي والناس، قبل أن يسحبنا الكلام لأسألها أوَّل سؤالٍ في قائمة حيرتي: ماذا حدث في غيابي وماذا قال الناس؟

أخبرتني أنه رغم قسوة وصدمة ما حصل إلَّا أنها وعمرو قد استوعبا الأمر وتثبَّتا أمام الكل، فلم يُشَكِّكْ أحدٌ -كما تردف أمي- بسفري المُفاجيء والمُزمَع قبيل الزفاف، لكن الإخوة والأهل والأقارب تَعَجَّبُوا وانتقدوا وهاجموا أيضًا، لكن أمي كالت لهم التبريرات والحجج بعد أن درأت اتهاماتهم بأن زين نفسه لم يكُ يعلم قبلها، ولم يملك حتى حق الاعتراض أو تأجيل السفر، ثم ما هي إلَّا أيام حتى سلَّم الكلُّ بالحُجة والتهى كلٌ فيما يفعله.

- وعائِشة يا أمي!
- عائِشة!

خرجت منها باهتةً وكأنها لم تلفظها منذ زمن.

- أعني ألم تتصلي بها أو بأمها أو بأحدٍ من أهلها طوال هذه الفترة؟ أو يتصلوا بك؟ ألَا تعرفين أخبارهم؟ أو كيف هم الآن؟
- آخر اتصالٍ بيننا وبينهم كان يوم اختفائِك عندما هاتفتهم لأسأل عن سبب غيابك، فلم يُعْطِني أحدٌ منهم جوابًا شافيًا.. من بعدها لم أتصل بأحد.

تقولها أمي وهي تُوليني ظهرها متوجهةً للمطبخ وكأنها لا تُرحب أن تُرِيني ملامحها التي تغيرت بذكر عائِشة وأهلها، أسرعت ورائها:

- ألم يتصلوا هم بكم؟ ألم يحدث حتى أي تواصلٍ من أيِّ نوعٍ طوال هذه الفترة! ألم يلتقِ عمرو برائد مثلًا؟ ألم تلتقِ أنتِ بعائِشة أو بأمها ولو مصادفة؟ معقول؟
- لا أذكر أن شيئًا كهذا قد حدث.
- ألا تعرفين حتى ما أخبارهم الآن؟
- لا والله.

كلماتها! حبلٌ يلتفُّ واثقًا حول رقبتي..

- وماذا عن داليا إذن؟ أعني أن داليا كانت أقرب الصديقات لعائِشة، ألم تحاول أن تهاتفها مثلًا أو تلتقيها؟ أعتقد أن داليا ليست من النوع الذي يُسلِّم بالأمرِ الواقعِ هكذا.

- أعتقد أنها هاتفت عائِشة مَرَّةً أو مرتين، ولكن لا أظن أنها تَلَقَّتْ رَدًّا أيضًا.

- أتعملين يا حبيبتي؟ لأن الهاتف لم يكن هو الحل الأمثل، وهم معذورون في كلِّ ردودِ فِعْلِهم، الهواتف ليست على مستوى ذلك الحدث، كان من الأَوْلى أن تكون هناك زيارة إلى منزلهم، لنوضح فقط أن ما حصل كان خارج إرادة الكُل، وأنَّ الْتِبَاسًا ما حصل بشأني وهو في طريقه للحل، فلا يبدو وكأنَّنا نَتَهَرَّبْ منهم، أونتحاشى الكلام لئلَّا نسمع ما لا نحب، فتتثبت التهم والأقاويل.

- وغلائِك يا زين منذ اختفيت وأنا لا أدري أيَّ شيءٍ عن أيِّ مخلوق، ولم يكن بي وسعٌ للطَبْطَبةِ والترضية والتحايل، كان همي الأوحد هو أنت، وفي اليوم الذي غِبْت فيه اتصلت برائد وبكل أصحابك عشرات المرات ولم أتلقَّ جوابًا شافيًا، لولا أنْ شرطيًا اتصل بي وأخبرني بما حصل.

- شرطي!

- قال أنه من تنفيذ الأحكام، اتصل بعمرو في اليوم الثاني لغيابك.

- نعم نعم تذكرت، لقد كان هو الوحيد الذي تَرَفَّق بحالي هناك وقال أنه سيتصل بكم، ما ظننته سيفعل.

- بل فعل وأخبرنا بكل ما حصل وحتى اقتادوك للسجن، كان يظن أنه يُشفي قلقي لكنه زاده أكيالًا، لكن ليَجْزِهِ الله خيرًا على كل حال.

- ولكن.. هذا يعني أنك تعلمين أني في السجن منذ اليوم الأول، وليس عندما اتصلت بك بعد نحو أسبوعين أو ثلاثة!

- نعم كنت أعلم، وعندما أخبرني الشرطيُّ بذلكُ لم أصدق، كنت أظنها مزحةٌ سخيفةٌ من أحدهم، لكن لم يكن أمامي إلَّا التأكد بعد أن نَفِدَت حيلي ومزَّقني القلق، فذهبت وعمرو إلى السجنِ في نفس اليوم ليلًا..

- تقولين ذهبتِ إلى السجن ليلًا!

- لم أَطِقْ صبرًا حتى الصباح، فذهبنا ومَرَرْنا بِعِدَّةِ نِقَاط تفتيشٍ حتى وصلنا، كان الوقت متأخرًا والمكان كله كان مُخيفًا ومُرْعِبًا، دَخَلَ عمرو ليسأل وانتظرته بالسيارة، ما أنْ عَادَ حتَّى قرأتُ الخبرَ على وجهه، أخبرني بأن كلام الشرطيّ كله صحيح، وأنَّكَ فِعلًا مُسجلٌ بكشفِ الدخولِ لهذا اليوم، كاد يُغمى عليّ والتعت: لم؟ وكيف؟ ولماذا؟ هممت بالنزول من السيارة لأسأل عن سببِ احتجازهم لك فمنعني عمرو وأخبرني بأنه مثلي أَلحَّ ليعرف السبب، بل وكان يريد إِذْنًا لنراك، لكنهم نهروه بشدة، وأمروه بأن يرحل بالسيارة عن المكان فورًا وإلَّا سيقومون بحبسه، عندها فقط طلبت منه الانصراف بسرعة، لأني خشيت أن يأخذوه كما أخذوك، فلم أكن أفهم ماذا يحدث بالضبط! وظَللت طُوَال الأيام أفكر أن كيف أصل إليك، مُتحاشيةً سؤال الناس حتى لا أثير الشكوك، حتى اتصلت أنت بعد أسابيع وعرفت بأنه يُمْكِننا زيارتك.

كنت أسمع كلامها بضيقٍ وأسى حتى انتشلتني من وجومي ابتسامةٌ زَهَتْ بوجهها:

- زين يا حبيبي، دعك من كل هذا، المهم أنك معنا الآن، من اليوم اهتم بنفسك وبمصلحتك، لقد تحدثت مع أحدهم، وهو محامٍ ذائع الصيت، نشطٌ وأمين، سنقوم بتوكيله ليتولى الأمر، قال أنه سيطَّلع على كل الملفات والأوراق التي تخص قضيتك، سيتتبع الخيط من البداية ليجد مكمن الخطأ، وأنا واثقةٌ أنه سيفعل، فتعود من بعدها لحياتك وعملك، وليُقَدِّرُ الله الخيرَ لعائِشة وأهلها حيث كانوا.

***

حين نَامَتْ أمي في العاشرة مساءً بعد أطول يوم في تاريخها، وكان عمرو قد خرج مع رِفَاقِه، قفزت في ملابسي على الفورِ وركبت السيارة متوجهًا إلى بيتِ عائِشة.

الثلاثون دقيقة التي كنت أقطعها بالسيارة قبل عامٍ فرحًا، صرت أقطعها همًّا وقلقًا، وقلبي الذي كان يدق لهفةً واشتياقًا صار يضرب أجنابي اضطرابًا وخوفًا.

حين لاح المنزل من بعيد زادت خفقاتُ صدري وكأن حبيسًا يضربه بألف مطرقة، إذْ كنت أشعر في أية لحظة، ومن حيث لا أعلم، بأن الأرض ستنشقُّ عن واحدٍ من أهل عائِشة، أو إخوتها، أو خدمُ وسعاة بيتها، لهذا أوقفت السيارة في مكانٍ بعيدٍ نسبيًا بحيث لا يمكن لمن بمحيط بيتها أَنْ يلْمَحْني، ولكنه يسمح لي بأن أكشف شباكها واضحًا..

الشباك!..

يا الله! من يصدق أن عامًا قد مضى.. وكأني كنت هنا منذ بضع ساعاتٍ فقط..

أطفأت المُحرك والأنوار وطفقت وأنا بمقعدي أرنو إلى الشباك المُغلق، لتتصاعد من ذاكرتي عشراتٌ من أحاديثِ وضحكات الأمس، مشفوعةً بمشاعرَ كانت مدفونة تحت ركامٍ من الهَم والحزن، لأجد قلبي وحده يخفق بنفس اللحنِ الذي تعوَّد عليه قبل عامٍ من الآن، خفقٌ كان أشبه بالأنين، واهنٌ كسيارة قديمة يقرقرُ موتورها فور تشغيلها، خفقٌ على رَهَقِهِ كنت استعذبه، بل وأغذي متعته ووخْزِه بكلماتٍ وضحكاتٍ ومناجياتٍ وذكرياتٍ رُحْت استجلبها من العقل جلبًا، لتخرج كما الأحياء من تحت هَدِّ البيوت والأنقاض، هم يخرجون بكثيرٍ من الجراح والإصابات، ولكنهم - وهو الأهم - لا زالوا أحياء..

كنت أنتظر في لهفةٍ أن يُفْتَحُ الشباك ولو شبرًا واحدًا، أو أن ألمح من وراء خصاصهِ ولو أقل حركة، فيُبعثُ فِيّ الأمل ولو كان شحيحًا أنها هناك.. تحيا وتتنفس.. وسَأَقْنَعُ بهذا لذلك اليوم، لأعود في اليوم التالي بطمعٍ أكبر، وشجاعةٍ أَمْضى.

ولكن ساعة قَدْ مرَّت، ثم اثنتان وثلاث، عدَّلت من وضعي عشرات المرات تلْيِّينًا لعظامٍ يَبَّسها الجلوس، وفي ذلك كله لم تترك عيناي الشباك للحظة، أُضيء نور الغرفة فجأة، فاعتدلت بسرعة وتهيَّأت أن ينفتح الشباك بين لحظة وأخرى، لكن النور مكث لثوانٍ ثم أُغلق مرةً أخرى، فيما ظلَّ الشباك نفسه موصدًا.

لو فُتحت لي طاقةٌ من الغيب قبلَ عامٍ من الآن ما أَنْكرتُ كلَّ ما حدث لي على غرابته، لكن ما صدَّقْت أن هذا ما سيؤول إليه حالي مع عائِشة بالذات بعد كل ما كان بيننا، وأني سأكون هكذا وحيدًا في سيارتي بظلام الليل، مُنكمشٌ على نفسي، مقاومٌ ارتخاءات عينين كرهتا صمودي، في انتظارها - عائِشة - لأنعم برؤيتها ولو حتى لثوانٍ.

الساعة الثانية بعد منتصف الليل..

أين أنتِ يا عائِشة الآن؟! في تلك اللحظة بالذات؟ مستيقظةٌ!.. نائمةٌ!.. تُشاهدين التلفاز!.. ماذا لو فتحتِ الشباكَ شبرًا واحدًا!.. واحدًا فقط!.. فأنا هنا والله.. أنتظرك.. كعهدي دائمًا.

- ٣٠ -

مَضَتْ الأيامُ الثلاثةُ التي سمحت لي بها إدارة السجن في لمحِ البصر..

لم أستطع أن أَعْرِفْ خلالها أيَّ شيءٍ عن عائِشة، أو أهلها، فقط تيقنتُّ من سياراتهم أنهم لا زالوا بالمنزل ولم يُغادروه كما ظننت..

فِي الساعةِ الثامنة من صباحِ اليوم الرابع قُمْتُ بتسليمِ نَفْسي إلى "الرعاية اللاحقة"؛ بيتٌ قديم ذا أدوارٍ ثلاثة، اِستأجرته وزارة الداخلية منذ بضعة أعوام، جُعِلَتْ غُرَفُه مكاتب للضباط وصالاته استراحات للعساكر، أما الحديقة الملحقة به والمعشوشبة بهيشات الحشيش المتناثرة هنا وهناك فكانت ساحةً يعيشُ فيها مائة سجين جيئةً وذهابًا، يمشون، يتجالسون، يتقاطَعُون أثناء المشي وهم مُطْرِقُون رؤوسهم في الأرض، وكأنَّهم يؤدون عرضًا جماعيًا صامتًا.

ونتيجةً للهدوء النسبي للمكان كانت أقل الأصواتِ تُلْفِتنا وتَجْذِبُ اِنْتِبَاهَنا، طائرةٌ في السماءِ ترتفعُ لها الأعناق، هسيس أشخاص في الخارج، صوت سيارات تقترب وتبتعد، إذ لم تَكْفِنا الأيام الثلاثة التي قضيناها خارج السجن لنشبع من مفردات الحياة التي غيَّبتها حوائط العنبر، على أن الطفرة الحاصلة في هذا كله كانت الشمس، ضَوء النهارِ الذي تركناه يغمرنا ويحرق جلودنا عن طيب خاطر، بعد أن كُنَّا في عنبرٍ يختلط صباحه بمسائِه حيث لا بصيص لأيِّ ضوء، عبَّقنا أنوفنا أيضا برائحةِ الهواء من شتى النكهات، بدخان الشوارع مرة، وبشواءٍ قادم من إحدى نوَّافذ البيوت المحيطة مرة، وبعوادم السيارات مرة، وبالملل مرات، وأيضًا عن طيب خاطر، بعد أن كانت رائحة العطن هي الراعي الرسمي لجهازنا التنفسي الذي ذَبُلَ ودُمِّر نهائيًا.

سبعُ ساعاتٍ أقضيها من الثامنة وحتى الثالثة عصرًا حيث السكوت والملل هما عنوان المشهد، وحيث الكلُّ منشغلٌ بما هو منشغلٌ به.

بانتهاءِ فترةِ "الرعاية" كنت أعودُ للمنزل، وأُمضي بعض الوقت في النوم والغداء والكلام مع عمرو وأمي، ثم أحضر بعدها في مسجدٍ يجتمع فيه التائبون ليتلقوا دروسًا في الأخلاق والدين والقرآن. في العَشِّى - وهو الوقت الذي أكون فيه حُرًّا تقريبًا - استقل السيارة ذهابًا إلى بيت عائِشة، لأمكث هناك بضع ساعاتٍ أخرى أنتظر فيها ظهورها؛ خروجها من المنزل، أو عودتها إليه، أو لشباكها أن يُفتح، ثم بعد منتصف الليل بساعةٍ أو اثنتين أقفل عائدًا بالخيبة، لأنام بضع ساعاتٍ أخرى، أو أتوهم النوم، حتى موعد "الرعاية اللاحقة"، وهكذا دواليك.

بتكرارِ الخيباتِ، وبِخِذْلانِ العودةِ، بدأت أشعر مع الأيام بنَكْتٍ في قلبي، إبرٌ حادة تقضُّ راحتي ليل نهار، شرودٌ أثناء الصحوِ والنومِ وما بينهما، وكأني استنكف أن تمر الأيام هكذا وأنا عاجزٌ عن إيجاد طريقة للوصول إليها - عائِشة. يهتاجُ صدري بمضيِّ الوقت بالشوق لرؤيتها، وكأنَّ القلب يَنْجلي معَ الأيامَ فأستعيد المشاعر طازجةً كما كانت، ويذوبُ الجليدُ عَنْ هُمومِي فألقى الحبَّ يدغدغ بدفئه الأوصال من جديد. صِرْتُ أتشوق لرؤيتها ولو للحظةٍ وإن لم تلمحني، وللكلامِ معها وإن لم تسمعني، ولسماعِ صوتها وإِنْ ظللتُ أبدَ العُمرِ لا أسمع إلَّاها. وجنوني في هذا كُلِّه أني لا أستطيع أن أقترب أكثر من ذلك، وخوفي الأكبر هو أنْ تَضيقَ بي السبلُ فأُجْبَرُ على الحلِ الأخيرِ الذي أَخْشَاهُ وأحاول تجنبه؛ أن أطرق بابها، فما تبقى مني لم يكن ليحتمل أيَّةَ أوجاعٍ أُخْرى، تحديدًا لم أكن أحتمل أن يقابلني من لا أستطيع أن تتلاقى عيني بعينه ليُسْمِعَني ما لا أُحبُ أنْ أَسْمَع، فالطاقة التي بي والعزيمة التي عندي تكفيان بالكاد لإقناع عائِشة بأنَّ القدرَ قد وضَعَني في دوامةٍ لم أستطع منها فِكاكًا، وفي بلاءٍ اعتصرتني نوائبُه اعتصارًا، وأن ما حصل لم يكن بيدي، وأن المصيبة كلها خارج إرادة كلينا. أن أُطمئنها بأني لها، ومعها، حتى تزول الغمة، لكن من يجمعني بها عابرًا فوق كل تلك الصِعاب؟!

جَالَ ببالي مَرَّةً أخرى أنْ داليا قد تعرف عن عائِشة شيئًا أو شيئين، بل وربما تعرف طريقةً للوُصُولِ إليها، أَصْدِقَاء مُشتركين مثلًا تستطيع من خلالهم معرفة هاتف عائِشة الجديد، لن يُعييها - داليا - ذلك، فإن أرادت ستأتي بالحِيَلِ والسبلِ اللازمةِ للوصول إلى ذلك، بل وما هو أكثر من ذلك، لكن: "داليا غاضبة فتجنبها"، هكذا تُحذِرني أمي إذْ ألحُ إليها بهذا الاقتراح، فداليا - كما تُفَسِّرُ أمي - تُحمِّلني وِزْرَ القطيعةَ بين البيتينِ بصفةٍ عامة، وبينها وبين عائِشة بصفةٍ خاصة، بسبب سفري المُزمع هذا، تيقَّنتُ من

ذلك حين كانت داليا تتحاشاني لعدة أيامٍ بعد وصولي المنزل، إذْ لمْ أَرَهَا إلَّا في اليومِ الثالثِ عندما كنتُ أجالسُ أمي، حين دَخَلَتْ - داليا - قُمْتُ مُتهيئًا لمصافحتها ومُحْتَشِدًا بحرارةُ الشوقِ والوحشةِ، لكنها امْتَصَّتْ حماسي وحرارتي بسلامٍ واهٍ أقعدني مُحرجًا حيث كنت، اِلْتَفَتُّ لأمي فأراحتني بطرفي عينيها ألَّا تعبأ بها تلك الصغيرة المجنونة. طفقت أنظر إليها - داليا - وهي تبحث عن ذلك الشيء الذي جاءت لتبحث عنه مُتجاهلةً إياي بفجاجةٍ جعلتني أشك في أنَّ شيئًا فعلًا كان ضائعًا منها، وأن دخولها لم يكن إلَّا لتبثني ضِيقها وغيظها خاصةً وأنها كانت تتعمدُ الحركةَ بالقربِ مني والطواف حولي، وكأنها تتحين لحظةً مناسبةً للانقضاض، لولا أن خذلتها شجاعتها في النيل من أخيها الأكبر.

***

- إخوتك وأزواجهم وأولادهم سيأتون الجمعة القادمة يا زين، يجب أن تكون موجودًا، لقد أخبرتهم بعودتك من السفر، وأنك ستكون بانتظارهم.

تقولها أمي وهي تقوم بتقطيع بعض الفطائر على صينية كبيرة.

- سأكون موجودًا.. لا بأس.
- سنمضي اليوم كله سويًا.. فلا ترتبط بأيةِ مواعيدَ أُخرى.
- حسنًا، حسنًا، سأكون موجودًا.

سكتنا لبرهةٍ من الوقت، ابتدرتها: أمي، اصدقيني القول.

- لم أكن إلَّا لأفعل.
- هل تُخفِين شيئا عني؟
- بخصوص؟
- عائِشة.
- ولِم قَدْ أخفي أيَّ شيءٍ بخصوصها أو بخصوص غيرها؟! وما هو الذي قد أخفيه؟
- هل حَقًّا أنه لم يحدث بينك وبين أهلها أي اتصال، أو موقف، أو كلام، أم حَصَلَ ما لا تُحبين ذِكره؟

تَنَهدت وكأنَّ الحديث كله يُثْقِلُ قلبها:

- كما قُلت لك قبلًا، مُنذ اختفيت وعرفنا ما حصل لم يتصلْ أَحَدُنا بالآخر، انقطع التواصل بيننا، كلانا أغلق بابَه على نفسه، صارت لنا همومنا ومشاكلنا، ولهم همومهم ومشاكلهم.

- أقصد ألم يتصلوا بكِ مثلا سائلين عنكِ أو عني؟ أَلَمْ يُوجهوا لَوْمًا أو عِتابًا؟ ألم يفتعلوا حتى أي مشكلة عندما عرفوا بحبسي، أمعقولٌ أنه لم يصدر عنهم أيُّ ردِّ فعل؟

- لا.. لم يحصل.

- أمي، أنتِ تعرفين كَمْ أحبُّ عائِشة، بل تعرفين أني ما أحببت ولن أحبُّ إلَّاها، أليس كذلك؟!

اِنهزَّ رأسها إيجابًا حين تَابعْت:

- أعني أني لا أحمل هَمَّ إقناعها بأني بريءٌ مما يكون قد وصلها عني، وأن ما حصل كان خارج إرادتي، ستصدقني أنا واثق من ذلك، فقط علي أن ألتقِيها وأكلمها وسنرتب سويًا ما سيُقَالُ لأهلها، وبأنني أسعى بجِدٍ وكَدٍّ لحل هذا الخطأ، سؤالي: إن بادرت بذلك، فهل من الممكن أن نتواصل مع والدتها وأهلها مجددًا؟ أن نتناسى جميعًا ما حصل ونبدأ من جديد؟

- وهل تسعى فعلا لحلِّ هذا الخطأ كما تقول؟ بل هل تسعى أصلًا لأمرك ولمصلحتك؟

لَطَمَتني حِدَّتها. تَابَعَتْ:

- منذ جئت وأنت في استسلامٍ عجيب، تَدُورُ بك الأيام بين "الرعاية" وبيتها وكأنك آمنت بأنك ستمضي عمرك كله محبوسًا.

- لِمَ أشعر منكِ بهذا الجفاف عندما أُحَدِثُكِ بِشَأْنِها؟ أنتِ نفسك قلتِ مرارًا أنك تحبينها وتعتبرينها كداليا، ولو أنكِ مُسْتَاءةٌ لأن أهلها مثلًا قد تجاهلونا الفترة الماضية ولم يسألوا فلهم عذرهم، كنت فقط أتمنى لو أعرف عنها أي شيء، أي خيطٍ أستطيع أن أبدأ منه إصلاح كل شيء.

- وأنا كما قلت لك، طوَالَ الفترةِ الماضية لم تكن بي طاقةٌ لمعرفةِ أيّ شيءٍ عن أي شخص، ولم يكن بي وسعٌ للسؤال والترضية، كان همي الأوحد هو أنت، في كل ساعةٍ وكل دقيقة كنت أسأل كيف تمضي الأيام عليك؟ هل تأكل جيدًا؟ هل تشرب جيدًا؟ هل تنامُ جيدًا؟ هل تعتني بنفسك جيدًا؟ وغير

ذلك لم يكن ليهمني أو يعنيني، زين! اسع لمصلحتك فقط هذه الفترة على الأقل وبعدها سنرى ما يمكن عمله.

ناولتني طبقًا: ثم دعك من كل هذا يا مُتعِب! وأَرِحْ رَأْسَكَ قليلًا من التفكير، أخبرني.. كيف كان كعك المرة الماضية؟ ذُقْ هذا أيضًا وأخبرني..

"وتخيَّل أني أيضا كنت أسأل نفس الأسئلة يا زين؟!"

داليا! دخلت الغرفة بابتسامةٍ لم أعهدها من قبل.. لكنها لم تُرِحْني بالمرَّة.

- حمدًا لله على سلامتك يا أخي.

قُمْتُ، وقامت أمي مُتكئةً عليَّ وهي تَزْجُرُ داليا بعينيها أن احتسبي فيما ستقولينه أيًا كان، لكن داليا لم تنظر لأمي وأكْمَلت:

- ما لِي أراكَ مُسْتَغْرِبًا هكذا؟ أَلَا تُصَدِّقْني؟! والله أنا أَيضًا كنت أسأل نفس الأسئلة، لكني لم أكُن أسأل هل يأكل زين جيدًا! وهل ينام جيدًا! بل هل يأكل زين أصلًا؟ هل ينام أصلًا؟ أله شهيةٌ للطعام؟ هل تنغلق أجفانهُ راحةً وشَبَعًا؟ أم تهاجمه كوابيس فِعلته؟

داليا! نهرتها أمي: عمَّ تتكلمين؟! إياكِ وسوء الأدب، انتبهي وأمسكي لِسانِكِ ولا تهذين بما لا تعرفينه!

- ها يا زين لم تُجِبْ أمي، جميلٌ كعكها أم أن ذَائِقتك هي الأخرى تَبَلَّدَتْ كما تَبَلَّدَ إحساسك؟

مَشَتْ أمي مُسرعةً لباب الغرفة وأغلقته: داليا ما بكِ؟ ما بكِ اليوم حقًا؟ إلام ترمين؟ أفي وعيك أنتِ؟ كيف تُحدثين أخيكِ بهذه الطريقة؟

وكأنَّ كلمات أمي كانت الإشارة التي نزعت فتيل المُفجِّر..

- آهٍ يا زين! وكأنيّ لم أعرفك من قبل، في كل يومٍ يمضي كنت أسأل نفسي أهذا زين حقًا؟! أهذا أخي؟! أهذا المحترم الذي يشيدُ الكلُّ بأخلاقهِ وتربيته؟ أم أنه طُوَالَ كلِّ تلك السنواتِ كان مُرائيًا مُدَّعِيًا مُنافقًا، وكأني أمضيت عمري مع من لا أعرفه، ماذا فعلوا لك لتفعل بهم ما فعلت؟ ماذا رأيت منهم لتنتقمَ منهم في عَرْضِ ابنتهم بتلكَ الفعلةَ المهينةِ ولتخسف بكرامتهم الأرض أمام الناس؟ بل ماذا

فعلت لكَ عائِشة تحديدًا لتكسر قلبها كَسْرًا لن يلتئم؟ قَبْلَ أربعةِ أيامٍ بالضبط! اختفاء تام! ألهذه الدرجة يحمل قلبك هذا الغِلَّ والسواد والكُرْه للعائلةِ التي اعتبرتك واحدًا منها؟! أبهذهِ الجرأةِ خَطَّطْت ودَبَّرت؟ أبهذه السهولة قرَّرْت ونَفَّذْت ولم تتحرك مشاعرك للمسكينة التي منحتك حُبًا لم تكن لتُعْطِهِ حتى لمن هو أفضل منك.

- بِمَ تهذين؟ من أين أتيتِ بهذا الكلام؟ أنتِ تعرفين أنه كان في سفرٍ مُفاجئ، ثم اذهبي لغرفتك، ولي حسابٌ معكِ، زين مرهق.. تعال يا زين.

تقولها أمي وهي تجذبني من ذراعي فأزحت كفها عني برفق ونظري لا يحيد عن داليا:

- بل اتركيها يا أمي، دعيها تُخرِجُ كُلَّ ما لديها.

ضحكت داليا مُستخِفَّةً: أحقًا؟! والله! سفر مفاجيء! هل استيقظ فجأه فعبؤوه في طائرة وسافر؟ لِمَ لَمْ يخبر أحدًا منَّا ولو بيومٍ عن سفره هذا؟ أو حتى قبل ساعات! أو حتى يخبر المسكينة التي كانت تنتظره! ثم يا زين يا عظيم الاحترام يا صادق! إن كنت مسافرًا حقًا...

اقتربت أكثر تبثني سُمَّ عينيها بِبُطء:

- فإلى أين؟ أين جواز سفرك إذن؟ أرني التأشيرة، إلى أي مكانٍ ذهبت؟ داخل البلاد أم خارجها!
- ومنذ متى يخبرنا زين بمواعيد سفره وأماكنه؟! تشدني أمي بعيدًا لنخرج من الغرفة. لكني، بهدوءٍ، أزيح يدها مرةً أخرى حين تابعت داليا:
- وهذا هو الأغْرَب! لأن زملاءه كانوا يتصلون يوميًا للسؤال عن تغيبه وكأنهم لا يعرفون عن الأمرِ شيئًا، أم أنه من بين الألوف اخْتِير واخْتُصَّ هو فقط بهذا السفر، لكنها مسكينة، مسكينة أمي حقًا، لم يصل خيالها لتخطيطك وتدبيرك، خيالك المريض يا زين، يا شقيقي الأكبر، يا أُسْوَتي التي لمْ أخترها.

أزاحتها أمي عني: هذا خيالك أنتِ يا غبية، اذهبي إلى غرفتك ولا تتحدثي معي مرةً أخرى حتى تعودي لصوابك وتعرفي كيف تتكلمين معي ومع أخيكِ الأكبر، لا تتحدثي معي نهائيًا، نهائيًا أقول، أتفهمين؟!

صرخت داليا بأمي:

- أما زلتِ تُدَافعين عنه؟ أمعقولٌ ما أرى؟ ما بكِ يا أمي؟! أأنتِ حقا أمي التي أَعْرِفها؟ ألهذهِ الدرجةِ لم تعودي تَـرَيْن الحق حقًّا؟ ألَا تنظرين في المرآةِ لتري كيفَ صِرْتِ! كيف انهدَّ بدنك ورَاحَتْ عَافيتك! تُكلمين نفسك طوال الوقت وبدلًا من الدواء تمشين بعَشْرة، فكيف تدافعين؟ ولم تدافعين؟ وعمَّ تدافعين؟ ماذا لو أن ما حدث مع عائِشة كان قد حدث لي؟ أكُنتِ سترضين بذلك؟ أسيكون حينها قولك ذات القول وفِعلك نفس الفعل؟ أكُنتِ ستقدمين لمن غدر بابنتك ورَمَاهَا قبلَ أيامٍ من زفافها أطباق الأرز واللحم؟ أكُنتِ ستُطعمينه في فمه وتخبزينَ له الكعك والحلوى وتتمايسين معه أن يؤرقني أكلك يا هذا! يؤرقني نومك يا هذا! كان همي هو أنت يا هذا!

هَوَتْ أمي على داليا بصفعةٍ كالسوط، لينشقَّ الوجه المكلوم عن سَيلٍ من الدموع:

- أغلى إنسانة على قلبي يا زين، وأرق قلب في الكون، وأكثر النفوس هشاشةً.. عائِشة.. مَزَّقتها بفعلتك ودفنتها في وحل الحزن والصدمة كما دفنت معها صداقتي ومحبتي لها للأبد، قل لي من يثق بكَ بعد اليوم؟ أيُّ بيتٍ هذا الذي سيأتمنك على بناته بعد فعلتك تلك، ليتك عبثت مع غيرها كما يعبث العابثون أمثالك، ولكن عائِشة! يا الله، من يصدق؟ ولكن أتعلم؟ هناك يوم حسابٍ أمام الله، وستدفع حينها الثمن والذي سيكون غاليًا بمقدار ما مَزَّقت من قلوبٍ وما قضضت من مَضَاجِع وما أرَّقْتَ من أعين، وحتى هذا الوقت لن أقول سوى حسبي الله ونعم الوكيل يا زين، حسبي الله ونعم الوكيل.

سكتت داليا لتلتقط أنفاسًا خنقتها الدموع، وليسود للحظةٍ صوت بكائها وبكاء أمي! قبل أن تتقدم مني - داليا - لتبثني من وراء دموعها اِنْتِقامًا يُلقي الصَدْعَ في أصلب النفوس:

- وحتي يأتي هذا اليوم أنت لست بأخي، لا تعرفني ولا أعرفك، لا تُكلمني ولن أكلمك، وكل ما سأفعله هو أن أدعو الله بألَّا يزرني وزرتك، وألَّا يُسَلِّطَ عليَّ من يعاقبني بفعلتك.

تشفَّت بِخَرَسي للحظات قبل أن توليني ظهرها راحلةً، انتظرْتُ لبرهةٍ قبل أن أخرج وأذهب مُغيَّبًا إلى غرفتي، جلست على السرير فلحقت بي أمي وجسدها يخبط الأرض رجًّا لسرعةٍ تفوق عافيتها، طوقتني بذراعيها وجعلت تُقبِّل رأسي وكتفي ويدي ثم رأسي مرةً أخرى، راجيةً أن أسامحها لأنها لم تستطع أن تدافع عني، ولكني لم أقو على الرد، كنت فقط شاخص البصر لا أتكلم.

- ٣١ -

ما أَتَتْ به داليا في هذا اليوم كان جُزْءًا من الصورةِ القاتمةِ التي راحت تتكون بداخلي عن الألم الذي سببته للآخرين بسَجْني لكني لم أقدره حق قدره، أَسْرَفت في التفاؤل عندما كنت أظن أني المفجوع وحدي والمكلوم وحدي والمُصَاب وحدي، وأن الآخرين مهما فُجعوا فلن تكون مصيبتهم بحجم مصيبتي ولن يكون ألمهم بقدرِ ألمي، لكن يبدو أن الكل بلا استثناء كان يدفع ثمن ما حصل من كرامته وسُمْعته وصحته وراحته.. كلٌ حسب وُسعه وطاقته.

أدركت إلى أي مدى صرت بالنسبة لداليا - على الأقل- خائنٌ، عابثٌ، لاهٍ، شائه القلب، ولا أعلم أية تصوراتٍ أخرى قبيحة نسجها عقلها عني تتعلق بكل تلك الصفات. وأحدس لولا أني أكبرها سِنًّا لدعمت اتهاماتها يومئذٍ بالصفع والركل، ولتطاير كفُّها ليطرقع على أذني ووجهي ورأسي كطفلٍ بليدٍ عَاق. أَدْهَشَني أنه رغم مُضيّ عامٍ على ما حَدَثَ إلَّا أنَّ فاجعتها في فقدان عائِشة كصديقة لم تَزَلْ على عِظَمِها وقوتها، وكأنَّ الأمر كله كان بالأمس، فاللهجة كانت حادة والكلمات موجعة والحزن في نبرتها بدا طازجًا، إنها الطزاجة التي ما وجدت حتى شيئًا منها كلما تحدثت مع أمي وعمرو عن عائِشة، لتبدو وكأنها امرأة هجرتها منذ عشرين عامًا أو أكثر: "الحمد لله على كل حال".. "الله يستر عليها يا زين".. "دعك منها وعِشْ أيامك".. "وإن شاء الله تتزوج أفضل منها". ما أرعبني أنه لئن كان غضب داليا بهذه الحدة لأني ذلك الذي غدر بصاحبتها واختفى قبل الزفاف بأيامٍ فكيف الحال بأسرة عائِشة نفسها التي بالتأكيد تظن أني أكثر من مجرد عابثٍ لَهَا بابنتهم لبعض الوقت ومضى، بل مجرم وهارب، ولولا لطف الأقدار لكانت ابنتهم تحت رحمته اليوم! أهذا هو المجرم الذي كنّا سنسلمه ابنتنا صاغرين؟ أهذا الذي ظنناه يومًا أخًا وابنًا لنا؟ أهذا الذي أدخلناه بيتنا وائتمناه على جزءٍ من روحنا؟ أي فعلةٍ تلك التي كنا سنأتي بها وأي ضياعٍ هذا الذي كنا سنرتكبه؟!

لم تتحدث لي داليا من حينها، تتحاشاني في البيت كما لو كنت مصابًا بعدوىً مُسْتَعْصية، تنصرف إن جمعتنا جلسات الطعام أو مشاهدة التلفاز. زاد من غيظها أنى - في ظنها - لم أزلْ أُمارس حياتي بطبيعيةٍ

دونَ أي ذرَّةٍ لتأنيبِ الضمير، ففي الصباحِ - وقت ذهابي للسجن - تظن أني في عملي المعتاد، وفي المساء - حينَ أذهب شوقًا لعائِشة - تظنني أرتعُ في المجالس مع الأصحاب والرفاق وكأنَّ شيئًا لم يكن، كيف أشرح؟ وكيف أُبَرر؟ وكيف أفسر؟ لا أعلم! أيضًا لم تُجدِّ محاولات أمي لإصلاح الأمر، إذ لم تصمد تبريراتها الهشَّة أمام سياط داليا التي سلختها بأسئلة بلا إجابات. وياليتني أعرف أية إجابات!

حين بَاتَتْ قطيعتي مع داليا أمرًا واقعًا، وباتَ الإصلاح في الوقت الحالي أمرًا شبه مستحيل، أدركت أني فقدت أختى لفترةٍ لا يعلمها إلَّا الله، وفي خصامٍ لن يكون أقل مرارةً بالنسبة لي من معرفتها بحقيقة الأمر، كما فقدت آخر خيطٍ قد يوصلني إلى عائِشة، ليغدو الحل الأخير للوصول إليها - عائِشة - والذي كنت أخشاه، أمرًا واقعًا، يفرض نفسه بقوة، بل الأحرى: بقسوة! قسوةٌ لا يحتملها قلبي المنهك ولا عزيمتي الخربة، ربما لهذا مكثت ساعةً كاملةً في اليوم التالي بداخل سيارتي، أتصببُ عرقًا وقلقًا، مرتديًا أفضل ما لدي، مُتْعَطِرًا على هميّ وبؤسي، وكأني بنفاذ الرائحة أُزايد على الخوف الفائح مني، تفرك سبابتي وإبهامي بهدية ابتعتها بعد أن ألصقت عليها بطاقةً أهدرت خمسًا مثلها حتى استطعت أن أكتب دون أن ارتعش: "عائِشة حبيبتي، اشتقتك كثيرًا"، عيناي كانتا مُعَلَّقتان على شباكها وكأني أحاول أن استمد منه وقودًا لشجاعةٍ كلما تجمعت نسفتها صورة داليا وكلماتها التي تطفلت عليّ وكأنَّ لا غيرها في رأسي.

عدلت من هندامي وتهيأتُّ كشابٍ يتقدم لخطبة فتاةٍ لأول مرة، ترجلت من السيارة لتحملني قدماي ثقيلتَا الخطى لعدَّةِ خطوات باتجاه المنزل، تصطرع دقات قلبي باقترابي وتعملق البيت، عِنْدَ حدٍ ما بدا لي البيت ماردًا يُلقى الرعب في القلوب، فالتقمتُ الخطوات وعُدْتُّ للسيارةِ فيما يخفق صَدْري انفعالًا وكأني ركضت لمائة كيلو متر.

دقائق ونزلتُ مرَّةً أخرى.. ثم عدت.. ثم نزلت.. ثم عُدت.. لم أنتبه أني مكثت ساعة أخرى على هذا الوضع، أو تلك الأوضاع جميعها، حتى انتصف الليل، فاستسلمت وقبعت في السيارة لنصفِ ساعةٍ أخرى، قبل أن أقفل عائدًا للمنزل بنفس الخيبة، فيما بدا أن القرار الذي اعتبرت نفسي شُجاعا لأَخْذِهِ.. لمْ تُواتِني الجرأةُ لتنفيذه.

تكررت المحاولات لأيامٍ أخرى وبنفس النتيجة، إلَّا أني في كل يومٍ كنت أتقدم لخطواتٍ أكثر وكأني أكسر مانعًا وهميًا وأكسب أرضًا جديدة. بعدَ بضعةِ أيامٍ أُخْرى هُيِّأت تَمامًا لما أنا بصدده، فوجدتني أتقدم هذه المرة بثباتٍ أكبر ولخطواتٍ أكثر بل ها أنا ذا أدلف الرواق، وها أنا ذا أقترب من الباب، حبالٌ نسجتها المخاوف والظنون تشدُّ جسدي للوراء، لكن التراجعَ قد فات، فلقد ضغطت الجرس ليصير القلق الذي مضى كله في كفة وتلك الخرفشة التي أسمعها تقترب في كفةٍ أخرى، من قد يكون؟! عائِشة!.. رائد!.. والدتهما!.. مَنْ؟!

- مَنْ؟

عـُدَيّ! الأخ الأكبر.

- مرحبًا يا عـُدَيّ!

ألْقَي عليَّ نظرةً عامة: أهلًا وسهلًا، مَن؟

- كيف حالك؟

دَقَّق النظر في للحظات حتى تَيقَّن، فاكتست ملامحه جليدًا.

- نعم؟
- كيف حالك يا عـُدَيّ؟
- نعم؟
- أنا زين.
- قلت ن . ع . م.
- رائد موجود؟
- كلَّا.
- متى سيعود؟
- لا أعلم.

- هل من ممكن أن تخبره بأن يتصل بي إذن؟
- فيم تريده؟
- أريد أن أتحدث إليه.
- بشأن؟
- بشأن أمرٍ ما.
- لا شأن لكَ برائد، ولا بأيِّ أحدٍ هنا.
- عُدَيّ من فضلك.
- تفضل من هنا.
- عُدَيّ أنت تعرفني جيدًا.

باستهزاء: هههههههه طبعا أعرفك، اِمْش فورًا ولا تأتِ إلى هنا مرةً أخرى.

- أقصد أنت تعاملت معي وتكلمت معي، وأنا والله بريء مما يكون قد وصلك عني، ومن المستحيل أن آتي بأيه أفعال مما قد تكون قد سمعت بها.

لَوَّحَ بيده في لا مبالاة: فعلت أو لم تفعل، لم يعد هذا مهمًا الآن، انتهى أمرك لدينا ولا شأن لك برائد أو أي أحدٍ هنا، أنا لا أعرف أي بجاحةٍ تلك التي أتت بك إلى هنا.

همّ بإغلاق الباب، فاستوقفته:

- عُدَيّ عُدَيّ انتظر! اسمعني بالله عليك.. أنا أعلم أنك بداخلك لا تصدق ما حصل.. أنا أكاد أشعر بذلك بل أوقن به.. لأن ما حدث لا يُصدَّق.. أنصت إلى إحساسك وسيخبرك بالحقيقة.. لقد أُلقيتُ في تلك الورطة الغريبة بين يومٍ وليلة.. ولا أدري ماذا ولا كيف حصل هذا؟!.. أنا ضحيةٌ لالتباسٍ ما.. يحدث هذا في كل مكانٍ في الدنيا.. وسينصلح خلال أيامٍ قليلة.. وسآتيك بالدليل والبُرهان.. أرجوك يا عُدَيّ أعطني فقط فرصة.. لاتفعل بي هذا أرجوك.

كان يسمع وعيناه مُحلِّقتان لأعلى تأنفان النظر إلي، قبل أن تعود إليَّ الرأس مُهَدِدَةً:

- ها؟ انتهيت، اسمع إذن.

لوَّح بسبابته: بريء أو غير بريء، مظلوم أو غير مظلوم، فعلت كل هذا أو لم تفعله، لم يعد يعنينا هذا في شيء، أرح نفسك ولا تأتِ إلى هنا مرةً أخرى، لا تفكر أن تعبر هذا المدخل، بل ولا تفكر حتى أن تمر من هذا الشارع أو تقترب منه، لا ترِنا وجهك هذا نهائيًا، وإن تكرَّرَ ما حصل أقسم أني سأعيدك من حيث أتيت.

- يا عُدَيّ لو كنت مجرمًا حقًا لما أتتني الجرأة لآتي إلى هنا، ولقلت الحمد لله أن الأمر قد توقف عند هذا الحد ولم يكتشفوا أمري!
- وما أدرانا بك؟ وهل عندما أتيتنا قبلها وأنت تخبيءُ كل هذا لم تكن مجرمًا؟ كنت فقط مُوَالِسًا والآن أنت جريءٌ متبجح.
- سَلْ الناس عني إذن، سَلْ زملاء العمل والجيران وأهل المنطقة، بل ورفاقنا جميعهم، لو أن واحدًا فقط أخبرك عني بما لا يُرضيك سأتقبل أيًّا ما ستفعله بي، لكن لا تكسرني هكذا بالله عليك.

في تلك اللحظةِ أُغلق الباب بقوةٍ في وجهي، فتصمَّت مأخوذًا، هممت بالانصراف لولا أن استوقفتني أصواتٌ من خلف الباب، يبدو أنها أَتَتْ على الجلبة، ميـَّزت من بينها صوت الأم، كانت تبدو كما لو أنها تتجادل مع عُدَيّ، توقعت أن يُفتح الباب لتتحدث إليَّ، بل وقد تهيَّأت لذلك فعلًا، ولكن الأصوات خفتت، والأقدام ابتعدت، لأمكث وحيدًا أمام الباب الذي كان منذ عامٍ يرحب بي والآن يواسيني جامدًا.

- ٣٢ -

أدركت في هذه المواجهة أيضًا، وللمرة الثانية، كم أنا واهنٌ ضعيفٌ وإلى أي مدى كنت مقيتًا كريهًا لعُدَيّ، ولن أتعجَّب إن كنت كذلك لباقي عائلته، وأحدس أيضًا أن كلامًا كثيرًا موجعًا كان يودُّ قوله - عُدَيّ - لولا أنه ربما لم يُرِد أن يسبب توترًا بمنزله، مؤثرًا أن يُنهي الأمر بسرعةٍ وهدوء وكأنه لم يكنْ.

أَسْرَرْتُ بما حدث لنفسي ولم أُطْلِع عليه أمي، ولا عمرو أيضًا، جاهدت كي أواري خيبة أملي وخِذلاني، فلا أُؤَرِّق القلوب من حولي بأكثر مما تحتمل. وكانت أمي في تلك الأيام بالذات تلمس شرودي وتيهي وسرحاني في كل الأوقات، تعرف بتسللي ورحلاتي الليلية تلك ولا تُعَقِّبْ، وكأنها تجد في فعلتي تلك مُتَنَفَّسًا عن لهفتي وحبي الجامح والذي كنت مُتفائلًا أني عندما سأخرج من السجن سأجِده ينتظرني كما كان، وأن الأمر لم يكن يتطلب لرأب الصدع إلَّا لشجاعة استثنائية لما واتتني قوبلت برفضٍ قاسٍ.

عشية اليوم التالي ساقتني قدماي إلى مجلس الجيَّان..

حين رآني الجالسون مُقبلًا على مدخل المجلس وجموا، وانقطع حديثهم بغتة وكأنه تِلْفازٌ أُغْلِق، وكان محمد هو أول من لمحته يجلس وسطهم، كفَّه كان في طريقه ليطرقع على فخذه ضحكًا لكن حين أبصرني توقف الكفُّ قبل أن يتراخى انبساطًا على الفخذ. ظَلَّ يحملق فيه مُسْتَغْرِبًا وكأنه يتذكر أين رأى هذا الوجه! أو وجهًا يشبه هذا الوجه!

تقدمت ناحيته مُصَافِحًا فقَامَ وعيناه مُسْتَغربتان تجولان بملامحي: زين!

- كيف حالك يا محمد؟ وكيف أمك وإخوتك! اشتقتك كثيرًا.
- بخير.. بخير.. كيف حالك أنت؟! طَالَ غيابك يا أخي..
- ها أنا ذا! بخير والحمد لله.

سكتنا مُتحَرِّجيْن، ينتظر كلانا بادرةً ما من الآخر، فرَفَعَ هو الحرج بأن دَعَاني مُرْتَبِكًا للدخول، فدلفت مُلقيًا السلامَ على الموجودين، فانتظموا صفًّا لأشدد بكلتي يدي مُصَافِحًا كُلَّ واحدٍ فِيهم، وأسأله عن حاله وعمله وأخبره أَنْ كم أفتقده، جلست وجلسوا جميعًا ساكتين، فاستللت من قعر القلب ابتسامةً تدعوهم لإكمال أحاديثهم لكنهم طفقوا ينظرون لي واجمين، إِبْتدرنا محمد بحديثٍ يُخَفِّف به وطأةِ الصمتِ والحرج، لكن أحدًا لم يُعَلِّق أو ينبس، فقط تَرَكَّزَت النظرات عليَّ فيما تقافزت الحمحمات بين الجميع.

قام ثلاثةٌ في نفس الوقت مُوَدِّعين محمد، فاستوقفهم مُنْدَهِشًا بأن الوقت لم يزل بعدُ باكرًا على الانصراف، لكنهم تعلَّلُوا بعملهم في الصباح الباكر ومضوا، دقيقةٌ أخرى حتى قام آخران ثم آخرون ثم في وقتٍ واحدٍ أصبح الكلُّ يقوم ويستأذن مُتَعَلِّلًا بأعذارٍ مُختلفة، حتى لم يجد محمد ما يفعله سوى أن يظل واقِفًا لعشرِ دقائق عند الباب يودع مجلسه الذي انفرط عِقْده فجأة، حتى فَرَغَ المكانُ كله تمامًا إلَّا مني ومنه، جلس إزائي حاويًا رأسه بينَ كفيه كَمَن فَقَدَ عزيزًا، من حولنا لم تزل تنفث أكواب الشاي أبخرتها، فيما تُحاصرنا المساند والوسادات التي لم تزل تحمل انبعاجاتها دِفْء الأجساد.

نهضت مُحرجًا فقام هو في نفس اللحظة، وكأنه كان ينتظر تحركي بفارغ الصبر. عند الباب التفتُّ إليه.

- محمد.
- خيرًا يا زين؟
- انظر لي بالله عليك.

رفع رأسه شيئًا عن الأرض ونظر إلي بنصف عين.

- انظر لي يا محمد، ما بك؟
- ها يا زين، ما الأمر؟
- أنت تعرفني جيدًا أليس كذلك؟!
- لا أفهم السؤال، ما النقطة بالضبط؟
- أقصد أنت تعرف أن كل ما قد يكون وصلك عني هو كذب، كله كذبٌ وافتراء.

انهزَّ رأسه برتابة عَدَّةَ مَرَّاتٍ، فتَابَعت:

- أنت بالذات لا يجب أن تُصَدِّق أيَّ شيءٍ مما قيل.. أنت بالذات.. أنا أخوك يا محمد.. أنسيت؟!.. تعرفني جيدًا وأعرفك أكثر من نفسك.. دخلت بيتي ودخلت بيتك.. أمك هي أمي.. تعرف أهلي كلهم وأعرف أهلك واحدًا واحدًا.
- تخيَّل أن أمي نفسها لا تصدق يا زين.

أجبته بلهفة: طبعًا.. طبعًا.. معها كل الحق.. وكيف لأحدٍ أن يُصدِّق ما قيل!

- تقول لي مستحيل.. زين! لو قُلْت لي أنَّ شخصًا آخر فعل ما فعل لصَدَّقت.. إنما زين.. لا.. مستحيل.. زين أصلًا غير الآخرين تمامًا.
- لأنه لا شيء من كل هذا صحيح يا محمد أقسم لك، أقسم لك أن كل هذا كذبٌ وافتراء.
- أتعني أنك لم تُسْجَنْ؟
- بل سُجِنت.. للأسف سُجِنت، لكن لأشياءٍ لم أقترفها ولا أعرف عنها شيئًا، أخطؤوا بيني وبين شخصٍ آخر، حتى أن المحامي أخبرني بهذا وهو يسعى لحلِّ هذا الأمر الآن.
- خيرًا خيرًا إن شاء الله.
- وقال لي توقع يا زين أن تُحل المشكلة خلال أيام، وسنطلب من الجميع اعتذارًا رسميًا لما حصل.
- إن شاء الله.. الله كريم.
- وكأنك لا تصدقني! ألَا تُصدقني؟

صَمَت، ألححت عليه، ردَّ مُثقلًا:

- لا تختصر الأمر فيّ يا زين، أتظن أن ما تقوله قد يصنعُ فارقًا؟
- لا أفهم ما تقصده!
- أعني وإن صدَّقتك فهل سيصدقك الكل؟ وإن أقنعتني فهل ستُقنع كل من كانوا هنا؟ هل ستدور عليهم واحدًا واحدًا لتقول لهم ما قلت لي؟ ولتُثبت لهم ما تريده إثباته لي! حتى وإن فعلت! فهل سيضمن هذا أن تعود الأمور بينك وبينهم كما كانت؟

- إلامَ ترمي؟

- بيتي للكلِ يا زين وليس لي أو لك فقط.

- قُلْها يا محمد.

- لا تُصَعِّبْ عليَّ الأمور يا زين.

- قُلْها يا محمد.

- أنت تعلم أن وظائف كثيرين منهم خاصة وحسَّاسة، وإن أتيت.. أقصد أنت رأيت ما حصل.

أومأت برأسي مُتفهمًا ومُتَوجِّعًا، تحاشتني عيناه، هَممت بالانصراف، عند الباب التفتُّ إليه:

- ألا يأتي رائد؟

- ليس كثيرًا، فمنذ الترقية والزواج وهو في انشغالٍ دائم.

- رائد تزوج!

- رائد الآن هو زوج رهف، شقيقتي.

شعرت بغصة في حلقي: مباركٌ له، ولك.

- والعُقبى لك.

- أيمكنك إذن أن تطلب منه أن يتصل بي للضرورة؟

- سأفعلها لأجلك ولكني سأقولها لكَ صراحةً، لا تُحرج نفسك معه.

- هل قال لكَ شيئًا بشأني؟

- كلا لم يقُلْ ولا يأتِ بسيرتك، ولكني أخشى فقط ألَّا تَجِدْ منه ما تنتظره.

- إذن سآخذ فرصتي وأشرح له كل شيء، ساعدني للوصول إليه، إن لم أُكلمه فقدت آخر أمل لي.

- آخِرَ أملٍ في ماذا بالضبط؟

- لإعادة الأمور كما كانت معه ومع أهل بيته.

- أَعِدْها معه. لِمَ تَشْغَل بالك ببيته؟ أَلَكَ شيءٌ هناك؟

- ما بك؟! أنسيت؟ لي عائِشة.

- عائِشة تزوجت يا زين.

***

حَمَلَتني السيارةُ في تلك الليلةِ لطرقٍ لا أعرِفها ومَنَاطِقَ لم أطأْها من قبل، تتقاطع الشوارع وتلتوي وتنعطف وتتشابك فأدخلها مُغَيَّبًا مُستسلمًا لأينما تقودني وكيفما تقودني، تستقبلني ميادين وتعلو بي جسور وتبتلعني أنفاق وتعرج بي انعطافات، تودعني لافتات وتستقبلني أخرى، أخرج من مناطق وأدخل أخرى، وكأني في ذلك كله أنْقادُ إلى نقطةٍ لن أدركها.

صامتٌ كنت، كلُّ شيءٍ فِيّ صامت، قلبي وعقلي وروحي، وكأنَّ كُل جسدي خرج من نطاق الخدمة أو ربما دخلت أجزاؤه في إجازةٍ مفتوحة، فتوقف القلب عن الخفق والكيان عن الإحساس والعقلُ عن الاستيعاب، فقط عيناي شَذَّتا عن القاعدة، إذْ تطفلت عليهما دمعتان شاركتاني صمت الطريق، لم تَهويَا وإنما ظلَّتا ترتعشان ككرتين عظيمتين مُعَلَّقَتَينِ بالأهداب، تتلألأ من ورائهما الأبنية والشوارع والناس.

صامتٌ كنت، لكن صمتي صاخبٌ، أعلى من الشجار وأَمْضى من الصياح وأَعْمَقُ من كل حرفٍ وكلمة، صمتٌ متجسدٌ حيٌ يُرْزَق، تَرْخُص في حضرتِهِ الشكوى والكلام، للحظةٍ كُنت أشعرُ أنَّ دَمْعَتَيَّ العالقتين إنما تتلصصان، لتَرَيَا كم من الدمعِ يحتاجُ زين ليذرفَ هذه المرة! وكم من الحرقةِ يحتاجُ في لوعةٍ كتلك! وكم من طُرُقٍ ستحتاجُ الدموع لشَقِّها فوق طرقٍ شَقَّتها منذ أشهرٍ على الملامح والقسمات لتناسب هذه المرة وجع مائة قلب لكلٍ منها ألمه الخاص. للحظةٍ كنتُ أظن أن دمعتاي تتناجيان أنْ أعيانا زين لأشهرٍ طويلةٍ بالبكاء، لكننا اليوم سنعييه بنا، عفوًا يا زين؛ فلا دمع بحجم فقدك ولا حُرقة بقدر لوعتك، فقدك هذه المرة من نوعٍ غير مألوفٍ لنا نحن الذين اِسْتَنزَفْنَا العشَّاقُ في لياليهم والمحبين في أَرَقِهم، نعتذر لكَ، تحتاج لدمعٍ من نوعٍ آخر.

توقفت بي السيارة قبل شارعين من منزلي بعد أن نَفِدَ وقودها، وكانت الساعة قد وصلت إلى السابعةِ صباحًا، فترجلت ثم تمشيت بتعبٍ إلى المنزل، حين دلفت ألفيت أمي وعمرو يجلسان إزاء البابِ وقد بدا

عليهما إعياءُ السهر، حين رأيا جفوني المحتقنة ووجهي الغائم اربدَّ وجهاهما في لحظةٍ قبل أن يتبادلا نظرةً ذات مغزي.

- "زين؟!"

قالها عمرو وفَزَّ ناحيتي، لكني تَجاوزته صُعُودًا إلى أعلى مُرْتَقيًا السلالم بنفسِ الذِهْنِ الغَائِب، سِرْتُ في الطرقة مُتَوجِّها لغرفتي غير أني لمحت غرفة أمي، وكان ذلك حين برق في ذهني الخاطر، فدَلَفْتُ الغرفة وتقدمت من السرير ثم جلست على طرفه، دفنت وجهي بكفيّ للحظةٍ حتى هُيِّئْتُ لما دار ببالي، فتناولت من فوقِ الطاولةِ علبةَ دواء بلاستيكية وأَفْرَغت قلبها لتستقر حباتها الثلاث في كفي، قبل أن ابتلعها جميعًا بَرَشفةِ ماءٍ من كوبٍ كان بجوارِ العلبة، فتحت الدرج بحثًا عن حباتٍ أخرى فلم أجد، نظرتُ تحت الوسادةِ حين وجدت شريطًا كاملًا فالتقطته وجعلت أَفْرَغَ حبَّاتِهِ واحدةً تلو الأخرى في يدي.

- زين! أمجنونٌ أنت؟!

تَطَايَرَ الشريطُ وتبعثرت حَبَّاتُه بأنحاءِ الغرفة إِثْرَ انقضاضةِ عمرو، حَاوَلَ تَطْوِيقي فناورته زحفًا إلى الحبَّات، جَثَمَ فوقي بجسدهِ مُكبِّلًا حركتي: "زين! زين! أفق يا زين! استحلفك بالله أن تَفِيقَ مَّما أنت فيه.. ماذا تفعل بنفسك؟!"، في تلك اللحظةِ دَلَفَتْ أمي الغرفة فَانْفَلَتَتْ منها شَهْقَةٌ حين رَاعَها المنظر، أَغْلَقَتْ البابَ بسرعةٍ وجَرَتْ ناحيتنا قبل أن تَنْكَبَّ على رُكبتيها مرةً واحدة ليرتج جسدها الواهن ضَرْبًا في الأرض بانهيارها غيرِ المحسوب، قَاوَمَتْ أَلَمَها وهي تُلَمْلِمُ الحبات من تحت السرير، ومن أسفلِ الطاولةِ، تَذْهَلُ عيناها ويلهجُ لسانها أن لا.. لا.. لا يا حبيبي.. لا والله.. أبدًا.. أبدًا.. لست أنت من تفعل ذلك.. لست أنت والله..

جَمَعَتْ الحبات وجرَّت جسدها مُبْتَعِدَةً عني وأخي حتى التصقت بالدولاب يخفقُ صَدْرُهَا بِتَردُدٍ مخيف..

زحفت إليها بشراسةٍ جارًا كيلوجرامات عمرو فوقي:

- لا.. لا.. هاتها.. هاتِها.. هاتِها يا أمي بالله عليكِ.

تشرنق عمرو بعضلاته أكثر ليشلَّ حركتي:

- اِرْمِهَا من الشباك.. بسرعة.. بسرعة يا أمي.. أَفِقْ يا زين.. لا يوجد ما يستحق ما تفعله بنفسك.

بكلِّ قوتي لفظت عمرو من فوقي، وقفزت في لحظةٍ لأهوى أمامها - أمي - قابضًا على كَفِّها، متوسلًا:

- أرجوكِ يا أمي.. أرجوكِ يا حبيبتي.. هاتي الحبات.
- أوتتركني يا زين؟!
- هاتي الحبات بالله عليك.. هَاتِها.
- أو تتركني يا حبيبي؟!
- أريد أن أرتاح يا أمي.. أريد أن أرتاح.
- وهل سأرتاح أنا؟ وهل إن رحلت هذهِ المرة سأعيش من بعدك للحظةٍ واحدة؟ عندما غِبت كنت أموت في اليوم مائة مرة فكيف وأنت تريدُ الرَحِيلَ للأبد؟!
- أنا لست ابنك!.. لم أعد ابنك.. أنَا آخر غير هذا الذي تعرفينه.. غير الذي رَبيتهِ في منزلك.. أنا آخر لم أَعُدْ أعرفه.. ولا يعرفه أحد.. ولا يُطِيقه أحد.. ولا يريده أحد.
- بل أنت ابني.. أنت الحبيبُ الغالي في كل حالٍ وعلى أيِّ وضع.. ومن قال أنه لا يريدك أحد؟! من قال لك هذا الكلام؟ ثُمَّ أو لا أكفيك أنا؟! أو لا يكفيك أن أمك حبيبتك هي التي تريدك أن تكون لها ومعها؟!
- لِمَ يا أمي؟! لِمَ أَخْفَيتِ عني كل هذا الوقت؟ لِمَ لَمْ تُخبريني وقد سألتك مرارًا؟ لِمَ لَمْ تخبريني وقد طلبت منك الصدق في القول؟! لِمَ تَرَكتِني أُغذي عقلي وروحي بهذا الوهم طوال الوقت؟!

تألَّمت ملامحها وانعصرت عيناها عن خطين نَادِمَيْن من الدموع، قبل أن تستجمع عافيتها لتلقي بالحبَّات من الشباك بكل عزمها، ما كان إذنًا لجسدِ عمرو ليفك حِصَاره عني، وينقلب على ظهرهِ تتلاحق أنفاسه.

بعد أن أَتَمَّتْ مهمتها أَسْنَدَتْ ظهرها إلى دَرْفَةِ الدولاب تلتمس شهيقًا متمنعًا:

- أُخبرك!.. وبأيِّ قلبٍ أخبرك؟!.. بل أيُّ أمٍ أكون إن أخبرتك؟!.. أنا التي أَرَاكَ كُلَّ يومٍ تتسلل ليلًا بذات اللهفة والشوق، فأقول ربما تكون تلك آخر مرة ولن يذهب بعدها مجددًا، رُبَّما أَدْرَكَ أَنَّها تتمنعُ عليه أو أَنَّها سَافَرَت أو هَاجَرَت، لكن خِذْلَانك يتحولُ لأملٍ عجيبٍ باللقاءِ فِي اليومِ التالي. كيف أُخْبِرك وأنا أَرَاكَ تجلسُ بيننا طُوَال الوقت ساهِمًا؟ على شفتيك ابتسامة وقلما تبتسم، فأعرف أنها

تطوف ببالك، وأنك تحدثها بينك وبين نفسك وإلا ما أَخْطَأَتْ عشراتُ الكلمات التي تخرج منك سهوًا إذ أحدثك في أمورٍ شتىَّ، كيف أخبرك وأنا أرى المصائب تمزقك والنكبات تُعييك فصرت تنبش عن الفرحة بفارغ الصبر؟ فأي أم أكون لو انتزعتك من بهجتك حتى ولو كانت زائفة! كيف أخبرك وأنت قلبي الموجوع وكلي المكلوم فأزيدك أوجاعًا فوق أوجاعك، وطآماتٍ فوق طآمتك؟ في كل يوم تخرج كنت أقول: يا رب، أجِّل معرفته بهذه المصيبة لأقصى أمد، بل ليته لا يعرف أبدًا، يا ليت أهلها جميعًا يغادرون أو يسافرون أو يهاجرون بغير رجعة، فهذا أهون له من أن يعرف.

مَرَّرَتْ يدها على وجهي تمسح دموعي:

- ستُحب من جديد يا زين، وستلقى من تبادلك بأكثر مما كنت تتمنى، ستطيب أيامك وتكون كأجمل ما يكون، أنت أبيض القلب، نقي السريرة، حلو المعشر والسيرة والكل يُحبك وأنت تعرف ذلك.
- كل من أحبوني طردوني.. أهل عائشة طردوني.. وأصحابي طردوني.. صرت عارًا حدَّ أنه لا أحد يطيق الكلام معي أو حتى سماعي، أصبحتُ وباءً على الكل.

لم أستطع أن أقاوم سيلًا جديدًا حارقًا لدموعي:

- في كل صباحٍ أخرج لأرى كل من في عمري يذهبون لأعمالهم ومصالحهم وأنا من بينهم أتسلل خلسةً لأذهب إلى السجن، أتلفَّت ورائي في كل دقيقةٍ دَاعِيًا الله ألَّا يكون قد رآني أحدٌ أو عرف بشأني، أخرج من السجن لأجدني في ألف سجنٍ وسجن، أمشي في الشوارع تمزقني الوحدة ويُعْيِيني الهَم، لا أعرف ماذا أفعل وما الحل فيما أنا فيه؟ من أسأل؟ ولمن أشكو؟ وأيُّ بابٍ تبقى لأطرقه؟! ومن قد يهتم لمشكلتي ومن قد يسعى لحلها! يقتلني التفكير فأسأل هل فعلت في حياتي ما أُعَاقَب عليه كل هذا العقاب؟ هل أذنبت ذنبًا فينتقم مني الله كل هذا الانتقام؟ وأيُّ ذنبٍ هذا ليكون عقابه بهذه القسوة؟ كل شيءٍ فِيّ وفي حياتي متوقف، كل شيء.

مسحت أمي دموعي: لا شيء متوقف، كل شيءٍ يمضي وإنْ بدا متوقفًا، لا نعلم حكمة الله فيما حصل ولم اختارك من بين الكل لهذا البلاء؟، ليس لنا إلَّا أن نأخذ بالأسباب وأن نطرق كل الأبواب، وكما بدأت الغُمَّة ستنتهي، وكما أن للعسرِ موعدٌ فلإنفراجه ميقات، ألم تسأل لم اختارك الله يا حبيبي من بين أصحابك لهذا البلاء؟! ألم تلحظ أن الكل يحبك ويشيد بأخلاقك وتربيتك؟ وأنَّه ما أَنْ يُذكَرُ اسمك في مجلسٍ إلَّا ويقترن بالمدحِ والاستحسان، الله لا يبتلي إلَّا أَحَبَّ عِبَادِه إليه، ولو كنت لعوبًا ليّنًا هيّنًا لما اصطفاك

الله لاختبارٍ بهذه القوة، وسيجزيك الله في النهاية بأجزلِ العوض على صبرك وجَلَدِك هذا، وستعود لحياتك وعملك بأفضل مما كنت عليه، مُسْتَعِيدًا في أيامٍ قليلة ما فُقِدَ منك بالأشهرِ الطويلة.

اِحْتَوَت رأسي وكأنها تريد أن تخفيني عن العالم:

- هذا ابتلاءٌ من الله يا زين، لا نتعدى الحدود فيه قولًا أو فعلًا، نحن فقط نتوكل على الله وندعوه ونأخذ بالأسباب ولا نسأل لماذا تفعل بي هذا يا رب؟ ولا لماذا أنا يا رب؟! ولا كيف هذا يا رب؟!
- لن أسأل يا أمي، لن أسأل لماذا ولا كيف؟ ولكن ألَا يحق لي فقط أن أسأل إلى متى؟ إلى متى سيدوم هذا الوجع وتلك الخسارات؟!

***

كُنْتُ أَظُنُ أنه بمجرد خروجي من السجن سينصلح كل شيء وسيعود كما كان، فقط أخرج! لكني لم أدر أَنَّ ضربات القدر كانت أسرع، وأن التعبَ مستمر، والرَهَق متوالٍ، والخسارات متتابعة، وأني خرجت من سجنٍ إلى سجنٍ أَرْحَبُ ضِيقًا.. لكن هذه المرة بلا جدران.

لأسابيع طويلة لم أستطع أنْ أُقْنع قلبي وعقلي أَبدًا بأن عائِشة قد رَحلت للأبد، وأصبحت بكل سهولةٍ لشخصٍ غيري، فكنت أجدني دون أن أشعر أرتحلُ يوميًا إلى بيتها، أذهب إليها مُغَيَّبًا، مُسْتَسلمًا، لا تَسْحَبني قدماي بقدرِ ما يسحبني كليِّ إليها، وكأنَّ كُلِّي لا يرتاح ولا يَصْمت أنينه إلَّا بالوقوفِ أمامَ شباكها، مُتَطَلِّعا ومُرتويًا بالساعات. حِينًا في وقفتي كنت أنتبه أنَّ بعضَ المارين ينظرون لي بدهشة، ويتهامسون باستغراب، فانتبه أَنِّي كنت أُحَرِكُ فَاهِي مُتَوَهِمًا الكلام معها، وأنها هناك! تسمعني وتجيبني، فأسكت دَرْءًا للهمزِ واللمز، فيما كانت عيناي وحدهما تَدْمَعَان حُزْنًا على حالي.. وعلى فقدي، تَدْمَعَانْ بدموعٍ منبعها القلب.. أما مَصَبُّـها.. فهو كلُّ ما يُوجعُ القلب.

بشكلٍ شبه يومي، وبعد أن أُنهي يومي في "الرعاية"، كنت أقطع البلاد بطُولَها وعَرْضِهَا بحثًا عنها، أذهب إلى المتاجر التي اعتادت الذهاب إليها والمطاعم التي كانت تجلس فيها، أُدَقِّقُ في العابرين بجواري وفي السيارات بالشوارع، أدخل إلى محال وأخرج من أخرى، أمكثُ طويلًا في الأماكن التي كنت أعرف أنها ترتادها، وما أن ألمح فتاة ترتدي ألوانًا مشابهةً لألوانها حتى أقترب وأحوم حولها لأتبين شكلها، مُتلقيًا في تطفلي اللوم وهمهمات غاضبة تنعي الشباب الذي كان يومًا محترمًا، فقط لم أكن أسعى لأكثر من لمحة.. لمحةٍ واحدة.. تروي شيئًا من ظمأٍ لن يُرْوَى، وتُضَمِّدُ ذَبْحًا لن يُشفى، وتُذِيب بعضًا من حُرْقَةٍ لم تعد مشروعة.

لكن.. تمرُّ الأيام تلو الأيام، حتى تذوب القناعة الـمُسْتَأجرة، وتنتهي صلاحية الصبر، لأشعر فعلًا بألم الفقد ووجع الوحدة وأنها رحلت فأخذتني كلي، ولم تكن إلَّا كُلي.

تمرُّ الأيام تلو الأيام، حتى فَزِعتُ من خدري كمريضٍ أفاق وسط عملية جراحيةٍ بعد أن نفذ مفعول البِنج ليجد بطنه وصدره مفتوحين والدماء تُغرقه وأن كل شيءٍ يؤلمه حدَّ الموت.

تمرُّ الأيام تلو الأيام، ليغدُو وقوفي أمام شباكها سكينًا قاسيًا، لا تُزكي حِمْيته إلَّا اجتلاب ذكرى أَيْقنت أني أتقاسمها مع شبحٍ في ذاكرتي، وأنَّ الثلاثون دقيقة التي كنت أقطعها منذ عامٍ إلى بيتها فرحًا وشوقًا، صَارَتْ تقطعني هي ألمًا ووجعًا.

تمرُّ الأيام تلو الأيام، حتى صِرْت أدعو الله بحرقةٍ في كل صلاة أن يا رب آمنت بأنها ذهبت، ذهبت وانتهى الأمر، فأخرجها مني، أخرجها من كياني، أخرجها من عقلي وقلبي، أَلْقِها في هوة النسيان.. لكن النسيان كان هو ما يُلْقَى في هُوَّتِها..

تمرُّ الأيام تلو الأيام، فيغدو الصومُ عن الذهاب إليها ليوم مَشقَّة، وليومين وجع، ولثلاثةِ أيامٍ هلاكٌ وموت.

تمرُّ الأيام تلو الأيام، حتى جفَّت عيناي من البكاء، وانْسَحَقَ صدري من اللوعة، وحتى أصبحت عائِشة كبيتٍ معزولٍ محفورٍ في جدران القلب، أو كطيفٍ شفاف في مخيلتي يلوح أمامي بين آنٍ وآخر.

تمرُّ الأيام تلو الأيام، حتى أقنعت نفسي أنها في سفرٍ طويل، طويلٍ جدًا، ولن تعود منه أبدًا.

تمرُّ الأيام تلو الأيام، حتى مرَّ عليّ في هذا الحال.. عامٌ آخر.

بعد عامٍ في "الرعاية" لم أكن قد اكتسبت أيَّة صداقاتٍ أو تعَرَّفت إلى أشخاصٍ لأُجَالِسهم كل يومٍ كما كنت أفعل في السجن مع سالم ونوَّاف وسعد وعبد الشكور. لسببين، أولهما أني قد أُصِبتُ بحالة من الشرود والسكوت الدائمين، فأنا ساهمٌ دومًا، غائبُ الذهنِ، خاملُ المزاج، ما فُتِحَ معي حديثٌ إلَّا وتاهَ مني آخره، وما سُئِلتُ بآخرهِ حتَّى لم أدرِ ما كان أوله، لم أعدْ أهتم بشيء ولم يعد يعنيني شيء ولم يعد يثيرُني أيُّ شيء. فقط أُحْصِي ساعات "الرعاية" حتى ينتهي اليوم، وأحصي الأيام لينتهي الشهر، وأحصي الأشهر لتنتهي السنوات وتنتهي معها عقوبتي وأمضي لحالي بما تبقى مني. ثانيهما، أن أفراد الشرطة المنوطون بإدارة المكان كانوا صغار السن، نافدو الصبر، متقلبو المزاج، ونحن بالنسبة لهم حسبما قيل لنا عشرات المرات: حثالة المجتمع وقذارة البشر، أكياس قمامة متحركة من لحمٍ عفن. بقناعتهم تلك صرنا - نحن المائة سجين ونيف - في تلك المساحة المحدودة، أهدافًا واضحة للشتم والركل في أي وقت وعلى أي وضع، فما أن يملَّ الضابط منهم من جلسته مع زملائه حتَّى يتمشى في ساحةِ البيتِ نَاثِرًا ضيقه على من يصطفيهم، يركل فخذًا، يضرب قفا، يشتم هذا ويسخر من ذاك، وربما تُغْريه مؤخرةٌ تمركز بزاويةٍ لن تتكرر لقدمهِ التي تنطلق لحظتها كالصاروخ في اللحم المكتنز فيقفز صاحبها ملسوعًا فيما تجلجل ضحكات المتابعين للمشهد من بعيد. وما أن يعود هذا لمجلسه حتى يأتي الدور على ضابطٍ آخر في طابور الملل، فيقوم ليفرغ همه في الموجودين كما فعل صاحبه. لهذا كانت التجمعات والحلقات التي يحفها الكلام والضحك لساعات، كما في السجن، شبه معدومة، لأنها هدفٌ واضحٌ ومميزٌ للعساكر والضباط.

وكنت أجلس معظم الوقت خارج بيت "الرعاية" نفسه، على الرصيف الخارجي، وكان هذا مُتَاحا ومسموحًا به، ولو أن آفته هو نظرات المارين الذين كانوا يتطلعون إلينا - السجناء - وكأننا مخلوقات غريبة أو كائنات لا تحط بالمكان إلَّا لمامًا، لكن ذلك كان هذا أهون لي من أن أكون هدفًا محتملًا لصواريخ أفراد الشرطة وسخريتهم، غير أننا لا نجلس سالمين طوال الوقت، إذ نصبح ملهاةً للعساكر التي تخرج من البيت للتمشية أو لتدخين السجائر، وتجد في سبِّنا وإهانتنا تَسْلِيةً واستعراضًا لا بأس به أمام الناس.

ولم أكن قد حكيت لأي شخصٍ في "الرعاية" عن موضوعي، لا سجين ولا إدراي ولا مسئول ولا ضابط، لأني قد يَئِسْتُ تمامًا من أن يسمعني أو يصدقني أي مخلوق، فضلًا عن أنه لم تَعُدْ بي طاقةٌ للقصِّ والحكيِّ تُفضي إلى خَيْبَةِ أملٍ وإهانات. كنت فقط أفعل ما أُؤْمَرُ به من نقل الملفاتِ وترتيبِ الغرف وغسيلِ السجاد ومسح الأرض وكنسها. إلَّا أنه في هذا اليوم - وكنا نجلس عشرة أفراد خارج مبنى "الرعاية" - وجدتني أنصت إلى أحدهم باهتمام وهو يتكلمُ عن ترتيباتِ الإفراجِ عنه بعد أيام، رُبَّما لأنه كان أول المُفْرَجِ عنهم بشكلٍ نهائيٍّ منذ خرجنا من السجن المركزي منذ أكثر من عام، استمعت إليه وهو يحكي عن أولاده وزوجته وحياةٍ تنتظره وآمالٍ يود تحقيقها وهو ما جعلني، فور ما انتهى من حكيه، أبادر وأسألُ بعض الجالسينَ عمَّن به من طول البال ورحابة الصدر ليهتم بمشكلة متهمٍ بريء، مدان في قضيةٍ ليست بقضيته، دون أن يتذمر أو ينفعل، هنا في "الرعاية" مثلًا!..

- "الرعاية"؟! يقولها أحدهم مُسْتَخِفًّا: "الرعاية" كما ترى، مكانٌ خاملٌ جامدٌ، لا أحد يسمع لأحد ولا أحد يعبأ بأمر أحد.
- إذن فهل أذهب للمخفر؟ ذلك الذي حُجِزْتُ بداخله فور أن قُبِضَ عليّ، أعتقد أنهم هناك يعرفون شيئًا، فهم مَنْ احتجزونني في بادئ الأمر.
- وماذا سيفعل لك المخفر؟! أقصى ما يفعلونه هو أَنْ يضربوا رقمك المدني على الكمبيوتر، ها هو فلان ابن فلان، متهم بكذا وكذا، التهمة صحيحة، عُد من حيث أتيت.
- تنفيذ الأحكام مثلًا أو..؟!

قاطعني أحدهم: أخي ابتعد عن كل هذا، لا تنفيذ الأحكام ولا مخفر ولا رعاية ولا سجن، فكل هذه شرطة! لا تشكو الشرطة للشرطة، لن يسمعوك، وإن سمعوك فليس باستطاعتهم أن يقدموا لك شيئًا، لأنهم ينفذون أحكام القضاء، القضاء يا أخي! لهذا اذهب إلى المحكمة، حيث ملف قضيتك، فبه أصل كل شيء وبه سيظهر كل شيء، قم بتوكيل محامٍ يَطَّلِع عليه أو اذهب بنفسك إن استطعت، ستجد به ورقة أو محضر أو اثبَات أو أحراز تُبرهن ذلك الالتباس الذي تحكي عنه وبالتوفيق يا أخي.

***

وكنت قد بدأتُ منذ أيامٍ أشعرُ بألمٍ في الصدر وبإرهاقٍ لأقلِ مجهود، فأخذت تصريحًا من "الرعاية" لمدةِ ساعتين وعُدْتُّ طَبيبًا. بعدَ الكشفَ أكدَّ لي ما قاله طبيب السجن بأني مصابٌ بارتفاع ضغط الدم، وليس كذلك فقط بل وبالكشفِ والتحليل، ثَبُتَ أني على وشك الإصابة أيضًا بمرض السكري، قال لي الطبيبُ وهو يكتب الأدوية:

"سنك لم يزل بعد صغيرًا، الضغط والسكر كلاهما مرضان مزمنان، لا علاج نهائي لهما، لذا كما نقول: صاحبهما، بقدر ما تهتم بالعلاج بقدر ما ستشعر بالراحة وكأنك سليم تمامًا، هذه الأطعمة ممنوعة، وهذه المشروبات ممنوعة، اشرب كذا، افعل كذا، واظب على تلك الأدوية – يكتب أسماء الأدوية وبجوارها جرعاتها اليومية – وإن كنت تسير في الشارع وشعرت برعشةٍ في أطرافك فأدخل أقرب محل وخذ أي شيء يحتوي على السكر وكله فورًا، حلوى أو شيكولاتة، أقول فورًا، لا تنتظر حتى لتدفع ثمنه ولا تنتظر حتى تعود لبيتك وإلَّا وقعت في غيبوبة".

حمدت الله واسترجعته ثم تناولت "الروشته" شاكرًا، خَرَجْتُ من العيادة وكانت قد تَبَقَّتْ لي ساعةٌ من مُدَّةِ التصريح، فَتَوَجَّهْتُ إلى مبنى المحكمة بعد أن تذكرت كلام السجين الذي كان قد ألمح بأني قد أجد هناك ما يتعلق بحلِّ مشكلتي. حِينَ وصلت دَلَفْتُ بنصفِ روحٍ ونصف عزم، سألْتُ أحدَ المارين عن مسئولٍ به من سعةِ الصدر ما يجعله يسمع شكواي بصبرٍ وطول بال، فدلوني على مكتب ما، استجمعت شجاعتي ودَلَفْتُ لأجِدَ أربعينيًا سمينًا أسمر البشرة، صافحته فابتدرني بابتسامةٍ شديدة الألفة، وكأنه يعرفني منذ زمن:

- أَهْلا يا سيدي، بم أستطيع خدمتك؟
- اسمي زين الدين أحمد.. وأنا..

توقفت الحروف في حلقي فيما بدا هو ينتظر كلامي بأدبٍ شديد.

- اسمي زين الدين أحمد الشُهبي، من "الرعاية اللاحقة".
- "الرعاية اللاحقة"!

- نعم.
- أهلًا وسهلًا، تفضل.. تفضل.. موظف هناك؟
- لا لست موظفًا، أنا أحضر في "الرعاية اللاحقة"، أتابع معهم.

تغيَّر وجهه شيئًا: تحضر! وتتابع!

- أقصد أني....
- أرني بطاقتك من فضلك. قالها هو يمد لي يده.
- أتبع برنامج التائبين.
- البطاقة من فضلك.

ناولته البطاقة - هوية السجين - فالتقفها و قرأ بياناتها بسرعة وهو يهزُّ رأسه مُتفهمًا. نقر لوحة الكمبيوتر: أنت لم تزلْ بعدُ سجينًا.

- لقد خرجت من السجن بعفوٍ شرطيٍّ والآن أنا في "الرعاية اللاحقة".
- وماذا قد تعني "الرعاية اللاحقة"؟! سجين.
- سيدي.. حين سألت قالوا أنك من سيسمعني، لقد قضيتُ عَامًا كامِلًا في السجن وعامٌ آخر في "الرعاية" ولم تزل أمامي ثلاث سنواتٍ جزاءً لتهمٍ لم أرتكبها، ولا أعرف عنها أي شيء، فُصِلت من عملي وتوقفت حياتي كليًا وجئتك كي....

قاطعني: لا لا.. لا تقل هذا الكلام هنا، هذه أمور فَصَلَت فيها المحكمة وانتهى الأمر، وتوقف حياتك وعملك إنَّما هي تبعات أفعالك، أم تظن أنه بعد جُرْمِكَ سيسيرُ كلُّ شيءٍ على ما يرام؟

- لكن أقسم لك أني بريءٌ ولم أرتكب أيَّ جُرْم، جئت هنا طلبًا للعونِ والمُسَاعدة.
- المساعدة؟ وكيف لي أن أساعدك؟ ساعِد نفسك، خُذْ.

قالها وهو يرمي لي البطاقة.

- أنا أنفذ حُكْمًا لشخصٍ آخر، أبدلوني به وسجنوني مكانه و.....

قاطعني: لا آخر ولا غير آخر، هذه القصة تحكيها في مكتب الشرطة وليس هنا، هيا تفضل.

- اطلب ملف قضيتي لدقيقة واحدة وتفحَّص أوراقه، دقيقة واحدة وسيظهر أمامك أنني لست المعنيَّ بكلِ هذا، ستعرف أن هناك خطأ ما، ربما تشابه في اسمي مع اسم المتهم أو خطأ ما في الرقم المدني أو ربما...

احْتَدَّتْ نبرته: أطلب ماذا؟ ملف قضيتك! أمجنونٌ أنت؟ أين تظن نفسك؟ تأمر وتطلب فنُنَفِذُ سمعًا وطاعةً؟ لا ملف ولا غير ملف، ولا يحق لك الاطلاع على أي شيء. الشيء الوحيد المسموح لك هو أخذ أماناتك، نقودك أو رُخصك التي ضبطوها أثناء القبض عليك، أما غير ذلك فغير مسموح، هَيَّا من هنا، انتظر، تعال.. هل تداوم على الذهاب إلى "الرعاية"؟

- نعم.
- أتقوم بالتحليل؟[19]
- نعم.
- إذن فكيف أتيت اليوم؟
- أخذت تصريحًا.
- اِمْشِ من هنا حالًا ولا تذهب إلى أيِّ مكان إلَّا "الرعاية"، ولا تَأْتِ إلَّا عندما ينتهي حكمك، أما غير ذلك فلا تُرِني وجهك إطلاقًا، لا في مكتبي ولا في طرقات المحكمة ولا في أيِّ مكان، وإلا سنُخَاطِبُ الشرطة للقبض عليك لتمضي باقي عقوبتك في "المركزي"، مفهوم؟

احتَّد أكثر: مفهوم؟

أومأت إيجابًا ثم وليته ظهري فلاحقني بعينيه حتى خرجت من مكتبه، تراجع بعدها في كرسيه قبل أن يرفع سماعة هاتفه مبدلًا غضبته بالضحكةِ الواسعة التي قابلني بها منذ دقائق.

---

[19] على مَدَارِ اليومِ في "الرعاية" تُؤْخذ عيناتٌ عشوائيةٌ من السجناءِ ليقوموا بتحليل المخدرات، والذي غرضه معرفة إذا كان السجين قد عاد للتعاطي أم لا، حيثُ يُعطى كل سجين علبةً بلاستيكية للتبول وقطعة كرتونية صغيرة، وبحسب لون القطعة يتم معرفة إذا كان الدم يحمل مواد مُخدرة أم لا. السجين الذي يثبت تعاطيه تزيد عقوبته ويعود للسجن المركزي مرَّةً أخرى.

قُبَيل خروجي استدللت من أحد المارين عن مكان "تسليم الأمانات" ذلك الذي ذَكَرَهُ الموظف بأنه المكان الوحيد المتاح لي الذهاب إليه. ولم أكن أذكر تحديدًا ما الذي ضُبِطَ معي قبل عامين! ربما مفاتيح البيت، حافظتي، حجوزات خاصة بزفافي حينئذٍ، وبالتأكيد هاتفي الجوَّال.

حِينَ اِسْتدليتُ عَبَّأت طلبًا ودَلَفْتُ به غرفةً واسِعةً توزَّعَت بها عِدةٌ مكاتِب ويتَوَسَطها مكتبٌ أكبر جلست إليه فتاةٌ في العشرينات، عرفت أنها رئيسة القسم، تَناوَلَتْ مني الطلب ودَارَت بعينيها بشكلٍ رَادَاريّ تتطلعُ لأعمدة الأدراج المرتَّبةُ أبجديًّا وهي تُدَمْدِمُ بشفتيها، تَوَجَّهَتْ بحسمٍ لواحدٍ منها قبل أن تَجُرَّ درجًا عملاقًا تَضَامَّتْ بداخلهِ عشرات الأظرف، فَرَزَتها بسبابتها وإبْهامِها قبل أن تنتقي واحِدًا مُدَوَّنٌ عليه اسمي رباعيًا ومُذَيَّلا برَقَمٍ ما، عادت ونَزَعَتْ اللاصِقَ، ثمَّ كَبَّت المحتويات فوق الطاولة:

مفتاح سيارة.. بطاقاتان بنكيتان.. مفاتيح شقة أو مكتب.

- لحظة، سآتيك بالكشفِ لتُوَقِّع بالاستلام.

قالتها وانصرفت بينما توقفت أنا مُحَمْلِقًا في كلِّ تلكَ الأشياء، لم تكن تلك مفاتيح سيارتي، ولا مفاتيح بيتي، ولا تلك بطاقتي البنكية.

- سيدتي، عُذْرًا! تلكَ الأشياءِ لا تخصني! يبدو أنكِ قد أتيتِ بمظروفٍ آخر. ابتدرتها حِينَ أَتَتْ تحملُ الكشفَ على عَجَل.
- كيف ذلك؟ قالتها وهي تضع الكشف على المكتب وتنظر لبيانات الظرف وتعود لمقارنته ببطاقة هويتي.
- أولست زين الدين أحمد الشُهيبي؟
- بلى.
- ورقم هويتك هو (......).
- هو فعلًا.
- إذن تخصك، كيف أنها لا تخصك؟

قالتها وأكملت جلب المحتويات من الظرف لتتزايد دهشتي.

رخصة قيادة!

هاتف جوَّال!

أَشَرْتُ للهاتف: حتى أن ذلك الهاتف لا يخصني! أنا لم أَحْمِلْ يومًا هذا النوع من الهواتف! كيف لي أن أكون وَاهِمًا؟! أنا واثقٌ مما أقول، تحري جيدًا من فضلك.

- عمَّ اتحرى؟ اسمك ورقمك المدني ورقم قضيتك على الظرف! تقولها وهي تُكْمِل التفريغ.

- سيدتي أنا متأكد مما أقول! هذه الأشياء يبدو أنها..

اِنْقَطَعَ كلامي فجأة حينَ اِسْتَقَرَّ على الطاولةِ ذلكِ الذي اتَّسَعَتْ له عيناي اِسْتِغْرَابًا، واعْترتني بوجودهِ وسط تلك المُبعثرات الغريبة دَهْشَةٌ عَارِمة...

- هذا! هذا جواز سفري! أشرت مُنْدَهِشًا.

- جيِّد، هناك أمل.

- كيف وصلَ إلى هنا؟!

- أتسألني؟

- أعني أني لم أكن أحمله معي يوم قُبِضَ عليّ، هل بإمكاني أن أراه؟

- ستأخذ كل تلك الأشياء حالًا ولكن ستُوَقِّعْ لي قبلًا على الاستلام. قالتها وهي تُمَرِرُ سبابتها بطول الورقة بحثًا عن اسمي.

- فقط أريد أن أراه للحظة، إن سمحتِ.

هَزَّتْ كتفيها بما يعني" كما تشاء".

تَنَاوَلْتُ جوازَ السفرِ وتَصَفَّحتُ أوراقَهُ مُنْدَهِشًا، الصفحات مُدَوَّنٌ فيها تأشيراتي إلى الدولِ التي سافرتها، لا أذكر أنه كان بحوزتي حين قُبِضَ عليّ في الشارع منذ عامين! أنا لا أتنقل به أصلًا! دائمًا في خِزَانتي!

ظللت أُقَلِّبُ الأوراق وفي رأسي ألف علامة تعجب، أحاولُ أَنْ أتذكر أين تركته آخر مرة؟ وكيف وصل إلى هنا؟ بل ما سرُّ وجودهِ وَسْطَ تلكَ الأشياءِ الغريبة؟!

حينَ وصلت إلى الصفحة الأخيرة طالعتني بياناتي: اسمي.. عنواني.. رقمي المدني.. ولكن....

ولكن.. وقعت عيناي على تلك التفصيلة، تفصيلةٌ واحِدَةٌ! شاذة! وغريبة! ولغرابتها دَقَّقْت النظر فيها بعدمِ اِستيعاب لعشرِ ثوانٍ تقريبًا، عشر ثوانٍ وكأن الزمن قد توقف تمامًا، لتُفضي في النهاية إلى اضطراب كياني كله، ولتسري بجسدي رعشةُ قوية كأنها صعق الكهرباء، فتخبو الأضواء وتختفي الموجودات وليعمَّ الظلامُ كل شيءٍ إلَّا الدفتر وحده كان يُوُمِضُ بين اصبعيّ كألِفِ مصباحٍ ساطع..

حين رفعت الفتاة عيناها عن الورق للحظة توقف رأسها بعد أن راعها شكلي، فقد كنت كلوحٍ من الثلج، فاغرٌ فاهي شَاخَصٌ بصري، اعتدلت مُسْتَغْرِبة:

- ما بك؟! ماذا حصل؟

هممت بالكلامِ لكني لَمْ أَجِدْ صوتًا، فَفَحَحْتُ: هو.. هو.. هو..

أَلْقَتْ بالقلم والأوراق: ما بك؟!

فحت أكثر: هو.. هو.. هو..

- عَمَّن تتكلم؟ هو من؟! طبيب! أتريد طبيبًا؟ هل آتيك بطبيب؟

اِسْتَعضتُّ عن خِرسي بأن زِدْتُ من اتساعِ عينيّ وارتعاشات سبابتي مُشيرًا إلى جواز السفر لأَسْتَرعي انتباهها النظر إليه، وكان ذلك حين راع موظفاتٌ أخريات كُنَّ في مكاتبَ قريبة الارتباك فجرين وتكأكأن حول الفتاة:"ما به؟ ماذا حصل"، هَزَّت رأسها: "لا أفهم"، خطفت إحداهن جواز السفر مني. دققت فيه.. ثم في وجهي..

هنا، وفي تلك اللحظة، صَرَخْتُ:

- أقووووول.. هو.. هو.. هو.. هو الذي تبحثون عنه.. هو الذي ارتكب كل هذا.. هو المجرم.. هو المجرم.. هو المجرم.. هذا هو المجرم الحقيقي..

خطفت الفتاة جواز السفر مني، قارنت بيني وبين الصورة الغريبة بالجواز: ما هذا؟! كيف ذلك؟!

جمعت المضبوطات مرةً أخرى وأعادتها للظرف: تعال معي بسرعة..

اِنْطَلَقَتْ خَارِجَةً من الغرفة، تَشَقُّ بي طرقاتِ المحكمة واِلْتِوَاءَاتِها تُحْصِي في سَيْرِنا نظرات الاستغراب والدهشة. أتخبطُ بالماشيين يُمَطْوِحْنِي إعياءُ الصَدْمَةِ، تتماوجُ الممرات وتتداخل الغرف وتتصارع الوجوه ولم أزل أَهْتِفُ هَاذِيًا ودائخًا: "هو.. هو.. هو.. هو المجرم الحقيقي"، على بابٍ ما طَرَقَتْ الفتاة طَرْقَتَينِ ودَلفت، تَقَدَّمْت من رجلٍ يجلس إلى مكتبٍ تعلوه لافتة: "وكيل النيابة"، اسْتأذنت منه وكَبَّت المضبوطات أمامه، فنقل الوكيل بصره بين الأشياء وبين الفتاة مُتَعَجِّبا: "لا أفهم شيئًا". قالت الفتاة مُشِيرَةً إلي:

- هذا الشخص قُبِضَ عليه قبل عامين، أتى اليوم للحصول على الأشياء التي وُجِدَت معه وقت القبض، وبينما نقوم بفرز المضبوطات وجدنا هذا....

فتحت الفتاة جواز السفر على صفحة البيانات:

- جواز السفر هذا يحمل بيانات هذا الشخص، اسمه ورقمه المدني، لكن هذه الصورة لشخصٍ آخر.
- ماذا تقولين؟!

التَقَطَ الوكيل منها جواز السفر وجعل ينقل بصره بين الصورة وبيني: كيف هذا؟! أين هويته؟!

نَاوَلَته الفتاةُ بطاقة هويتي فَجَعَلَ يُقَارِنُ بين بياناتها وبيانات جواز السفر ثُمَّ بين صورةِ الهوية وبيني، قَطَبَ ملامحه تَدْقِيقًا فاستغرابًا، ثُمَّ حَاسِمًا أَمَرَ الفتاة بجمع المضبوطاتِ مَرَّةً أخرى، أغلق ملفًا كان أمامه وهَبَّ خارجًا فانطلق كلينا وراءه، مَشَيْنا على عجلٍ بطرقات المحكمة حتى وصلنا إلى غرفةٍ يحملُ بابها لافتة "رئيس النيابة"، دَلَفْنَا فيما تَقدَّم هو من وقورٍ يجلسُ إلى مكتبٍ يرتاحُ أمامه عَدَدٌ من وكلاء النيابة. قَامَ الوكيلُ بإعطاءِ الرئيسِ جوازَ السفرِ وهَمَسَ إليه بكلماتٍ اِتَّسعت لها عينا الأخيرِ دَهْشَةً. قَلَّبَ جواز السفر بين يديه: "أمعقول؟! كيف هذا؟! أفي شيكاغو نحن؟! من هو؟!"

أشاروا إليّ، فنظر لي مُتَفَحِّصَا: "أتقول سُجِنْت"؟!

كانت الدموع تُغرقني كطفلٍ تائه: نعم والله سُجِنْت.. سُجِنْت..

- أتعني ذهبت للسجن؟ نُفِّذَ فيك الحُكم؟!
- نعم والله نُفِّذَ فِيّ الحكم وسُجِنت لعامين كاملين.
- عامان كاملان! الله أكبر. قالها وهو ويُوَزِّع حروفها بدهشة على الموجودين معه.

تهامس وكيل النيابة والرئيس ببضع كلمات، أَجْرَي الأخيرُ بعدها اِتِصَالًا سريعًا، اِستدعى فيه عددًا من الموظفين للإتيان بملفاتٍ ما، وكان ذلك في نفس الوقت الذي قام فيه موظفو النيابة الآخرون من أماكنهم مبهورين. انكبُّوا حَوْلَ الأحرازِ يَفضونها ويتفحصونها ويناولونها لبعضهم البعض باستغراب واهتمامٍ شديدين كبعثةٍ أثرية وَجَدَتْ كَشْفًا هامًا.

بعد دقائق أشار رئيس النيابة لمن بالغرفة: حسنًا تفضلوا جميعًا الآن، واتركونا وحدنا.

توجَّه إليّ: تَفَضَّل واسترح يا زين.

***

على مدى ساعةٍ كامِلة رَاحَ رئيسُ النيابةِ يَتَصَفَّحُ ملف القضية، مُنْصِتًا لي في اهتمامٍ ومُوَاساة، مُعْتَذِرَا لعشرات المتصلين بمكتبه، ومُؤَجِّلًا ما حُمِلَ إليه من ملفات مع السُعَاةِ والموظفين، مع كل صفحةٍ يقرأها كانت تَرْتَسِمُ على وجهه إيماءاتُ الاستغرابِ والإستياءِ، وحينًا كان يعقد حاجبيه قارئًا سطورًا طويلة باهتمام قبل أن ينفرطَ الحاجبان عن ضحكةٍ قصيرةٍ مُسْتَخِفَّة وكأنه كان يقرأُ نَصًّا هزليًا.

عندما انتهى من القراءة، طَالَعَني باهتمام:

- طوال سنوات عمري وعملي لم أسمعْ ولم أَرْ شيئًا كهذا، أيُّ إهمالٍ هذا الذي طالك؟! وأيُّ خِذْلانٍ ذلك الذي تعرَّضْتَ له؟! أنا لا أجد ما أقوله، بل لا يوجد أصلًا ما يُقال، فأي مواساةٍ لن تفي فقدك، وأي كلامٍ لن يُهوِّنَ مما كابدته وعانيته، كم عمرك يا زين؟

- ثمانية وعشرون، لم أحكِ إلَّا القليل ولكني فقدت الأكثر والأكثر مما لا أستطيع التعبير عنه ولا يسع الوقت لحكيه.

- لا حاجة بك لتحكي أو تُعَبِّر، أنا أعرف السجون وما بها، وأعرف ما تفعله بالناس، حقك سيعود إليك كاملًا وسيتم مُحاسبة المذنبين بل والمقصرين أيضًا، هل تعرف هذا الشخص الذي بالجواز، هل التقيته من قبل؟

أراني الجواز فتبدلت ملامحي إلى الغضبِ الشديد وسرت رعدةٌ بأطرافي وأنا أتأمل صاحب الصورة هذه المرة بتركيزٍ أكبر، كان مربع الوجه، عريض الجبهة، أسمر البشرة، واسع العينين نافِذهما.

- لا أعرفه ولم أره في حياتي ولن يشغلني من الآن شاغلٌ إلَّا أن أجده، أريد أن أقتله ألف مرة، متشفيًّا بعذابه ومعاناته في كل مرة، بل في كل لحظة، لكن قبلًا أريد منه إجابةً واحدة، لِم فعل بي هذا؟ ماذا فعلت له ليفعل بي كل هذا؟ وحتى هذا الحين سأُطَارِدُه طوال عمري وما حييت، وبرغم هذا لن يُشفى شيء من عذابي وتعبي.

- لا تقلق بشأن ذلك، سنبحث عنه وسنجده، بل أن هذا ما سنفعله منذ اللحظة، وسيقضي عقوبته الأصلية مُضَافًا إليها عقوبة ما فعله بك، ألَا تستطيع أن تُخَمِّن كيف وصلَه جواز سفرك إذن؟

- لا أحمل الدفتر إلَّا وقت السفر، وعندما أعود تُفْرِغ أمي الحقيبة وترتب محتوياتها في الدولاب وتضع جواز السفر في خزانتي دومًا، آخر مرة سافرت بالسيارة كان منذ ثلاثة أعوامٍ إلى مصر، فأمي مصرية وكنت في زيارة للأهل هناك، أثناء العودة حصلت لي حادثة سير، كانت حادثة قوية، تحطَّمت فيها السيارة وظلَّت لثلاثة أيام في الشارع، قبل أسحبها للمنزل وأبيعها كخردة ويبدو أن جواز السفر كان بداخلها ولم أنتبه لذلك.

- لا عجب إذن إن كان هذا المجرم قد وصل لجواز سفرك عن طريقها، حسنًا، مذكورٌ هنا أنك قمت برفع دعوى!

- نعم، فعلت.

- أي وقفت أمام القاضي؟!

- نعم بالضبط.

- ماذا حصل إذن؟ ألم تتكلم معه؟ ألم تشرح له أمرك؟

- لم يترك لي فُرصة للكلام، رَفَضَ سماعي تمامًا بعد أَنْ أَصَرَّ أني زين المتهم بحيازة المخدرات والهرب، كنت أتوسله أني لست المقصود بكل هذا، لكنه لم يسمعني مطلقًا، في النهاية تم تخفيف تهمة الهروب من سنتين إلى شهرٍ واحد، بينما ظلت عقوبة حيازة المخدرات كما هي، خمس سنوات.

- إذن هنا يتضح كل شيء، هذا المجرم تَحَصَّلَ على جواز سفرك واستبدل الصور، قُبض عليه بتهمة حيازة المخدرات، وحين طالبوه بإثبات الشخصية قَدَّم جواز سفرك المزوَّر الذي يحمل اسمك ورقمك المدني ولكن يحمل صورته هو، صَدَرَ عليه الحكم بالسجن لخمس سنوات بتهمة التعاطي والحيازة، لكنه هرب، فصدر ضده الحكم لعامين آخرين، وحين تم إيقافك في إشارة المرور كشفوا عن اسمك ورقمك فاتضح أنك مطلوبٌ للضبط والإحضار فتم القبض عليك، حينَ أُودِعت السجن كان لسوء حظك كل مراحل التقاضي بخصوص قضية المخدرات قد نَفِدَتْ وصار الحُكم نهائيًا، ولم تتبقَ سوى قضية الهروب والتي تم تخفيضها من عامين إلى شهر.

أغلق الملف، عقد يديه فوقه، نظرَّ إليَّ مُتَعَجبًا:

- ألم تحاول أن تصل لأيِّ مسئول لتتكلم معه يا زين؟! أمعقولٌ أنه لم يسمعك أي شخص؟

- بل قُلْ من الذي لم تتكلم معه يا زين؟! سيدي، أنا لم أتكلم فقط، لقد صرخت وتوسلت وترجيت، ذَرَفْتُ الدموع دمًا، لكن لَمْ يسمعني أحد ولم يعبأ بي أحد، كلهم عاملوني وكأني مجرمٌ يُنكر تهمته، ولولا الصدفة التي قادتني إلى هنا لظللت حبيسًا لنهاية مدتي.

تأملني رئيس النيابةِ سارحًا وكأنه يحاول تصور جملتي الأخيرة، أَرْدَفْت:

- كل ما أطلبه وأسأله هو هل ستتوقف تلك المعاناة؟ هل سينتهي ما أنا فيه؟

- لقد انتهى بالفعل ولن نَكِلَّ حتى نعيد لك حقك كاملًا بل وسيُحاسب كل من له يدٌ فيما حصل لكَ أعدك بذلك.

أَرْدَفَ: حسنًا يا زين، لقد انتهينا هنا، لقد كان يومًا طويلًا عليك، فقط اترك بياناتك كلها بالخارج مع السكرتير، عنوانك وأرقام تليفوناتك وسنقوم باستدعائك خلال يومين على الأكثر، اذهب لمنزلك الآن وارتح واهدأ، وكلُّ شيءٍ سيتم حله قريبا جدًا، اليوم عيدٌ لك..

قُمْتُ شاكرًا وتصافحنا، توجهت إلى الباب، قبل أن أنصرف استوقفني: زين!

التفتت إليه فتابع: ذلك القاضي الذي وقفت أمامه! كنت أتمنى أن يستمع إليك، هو بالذات، لأنَّه لو فتح ملفك..

أخرج ورقةً من الملف وفردها: صورة المجرم الحقيقي من جواز السفر المزور، فإثبات الشخصية هو أول ورقةٍ بأي ملف، كان يكفي للقاضي فقط أن ينظر للصورة ثُمَّ لك، ليتأكد أن من قُبِضَ عليه من قبل ليس هو نفسه الواقف بالقفص.. براءة.

***

لا أدري كم من السبَابِ واللَّعنَات نِلْتُ بينما أقودُ سيارتي بسرعةٍ جنونيةٍ مُنَاوِرًا السيارات والمارين عودًا للمنزل، أخبط المقود بقبضتيّ غاضِبًا وشاتِمًا ولاعِنًا فيما تتصارع برأسي صور وأشكال كل من وصموني بالجنونِ والكذب، بِدَايةً من شرطيِّ المرور الذي استوقفني في الإشارة قبل عامين، ومرورًا بعساكر الحجز والعنبر وتنفيذِ الأحكام ومدير التنفيذ والقاضي! الذي رفض سماعي، ثم اِنْتِهاءً بموظف المحكمة الذي طَرَدَني قبل ساعات، قبل أن تنبسط صورة المجرم بمدِّ الطريق وصفحةِ السماء لأَنْصَلِي غيظًا وحُنقًا أكثر وأكثر. أصرخ باكيًا أن ضَيَّعني، ضَيَّعني السافل ابن الـ (....).. أريد أن أراه ابن الـ (....) لأنال منه حالًا، ألكم المقود: حالًا.. حالًا.. أريد أن أجده بنفسي، أريد أن أقتله، أريد أن أتشفى بتعذيبه، أريده أن يعرف كم عانيت وكم تأذيت وكم فقدت وكيف كنت أموت في اليوم ألف مرة بسببه، كنت أتلفت حولي بحركاتٍ حادَّة باحثًا عنه بين الناس، شاعرًا أنه سينبثقُ أمامي من العدم في أيَّةِ لحظة، أو أني سأجِده بين الوجوه يتمشي أو يعبر الطريق أو خارج من أحد المحلات، فتنتقل غضبتي إلى السيارة، فتُجَنُّ السيارة مُسْرِعةً أكثر وأكثر وكأنها تبثني مؤازرتها واستعدادها معي لمساواة السافل بالأسفلت في أيه لحظة.

حين وصلت قفزتُ من السيارة، دلفت البيت وصعدت السلالم جريًا:

- أمي.. أمي.

كانت في غرفتها تشاهد التلفاز على الأريكة، أَقْعيت أمامها لاهِثًا:

- لقد انتهى الأمرُ يا أمي.. انتهى الأمر.. عرفوه.. عرفوه.. عرفوه يا أمي.

اِنْدَهَشَتْ وِاعْتَدَلَتْ: ما الذي انتهى يا زين؟ وعرفوا من؟ عَمَّ تتحدث يا حبيبي؟! أنت تلهث وتَتَعَرَّق بشدة! ماذا حصل؟

- كنتُ للتوِّ في المحكمة، عند رئيس النيابة، جالسني لساعةٍ كاملة.. أقول رئيس النيابة جالسني لساعةٍ والله.. كان يقرأ ملفي ويسمع مني.. لقد عرفوه.. عرفوا المجرم الحقيقي.

ذَهلت عيناها وهمَّت بالقيام لإغلاقِ الباب فأسرعت قبلها وأغلقته، عُدْتُ مُنْكَبًّا أمامها وحكيت لها ما حصل منذ ساعات، فيما كانت الدموع تتجمعُ بعينيها مع كل كلمة:

- زين أحقًّا ما تقول؟!.. أحقًّا ما تقول؟!.. اصدقني القول.
- أقسم لك يا أمي أن هذا ما حصل فعلًا.
- هذا يعني أنك بريء.. عرفوا ببراءَتِك! وأنك لم تفعل أيًّا من تلك الأشياء!
- عرفوا وأيقنوا ببراءَتي، واتضَّحَ لهم كل شيء، ورئيس النيابة وعدني بإعادة حقّي والقصاص من المذنبين بل والمُقَصّرِين أيضًا.

تَأَمَّلَتني للحظاتٍ تستنطقُ قَسَمَاتي بأني أصدقها القول ولا أهذي، قبل أن تَتشَبَّثَ بكتفيّ وتَسحبني إليها، احتضنتني لثوان كانت فيها متسعة العينين ذاهلة، حين وَعَتْ اختلجت ملامحها وانسلت الدموع المتجمعةُ بعينيها، انفجرت بكاءً حتى اضطرب جسدها بشدةٍ فضغطتها مُهدئًا ومحتويًا، فيما كانت تردد بلا انقطاع أن الحمد لله.. الحمد لله.. استجاب لي.. استجاب لي.

تسابقت أطرافها إلى الأرض سُجُودًا وبكاءً، أعنتها على النهوض، اعْتَدَلَتْ، كَفْكَفَتْ دموعها، تأملتني بِحُب:

- الحمد لله يا زين.. الحمد لله يا حبيبي.. أنت حبيبي أتعرف ذلك؟ قلت لك أن الضُرَّ سينكشف وأن الغمَّة ستنفرج، ألم أفعل؟! متى قالوا لك إذن أنهم سيقومون بحل هذا الموضوع؟ متى سينتهي كل هذا؟
- خلال يومين على الأكثر، قال لي رئيس النيابة انتظر منا استدعاءً خلال يومين.
- الحمد لله.. اللهم لك الحمد.. اللهم لك الحمد.

ثم أن الغضب ارتسم فجأةً على ملامحها: لكن من يكون هذا المجرم إذن؟ من يكون أخبرني؟ وأين هو الآن؟ ولم فعل بك ذلك؟ هل تعرفه؟

- لا أعرفه ولم يعرفوا بعد شيئًا عنه، قذرٌ سافل أوقعني سوءُ الحظِ في طريقه وسيقضي العقوبة مُضاعفة، لكن شكله مجرم يا أمي، مجرم حقًا وكأنه خُلِقَ لأجلِ ذلك.
- اللهم لطفك وسترك، سأُصليه بالدُعاءِ ليل نهار أن لينتقم الله منه شر انتقام وأن يقع بقبضة الشرطة في أسرع وقت، متى قالوا لك إذن أنهم سيقبضون عليه، متى سيجدوه؟
- سيبدأون إجراءاتهم على الفور، وسيقومون باستدعائي خلال يومين للتحقيق فيما حصل.
- ولكن أنت بريء أليس كذلك؟! سواء قبضوا عليه أو لم يقبضوا أنت بريء ولست معنيًّا بكل هذا.
- نعم.. نعم.. فلقد ثبتت لهم برائتي واِتَّضح لهم الالتباس الذي تسبب في هذا كله.
- إذن لن تذهب للرعاية مرةً أخرى؟
- "الرعاية"!
- أَوَلَمْ يتضح لهم أنه لا علاقة لك بكلِّ هذا؟!

تَحيَّرت: لا أعلم يا أمي، في غمرة ما حصل لم أسأل رئيس النيابة حول موضوع "الرعاية" هذا.

- إذن لا تذهب يا زين، ولِمَ تذهب؟! بالتأكيد رئيس النيابة هذا راسلهم أو هاتفهم وأخبرهم بالموضوع.
- لا أعلم إن كان فعل أم لا! ولا أفهم ما الإجراءت بهذا الخصوص، لكن بالتأكيد سيأتيهم إشعارٌ بإخلاء سبيلي خلال تلك الأيام، سأذهب غدًا وأخبرهم بما حصل، فقط كيلا أنقطع فجأة فتتعقد الأمور أكثر.

بدا على أمي الامتعاض، فابتسمت وقبَّلتها:

- قد هان الأمر يا حبيبتي ولا ضَيْرٌ في الذهاب ليومين آخرين إن كان في هذا حسم الأمور، فقط علينا الآن أن نتصل بعمرو لنخبره بالبشارة.

القِسْمُ الثَالِثُ

بسماتٌ ذات عبرات..

- ١ -

بعد يومين آخرين تلقيت اِتِّصَالا طُلِبَ فيه مني الحضور إلى المحكمة، فور أن وصلت اقتادني السكرتير إلى مكتبِ أحدِ وُكلاءِ النيابة والذي صافحني ودَعَاني للجلوس، سألني عدة أسئلة روتينية دَوَّنها الكاتب بجانبه قبل أن يفتح مَلَفًّا:

- زين، لقد قرأت ملف القضية كاملًا، ومهما قلت فلن أستطيع أن أخبرك كم هو مؤلمٌ ما حصل لك، ما قرأته كان عجيبًا جدًا، ولم أكن أظن أنه يحدث إلَّا في الأفلام والمسلسلات، ولذلك فإن الإجراءات التي سنمر بها سويًا هي ما ستأتيك بحقك كاملًا، وستُسَاعِدُ في معرفة كل المذنبين وتقدمهم للعدالة.
- آمل ذلك حقًّا.
- سأسألك عدة أسئلة وأريدك أن تجيبني بدقة، هل تعرف هذا الشخص الذي بجواز السفر؟ هل قابلته من قبل أو حتى رأيته في مكان ما؟
- لا نهائيًا، لم أره مُطْلقًا.
- أتذكر آخر مرة كان فيها جواز سفرك بحوزتك؟
- في منتصف عام ٩٨، حيث كانت آخر مرة سافرت، كانت إلى أهلي في مصر، من بعدها لا أذكر أين ذهب، بالأحرى لم أُضْطَر للبحث عنه لأني لم أسافر بعدها.
- ألاَّ تستطيع أن تُخَمِّن كيف ضاع؟
- في طريق عودتي بالسيارة من السفر كنت مُرهقًا وجَرَتْ لي حادثة، كانت حادثةً قوية انقلبت فيها السيارة وظلَّت في الشارع لثلاثة أيام قبل أن أسحبها للمنزل وأبيعها كخردة، لذلك فأغلب الظن أني نسيت جواز السفر بداخلها وطبعًا لم أبحث عنه من حينها لأني لم أسافر بعدها.

أومأ برأسه متفهمًا، فتح صفحةً في الملف: سأسألك عن بعض الأشخاص وتخبرني إن كنت تعرفهم أم لا؟

- بكل تأكيد.
- هل تعرف فتاة تُدعى (بلقيس)؟

انفعلت شيئًا: لا أعرفها، ولا أعلم لِمَ تَدَّعي معرفتها بي؟! وكيف أنها تعرفني دون أن أعرفها؟!

استغرب وكيل النيابة من انفعالي، فاستدركت:

- أعني أن اسمها ذُكِر أمامي مرة، وقيل أنها تعرفني رغم أني لم أرها في حياتي.
- ذُكِرَ أمامك؟ متى؟
- في السجنِ. فبعد مرورِ شهرٍ تقريبًا زَارَنِي مُحَامٍ كان قد حصل على نسخةٍ من التحقيقات، سألني نفس الأسئلة عن بلقيس تلك، فنفيت معرفتي بها، فَتَعَجَّبَ لأنه كما اتضح له من ملف القضية أنها تعرفني معرفةً وثيقة.
- هذا حقيقي، تحقيقات النيابة تقول أنها تعرفك بل وتربطها بك علاقة وأنك كنت مُتَوَاجِدًا بمنزلها قبل أن يجدك أخواها ويُبْلِغا الشرطة.
- إذن اِسْتدعها، استحلفك بالله أن تستدعِيها، واستدعِ أخويها هذين، لو أن هؤلاء بقولهم جميعًا سيحسمون القضية كلها واجهني بهم.

***

بعد ثلاثةِ أيام أخرى تم استدعائي إلى المحكمة من جديد، هذه المرة لم أدخل إلى مكتب وكيل النيابة مباشرةً، بل انتظرت بالخارج وكنت أرى نشاطًا مكثَّفًا لأشخاصٍ يتحركون بأوراقٍ وملفات من، وإلى، مكتبه. بعد نصف الساعة أشار لي السكرتير وأدخلني المكتب، حينَ دلفت وجدت وكيل النيابة وبجواره كاتبه وأمامه شخصان آخران لم أرهما من قبل.

دعاني الوكيل للجلوس: بلقيس أَتَتْ يا زين.

تلهفت: أَتَتْ؟ أين؟

- في الخارِجِ.
- إذن لِمَ لا تُدْخِلْها؟! واجهني بها.

هَزَّ رأسه نفيًا: بالعكس، أريدك هادئًا تمامًا وكأنك لا تعرف أي شيء، بل وكأنه لا قضية من الأساس، نريد أن نرصد رد فعلها بشكلٍ طبيعي، زين! لا مجال لأيِّ خطأ، اضبط أعصابك..

أومأت إيجابًا وتراجعت في كرسيّ، فأشار الوكيل للعسكري برأسه فانصرف هذا من فوره لدقيقة ثم دلف تتبعه سيدة منتقبة، قصيرة القامة، ضيقة العينين، لم تُوَجِّه ناظريها لأحد، جلست حيث أُشير لها بالجلوس، مُشِيحةً ببصرها عن الموجودين.

وبرغم ما ألمح به إلي وكيل النيابة بأن أبدو طبيعيًا إلَّا أني لم أستطع ترك الفتاة وشأنها، عيناي ظلَّتا تتفحصانها حتى كادتا تنفذان عبر سوادها، تَرْسِمان لها ملامح وحياة، وتُخمنان كل ما بها وعنها وما قد تأتي به. ليس لأي شيءٍ بقدرِ ما هو الفضول الذي أعياني ولم يزل يمزقني، فهي أول "شيءٍ" أراه رؤي العين في أحجيتي التي عجزت عن جمع أجزائها، أول مفتاحٍ في لُغزي الذي لم أفهمه يومًا، أول قطعةٍ تظهر في صورةٍ بها ألف قطعة تنتظر التكوين، أيضًا كانت هي أول إثباتٍ أن ما في رأسي لم يكن خيالًا أبدًا ولا وهمًا.

- بلقيس! ابتدرها وكيل النيابة وهو ينظر لأوراقٍ أمامه: هل تعرفين شخصًا باسم زين الدين أحمد الشُهيبي؟!

ندَّت عنها همهمةٌ تشي بأن الاسم يرتبط معها بذكرى ما.

- نعم، أعرفه.
- هلَّا علوتِ بصوتك؟
- أقول نعم أعرفه.

نفرت أوردتي غيظًا فرماني وكيل النيابة بطرف عينيه يُذَكِّرني باتفاقنا، قبل أن يعود لبلقيس:

- أعني أتعرفينه معرفةً وثيقة؟ علاقتك به قوية؟
- نعم.
- حسنًا انظري حولك، من هو زين من بين الموجودين؟

- ليس موجودًا. قالتها بحسمٍ دون أن تنظر لأحد.

- أنتِ لم تنظري!

- لو كان موجودًا لتَعَرَّفته فور دخولي.

- انظري مرةً أخرى.

بِتأَنٍ أُرْغِمَت عليه مرَّت بعينيها على كل الموجودين، بدأت بأحد الشخصين بجواري.. ثم الذي يليه.. ثم أنا.. وحتى الكاتب، مُطِيلةً النظر لثانيتين في كل وجه قبل أن تتوجه لوكيلِ النيابةِ بِحَسم:

- غير موجود.

من فوق مكتبه ناولها وكيل النيابة جواز سفري، وكان مفتوحًا على صفحة البيانات:

- انظري لجواز السفر هذا؟ هل تعرفين الشخص الذي في الصورة؟!

- نعم، هذا هو زين.

هنا تَنَفَّسْتُ الصعداء وتراجعت في كرسيِّ، تابع وكيل النيابة: متأكدة؟

أَوْمَأَتْ إيجابًا..

تناول منها وكيل النيابة جواز السفر مرةً أخرى:

- من بهذه الصورة ليس زين، زين الحقيقي ها هو يجلس أمامك - أشار إليّ - من في الصورة هو شخصٌ انتحل شخصية زين.

التَاعَت الفتاة فجأة: أنا لا أعرف عمَّ تتكلمون! أنا لم يعد لي علاقة بهذا كله، لقد انتهى هذا الأمر كله بالنسبة لي.

قاطعها وكيل النيابة: حسنًا.. حسنًا.. لم نكن نريد أكثر من هذا.

وكأنها لم تسمع ما قيل: ثم أنه هو الذي عرَّف لي نفسه بأنه زين، وكان شكله كما بالصورة، أعني كيف أعرف أنه ليس زين؟! لم أرْ هويته من قبل! كيف لي أن أتأكد؟!

جحظت عيناها أكثر حين لَمَحَتْ العسكري وراءَها ظنًّا أنه سيتحرك في أيةِ لحظة ليضع الأصفاد في يديها: أنا لا أكذب، لقد انتهى هذا الأمر تمامًا بالنسبة لي ولم يعد لي شأنٌ بهذا كله، أنا لا أُخفي شيئًا ولو كنت أعرف شيئًا لقلته.

ناولها وكيل النيابة قلمًا: قلت انتهى، وقِّعي على أقوالك وانصرفي.

بأيدٍ مرتعشة التقفت القلم وخَطَّت توقيعًا سريعًا وانصرفت بسرعة، هممت بأن أقوم ورائها لا إراديًا لولا أن استوقفني وكيل النيابة. التفتُّ إليه مُنْفعلًا:

- ها قد تبيَّن لكم أني لا أعرفها وأني متورطٌ بهذا كله، هل تأكدتم إذن؟ هل ثبت لكم كل شيء؟
- نعم تأكدنا وسنرسل جواز السفر إلى إدارة الجوازات اليوم ليأتونا بتقريرٍ رسمي عنه.

اندهشت: أولم يتضح لكم أنه مُزَوَّر؟!

- بلى، لكن الأمور هنا لا تمشي مُشَافهةً، يجب أن يكون هناك تقريرٌ رسميٌ من جهة إصدار الجواز ليُضَاف للتحقيقات والإجراءت كي يتم إطلاق سراحك.
- تحقيقات وإجراءات لإطلاق سراحي! كنت أظن أن التحقيقات ستكون فقط لمعرفة كيف وقع هذا الخطأ وكيف حصل ما حصل، أما الأمر نفسه فقد انتهى بالنسبة لي وسأعود لمنزلي وحياتي وعملي!
- وأنا أيضًا أتمنى ذلك، لكن مع الأسف، فأنت بالنسبة للأوراق لا زِلت مُدَانًا، ويجب أن يُجرى تحقيق لنثبت فيه عكس ذلك، أي نثبت أنك لست المقصود وقُبِضَ عليك بالخطأ، وأن آخَرَ هو الذي زوَّر إثباتك الشخصي وفعل بك ما فعل، فتبدأ هنا إجراءات الإفراج عنك وضبطه هو، وسيكون أول تلك الإجراءات هو تقرير يؤكد أو ينفي تزوير جواز السفر، لكن لا تقلق سيكون التقرير لصالحك بكل تأكيد، إنه فقط الروتين ولا أكثر.

أدهشني مَنْطِقُه: ومتى سيأتي هذا التقرير إذن؟

- هذا لا نستطيع أن نُحدده، لأنه يخضع لِكَمِّ الشُغل عند إدارة الجوازات، قد يكون أسبوعًا أو اثنين، ولكننا سنرسل طلبًا للاستعجال.
- أسبوعًا أو اثنين.

- هذا بحدٍ أقصي، لكن اطمئن الموضوع لن يطول كما تتصوَّر.

- ماذا عن "الرعاية" إذن؟!

- أيه رعاية؟

- "الرعاية اللاحقة".

- سأكتب لك ورقة أنك كنت عندنا اليوم.

- لا أقصد، أعني أولم يتبين لكم أني لست المعني بكل هذا؟ فَلِمَ أدوام على الذهاب إلى هناك! هل ذلك أيضًا يحتاج لتحقيق؟!

- كل شيء يتم بالأوراق كما أخبرتك، يجب أن تُداوم على الذهاب إلى هناك ولا تنقطع، أنت لا زلت مُدَانًا، دخلت السجن بقرار محكمة، ولن تخرج منه إلَّا بقرار محكمة، قرارٌ يتم من خلاله وقف كل تلك الإجراءات ضدك، لا يستطيع أي شخص أن يُخرجك مما أنت فيه إلَّا المحكمة، ولهذا نحن نبدأ الإجراءات التي ستقودنا لذلك، قلت لك أن كل شيء يجب أن يكون رسميًا، ولكن اطمئن.. فموضوعك واصل لأعلى المستويات وحائزٌ على كلِّ الاهتمام ونتحرك فيه بأقصى ما في وسعنا.

طفقت أنظر إليه مذهولًا حين رَنَّ تليفونه، من الكلام عرفت أنه كان يطمئن أن بلقيس قد غادرت المحكمة نهائيًا.

- تستطيع أن تمضي الآن يا زين، وانتظر مِنَّا اِسْتِدْعاءً آخر خلال أيام.

***

- ما هذا الكلام؟! كلهم يعرفون أنك بريء ولم تفعل شيئًا ولا يزالوا يُمَاطِلوُن في الإفراج عنك؟! تحقيقات وإجراءات وهذي! ألم يَكفِهِم ما فعلوه بك؟! ألم يَكْفِهِمْ؟!

قالتها أمي غاضبةً، أجبتها خافيًا ضيقي:

- والله يا أمي أن هذا ما قاله، أنْ كل شيء يجب أن يكون رسميًا وأنه لا شيء يتم مُشَافهةً، نحن نعمل، نحن نحقق، اصبر وانتظر، اصبر وانتظر، حتى هذه اللحظة لم أستوعب ما قيل ولا أعرف ماذا أفعل!

-    اسمع إذن، سأذهب أنا لإدارة الجوازات تلك لأقوم باستعجالهم في تقريرك هذا.

انفعلْت: لا لا.. لا تذهبي إلى تلك الأماكن ولا تُعَرِّضِي نفسك لتلك الأمور نهائيًا، سننتظر حتى يحين دورنا.

اِنْفعلَت هي أكثر: اسكت أنت، لو انتظرنا فسنضيع وقتًا كبيرًا دون فائدة وكفانا ما ضاع، سأذهب أنا وعمرو في السيارة وسأطلب الدخول للمدير مباشرةً وسألتمس منه سرعة النظر في طلبك، سيُراعون أني سيدة وكبيرة في السن ولن يردُّوني، أنا أعرف ما أقول.

في اليوم التالي ذهبت أمي برفقةِ عمرو إلى إدارة الجوازات وطَلَبَتْ مقابلة المدير العام فسُمِحَ لها بالدخول، وكان شيخًا عقيدًا، وبرغم أنه قد شَفَعَ لها كبر سنّها في مقابلته، إلَّا أنه لم يشفع لها حين وصلت في قصتي لنقطة تزوير الجواز أو - من وجهة نظره - مصيبة تزوير الجواز، لأنه عندها انقلب وجهه، وتحوَّلَ اهتمامه لغضبٍ عاتٍ وكأنه تلقى طعنةً في كرامته :"ماذا تقولين!.. جواز السفر الخاص بالبلاد يتزور ؟!! مستحيل يتزور، أقول مستحيل يتزور".. إثباتًا أرته أمي صورتي والصورة المزورة بالجواز لكنه أشاح بيده: "لا تُرِني شيئًا!.. ولا أريد أن أرى شيئًا.. لو كنت أعرف ما ستأتين به لما وافقت على مقابلتك.. كيف أصلًا تتكلمين بهذه الطريقة عن وثائق رسمية بالبلاد ؟!.. قلت مستحيل يتزور.. مستحييل يتزاااوار.. روحي.. روحي ربي وَلَدِك أحسن"، هنا لم يستطع عمرو تمالك نفسه فاحتَّد على المدير وتجادل معه بِشِدَّة، حاولت أمي إيقافه - عمرو - لكنه انفعل أكثر، فهبَّت أمي وسحبت عمرو مُغادريْن لئلا تسوء الأمور أكثر وأكثر.

اِشْتَطت غضبًا عندما علمت بما حدث، ولُمْت نفسي أني لم أبذل مجهودًا أكبر لإثناءِ أمي عن الذهاب مُعَرّضًا لها لما حصل، اعتذرت لها كثيرًا مُقبِّلًا يدها ورأسها طالبًا مسامحتي، لكني استغربت إذ وجدتها أشدُّ تصميمًا وبأسًا، وأنها - كما علَّلت - لو لم تذهب لظل ضميرها يوخزها أن بابًا مُتاحًا لم تطرقه، وأنها مستعدة أن تذهب لآخر الأرض لو كان هذا سيُعَجِّلُ بإخراجي مما أنا فيه. كانت محاولةً - كما قالت - لا ضَيْرٌ منها، وأن كلَّ شيءٍ بِقَدَرْ، ولعلَّهُ خيرًا.

***

بعد أسبوعٍ كنت أصافح ضابطًا من المباحث الجنائية أراه لأول مرة، عرفني بنفسه سريعًا ثم ابتدرني:

- التقرير قد جاء يا زين.

أخرج ورقة من ملف: جواز السفر سليم، الصورة فقط هي المزورة.

طالعت التقرير والذي كان مُذَيَّلًا - للدهشة والسخرية معًا - بتوقيع ذلك المدير الذي انفعل على أمي، غِبطةٌ لم يكن ينقصها سوى رؤية وجهه - المدير - وهو يخط التوقيع. لِمَ لا آخُذ نُسخةً وأذهب بها إليه مُمْليًا عيناي بما ستنضح به ملامحه! تَشَفِيًا وثأرًا.

- ألم تعرفوا بعد أي شيءٍ عن هذا المجرم؟ سألت الضابط.

- راسلنا الأمن العام للتحري عنه، كل ما نعرفه حاليًا أنه ليس من أهل البلاد..

- أرجو أن تُطْلِعُوني أولًا بأول على ما تجدونه، أريد أن أرى هذا المجرم بعد أن تقبضوا عليه، أريد أن أتكلم معه، ربما يكون هذا غير قانوني، لكن لأكن الاستثناء الذي يُسمح له بذلك.

- أفهم شعورك جيدًا وأُقَدِرُه، وكل ما سنصل إليه سنطلعك عليه أولًا بأول، لا تقلق بشأن ذلك.

- أريد أيضًا أن أفهم ما جرى. من بلقيس هذه؟ ومن هذا الشخص بالضبط؟ أعني كيف بدأ وحصل ما حصل؟

- طبعًا.. طبعًا.. بل إنَّ أقلَّ حقٍ من حقوقك أن تعرف وتفهم ما حصل فيك ومعك.

طلب الضابط من العسكري أن يُغلق الباب وألَّا يسمح لأحدٍ بالدخول قبل أن يكشف أمامي بعض الأوراق التي فهمت أنها حيثيات القضية والأحكام وتحقيقات النيابة والأحراز.

- الحقيقة أن قصتك غريبة جدًا يا زين.. وملابساتها عجيبة جدًا جدًا.. شيءٌ لا يحدث إلَّا في الأفلام.

أشار الضابط لصورة المجرم: هذا المجرم كانت تربطه بفتاة تسمي بلقيس علاقة عاطفية، علاقة بدأت منذ بضعة سنوات، وكانا يتقابلان كثيرًا - حسب أقوال بلقيس فيما بعد - في مناطق كثيرة بأنحاء البلاد. ثم في منتصف عام ٩٩ اتصلت بلقيس بالمتهم ليأتي إلى بيتها للمرة الأولى مُسْتغلةً سفر أهلها.

- ٩٩! أي بعد عامٍ من حادثة السيارة! ربما كان حينها معه جواز سفري.

- بلا شك، المهم أنه قد ذهب إليها وكان مُتعاطيًا لكميةٍ كبيرة من الحبوب المُخدرة، وصل الخبر بعدها، بطريقةٍ ما، إلى أخوي بلقيس بأن شخصًا غريبًا في بيت أختهم.

- حسَّان وطائل.

- بالضبط، ذهبا إلى البيت وأمسكوا بالمجرم وكالوا له الضرب المبرح حتى أفقدوه الوعي. ثم اتصلوا بالشرطة قائليّْن أنهما قد أوقفا لصًا اقتحم شقة أختهم.

- لص!

- وماذا قد يقولان غير ذلك؟! سُمْعة أختهم.

أكمل الضابط: جاءت الشرطة وعثرت على المتهم فاقدًا للوعي ومصابًا بعدة جروح، وأثناء تفتيشه عُثرت معه على كمية من المخدرات، فتم إثبات ذلك في محضر الشرطة بالإضافة لتهمة السرقة، ثم بسبب إصابات المتهم حُمِلَ إلى المستشفى، ليأتي التقرير بأن الإصابات تحتاج إلى تدخلٍ جراحي عاجل، فدخل إلى غرفة العمليات تحت حراسة اثنين من الشرطة انتظرا بخارج الغرفة. بعد انتهاء الجراحة وعندما استطاع الكلام طلب إجراء مكالمة تليفونية ليتصل بمحاميه، فُسُمِح له بذلك، ولكنه لم يتصل بمحاميه.

- اتصل ببلقيس.

- أتت بعد نصف ساعة، صعدت إلى غرفته وطلبت من شرطيا الحراسة الحديث إليه مُدَّعِيةً أنها المحامية الخاصة به، فسُمح لها بالدخول، مَكَثَتْ لبعض الوقت بالداخل ثم فجأه اختفى كلاهما تمامًا.

- والشرطيان اللذان في الخارج؟!

- عند التحقيق معهما قال أحدهما أنه كان يقوم بإجراءِ مكالمةٍ تليفونية، وقال الآخر أنه ذهب ليصلي، وأنَّ كليهما - كما قالا - لم يكونا ليَظُنان أن محامية قد يبدر منها مثل هذا الفعل، طبعًا تعليلات كلٍّ منهما لا يمكن معرفة صحتها من عدمه، أعني هل هما صادقان أم كاذبان! متواطئان أم مهملان! المهم أنه تم فصلهما من العمل ووقعت عليهما غرامة وسُجنَا.

- وبلقيس!

- قُبض عليها واعترفت بأنها قامت بتهريب المتهم فعلًا. هنا ثبتت علاقتها به، وأنه ليس لصًا كما اِدَّعَتْ وادعى أخويها، أدانتها المحكمة وحُكم عليها بالسجن لمدة عام بتهمة معاونة متهم على الهرب، وأمَّا المتهم

فقد حُكم عليه بالسجن سبع سنوات غيابيًا بتهمة حيازة المخدرات ثم الهرب بعد القبض عليه، عندما بدأت إجراءات ضبطه لم يكن للشرطة أية معلوماتٍ عنه سوى الأحراز التي عثروا عليها بحوزته، بطاقات البنك والهوية والرُخص ونقود وأوراق وهاتف جوال، أعني كل تلك الأشياء الغريبة التي وجدتها أنت في الأمانات التي استلمتها عندما فرزوها، انظر.....

فرز الضابط البطاقات بسبابته واحدةً تلو الأخرى: بطاقة بنكية باسم (...).. رخصة قيادة باسم (...).. وجواز سفر باسمك زين الدين أحمد الشُهيبي، أي عدة أسماء مختلفة - من بينها اسمك - لكنها تحمل صورته هو، يستغلها في تنقلاته وجرائمه، الأكثر خطورة أننا لم نعرف بعد هل هناك بطاقات وأسماء أخرى بحوزته أم لا؟!

صُعِقْت: هذا يعني أن هناك آخرين غيري نائمين في هذه اللحظة ببيوتهم وتُرْتكب باسمهم جرائم في أماكن أخرى.

- مع الأسف قد لا تكون أنت الضحية الأخيرة، طالما أنه لم يزل حرًّا طليقًا.

أُلجم لساني للحظة ثم خطر لي السؤال:

- لكن طالما أن كل تلك الهويات تحمل أسماءً مختلفة وصورته هو، إذن فلم اعتبره المحققون بأن اسمه زين؟! أعني لِمَ لَمْ يعتبروه واحدًا من أصحاب هذه البطاقات مثلًا؟!

- هنا يكمن سوء حظك! فقبل إجراء العمليات الجراحية في المستشفيات يلزم دومًا توقيع المريض على إقرار إجراء العملية، لذا عندما صدر تقرير الأطباء بالمستشفى بأن إصابات المتهم خطيره ويجب تدخل جراحي عاجل، وأعطوه التقرير ليقوم بتوقيعه، انظر..

فتح الضابط الملف وسحب ورقةً مشيرًا بسبابته لأسفلها:

- من بين كل الأسماء المزورة التي لديه اختار اسمك أنت ووقع به، هكذا قام المحققون بتنحية كل البطاقات والرخص وقاموا بتكملة تحرياتهم على الإثبات الوحيد المقنع بالنسبة لهم.. جواز سفرك.. واعتبروا أن اسمه هو زين الدين أحمد الشُهيبي.

وكأن أحدهم صب عليَّ رأسي ماءً مغليًا فانفجرت: أهكذا؟ بكل سهولة؟ سيدي الضابط أتدري كم دفعت لأجل هذا السهو؟ أتدري كم عانيت لأجل جرة القلم تلك؟! أنا أحمد الله أني أستطيع أن أقف

على قدميّ أصلا! كل هذا لأن أحدهم استسهل وأكمل إجراءاته على إثباتٍ مُزّور من بين إثباتاتٍ كلها مزوَّرة، هل يُعقل أن....

غلبتني دموعي فلم أستطع أن أكمل، قام الضابط وجلس إزائي بعد أن طلب من أحد السعاة كوبًا من الماء، ربت على كتفي:

- اهدأ يا زين، اهدأ وهوّن على نفسك، أنا أشعر بك وقسمًا بالله أنه قد ساءَني ما حصل لك وسَاءَ أيضًا كل من يحققون في موضوعك، أعدك أن يصلك حقك كاملًا، وأبشر خيرًا؛ فمن يتولى التحقيق هم ضُباط كبار، وسيقومون باستدعاء كل من حققوا في القضية، لمعرفة المقصرين والمتخاذلين منهم وتقديمه للمحاكمة، كل من استسهل وقَصَّرَ وتخاذل سيُعَاقب، لا أحد فوق القانون.

لانَ الضابط أكثر: بل وأعدك أن أحقق لك طلبك وسأجعلك تنال من المجرم بنفسك عندما نقبض عليه، لكن كل ما أطلبه منك الصبر لبضعة أيامٍ أخرى، لقد تَحَمَّلت الكثير، ولم يتبق إلَّا القليل.

- ٢ -

كان ضابط المباحثِ الجنائية يستدعيني في أيامٍ تاليةٍ للاستفسارِ عن بعضِ النقاطِ والإدْلاءِ ببعضِ الأقوال، وكان قد طَلَبَ مني ألَّا أذهب للمحكمة لأن الموضوع كله قد تم تحويله إليهم. طلب مني أيضًا ألَّا أتخلَّف عن الذهاب إلى "الرعاية" لحين حل الموضوع والذي - بحسب قوله - لن يأخذ سوى بضعة أيامٍ أخرى، فالتخلف - وأنا لم أزل بعد في الأوراق مُدَانًا - قد يُدْخِلنا في قضايا فرعية فتتعقد الأمور أكْثر وأكْثر.

وكنت بعد عودتي من "الرعاية" أقضي أغلب اليوم في المنزل، مُزجِيًا الوقت بالقراءة.. بمشاهدة التلفاز.. بالكلام مع أمي. لم أكن أغادر المنزل إلا للصلاة في المسجد القريب، فلم أعد أعرف أحدًا أو يعرفني أحد.. أو بالأحرى.. يُرحب بمعرفتي..

فَكَّرت في البحث عن عمل، مجرد بحثٍ ولا أكثر كَسْبًا للوقت، على ألَّا التحق به إلَّا بعد أن يتم حل موضوعي كاملًا، فرُحت أجمع شهاداتي وخِبراتي، مُلْتهِيًا بتنسيقها وتنقيحها، ما كان سببًا لبهجة أمي التي وجدت أني قد بدأت في الطريق الصحيح سعيًا لحياتي ومصلحتي. زاد من بهجتها أني قد تعرَّفْتُ على أشخاصٍ جُدُدْ من المسجدِ القريب الذي أصلي فيه، كنا فقط نتمشى ونتكلم بعد كل صلاة لدقائقَ راحت تزيد يومًا بعد يوم، ما جعلها - أمي - تُوعِزُ لي ذاتَ مرةٍ بأن لم لا أقفز بالخطى المتمهلة، وأدعو الرفقة الجديدة على وليمةٍ بالمنزل؟ فاستجبتُ مُرَحِّبًا.

وعلى المائدة كانت أمي تُشاركنا الكلام وتجارينا في الأحاديث، مُتفانيةً في الإنصاتِ والتعليقِ والسؤال. كنت أعلم أنها في اهتمامها المُبالِغ هذا، والذي ما رأيته مع أي رفقةٍ من قبل، إنَّما تشتري وُدَّ الموجودين واهتمامهم أن انتبهوا لزين، اقتربوا منه وكونوا معه، ولا تغيبوا عنه أبدًا. هكذا يومًا بعد يوم كانت تتوطَّد علاقتي بهؤلاء الذين لم يكونوا يعرفون شيئًا عن أمري، فصِرْتُ أُدعى لمنازلهم وأدعوهم لمنزلي، وأخرج معهم إلى أماكن أحرص قبلًا ألَّا يكون أحدٌ فيها يعرف بأمري، جمعتنا الاهتمامات، وقرَّبتنا الزيارات،

وطالت بيننا الأحاديث، حتى ارتاحت النفوس وتآلفت القلوب بما انطبعت عليه قبلًا من الوُدِّ والترحيب.. ولكن!.. يبدو أنه دائمًا وأبدًا تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، ولئن صمدت السفن فأنَّى للقوارب الواهِنة أن تصمد أمام طوافين الكوارث المُتَعاقِبة؟ فذات مساءٍ، وأثناء خروجي مع الصحبة الجديدة في سيارة أحدهم، استوقفتنا نقطة تفتيش، وتَقَدَّم مِنَّا شرطيٌّ طالِبًا بطاقات الهوية. لحظاتٍ غاب الشرطيُّ فيها بالبطاقاتِ انخطف قلبي وتكركبت بطني، خوفًا من مشهدٍ وَددت لو تبتلعني الأرض على ألَّا يأتي.. لكنه أتى.. فقد تَقدَّم الشرطي من السيارة ونزل برأسه سائلًا: "من زين؟"

أومأت دون أن أتكلم، فأشار لي بالنزول..

- أَخْرِجْ (الذي) معك.
- والله ليس معي أي شيء..
- أَخْرِجْ الذي معك وإلَّا أخرجته بطريقتي.

تعجب الرفاق وتساءلوا، فالتفت الشرطيُّ إليهم:

- آه يبدو أنه لم يخبركم بشأنه إذن.. ألَا تعرفون أنه مُتَعَاطٍ للمخدرات؟.. بل وسجين.. ولم يزل.

"متعاطٍ!.. مخدرات.. سجين!!" تفرَّقت الكلمات بينهم غير مُصدقين.

- يا أخي حرام عليك، والله حرام عليك، ما كان لك أن تقول هذا الكلام! والله ليس معي شيء مما تظن، هاتف المخفر أو تنفيذ الأحكام وسيخبرونك أني بريءٌ من كل هذا، وأمشي في إجراءَاتِ إخلاءِ سبيلي.

أمرني الشرطي بأن أَكُفَّ عن المقاوحة وهو يدس يده بجيوبي وطيَّاتي ويُخرج ما بها، فالتقمت الكلام يأسًا واستسلمت ليده، فلن يُجدِ التوسل شيئًا وقد انفضح كل ما جاهدت لإخفائِه، وقفت مُشيحًا بوجهي عن رفاق السيارة، فلم يكن بعيدًا أن أعرف أيَّ مُقارنةٍ تعقدها أبصارهم بين ذلك الذي يُهان أمامهم وبين من كان يُجاورهم في المسجد مُصلِّيًا، وأن أي مُدَّعٍ ذلك الذي حلُّوا ببيته ضيوفًا وحلَّ ببيوتهم أخًا وصديقًا! بدأ المارة أيضًا يتمهلون في سيرهم، وكذلك السيارات على كلا الجانبين، ليشب الكلُّ برأسه

ويتفرج على المشهد النادر، حتى حوصرت من كل الجوانب بالنظرات والهمهمات، وحتى لم يعد هناك يمٌّ أُوَلِّ إليه وجهي سوى الأرض.

***

بعد هذا اليوم لم أكن أحتاج أن أفهم لِمَ لَمْ يعدْ أحدٌ من صحبة المسجد يرد على اتصالاتي، ولم صاروا ينفضون عودًا إلى بيوتهم مباشرةً بعد كل صلاةٍ، وكأنهم يقطعون عليَّ أي فرصةٍ للانضمام إليهم أو التكلم معهم من جديد. عُدْتُّ إلى قوقعتي مرةً أخرى، وحيدًا! لم أعد أصلي في هذا المسجد وصِرْت أصلي في آخر أبعد، وهذا الأبعد لم أحاول فيه حتى التعرف على أي شخص، مُتغلبًا على احتياجي الـمُلِّحُ للصحبة والكلام، لأني كنت أعرف أن ما حصل سيتكرر بشكلٍ أو بآخر، وأن أمري سينتشر بين الناس كما انتشر في المسجد القديم، وأنه لا حلَّ إلَّا أن ينتهي ما أنا فيه وبأي طريقةٍ وبأسرع وقت..

- وما الذي بيدي أن أفعله يا زين، ما الذي بيدي لأفعله ولم أفعله؟!

قالها ضابط المباحث الجنائية وقد ذهبت إليه في صباح أحد الأيام بعد أن أخذت تصريحًا من "الرعاية"..

- بيدكم أن تفرجوا عني، بيدكم أن تتركوني لحال سبيلي، عملي متوقف، حياتي متوقفة، كل شيءٍ لدي متوقف، أن أكون بريئًا لم أفعل شيئًا وأنتم تعرفون أنه ليس لي علاقةٌ بكل هذا وبرغم ذلك ترفضون الإفراج عني، فهذا شيءٌ لا يمكن استيعابه أو فهمه..

- هل قلت أننا نرفض؟! متى قلت أننا نرفض؟ قلت هي إجراءات وتأخذ وقتًا.

- ثلاثة أشهر! أتأخذ الإجراءات ثلاثة أشهر؟ وبلا أية خطوات ولا أي تقدم، فإلى متى ستستمر إذن؟!

- أخبرتك قبلًا أننا نمشي في موضوعك قُدُمًا، وأنها مسألة وقتٍ ولا أكثر، ثم عليك أن تطمئن فموضوعك حائزٌ على كل الاهتمام وقضيتك الآن بين يدي ضباط كبار بالداخلية.

- من هم هؤلاء الضباط إذن؟ وأين هم؟ ولم لم يهاتفني أحدٌ منهم أو يتواصل معي طالما أن هناك تحقيقاتٌ تُجرى كما يُقال، لم توقفتم عن استدعائي؟ لعدة أسابيع لم يستدعني أحد أو يهاتفني أحد! أتقبضون عليَّ في ساعاتٍ وتُفرجون عني في سنوات؟!

- زين! لا تستنفد صبري معك.
- وماذا عن صبري أنا؟ لقد أمضيت عامين في سجونكم، وذُقت كل أنواع الذل والهوان والتعب، بل حتى الآن أُعامل بكل الإهانات في كل مكان، وممنوع من العمل ومن السفر ومن الكلام مع الناس ومن كل شيء.

تثبتت عليَّ عيناه لثوانٍ بنظرةٍ نارية، ما بدا أنه ظنَّ بأنه قد ارتكب خطأً عندما أبدى لي تعاطفه أول مرةٍ، التعاطف الذي فتح مجالًا "لسجينٍ" بلومه وعتابه.. بل ومحاسبته.

عاد للأوراق التي على مكتبه، وكأني غير موجود تمامًا..

- حضرة الضابط لقد وعدتني بالمساعدة، أتذكر؟ وعدتني بأن تكون معي حتى يتم الإفراج عني، وأنك بنفسك ستجعلني أواجه ذلك المجرم عندما تقبضون عليه، أنت تعلم أني بريءٌ من كل هذا ولست مجرمًا.
- ليس من المفترض أن أقول لك هذا الكلام ولكني سأقوله لأريحك، حادثتك تلك هي الأولى من نوعها البلاد ولم تحدث من قبل، وبالتالي لا توجد مرجعية لها في قوانين البلاد كلها، لا نستطيع أن نفرج عنك هكذا دون تحقيقٍ فيما حصل، يجب أن نحقق ونستجوب الكل، الشهود والضباط الذين حققوا في قضيتك، وأيضًا نستجوبك أنت، وعندما ينتهي هذا سيصدر تقرير واحد، تقريرٌ به إدانةٌ للمُقصِّرين وإفراج عنك، وهذا طبعًا يتزامن مع البحث عن المجرم الحقيقي الذي سُجنت مكانه والذي سنحتاج أيضًا لأقواله لمعرفة كيف زوَّر جوازك وفعل بك ما فعل.

صُعِقْت: أي أن حريتي مرهونةٌ بكل هذا؟! بسماع كل أقوال الشهود والضباط وحتى تجدوا المجرم الحقيقي؟!

- للأسف نعم، تستطيع أن تقول أنها عدة قضايا في قضية واحدة. فالقبض عليك بالخطأ قضية، ومعاقبة المقصِّرين في حقك قضية، والقبض على المجرم الحقيقي قضية، وكلُّ قضيةٍ معلقةٌ بالأخرى، والتحقيقات سارية مع الجميع بلا توقف، لذلك أقول هي مسألة وقتٍ ولا أكثر.
- أين هذا المجرم إذن؟! ولم لا توجد عنه أية معلومات حتى الآن؟

جذب قصاصةً من ملف وقرأ: "لُقمان العبد".

- لُقمان العبد!
- ليس من أهل البلاد..
- وما العائق في إيجاده حتى هذه اللحظة؟
- العائق أننا لا نعرف عنه حتى الآن سوى اسمه..
- كيف؟ ألا توجد أية معلومات أخرى عنه، عناوين، تليفونات، أقارب، عمل، أشخاص يعرفونه، أو أماكن يتردد عليها؟
- للأسف لا، دعني أقول لك أننا نطارد شبحًا.
- شبح!
- بل حتى أننا لم نعرف جنسيته بعد، وعندما تحرينا وسألنا لم يتعرف عليه أحد.

قالها وعاد لأوراقه..

- وماذا إن طال البحث؟ بل ماذا لو لم تجدوه أصلا؟ أسيظل وضعي هكذا؟!

ألقى إليَّ بالقصاصة دون أن يرفع عينيه عن الأوراق:

- اذهب وابحث عنه بنفسك.

***

خرجت من غرفة الضابط وأنا في شدة الغضب، سِرت في الشوارع لساعتين على غير هدى، حتى خطرت لي الفكرة فاتصلت بأحد الذين كنت أعرفهم بقسم المعلومات المدنية، وطلبت منه أن يستعلم عن ذلك المُسمى بلقمان العبد، كنت أظن لن يوافيني قبل ساعات، لكنه اتصل بي بعد ربع الساعة:

- زين!
- ماذا هناك؟
- هل أنت متأكد من هذا الاسم؟
- ماذا هناك؟ هل وجدت شيئًا؟

- تعال الآن إنْ استطعت.

- هل وجدت شيئا؟

- تعال فقط.

نصف ساعةٌ وكنت في مكتبه: ما الأمر؟!

- أريدك أن تستوعب ما سأقوله جيدًا.

- تكلَّم بسرعة.

- في قسم المعلومات المدنية نقوم بإصدار البطاقات لفئتين من الناس، الأولى هم أهل البلاد والثانية هم هؤلاء العاملين والوافدين من غير أهل البلاد، وما يهمنا الآن هو القسم الثاني، كهذا الشخص الذي طلبت مني أن استعلم عنه، فلدينا لكل واحدٍ من هؤلاء ملفٌ كبيرٌ يضم كل المعلومات التي يمكن جمعها عنه، ملفٌ أكبر من الملفات العادية، أي ليس فقط اسمه ورقمه بل أسماء إخوته وأقاربه وعناوين مساكنهم وأعمالهم، بيانات الزوجة والأولاد وعددهم وأيضا كل الهواتف الخاصة به وهواتف أقاربه، فعلى سبيل المثال..

عَدَلَ من وضع الشاشة لتناسب زاوية رؤيتي:

- هذا مثلًا، وافد، انظر، هل ترى تلك الخانات، كلها ملأى بالبيانات، الاسم والعمل والهواتف والأقارب والإخوة وهذا أيضًا وهذا أيضًا.. وهذا أيضًا..

جعل يتنقل بين أشخاصٍ مختلفين: كل هؤلاء من جنسيات مختلفة، ويجب أن يأتوا جميعهم كل فترة لتحديث بياناتهم كما المواطنين الطبيعين، كي أُصدر لكل واحدٍ فيهم هوية حديثة وجديدة، المتهاون والممتنع يصدر ضده ضبط وإحضار ويعُاقب بالحبس، فلا تهاون هنا.. هذا أمن دولة.

قلت له في نفاد صبر: حسنًا حسنًا ما الغرض من كل تلك المقدمة؟

ضغط لوحة المفاتيح: لقد أمضيت في قسم المعلومات المدنية عشر سنوات، ولم أرْ هذا المنظر من قبل.

أزاح الشاشة لتكون كاملةً أمامي حين ذُهلت..

كانت الصفحة فارغة تمامًا! كل الخانات فارغة.. لا عائلة.. لا أقارب.. لا عمل.. لا سكن.. لا هواتف.. لا توجد أية بيانات.. فقط بالأعلى كان الاسم.. لُقمان العبد!

- ما هذا؟ سألت مضطربًا.
- ليتني أعرف.
- هل من الممكن أن يحدث هذا؟!
- هذه أول مرة أرى شيئًا كهذا.
- هل تم هذا بفعل فاعل؟
- بالتأكيد ولكن من هذا الفاعل؟ من هذا الذي يستطيع أن يدخل على بيانات الدولة ليقوم بحذف بيانات شخص أو تبديلها.
- إذن فما معنى هذا، ماذا تريد أن تقول؟
- لم أكن أتمنى أن أقول ذلك.. لكن يبدو أنكم فعلًا.. تُطاردون شبحًا.

النهاية

نُطارد شبحًا..

ولهذا تعاقبت الأيام تلو الأيام، توالت فيها زياراتي للشرطة، سائِلًا في كل مرةٍ عن حلٍ لوضعي المُرهق والمُعلق والمرْهون بإجراءاتٍ لا أدري عنها شيئًا، بل ولا أدري أصلًا إن كانت حتى ساريةً أو متوقفة.. لكن.. بلا أية فائدة!

كنت أبحث يوميًا عن عمل، أي عمل، بعد أن تراكمت علي الديون بشكل مضطرد، لكن أحدًا لم يقبل بتوظيفي، فأغلب أصحاب الأعمال -كما فهمت ولمست - يتجنبون ويتحاشون من كانوا في السجن، حتى لو انتهت عقوبتهم، فما الحال بمن لم يزل بعد. كنت أمر على أصحاب الدَّيْن مُلتمسًا منهم تخفيض المبالغ أو تقسيطها، فكان البعض يقبل لكن الأغلب يرفض، بِعت أشياءً تخصني وداومت على دفع الأقساط الأكثر إلحاحًا، حتى فوجئت في أحد الأيام بأفرادٍ من الشرطة على باب البيت، يطلبون مصادرة السيارة لصالح المعرض دون مماطلة وإلَّا، كما هددوا، سيكون الحبس مصيري.. هكذا أخذوا توقيعي والمفاتيح.. اصطحبوا السيارة وغادروا..

لم يرحم التعب أمي، ولم يزهد البؤس في قسماتها حاملًا قسوة الأيام ومرارتها، أتعبها حالي، وأتعبها أكثر عجزها عن تبديل هذا الحال، سها ذهنها أغلب الوقت، وثَقل لسانها كُلَّ الوقت، شَقَّت حركتها، حتى لم تعد تقوى على الوقوف إلَّا لدقائق معدودة، كانت تأبى أن تستجيب لتوسلاتي وإخوتي لترتاح إلَّا بعد أن تُنهي ما عليها من واجبات المنزل، كنت ألمحها تنظر لي خلسة، تسرح إلى ما وصل إليه شكلي وحالي وهيئتي، عقلها مشغول بإيجاد حل، ولكن لا حل، كنت أتحاشى النظر إليها في كثيرٍ من الأحيان، لِئَّلا أُتعِسُها بالشقاء الباذخ في عينيّ. سمعتها مرةً تقول لعمرو: "لو أن كل رغباتي وأمنياتي منذ وُلدتُّ تحقَّقت، كلها! ما ثقل ذلك في ميزان سعادتي بِذَرَّةٍ طالما أني أرى أخيك بهذا الحال"..

لم يعد ذهابي إلى الشرطة "ذهابًا"، بل كان أشبه بالمداهمات، أهبط عليهم دون استدعاءٍ مسبق في أيٍّ من الأوقات، سائلًا أن ماذا يحصل من ورائي بالضبط؟ هل التحقيقُ سارٍ أم متوقف؟ هل تستجوبون الشهود والمعنيين بالموضوع أم لا؟ هل تسعوّن وراء هذا المجرم فعلًا أم لا؟ ما جعل الكلامَ يحتدُّ بيني وبين ضابط المباحث الجنائية هذا، بل بيني وبين ضباطٍ آخرين كانوا يتدخلون لا لشيءٍ سوى لإثبات أنهم يؤدون عملهم، حتى وصل الأمر بهم - الضباط - في مراتٍ كثيرة إلى شتمي وطردي، بل وحتى تهديدي بأني إن أتيتهم مرةً أخرى دون استدعاءٍ فسيرسلون خطابًا للرعاية يطلبون فيه على عدم إعطائي أية تصاريح للغياب، وسيحررون ضدي بلاغًا بأني أقوم بإزعاج السلطات وأعيقها عن أداء عملها، وهو ما يعني عقوباتٍ جديدة فوق عقوبتي..

وكانت تلك هي النقطة المفصلية التي توقفت عندها عن الذهاب إلى الشرطة، فلم أكن أستبعد، في هوجة كل ما يحدث لي، أن ينفذوا تهديدهم فعليًا، فأعود للسجن مرةً أخرى لأقضي باقي عقوبتي هناك، مُضَافًا إليها أية عقوبة إعاقة العدالة أو إزعاج السلطات أو غيرهما..

هكذا توالت الأسابيع..

والأشهر..

والسنوات..

حتَّى مَرَّتْ الأعوام الثلاثة المتبقية كلها..

وحتى قضيت مدة العقوبة كاملة..

كمجرمٍ حقيقي!!

***

- "اِنسْ يا زين.. اِنسْ.. وحاول أن تعيش حياتك بطبيعية"..

قالها محامٍ كان قد دلَّني عليه البعض، وكنت قد طلبت منه حلًّا لحذف التهم التي تخصني من جهاز الدولة بعد الإفراج عني، فأنا في نظر الكل لا زلت مجرمًا سابقًا، ولا يحق لي ما يحق للمواطنين العاديين..

أردف: فحذف تلك التهم ليس بالأمر الهيِّن، فهذا يستلزم أن ترفع دعوى قضائية..

- لنرفع إذن دعوى قضائية، وماذا في ذلك؟

ضحك مُستخفًا: أوَتَعْقِلُ ما تقول؟! أو تدري من يكون خصمك في قضية كتلك؟ وزارة الداخلية.. الدولة يا زين.

- وما الجديد؟! هم خصومي منذ سنوات.. قم برفع الدعوى.. فلن أخسر أكثر مما خسرت، ولن يعود لي ما فقدت، كل ما أريده الآن أن تعرف كل البيوت التي طردتني وكل الألسن التي آذتني بأني بريءٌ من تلك التهم، وأني ظُلمت، أن يعرف أولادي من بعدي أن أباهم لم يفعل أيًّا من تلك الأمور، وألَّا يُلاحق أحفادي عار السجن، فإن كنت أنا الاستثناء الوحيد من الشعب الذي فعلوا به ذلك، لأكن أيضًا الاستثناء الوحيد الذي يردوا له حقه بل ويعتذروا له.. فعلوا بي الكثير ولا أطلب كثيرًا.

- ها أنت قد قلتها: "فعلوا بك الكثير"، تخيَّل أنهم قد فعلوا بك ذلك وأنت حرٌّ في حالك ولم تقربهم، فما بالك لو دخلت معهم في تحدٍّ. صدقني يا زين، لو كنت مكانك لمضيت في حياتي وتناسيت ما حصل..

اعتذر هذا المحامي عن طلبي مُعَلِّلًا بأنه ليس الأصلح لهذه المهمة، فذهبت لثانٍ وثالث ورابع، لكن الكل كان يعتذر لأسباب تختلف تفاصيلها وتتفق في شيءٍ واحد.. الخوف!

ظللت أبحث لعامين، حتى كِدت استيئِس الأمر تمامًا، لولا أن تلقيت اتصالًا من محامٍ كنت قد راسلته من بين راسلتهم، قيل لي أنه كفؤٌ وطويل البال، حين التقيته أبدى استغرابه مما قرأه بملف قضيتي، ولولا أن أنه مُوَثَّقٌ ومكتوب ما صَدَّق منه حرفًا واحدًا، فتلك أحداثٌ كان يظن لزمنٍ أنها حبيسة شاشات التلفزيون والسينما، أخبرني أنه سيخوض معي تلك المغامرة، فتلك ليست جريمة في حقي بل في حق الإنسانية كلها، وأنه لن يُطالب فقط بمحو التهم عني من جهاز الدولة، بل وأنه سيطالبهم بتعويض مادي كبير..

- تعويضٌ ماديّ؟!

- بكل تأكيد، فبعد أن نقوم بمحو تلك التهم، وبعد أن تعود مواطنًا عاديًا، سيحق لك المطالبة بتعويضٍ عن فترة سجنك ظلمًا..

غلا الدم في عروقي: إذن ارفع دعوى التعويض تلك، كَبِّدْهُم أقصى مبلغٍ ممكن، وليس ذلك فقط، أريد أن أرفع قضية على كل شخص كانت له يدٌ فيما حصل، أرفع قضية على شرطة المرور التي قبضت علي، وعلى شرطة المخفر وشرطة تنفيذ الأحكام، بل على القاضي الذي رفع سماعي، بل هذا بالذات ابدأ به، أعلم أنه قد مضت سنوات طويلة، لكني سآتيك بأسماء كل هؤلاء..

ابتسم: هدِّيء من روعك، القضية لا يتم رفعها على شخصٍ بعينه، بل على الكيان ككل، ثم ليكن في علمك أن تلك القضية ستأخذ وقتًا طويلًا.. ربما سنوات..

- لا بأس، لقد نَذَرْت نفسي لهذا الأمر، اِبدأ من الآن..

بعد بضعة أسابيع قام المحامي برفع تلك الدعاوى القضائية لأتكبَّدَ منذ اللحظة الكثير من راحة البال.. والصحة.. والمال، وبرغم تحذير الكثيرين لي من تلك المعركة، إلَّا أني كنت أكثر صبرًا وعزمًا واصرارًا، فقط لم يكن يُفزعني إلَّا شيءٌ واحد، فقد اتضَّحَ أن الشرطة قد اكتشفت بعد كل تلك السنوات أثناء مراجعة كشوفاتهم أني لم أنجح في اختبار الحفظ، فداهموا المنزل ليقبضوا علي، فهربت منهم وطاردوني في أماكن كثيرة، قبل أن يُمسكوا بي في النهاية ويصطحبوني إلى السجن، كنت أهبُ حينها مفزوعًا، وأقوم وأتجول في طرقات البيت، قابضًا ومتحسسًا كل ما يُقابلني، لأتأكد فقط.. أني لم أزل بالمنزل..

بعد خمسِ سنوات من الصراع في القضايا بكل درجاتها صدر الحكم نهائيًا برفع التهم عني من جهاز الدولة، وبإدانة وزارة الداخلية، وبتكبيدها مبلغًا طائلًا..

بعد صدور الحكم رسميًا تداولته وسائل الإعلام كلها، كحادثةٍ هي الأولى من نوعها في البلاد، اشتريت كل ما أمكنني شراؤه من الصحف والمجلات التي نشرت الخبر، وقمت بتأجير سيارة لحملها، توجهت بها إلى بيوت الأصدقاء والأصحاب - أو من كانوا كذلك يومًا - لم أكن أتكلم مع أحد.. ولم أكن انتظر كلامًا من أحد.. فقد كنت أطرق الباب.. أسلم النسخ.. وأمضي..

ذهبت إلى بيت الجيَّان.. دُهش حين فتح الباب: زين.. أهلًا يا زين.. رأيتك بالتلفاز يوم أمس..

- كم عددكم بالمنزل؟

- ها قد صرت مشهورًا.. لقد سمعت خبر البراءة في..

- كم عددكم؟ دون أمك..

- خمسة..

عددت خمس نسخ وأعطيتها له: أبلغ أمك أن لها مني كل المحبة والتقدير والاحترام..

ثم أخيرًا.. توجهت بما تبقى لدي من الصحف إلى البيت الذي أحببته طوال عمري.. ولم أزل أحبه.. وسأظل أحبه..

دلفت الرواق بعزمٍ أكبر هذه المرة.. طرقت الباب بارتياحٍ متجهزًا لمقابلة أيًّا كان.. فأنا لن أتجادل أو أتناقش مع أحد.. ومهما قيل لي فكأني لم أسمع شيئًا.. سأتم مهمتي ثم أمضي لحال سبيلي..

لدهشتي أن من فتح الباب كان رائد..

انعقد حاجباه تفكيرًا، قبل أن يرتاحا يقينًا..

ظل كلانا يبحر في وجه الآخر، ثوانٍ كانت له دهرًا، وكانت لي عمرًا، بالأمس كُنَّا بضعٌ وعشرين عامًا، واليوم يخطو كلانا نحو الأربعين.. كان وزنه قد زاد قليلًا، خطَّ الشيبُ فوديه، وآنست كتفيه أمارات ترقية عالية..

- "مَنْ؟!".. أتى الصوتُ من داخل البيت.. كانت رهف.

لوح رأسه بحدة: لا أحد.. لا أحد..

ضحكت نصف ضحكة: صَدَقْت فعلًا.. لا أحد.. صفحة ١٢.

مددت له ذراعي برتل الجرائد، فتناولها مني ساهيًا.. ولَّيتُه ظهري.. عند منتصف الرواق اِلْتَفَتُّ..

- بالمناسبة يا رائد..

ارتفع رأسه منتبهًا، وكانت الصحف لم تزل تتدلى من بين ذراعيه المرتخيتين كجثثٍ غادرتها الروح..

- في ذلك اليوم.. أين ذهبت؟
- أي يوم؟!
- اليوم الذي قُبض عليَّ فيه.. أين ذهبت؟
- اليوم الذي قُبِضَ عليك فيه؟! - تردد قليلًا - عُدت إلى المنزل..
- المنزل!
- قالت لي الشرطة لحظتها أن الموضوع كبير.. وألَّا يجب أن أتدخل.. وأنت تعرف الوضع و.. أقصد.. اعذرني..
- أعذرك؟!

بدا وكأنه ينتظر أن أتلو عليه حُكْمًا، لكني هززت رأسي راضيًا ثم وليته ظهري دون أن أسمع الباب يُغلق خلفي فيما بدا أن الدهشة لم تزل بعد تتلبسه. استكملت سيري لباقي الرواق الذي أدرك جيدًا أني لن أدخله في حياتي مرةً أخرى، مُستأنيًا وكأني استعذب كل خطوةٍ قبل أن أفارقه للأبد، حين خرجت ساقتني قدماي حتى اقتربت لمسافةٍ لم أجرؤ عليها يومًا.. من الشباك الذي أُوصِدَ للأبد.. على قلبٍ أُغلق للأبد.. قبل أن أرفع رأسي للمرة الأخيرة..

آهٍ يا عائِشة..

اثنتا عشرة سنة.. ما أبعدها! وما أقربها! لم يتغير فيها أي شيء بداخلي نحوك.. سوى أن شباكك هذه المرة بدا لي، على قربه، أكثر بُعدًا.. وعلى دنوّه، أكثر عُلوًّا..

ليتك، كغيرك كثيرين، مررتِ على قلبي مرور الكرام وانتهى الأمر، لكنك حللت سهلًا، ولبثتِ جبرًا، حتى صرتِ للقلبِ قلبًا، قلبٌ لم يكن يفرح إلَّا لفرحك، ولا يتعب إلا لتعبك، قلبٌ لم يَعُد وصاحبه كما كان.

ولو كنت أعلم أني سأمر بلحظاتٍ كتلك، وأيامٍ كتلك، لأحببتك حبًا فوق الحب، ولعشقتك عشقًا غير العشق، ولجالستك لساعاتٍ أطول، ولضحكنا ملء أفواهنا أكثر وأكثر، ولعبَّأت صدري حتى آخره بعطرك، ولملَّيت عينيَّ من ألوان ثيابك، ولتحصلت على جرعاتٍ أكبر من قسماتك، ونظراتك، وبسماتك، ولفتاتك، فلا أستوحشك في وحشتي، ولا أشتاقك في وحدتي، ولا أرغبك في وقت الحرمان.

لكن الموجع أني قد وصلت إلى الحد الأقصى في مشاعري إليك، فلا عشق فوق عشقي لك، ولم يعد في الحب سطورًا تُقال.. عِشتُ معك كل تفاصيل الحب كما لم يعشها إنسان.. ما عدا واحدة.. أن أكون معك.. أن نكون سويًا يا عائشة..

هكذا سأمضي في حياتي كيفما أمضي، حابسًا حكايتي معكِ في ركن معزولٍ بقلبي.. في أبعد ما يكون بجنبات صدري.. لن أقربه أبدًا.. حتى لو حَنَوْت له يومًا.. لن أقربه..

سأمضى كيفما أمضي، ساقيًا روحي وعقلي وكياني بأني لم أَلْقَكِ يومًا.. فلم تكوني إلَّا حُلمًا راودني.. أو طيفًا بمخيلتي.. أو بطلة قصة حبٍ كان سطر نهايتها هو الأقسى على الإطلاق..

سأمضي كيفما أمضي.. لا مسرعٍ ولا ممهل.. ولا زاهدٍ ولا راغب.. فلا رغبة بعدك، ولا جذوة للاشتياق إلَّا معك، فلقد زهد فيّ كل فرح، ولم يزهد في اليأس لحظة واحدة.. استنزفت معك كل مشاعري.. ولم يتبق للغير شيءٌ.. بل لم يتبق لي أي شيء..

سأمضي يا حبيبة العمر كيفما أمضي، بما تبقى لي في هذه الحياة من بسمات، وما لم يزل يدخره لي القدرُ من عَبرَات، وما ستعاودني به ذكراكِ بين حينٍ وآخر.. من بسماتٍ.. وعبراتٍ.. وبسمات ذات عبرات..

تَمَّت بحمد الله

خالد بيومي فهمي

القاهرة / ديسمبر ٢٠٢٠

مَصَائِرُ الشَّخْصِيَّاتِ

- بحلول عام ٢٠٠٥ كان قد أُفرج عن كلٍ من سعد ونوَّاف وسالم وعبد الشكور، يعمل نوَّاف بأحد محلات البقالة، ويعمل سعد بأحد مصانع المواد الغذائية. سالم وعبد الشكور عادَ كلٌّ منهما إلى موطنه، يمتلك عبد الشكور محلات حلاقة في باكستان، يديرها أولاده، بينما يعمل سالم في إحدى شركات المياة بعُمان.

- في أواخر ٢٠٠٢ كانت قبيلة الشُهبان قد أُعدمت بالكامل.. فهد كان آخر من تم إعدامه.

- في ٢٠٠٦ أُفرج عن عمَّار. لم يعرف أحد مكانه من بعدها ولم يُعْثَر له على أثر.

- لم يزل علي مسجونًا حتى لحظة كتابة هذه السطور. توفي ساجِد في السجن بأزمة قلبية، كان ذلك في ٢٠٠٦.

- في ٢٠٠٨ تم استيفاء كل الأدلة التي تُثبت تورط المجرم الحقيقي في تزوير جواز سفر زين الشهيبي فصدر ضده حُكمًا غيابيًا بالسجن لخمس سنوات فَضلًا عن عقوبته الأصلية (سبع سنوات)، وذلك تزامنًا مع صدور قرارٍ نهائيٍّ بالإفراج عن زين والذي كان قد أمضى بالفعل مدة العقوبة كاملة.

- في ٢٠١٣ قام النائب العام برفع اسم زين الدين أحمد الشُهيبي من جهاز الدولة كشخصٍ كانت عليه قضايا هرب ومخدرات.

- في ٢٠١٤ ربح زين قضية التعويض ضد وزارة الداخلية وحصل على ٨٠٠ ألف دولار أمريكي.

- لم يزل المجرم الحقيقي هاربًا حتى لحظة كتابة هذه السطور.

الكاتب م. خالد بيومي فهمي (إلى اليمين) وبطل الرواية أ. زين الدين أحمد الشهيبي (إلى اليسار) في لقاء بأحد فنادق القاهرة ٢٠١٥.

عن الكاتب:

- خالد بيومي فهمي بيومي، مواليد ١٩٨٢ بالقاهرة، تخرج في كلية الهندسة عام ٢٠٠٤، ويعمل بالبحث العلمي منذ عام ٢٠٠٩.

الأعمال المنشورة:

- كتاب: فانلة داخلية تتسع لعدة أشخاص، أدب ساخر، عن دار ليلى (كيان كورب) للنشر والتوزيع، ٢٠١١.
- كتاب: فيها لامؤاخذه حاجه حلوة، مقالات، عن دار ليليت للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
- عدد من القصص المصوَّرة بمجلة باسم السعودية، والعربي الصغير الكويتية.

الجوائز:

في القصة القصيرة والمقال: دار الهلال - ساقية الصاوي - دار ليلى - بُص وطل - مسابقة ديوان الثقافية - مسابقة إحسان عبد القدوس الأدبية.

- جائزة أفضل سيناريو عن فيلم Cart من مهرجان سينما الموبايل ٢٠١٢ للأفلام القصيرة.

- جائزة الجمهور عن فيلم بورترية من مهرجان سينما الموبايل ٢٠١٣ للأفلام القصيرة.

الحسابات الرسمية:

https://www.facebook.com/khaled.bauomy1/

https://www.facebook.com/The.Years.of.Fog/

https://www.goodreads.com/book/show/58322821

شكر خاص

محمد رفعت، أيمن القاضي، شيماء علي، إسلام حسن، عمَّار جمال العبد، مصطفى صادق، رشا عِزَّت، ماسة وائل، خالد جمال عبد الناصر، ريهام يعقوب.

أَعْوَامُ الضَّبَاب

ماذا قد تفعل عندما تجد نفسك فجأة مَطلوبًا في جرائم لا تعلم عنها شيئًا! عندما تُقرُّ كل الأدلة والإثباتات والتحريات أنك ذلك الهارب الذي طال البحث عنه! عندما يبتعد عنك الأهل والأصحاب بعد أن ظنوا بك الظنون.. بل عندما تصل إلى مرحلة الشك في نفسك، وأن ربما يكون بك "آخر" يخرج، دون وعي منك، ليفعل ما يفعل.

أعوام الضَّبَاب! واحدةٌ مِن أعجب القصص الواقعية وأغربها في السنوات الأخيرة، لشابٍّ انقلبت به الحياة بين يومٍ وليلة، رأسًا على عقب. شارعٌ ودَّ لو لم يمر به يومًا، وإشارةُ مرورٍ حملت له صدفة غير متوقعة، عندما أُخذ عنوةً مِن سيارته، ليُلقى دون تحقيقٍ في واحدٍ من أسوأ السجون وأقبحها. سنواتٍ لمْ يسمعه فيها أحد، أو يصدقه أحد، ليُجابه ما لم يكن يتصور يومًا أن يخطر بباله، وبمكانٍ لم يكن ليَزُره في أبشع كوابيسه..

خالد بيومي فهمي: مهندس وكاتب مصري من مواليد القاهرة 1982، تخرَّج في كلية الهندسة عام 2004، يعمل بمجال البحث العلمي منذ عام 2009، له عدة مقالات وكتب في الأدب الساخر، وعددٌ كبيرٌ من القصص المصورة بمجلة باسم الصادرة عن الشركة السعودية للأبحاث والنشر، فازت قصصه القصيرة بعدة جوائز: إحسان عبد القدوس، دار الهلال، ساقية الصاوي، مؤسسة ديوان الثقافية وغيرها، كما نالت أفلامه جوائز في فعاليَّات ومهرجانات للأفلام القصيرة.

تصميم الغلاف: عمار جمال العبد

مشروع النشر الحر